قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب لطلبة دار العلوم العليا

الأدب العربي وتاريخه

في

العصر الجاهلي

تأليف

محمد هاشم عطية

مدرس بدار العلوم

الطبعة الثالثة

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م / ٧٠٠

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب لطلبة دار العلوم العليا

الأدب العربي وتاريخه

في

العصر الجاهلي

تأليف

محمد هاشم عطية

مدرس بدار العلوم

الطبعة الثالثة

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م / ٧٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله

تمهيـــد

لعلّ أوّل ما يجمُلُ بنا قبل الأخذ فيما نحن بسبيله من دراسة الأدب فى هذا العصر الجاهلى أن نُلِمّ بشرح المعنى المقصود من كلمة الأدَب نبين فيه الوقتَ الذى عسى أن تكون نشأت فيه هذه اللفظة فى اللغة العربية والأحوالَ التى تدرَّجَت بعد ذلك عليها وعلى أى شىء كان يُطلقها السلفُ من العلماء حتى صارت إلى ما يَتعارَف عليه أهل العلم فى هذا العصر من إطلاقها على ذلك الجمال المعنوى الذى يستوْدِعُه الشاعر أو الكاتب مايؤثرُ عنهما من المنظوم أو المنثور ، ثم نعودُ بمثل هذا البيان إلى العصر الجاهلى ، ومعنى الجاهلية وما اتصل بذلك من آثار البحث فى القديم والحديث مما يصح أن يكون بعضه حقاً و بعضه إسرافاً باطلا لنجعلَ ذلك وسيلة مُوَصلة لادخال روح الطُّمأنينة على عقول المتعلمين فيما سنورده عليهم من مباحث هذا العلم ، ولنَفْسَحَ أمامهم السبيلَ لمناهج البحث الخالص من قيود التقليد الأدبى العقيم .

تاريخ كلمة الأدب

تقول والأدَب عندهم الظَّرف وحسنُ التناول و يقولون إنه مأخوذ من الأدْب بمعنى الدعاء لأنه أى الأدَب يدعو صاحبه إلى المحامد ولا يدل ذلك على شىء أكثر من أن كلمة الأدْب بمعنى الدعاء كانت أسبقَ إلى الوجود من الأدب

الذى هو الظرف ، وما هو داخل فى معناه من حلاوة الطبع ، ورقة الحاشية ، وسلامة الذوق .

وقد يصعب على الباحثين أن يجدوا السبيل إلى تحديد الوقت الذى نشأت فيه الكلمة بنصها أو مادتها فى اللسان العربى غير أنه يُظَنّ أن من أقدم الكلام الذى وردت فيه هذه الكلمة بنصها ومادتها حديثُ عُتْبَةَ بن ربيعةَ أبى هِنْد أمّ معاويةَ عن أبى سُفْيان بن حَرب حين خطبها بعد الفاكه بن المغيرة زوجها الأول ، وكانت شرَطت على أبيها ألّا يزوجها من أحد حتى يعرضَه عليها ، ويصفَه من غير أن يسميَه لها ، فجاء فيما حدّثها به عن أبى سفيان على ما رواه أبو عَلى القالى قولُه : « يُؤَدِّب أهلَه ولا يُؤدّبونه » ، وكان مما ردت به على أبيها قولُها : « وَسآخُذُهُ بأَدَبِ البَعل مع لُزوم قُبّتى وقلة تَلَفّتى » ، ومعلوم أن ذلك كان قُبَيل ظهور الاسلام بزمن يسير ثم جاء الاسلام وأُثِر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث : « أدَّبنى ربى فأحسنَ تأديبى » ، ثم تَتابع الناس يذكرون التأديب ويذكرون الأدب فى الحديث والخطب وفى المقامات المختلفة وعند الحاجة ، ولاسبيل إلى استقصاء ذلك ولاطائلَ فيه غير أنهم إلى ذلك الوقت لم يخرجوا فى استعمال هذه المادة من التأديب والأدب عن معنى تهذيب النفوس وتحلية الطبائع بفضائل الأخلاق ، وبقى ذلك أُخْرَيَاتِ العصر الأموى وأوائلَ الدولة العباسية حين أشْخَص الخلفاء والولاة الأئمةَ من الرواة والعلماء لتأديب أولادهم وسموهم بالمؤدّبين فأُضِيفَ إلى مفهومها من ذلك الوقت تعليمُ الأخبار وروايةُ الشعر والتبصيرُ بأصول السنن وتأويل القرآن ، ثم استُحْدِثتِ العلوم وتُرْجِمَت الكتب ونُقِلَتْ آثار الأمم السابقة إلى العربية فى عصر التدوين أيامَ العباسيين ، فأخذت كلمة الأدب تنحرف عن هذا المعنى ، واستعملت حينئذ فيما أنتجته قرائح المتكلمين بهذه اللغة من مأثور الشعر والنثر والحكمة والمثل ، ووضعت فى ذلك الوقت كتب استطاع الناس أن يُسموها كتب الأدب ثم أضيف إليها علوم لسانيــة أخرى كالنحو والتصريف

والعروض وأصول البلاغة على أنها داخلة فى موضوعها حيناً وخارجة عنه حينا آخر حتى كان القرن الماضى ، وأحدث المستشرقون علم تاريخ الأدب على هذا النحو من البحث وفى تلك الصورة من التبويب والنقد فاستقلت هذه الكلمة حينئذ بمعنى المأثور من الشعر والنثر وأصبح النحوى لا يستطيع أن يسمى نفسه أديباً ولاالعالم بأصول البلاغة وأوزان العروض وإن كان لابد للأديب فى ثقافته العامة من معرفة هذه العلوم وغيرها أيضاً ليكون آخذاً من كلّ فنّ بطرف كما يقولون .

كلمة الأديب

وأما كلمة الأديب فلم نعثر على نصّ صحيح قبل الإسلام وقبل أمثال مُزَاحِم العُقَيْلِي وسَالم بن وَابِصَةَ الأَسَدى وهما إسلاميان تكون قد وردت فيه هذه الكلمة . ذكر صاحب الحماسة فيما رواه لسالم بن وابصة هذا من قصيدته التى أول المختار منها .

أُحِبُّ الفَتَى يَنْفِى الْفَوَاحِشَ سَمْعُه ... كَأَنَّ به عن كُلِّ فَاحِشَةٍ وَقْراً

قوله :

إذا شِئْتَ أن تُدْعَى كريماً مُكَرَّمًا ... أَدِيباً ظَرِيفاً عَاقِلا مَاجِداً حُرًّا

إِذَا مَا أَتَتْ مِنْ صَاحِبٍ لك زَلَّةٌ ... فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالاً لِزَلَّتِهِ عُذْرًا

وروى صاحب اللسان فى مادة «أدب» لمُزَاحم العقيلى قوله من صفة الإبل :

وَهُنَّ يُصَرِّفْنَ النَّوَى بين عَالِجٍ ... وَنَجْرَانَ تَصْرِيفَ الأَدِيبِ المُذَلَّلِ

وهى وإن كانت فى الأول صفة للانسان وفى الثانى صفة للبعير فمعناها فى كليهما لا يخرج عن التهذيب والرياضة كما تقدم فى تفسير هذه المادة ثم فشت الكلمة بعد ذلك واقتصرت على هذا المعنى حيناً ثم انتقلت إلى معنى الأخذ من كلّ فنّ بطرف وهى فى هذه الأحوال قد لازمت كلمة الأدب فى أدوار استعمالها التى بيناها فيما سبق .

الجاهلية ـ العصر الجاهلى

يُطلق المؤرخون لفظ الجاهلية على أحوال العرب منذ كانوا إلى ظهور الاسلام ، وليس الغرض من الجاهلية النسبةَ إلى الجهالة المناقضة للعلم والمعرفة ، وإنما الغرض منها السفاهة التى كانت مؤدِّيةً إلى الهمجية وانتشار الضلالة وعبادة الأوثان ، والاسراف فى القتل واستباحة الزنا والخمر ، وانتهاء ذلك كله بتأريث العداوة وقيام الحروب وتفرق القبائل .

ويقتصر البحث الأدبى على فترة من ذلك الزمن بدأت قبل الاسلام بنحو قرنين تقريباً وانتهت بظهور الاسلام وهى ما اتفق العلماء على تسميتها بالعصر الجاهلى ، والمعقول أن فى تحديدهم نهاية هذا العصر بظهور الاسلام شيئاً من التساهل إذ الواقع أن العصر الجاهلى أو على الأقل هذه اللغة الجاهلية بقيت بعد مَبْعث النبى صلى الله عليه وسلم زمناً غير قصير مُتَمثلة فى أكثر مظاهرها السابقة حتى انتشرت تعاليم الاسلام بعضَ الانتشار فى أنحاء الجزيرة ، وتكامل نزولُ القرآن كله أو مُعْظَمِه ، واتجهت الآداب فى جملتها حينئذ اتجاهاً اجتماعيا آخر أظهرُ ما كان فيه تلك الصِّبغةُ الخلقية الناشئة عن روح ذلك التشريع الجديد ومسلك هذا الدين الحنيف فيما استحدثه أسلوب القرآن وأُخِذ به الناسُ من أحكام الاسلام .

تدخل عصور الأدب بعضها فى بعض

والحقُّ أن عصور الأدب يتدَخَّل بعضها فى بعض فتظل طوابع عصر بادية على أعراض اللغة فى أوائل العصر الذى يليه حتى لقد ترى الآداب زاهرة ، واللغة راقية فى عصر تنحدر فيه الأحوال السياسية والاجتماعية إلى التأخر ، وإنما كان الذى بقى فى اللغة من الحياة نتيجة لعصر سياسى قوى سبق ذلك الانحطاط إذ ليس الأدب عرضاً من عروض التجارة ، وليست اللغة كائناً من الجمادات يمكن أن يأتى عليهما الفناء جملة ، أو تؤثر فيهما الحوادث والانقلابات دَفْعة واحدة ، وإنما يكون تأثرها بهذه الحوادث والانقلابات مرتهناً بالزمن الذى

تتحلل فيه هذه الطباع الراسخة من قيودها ، وتنسلخ من صفات ومعالم كانت لها ، وتتحوّل اللغة فى خلال ذلك متدرجة إلى زىّ العصر الجديد من ضَعة وانحلال ، أو حياة وارتقاء ، وان ذلك بعينه هو سبيل الأحوال السياسية والاجتماعية لشعب من الشعوب ، فان الانقلابات السياسية والحكومات الطارئة مع افتراض ما يسبقها من التمهيد والاستعداد لوقوعها لن تستطيع طَفْرة أن تمحوَ التربية السياسية السابقة ، وأن تزيل بوثْبة واحدة هذه الشارات الاجتماعية إلا بعد العلاج الطويل ، والزمن الكفيل بذلك التحوّل والانتقال ، وقد يكون من الخطر المحتوم على الحكومة الجديدة ذاتها أن تحاول فجأة مُعاندةَ الطبيعة والخروج على السُنن الكونية بنقل الشعب أو الأمة من حال امتزجت بطبائعها ، واختلطت بقواعد الحياة فيها إلى حال جديدة يمكن أن تختلف فى كلّ شىء أو فى أكثر الأشياء من المقوّمات السياسية والاجتماعية عن سابقتها ، وإذن يمكن أن تقول ان ذلك العصر الجاهلى أو تلك اللغة الجاهلية بقيت فترة غير قصيرة كما كانت قبيل الإسلام تعيش بين مناظر البرية وآفاق الصحراء ، وتحكى آثار النزاع والافتخار بالعصبية ، والمباهاة بالأحساب والأنساب إلى أن طوى الإسلام ذلك البساط بما عليه من التناحر ، وسفك الدماء ، وجَعَل الناس ينامون فى حراسة السلام إخوانا فى دين الله ، وهنا ينبغى أن نوجز البحث فى شأن هذه اللغة التى أُعْتُبِر عصر المتكلمين بها من الجاهليين تمهيداً وتوطئة صحيحة لظهور عصر جديد كان حدوثه أعظم انقلاب تاريخى شهدته الجزيرة العربية ، وهو عصر الإسلام . ولا يستغرق بنا البحثُ أصلَ هذه اللغة وتنقلها على القدم فى العرب البائدة من عاد وثمود ، وفى العرب المُتَعرِّبة من أبناء يَعْرُب بن قحطان ، ولا فيمن جاء بعد هؤلاء من المستعربين من ولد إسماعيل ، فاننا سنعود إلى ذلك بتفصيل أوفى عند الكلام على أصل العرب ، ونشأة اللغة العربية ونوجز الكلام هنا فى هذه اللغة التى نزل بها الكتاب وهى لغة الأدب والشعر فى ذلك العصر الجاهلى ، أو هى لغة قريش ، ولغة سائر الشعوب العربية فى ذلك الوقت كافة .

سيادة قريش وغلبة لغتها على لهجات القبائل الأخرى

نقول كانت قريش فى مكة وهى حاضرة العرب وطبيعى أن يكون سكان الأمصار أدنى إلى منازع المدنية من غيرهم من أهل البدو ومن سكان الريف من القرى ، وأن يكونوا أيضاً ألطف أذهانا ، وأرقّ حاشية من هؤلاء وهؤلاء . وأنهم لهذا ولِمَا خصهم الله به من كثير من المواهب كانوا على استعداد قوى لأصلاح لسانهم وتهذيب لغتهم بأخذهم من لغات القبائل الوافدة عليهم فى مواسم الحج ، وفى هذه الأسواق الأدبية المُطيفة بمكة حتى عَذُب أسلوبهم ، ورقت حواشي لغتهم ، وكانوا أهلَ بيت تُعظِّمه العرب ، وتحج إليه ، وتقيم فيه بين أظهرهم الأيامَ الطوال ، وكانت لهم وحدهم ولاية هذا البيت والحكومة بين العرب مع ما كانوا فيه من بَسْطة الغنى وثروة التجارة ، وقد أدى ذلك إلى تَظَاهُر هذه الأسباب القوية لسيادة قريش التى بسطتها على العرب قبل الإسلام بعدّة قرون ، وكان طبيعيا أن تنقل هذه العذوبة القرشية إلى ألسنة القبائل المختلفة بحكم ما فى الإنسان من الميل إلى تقليد الأكمل ، ونزوعه إلى التقرّب من مظاهر الحضارة، وكانت تجارة قريش فى بلاد اليمن والشام وغيرها ، وإذعان أهل هذه البلاد لما انبسط من نفوذ قريش ، ولما قوى من سيادتها قد دعا أيضاً إلى تسرّب هذا الأسلوب المهذب إلى تلك القبائل اليمنية بعد اندثار ملكهم وبعد ما عظم من أمر قريش ، وظهر الإسلام والعرب كافة فى وحدة لسانية لا يشوبها إلا ما كان باقياً من الخلاف فى اللهجات ، وصور النطق بالكلام . والمقرّون والمنكرون يعترفون بوحدة اللغة فى كلّ أنحاء الجزيرة بعد ظهور الإسلام ، وقد يكون هذا الرأى من ناحية مبنيا على العجز عن إقامة الدليل على وجود خلاف جوهرى بين لغة أهل الجنوب من اليمنيين ، ولغة سكان الشمال من سائر العرب إذ لو كان هناك خلاف جوهرى كما يقال لما استطاع الإسلام عند ظهوره ، أو فى مدى سنوات قليلة أن ينسخ هذه الرّطانه الحميرية ، وينزع تلك الحلوق الغزنية ، ثم يضع مكانها ألسنة جديدة قرشية تتكلم بهذه العربية الفُصْحى ، وقد

أشرنا إلى فساد ذلك فيما سبق ، وإذا لا ينبغى أن يحمل قول أبى عَمْرو بن العَلاء[١] (ما لِسَانُ حِمْيَرَ بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا) إلا على واحدة من اثنتين الأولى أن يكون قصد إلى تلك الأشباح الجافية المتخلفة فى بقايا لغات اليمن القديمة ، وأنها من ذلك السبيل تختلف عن هذه العذوبة والرّقة فى أسلوب قريش ، وفى لغة قريش . والثانية أن يكون أراد ذلك الاختلاف فى اللهجات ، وأنه كان فى عربية اليمن أشدّ ظهوراً وأكثر وجوداً لبعد اليمنيين عن الإطافة بقريش ، ولقلة ما أخذوا من لغتهم ، وهذا الرأى فى الحالين لا يدفع عنه أبو عمرو ولا يقول بغيره أحد .

الاختلاف بين لغات القبائل الشمالية والجنوبية

وأما أن لغة القدماء من اليمن من حميرية وسبئية ومعينية كانت تختلف اختلافاً جوهريًّا عن لغة غيرهم من سكان الجزيرة فأمر لا شك فيه ، وقد نذهب نحن إلى أبعد من هذا ، وهو أنه من السهل أن يكون مثل هذا الاختلاف الجوهرى وجد أيضاً فى الزمن القديم بين لغات القبائل الشمالية المختلفة قبل هذا الاندماج والتقارب الذى درجت عليه القرون والأجيال ، ومن عنده الدليل على أن اللغة العربية كانت واحدة منذ خلق الله العرب إلى ذلك العهد الذى نحن بصدد البحث فيه ؟

وهل كانت اللغة العربية هى وحدها التى استطاعت أن تخرج على قوانين النشوء والارتقاء ، فتبقى فى مكانها جامدة تتقلب عليها الأجيال ، وتدرج الأمم ، وهى لسان عاد وثمود ، ولسان يعرب ، ولسان إسماعيل ، ثم لسان قريش من بعد ، وما قال بذلك أحد .

---

(١) أبو عمرو بن العلاء بن عمار أحد القرّاء السبعة ، وأحد من أخذت عنهم اللغة توفى سنة ١٥٤ هجرية ، واسمه كنيته على الصحيح .

الأدب الجاهلى

أقوال العلماء فيه

لم يغب عن تمييز العلماء من السلف ما أُدْخِل فى هذا الأدب مما ليس منه ولم يَفُتْهم التنبيه على ما كان من تلفيق الرواة ووضع الدسّاسين من أهل الأهواء ، و إنا نسوق نصوص هذه الأقوال بجملتها ليحقّ الله الحقّ و يبطل الباطل ، فنقول : ذَكَرَ أَبُو عَبد الله مُحمدُ بنُ سَلّام الجُمَحِيُّ المُتوَفَّى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين من الهجرة فى كتاب طبقات الشعراء ، قال عُمَرُ بن الخَطَّاب رضى الله عنه : (كان الشِّعْرُ عِلْمَ قومٍ لم يكن لهم علم أَصَحّ منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العربُ ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغَزْو فارس والرُّومِ ، وَلَهَتَ عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار راجَعُوا رواية الشعر ، فلم يَئِلُوا إلى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقلّ ذلك ، وذهب عنهم منه أكثره) . قال أبو سلام : (وقد كان عند النُّعْمَان بن المُنْذِر منه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح فيه هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بنى مَرْوان أو ما بقى منه) ، وقال أبو عَمْرِو بنُ العلاء : (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير) ، وقال ابن سلام فى موضع آخر : (فلما راجعت العرب رواية الشعر وذِكْرَ أيامها ومآثرها اسْتَقَلّ بعضُ العشائر شعرَ شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قد قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يَلْحَقُوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألْسُن شعرائهم ، ثم كانت الرُّواةُ بعدُ فزادوا فى الأشعار ، وليس يُشْكِل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وَضَعَ المُوَلَّدُونَ) ، وحكى أبو عبد الله أيضاً قال أخبرنى أبو عُبيدةَ [1] أن ابن دُوَاد بن مُتَمِّم بن نُوَيْرَة قدم البصرة فى بعض ما يقدم

---

(١) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى القرشى بالولاء من أئمة اللغة ، وكان راوية ثقة متعصبا على العرب ، توفى سنة ٢٠٩ هجرية .

له البدوى فى الجَلَب والمِيرَة ، فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وَقمنا له بحاجته ، وكفيناه ضَيعْتَه ، فلما نَفِد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيتذكر المواضع التى ذكرها متمم ، والوقائع التى شهدها ، ولما توالى ذلك علمنا أنه يَفتَعِل ، قال وكان أرلَ من جمع أشعارَ العرب ، وساق أحاديثها حَمَّادُ الرَّاوية ، وكان غيرَ موثوق به ، كان يَنْحَل شعر الرجل غيرَه ويزيد فى الأشعار .

وذكر صاحب الأغانى فى غير موضع من الجزء الخامس فى كتابه : قال المُفَضَّل[1] الضبِّى : (قد سُلِّط على الشعر من حماد[2] ما أفسده ، فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك أيخطئ فى روايته أم يلحن ؟ قال ليته كان ذلك ، فإن أهل العلم يردّون من أخطأ إلى الصواب ، لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله فى شعره ، ويحمل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء . ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟) ، وفى الجزء عينه فى موضع آخر : (أقرّ حماد بحضرة أمير المؤمنين المَهْدِى بما زاده من عنده فى شعر زُهَيْر بن أبى سُلْمَى) ، وأن خَلَفاً[3] الأحْمرَ وغيره اخترعوا من الشعر ما لم يكن موجوداً فى الجاهلية ، وكذبوا على الشعراء ، وقد تناول هذه المسألةَ غيرُ واحد من علماء المستشرقين الذين بحثوا فى الأدب العربى فى هذا العصر ، وكلّ ما يكتب فيها الآن منقول عن هؤلاء ، وهو عبارة عن نقد القدماء من العرب كابن سلام وأضرابه ، وقد نبه على هذه النظرية أيضاً الأستاذ ضَيْفٌ مدرس الأدب بالجامعة القديمة فى كتابه : (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) ، وذكر أيضاً هذه الأسماء التى يتحلى بذكرها الكتاب أمثال رينان وتين ونيكلسون

(١) هو أبو العباس المفضل بن محمد الضبي راوية ثقة ، وهو أحد أئمة العربية فى الكوفة توفى سنة ١٨٩ هجرية .

(٢) هو أبو القاسم حماد بن أبى ليلى الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هجرية .

(٣) هو أبو محرز بن حيان أعلم أهل زمانه بالشعر توفى سنة ١٨٠ هجرية

وغيرهم ممن لهم أبحاث وكتب فى هذا الأدب الجاهلى ، وكلهم يُوَقِّرُونه ويعرفون أثره العظيم فى نهضتهم الأدبية الحاضرة .

و بعد فيمكننا أن نستخلص من جملة هذه الأقوال السابقة أن بعض ماروى لشعراء الجاهلية مدسوس منحول منبه عليه ، ولكن هذا لا يدعو إلى مثل هذه المجازفة المفْرِطَة فى وضع هذا الأدب جملةً موضع التشكيك. ورمى أولئك السلف عامة بالتدسيس والغفلة ولم يجترئ على القول بذلك أحد حتى من الشُّعُوبيين المتعصبين على العرب المِلحِّين فى تنقيصهم وافتراء الأباطيل عليهم .

تأثر الملكات الأدبيــــة بطبائـــع الأقاليم

لأن من الاعتبارات الجديرة بالذكر فى هذا المقام النظر إلى تأثير البيئة والوطن الجغرافى ، ولهذين أثرهما فى تكوين الملكات الأدبية وظهورها فى صورة من سِمَات العصرْ التى تكون قد ولدت فيه . والعلماء يقولون : إن الإنسان رسم تعمله البيئة التى يعيش فيها على صورتها ، فلو أن أحداً من رواة عصر التدوين تعمد أن يخرج من جلده ، و يفرّ من طبعه وجبلته ليلتحق فى تصوّره وأسلوبه وأدبه بعصر أولئك الجاهليين على ما بينهما من بعد ، وما فيهما من اختلاف ، فيكون كامْرِئ القَيْس فى عشقه ونبله ، وطَرَفَةَ بن العَبْدِ فى اعترافه وأمانيه ، وزُهَير فى مدائحه وحكمه ، وعَنْتَرَةَ فى إبائه ونجدته لكان من المعقول أن يخونه خاطره ، ويفضحه طبعه ، ولكان طبيعيا ان سلم له من هذه المحاكاة شىء أن تمتلّ عليه أشياء ، ولكان فى استطاعة أهل التمييز والانتقاد أن يدركوا فى رفق ومن غير عناء كبير مقدار ما بين المصنوع والمطبوع بمقدار ما بين الكحَل فى العينين والكحْل على أن عاقلا من الناس تكون له مثل هذه المقدرة لا يرضى أن يغض من أدبه ، ويبخس من ذات نفسه ، فينسب كلّ هذا الانتاج البديع إلى غيره ويدعيه لمن هو دونه ، لا يجُرُ بذلك إلى نفسه غنيمة . ولا يفُيد فائدةً ، ولئن كانت غايته من ذلك الصِّيتَ والشهرة ، وأن يقال عنه انه أروى الناس للشعر وأحفظ أهل العصر للخبر ، لقد تكون نسبة هذه الأشعار والأخبار كلها إليه أجلبَ للشهرة ، وأطيرَ للذكر ، وَأَعْوَدَ بما يرجو من الفائدة ، على أن من الجهل فى تأليف الكذب أن ينحل الراوية شعراً لشاعر بلغة تخالف لغته على فرض

التسليم بأن هنالك اختلافاً بين لغة العرب الشمالية ، و بين اللغات اليمنية كان لايزال باقياً إلى هذه الجاهلية القريبة من ظهور الاسلام ، و إذا ما كان لعاقل أن يتهم الرّواة عامة ، و يفسّق جمهرة العلماء ، وفيهم أمثال : ابن سلاّم ، وأبى عمْرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، وأبى سعيد الأصْمعى ، ويونس بن حبيب ، والمفضّل الضّبى ، وأبى عُبيْدة ، وغير هؤلاء كثيرون من الثّقات المتألهين الذين هم نقلة اللغة ، ورواة الحديث ، وحفّاظ القرآن ، لأن حمّاداً ، أو خلفاً ، أو غيرهما كذبوا على زُهير ، أو غيره مرّة أو مرتين ، ثم ينتهى من هذا كله إلى القول بضياع العصر الجاهلى ، واشتمال رمال الصحراء على هذا الجيل من البشر بما كان له من أدب وما خلف من أشعار وخطب . ثم يزيد فى الإغْراب بالحكم على الذين يريدون هذه الحياة الجاهلية أن يلتمسوها فى القرآن ، وفى أقوال الشعراء الذين عاشوا فى حضارة الدولة الأموية كجرير والأخْطل والفرزْدق وأمثالهم . والتسليم بهذا الكلام يُعد بلادة فى الفطْنة ، واختبالا فى العقول ، إذْ يكون الوطن الجغرافى على هذا القول ، وهذا الدين الجديد ، وذلك الأسلوب البارع فى القرآن ، وهذه الفصاحة النادرة فى الحديث ، وانتقال العرب من همجية إلى نظام ، ومن صحراء إلى ريف مُخْصِب ، كلّ هذا قد ظهر أثره ، وبدا طابَعُه على كلّ شىء ما أفلت منه شاعر ولا خطيب إلا هؤلاء الشعراء الذين هم أُمَوِيون فى مولدهم جاهليون فى دياناتهم وأشعارهم ، وجملة آدابهم ، وما أحوج هذا الكلام إلى برهان وما أخلقه بأن يكون هو المدسوس المكذوب على التاريخ. قد تقولون إنكم أحياناً لاتجدون فرقاً كبيراً بين شعر الفرزدق، أوابن أبى ربيعة مثلا ، وأشعار امرئ القيس، أو طرفة ، وقد لا يكون من الصعب التسليم بهذا القول، لأن ذلك فى جملته لايدل على أكثر من توارد الخاطرين على المعنى ، أواتفاق الشاعرين فى صورة العبارة ، أوأنه هوماجرت به العادة من ولُوع المتأخرين بمعارضة مذاهب المتقدمين ، واحتذائهم على مثالهم واستهلاكهم لمعانيهم مما يدخل عند نُقّاد الأدب فى باب السرقات الشعرية ، ولايزال ذلك شائعاً معروفاً

ولوع المتأخرين بمعارضة مذاهب القدماء

فى كلِّ عصور الأدب حتى فى عصرنا هذا وأنتم ترون معارضة البارودى لأبى نُواس(١) فى مدْحَة الخصيب ، وشَوْقى(٢) لِلبُحْتُرِىِّ فى إيوَان كِسْرَى ، وأبى تَمّـام(٣) لِبَشَّار فى البائية المشهورة ، وَنُصَيْب(٤) للفرزدق عند سُلَيْمَانَ بن عبد المَلِك ، على أن فى القرآن الكريم من المعانى المفردة ما يصحّ أن يكون مثله لشعراء الجاهلية ، فقول السَّمَوْءَل :

وَنُنْـكِرُ إن شِئْنا على النَّاسِ قَوْلَهم ولا يُنْـكِرُونَ القولَ حِينَ نَقُولُ

ومعناه التناهى فى العزّة والدلالة على هيبة الجانب ، واستطالة الجاه شبيه بقوله تعالى : (لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) ، وقول الذبيانى :

فَإنَّكَ كَاللَّيْلِ الّذى هو مُدْرِكى وَإنْ خِلْتُ أن الْمُنْتَأَى عنك وَاسِـعُ

فى معنى التهديد بقوّة الاحاطة ، وشدة الاستيلاء والتمكن والتنبيه على تمام العجز عن الفرار والهرب شبيه أيضاً بقوله تعالى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا) .

---

(١) هى رائية أبى نواس المشهورة التى أوّلها :

اجارة بيتينا أبوك غيور وميسور مايرجى لديك عسير

ومعارضة البارودى هى قوله : (أبى الشوق إلا أن يحن ضمير) ، وفيها يقول :

ولو كنت أدركت النواسى لم يقل أجارة بيتينا أبوك غيور

(٢) فى سينيته التى أولها : اختلاف النهار والليل ينسى . يعارض قصيدة البحترى : (صنت نفسى عما يدنس نفسى)

(٣) التى يقول بشار فى مطلعها :

جفا وده فازورّ أو ملّ صاحبه وأزرى به ألا يزال يعاتبه

ويعارضها أبو تمام بقوله :

أهنّ عوادى يوسف وصواحبه فعزما فقد ما أدرك السؤل طالبه

(٤) حين أنشد الفرزدق :

وركب كان الريح تطلب عندهم لها ترة من جذبها بالعصائب

يفتخر فيها بآبائه ، فقام نصيب بعده ، فأنشد الخليفة على رويها مدحه الذى منه :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

اقوال علماء المشرقيات فى الأدب الجاهلى

ومع هذا فإننا نورد لكم نُبْذَةً من أقوال المحققين من علماء المشرقيات وهم الذين لو وجدوا مَطْعناً فى هذا الأدب ، ما وسعهم إلا أن يتسعوا له ، ولا يلاموا على المبالغة فيه ، بل انهم فى الغالب قوم يحبون البحث ، ويعظمون الحقيقة حيثما تكون ، وقلما تظفر لغير الغُلاَة المتعصبين منهم بخطأ يحسب عليهم فى التاريخ نَقَلَ صاحب[1] الشِّهاب وغيره فيما يتعلق بهذه الدعوى عن العلامة نيكلسون أستاذ تاريخ الأدب العربى فى جامعة كمبردج ، ومؤلف كتاب تاريخ أدب اللغة العربية فى مقدمة كتابه المطبوع سنة ١٩١٤ ما نصه : « بالنظر لخطورة الشعر العربى لكونه فى جوهره ولُبه المقصود منه مرآةً صادقة لحياة العرب فلا أحْسَبُنِي مسرفا فى سعة المكان الذى فسحته له فى هذا الكتاب » ، وقال : « إن مزايا العصر الجاهلى وخواصه مرسومة صورها بأمانة ، ووضوح فى الأغانى والأناشيد التى نظمها الشعراء الجاهليون » ، وقال أيضاً : « إن الأدب الجاهلى المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الأيام الجافية الجاهلية تصويراً أقربَ ما يكون إلى الدقة فى مظاهره الكبرى » ، وقال أحد علماء الألمان فى كتاب له يسمى عنترة أحد شعراء الجاهلية : « يمكن تعريف الشعر الجاهلى بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها » ، فقد صور العرب أنفسهم فى الشعر صوراً منطبقة على الحقيقة من غير تزويق ولا تشويه . وتكلم رينان الفيلسوف ، وهو مع ذلك طاعن فى العرب ، متعصب عليهم كغيره من المستشرقين فى كتابه : تاريخ اللغات السامية ومعارضاتها ، فقال : « إن الشعر الجاهلى لم يفقد قيمته التاريخية والأدبية من حيث هو تصوير صادق للحياة الجاهلية » ، وقد يشبه طرفة بن العبد فى معلقته خد الناقة بقرطاس الشآمى حيث يقول

---

(١) هو الكاتب البحاثة الأستاذ لطفى جمعه العالم المعاصر المعروف .

وخَدٌّ كقِرْطَاسِ الشَّآمِي ومِشْفَرٌ   كَسِبْت اليَمانى قَدُّه لم يُحَرَّد

مما يدلّ على أن الورق كان صِنْفاً غريباً نادراً ، وإنه كان يُجاب من سُورِية في عهد قريب من نظم هذه المعلقة ، فكيف بعد هذا كله يدور في خَلَد أحد أن أمة بأسرها يتتابع علماؤها في كلّ العصور على تناقل الأكاذيب ، والاحتفال بتدوين الخرافات ، ووضع الموازنات والكتب في نقد هذا الأدب المكذوب ان ذلك لا يجوز في العقل ، ولا في العادة ، وان من يجترئ على هذه الدعوى مفتون ، محبّ لتكاثف الخلاف على الناس .

الأدب

تعريفه — قد عرفنا فيما سبق أن الأدب هو ذلك الفنّ الرفيع الذى يصدر جماله عن طبع الكاتب والشاعر فى الكلمة يرسلها والقصيدة ينظمها ، فتقع على مواضع الحسّ من النفس ، فتثيرها حماسة ونجدة ، وتذيبها حنانا ورقة ، وتهزّها أريحية وكرما ، هو ما تتحلى به تلك الصحائف التى تتزين رسومها بألوان الأخلاق ، وانتزاعات العقول ، وأصدق مظاهر الحياة التى يترسمها الباحثون فى أحوال الشعوب ، فيجدون الهدي إلى تعليل الانقلابات ، وعرفان الأسباب التى صارت بالقبيل من الناس حيناً إلى الرفعة ، أونزلت بهم حيناً آخر إلى الانحلال والضعة.

فائدته — ومن أجلّ آثاره أنه صِقَال تحتك به العقولُ ، فيزول صدؤها ، وتتعلق به الألسنة فتعذب أَسَلَتُها ، وتتعرّض له الطباع ، فتلين جوانبها ، وترقّ حاشيتها ، وما أشبه الناظر من أهل الملكات فى كتاب أدب بمن يتردّد فى روضة يتقلب بين زَهَرِها ، ويقطف من ثمرها ، وإنه ليقرأ الحديث أو الخبر ، فلا يزال يتسرّبُ إلى خواطره من معانيه أشباحٌ ، وَمَعَالِمُ يَفْتَتِنُ خياله فى تصويرها ، ويبتهج بتأملها عدا ما يفيد من لفظة كريمة ، وعبارة مُشْرِقة ، وبيت نادر ، وحكمة مُسَلَّمة ، فيكون ذلك وسيلةَ القدوة الحسنة ، والتهذيب الناجح فى تربية

ملكته وأعدادها للانتاج القيم ، ولا يلبث لسانه بعد المعاودة ، وترداد النظر أن يستقيم له من وزن ما يقرأ وما يعلم وما يتأتاه من أسلوب قريب ، ومنطق صائب ، والدراسة تُعْدِي على العلم كما يقولون .

حاجة الدعاة والمصلحين إليه

وأخرى أنك تراه من بعض نواحيه كان أبداً وسيلة البلاغ ، وذريعة الرسل فيما يَهْبِطُ عليهم من وحي السماء ، إذ يعتمدون على قوّة البيان ، وفصاحة الألسنة فى تبْيان ما أنزل الله إلى الناس من حكمة، وما كَلَّفهم من دين ، وفى قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ » تحقيق لهذه الصفة العالية من اختصاص الرسول دون قومه بكمال اللسان ، والقدرة على الحجة ، والإصابة لمواقع الإقناع ، وهو الذى جعل موسى صلوات الله عليه يقول فيما حكى عنه القرآن : « وَأَخِي هٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ » ، وترى الناس لا يزالون نياماً فى غفلة الخمول حتى تَهِيبَ بهم ألسنة الخطباء ، وأقلام الكتاب تأخذ بأيديهم رُوَيْدًا إلى العمل الصالح ، فتنفتح أقفال العقول ، وتنشط المواهب المختلفة إلى مرافق الحياة ، فَتَسْفِر لهم وجوه الأيام عن غرائب الأفكار ، وعجائب الابتكار ، وما حمل الناس على أن يهدّوا أركان البغى ، ويَصْرَعوا طبائع الاستبداد أبْلَغُ من نَفَثات الألسنة ، وأَسَلاَت الأقلام .

تاريخه

وأما تاريخ الأدب فهو علم يعرض لهذا الفن ، فيتناوله بالتحليل والنقد ، واستيعاب البحث عن الأسرار الدقيقة ، والمؤثرات القوية التى عاشت فى خلالها العقول ، واستقت من ينبوعها تلك القرائح ، فرسمت من مناظرها ما شاءت من الصورة الفنّيّة من الأدب .

وإذا كان على الباحث فى أحوال الجماعات ، والمتعاطى لتاريخ حياتها العامة ألا يعتمد على مجرّد النقل للأخبار من غير أن يتحاكم فيها إلى أصول العادة ، وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران ، ومذاهب الاجتماع الإنسانى كما

يقول الإمام ابن خَلْدُون : فإن على مؤرّخ الأدب أن يُضيف إلى ذلك شيئاً من الدراسات الضرورية لأجناس العلوم ، وأصول الأديان ، وقواعد الفلسفة ، وشيئاً غير قليل من الشَّغَف الفني الذى يتصل بنفسه ، فيخلق فيها مزَاج الأدب ، ويكون لها ثقافة الأديب ، وقدلايغنيعن مؤرّخ الأدب استحسانهلنوع منه عند نفسه ، وعلى قياس ذوقه إذا كان ينحرف عن هذا الذوق ، ولا يدخل فى اعتبار هذه الثقافة . قال قائل لخلف الأحمر (وكان أفرسَ الناس ببَيْتِ شعر وأرواهم له) إذا استحسنت أنا الشعر ، فما أبالى ما تقول فيه أنت وأصحابك ! ! فقال أرأيت إذا استحسنت أنت درهما ، ثم قال لك الصَّيْرَف انه ردىء أكان ينفعك إستحسانك له ؟ ولذا قال محمد بن سَلاَّم : ان محمد بن إسحاق مَوْلى آل مَخْرَمَة بن عبد المُطَّلِب قد أفسد الشعر وحمل منه كلّ غُثَاء ، وكان رجلا عالما بالسير ، ولم يكن له علم بالشعر ، فروى أشعاراً لقوم لم يقولوا شعراً قط ، وروى للنساء فضلا عن الرجال ، حتى تجاوز ذلك إلى عاد وثمود . أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول من روى هذا الشعر ؟ ومن أدّاه على آلاف السنين ؟ والله يقول : (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى) ويقول : (وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ) ومن هنا لم يكن تاريخ الأدب مقصوراً على أن تصف ذلك الأدب بأنه كان غضًّا أو جافياً ، ولا بأنه كان ضعيفاً أو قويا ، ولا على أن تصف ذلك الشاعر بأنه نظم هذه القصيدة البارعة ، أو له هذه السرقة الظاهرة ، ولا أن تقول متى ولد ومتى مات ؛ ولكن تاريخ الأدب يتناول مع ذلك هذه النفس الشاعرة ، فيضرب حولها نطاقاً من أحوال البيئة ، ونظام السياسة ؛ ومشاهد الطبيعة التى أثرت أوّلا فيها ، ثم ردتها بعد إليها مصوغة فى هذا السلك من نظام الكلام .

ولعمرى إن مؤرّخ الأدب لو عمد إلى دراسة الكاتب أو الشاعر فى نفسه وحاول أن يأخذه من كلامه ما وُفق إلى نقل الصورة الموافقة للحقيقة من ذلك فى بعض الأحيان ، فقد يمدح الشاعر ، وينشىء الكاتب عند حاكم مسلّط ، أو خليفة قاهر ، فتحتجب نفسه ، وتختفى دخيلته ، لأسباب سياسية ، أو لشهوات

خاصة ، وأنت تدور تبحث عن الشاعر فى هذه القصيدة أو الكاتب فى تلك الرسالة ، فلا تجد لهما إلا ظلا ضئيلا لا يكاد يحمل من هذه الحقيقة شيئاً ، بل لا يكاد يتصل بها فى شىء ، ولكنك إذا قرأت هذه المؤثرات القائمة ، ودرست تلك الدواعى الحادثة علمت أن هذه النفوس تنكرت فى صورها وتحدثت بغير خواطرها .

فائدته

ومن أفضل فوائده الوقوف على مبلغ ما تصل إليه الشعوب فى حياتها العقلية ، ونهضاتها المختلفة ، بتقرير آثار العلماء ، والتعرض لأوضاع العلوم ، والتعريف بنفائس الكتب ، وإبراز الصورة الصادقة للحياة الأدبية فى الأمة من الأمم ، وما فيها من فضيلة صالحة أو رذيلة مستهجنة .

علاقته بالتاريخ العام

وبذلك يقترب التاريخ الأدبى من التاريخ العام ، ويمت إليه بالوثيق من الصلات . ألا ترى أن الباحثين فى حياة الأمم ، وما تعاقب عليها من فتوح وما قام لها من دول ، وما تقلبت فيه من قوة أو ضعف ، قد لا يهتدون إلى تعليل هذه التقلبات حتى يضعها ذلك العلم بين أيديهم ، ويبوح بأسرارها لهم إذ كان مدار النظر فى ذلك كله إلى ناحية ظاهرة من مباحثه ، وهى الأخلاق ، التى إذا حسنت نهضت بالأمة إلى مطالع العظمة والارتقاء ، وإذا ساءت أنذرت بالاضمحلال والفناء ،والحاجة من جهة التاريخ الأدبى أيضاً ماسة إلى التاريخ العام ، فهو الذى يعين على استنباط الصورة الأدبية الصادقة بما يقصُّه من أعمار الشعوب ، وحياة الأمم ، وبما يقدره من حضاراتها المختلفة ، ونُظُمها السياسية والاجتماعية ، وسائر شؤونها العامة ، فكلاهما على الحقيقة متأثر بصاحبه مؤثر فيه .

نشأة هذا العلم

قد يتسرب إلى الأذهان أن هذا العلم حديث النشأة وأنه من اختراع هذا العصر ، وليس ذلك كذلك ، ولكنه فى نوعه قديم تنبه إليه العلماء من السلف حين هموا بالنظر فى علوم الأمم الأخرى ، ونقلِ آثار اللغات المختلفة إلى هذه اللغة العربية ، فنظروا أيضاً فيما ورثوه عن أسلافهم من ذلك الأدب ، فتناولوه بالتدوين ، وعالجوه بالتحليل والنقد ، ووقفوا عنده ينظرون طويلا فى محاسنه وعيوبه ،

ويؤرّخون رجاله، ويرتبون طبقاته، ودرجت على هذا القدر من النظر أمهات الكتب الأدبية التي لم تخل من نقد حسن، وتمييز صادق لجيد الكلام ورديئه، والتي كانت ولم تزل هي المورد الغزير الذي يرده الباحثون في هذا العلم، ومن هذه كتب الطبقات التي يعدّ من أعظمها شأناً طبقات الشعراء لأبي عبد الله محمد بن سلام، وكتاب الشعر والشعراء لابن قُتَيْبة. ومنها الكتب الجامعة بين القصص والأدب كالأغاني لأبي الفَرَج الأصْبَهاني، والكامل لأبي العَبَّاس محمد بن يَزِيدَ المُبَرِّد، وأمالي القالي، والبيان والتبيين للجَاحِظ. وقد جاءت بعد ذلك كتب تعرّضت تعرضاً للموازنة والنقد ككتاب الآمدي في الموازنة بين أبي تمام والبحتري، والوساطة بين المتنبي وخصومه، ثم كتاب العمدة لابن رَشِيق في نقد الشعر على مثال من البحث قد كان لا يزال يحتذى إلى عصرنا هذا غير أنه يلاحظ أن مباحث هذا العلم كانت في أكثر هذه الكتب منثورة مُجَرّدة في كثير من الأحيان من الدراسة الفنية التي استحدثها علماء المستشرقين في الأدب في أواخر القرن الماضي وفي هذا العصر، ولم يقتصر البحث عندهم على آداب لغاتهم أنفسهم، بل لكثير من علمائهم فضل على تاريخ الأدب العربي، وله عندهم منزلة يعرفها من لا ينكر الفضل على ذويه، فهم الذين أحدثوا هذه التسمية الجديدة، وأنهجوا سبيل هذا البحث الحديث حتى استقل تاريخ الأدب عن سائر العلوم، وظهر للناس في ذلك النسق من التبويب والتفصيل، وسار المعاصرون من علماء اللغة في مصر وغيرها في آثار أولئك المستشرقين، ووضعوا في ذلك العلم كتباً بعضها مطوّل وبعضها مختصر، ولا يزال العلم في جماته على أبواب صباه.

عصور تاريخ الادب

قد علمت ما قلناه من تداخل عصور الأدب بعضها في بعض، وأن هذا التقسيم تقريبي مبني على مسايرة اللغة للانقلابات السياسية في مبادئها ونهايتها وإن كانت المسايرة بطيئة متدرجة كما أوضحناه.

والمراد بعصور تاريخ الأدب هذه المسافات الزمنية التي تجمع إلى الآداب

ماله بها ارتباط قوىّ من النُّظُم الاجتماعية ، والحالات السياسية والدينية التى لها شأنها فى تصوير الأدب بصورة العصر الذى ينشأ فيه ، ويتبع ذلك الكلام على العلوم كلها معاً فى كلّ عصر على حدة ، وهذا هو الذى اتبعه من تصدّروا للتأليف فى هذا العلم ، فهم قد قسموه إلى قسمين كبيرين يفصل بينهما أهمّ انقلاب تاريخى أصاب العرب فى حياتهم كلها ، وهو ظهور الإسلام ، فهذا الاعتبار يقسم التاريخ الأدبى إلى قسمين : أحدهما قبل الإسلام ، والآخر بعده ، ولكلّ منهما أقسام تابعة له ، فما قبل الإسلام ينقسم إلى عصرين : عصر الجاهلية الأولى ، وعصر الجاهلية الثانية ، وما بعده ينقسم إلى عصر صدر الإسلام ، ويشمل العهد الأموى من ولاية معاوية سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣١ هـ ، ثمّ العصر العباسى من سنة ١٣٢ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ثم عصر الدول المتتابعة حتى زمن محمد على باشا سنة ١٢٢٠ هـ ، ثم عصر النهضة الحديثة من زمن محمد على إلى وقتنا هذا .

جزيرة العرب

هى اسم لشبه الجزيرة الواقع بالطرف الغربى من آسيا يحيط به الخليج الفارسى وبحر العرب والبحر الأحمر ، وكان موطن العرب قبل الاسلام ، وقد قسموها إلى خمسة أقسام :

١ — اليمن : وهى بالجنوب وتنقسم إلى حَضْرَمَوْت ، وَمَهْرَة ، وَنَجْرَان ، وعُمَان ، وَالشِّحر ، وَقد يُسمى شِحْرَ عُمان .

٢ — الحجاز : ومن مدنه مَكّة ، وفى جنوبها جبل ثَوْر ، وفيه الغار الذى بات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مهاجر إلى المدينة ، ومنها يَثْرِبُ أو المدينة ، وتسمى أيضاً مدينة الرسول ، وإلى شرقها جبلا أجَأ وسَلْمَى المعروفان بِجَبَلَىْ طَيِّئٍ .

٣ — تِهامة : وهى بين الحجاز واليمن

٤ — نجد : وهى بين الشّام والعِراق والْيَمامَةِ والحجاز ، وهى أطيب أرض فى بلاد العرب ، وكانت فيها معادن الفصاحة العربية ، وفيها أيضا أرض الْعَالِيَة التى كان يحميها كُلَيْبُ بن رَبِيعَةَ ، وفيها قُتِل ، ونَشِبَت بسبب ذلك حرب الْبَسُوس التى يضرب بشؤمها المثل .

٥ — اليمامة : وتسمى العَرُوض لاعتراضها بين نجد واليمن .

أصل العرب(١)

العرب هم إحدى السلائل السامية التى تنتسب إلى سام بن نوح ، ويكاد المؤرّخون يُجمعون على أن المهد الأوّل لهـذه الشعوب السامية هو وادى الفُرات ، أو ما بين النهرين ، وأنهم لما كثروا وضاقت بهم رقعته تشعبوا إلى البقاع المجاورة له ، وظهر منه البَابِلِيُّون ، والآشُورِيُّون فى العراق ، والآرَامِيُّون فى الشام ، والْعِبْرَانِيُّون فى فِلَسْطِينَ ، والفِينِيقِيُّون فى سواحل سُورِيَة على حِذَاء لُبنَانَ ، والعرب فى الجزيرة المنسوبة إليهم ، والإِثْيُوبِيُّون فى الحبشة ، ويستند هؤلاء فيما يذكرون إلى نصوص التوراة . ويزعم هِيرُدُوت المؤرّخ الإغريقى أن الفينيقيين نزحوا فى الألف الثالث قبل الميلاد إلى فِينِيقِية من سواحل خليج العجم ، وبذلك يظن فريق من المستشرقين أن أصل الساميين من الحبشة ، وأنهم عبروا البحر إلى جزيرة العرب من باب الْمَنْدَب ، فنزلوا باليمن ونجد والبَحْرَين ، ثم نزحت طوائفهم إلى العراق والشام وسورِيَة ، وأسسوا دول

(١) سمى العرب بهذا الاسم نسبة إلى بلدهم العربات وعربة باحة دار أبى الفصاحة إسماعيل عليه السلام ، وفيها يقول القائل :

ورجت باحة العربات رجا ترقرق فى مناكبها الدماء

وبين كلمتى عرب وعبر التى هى أصل العبرية اتفاق فى الاشتقاق وكلاهما يدل على الرحلة

بَابِلَ وآشُور وفِينِيقِية وغيرها ، ولـكن هذا الرأى خلاف ما عليه جمهور المحققين من المؤرّخين .

أقسام العرب

اصطلح المؤرّخون على تقسيم العرب إلى طبقات ثلاث : بائدة ، وعاربة ، ومُستعربة .

العرب البائدة

أما الطبقة الأولى أو العرب البائدة : فقد انطوت أخبارهم فى حجاب الغيب إلا قليلا مما ورد فى القرآن عن بعض قبائلهم التى من أشهرها عَادٌ ، وكانت منازلهم بالأحْقاف . وثَمُودُ ، وكانت بالحِجْر ووادى القُرى بين الحجاز والشام ؛ وطَسْم وجَدِيس ، وكانتا تسكنان اليَمامة ، قريباً من عهد ملوك الطوَّائِف من الفرس ، والعَمالِقة ، وقد نزلوا أوّلا بلادَ اليمن ، ثم انحدروا إلى الشام والعراق ويثرب ، ومنهم الشَّاسُو أو الهِـكْسُوس وهم فراعنة الرعاة بمصر ، ويزعم بعض المؤرخين أن الْحَمُورَابيِّين من العرب البائدة ، لِمَا رأوا فى لغتهم من بعض المشابهة للغة العربية ، ولو صحّ ذلك لدَخَلت سائر الشعوب السامية من أنْباط وحَبَش وغيرهم لهذا السبب فى العرب أيضاً وهو غير معقول .

الحورابيون

الحمورابيون أو البابليون القدماء ينسبون إلى حَمُورَابى أحدِ ملوكهم ، وقد عُثر فى أوائل هذا القرن فى أشُّوس على مِسَلة من الحجر الأسود عليها نقوش لشريعة هذا الملك العظيم فى نحو ٢٨٢ مادة فيها حماية الحقوق وأحكام الزواج والطلاق والإرث . وقد عثر أيضاً فى بلدة زِيَبارا على أطلال مدرسة بابلية فيها ألواح من القَرَامِيد عليها دروس للأطفال فى الهِجاء والحساب مما يدلّ على أن التاريخ شهد أقدم مدنية للساميين فى هذه الأصقاع .

العرب العاربة

الطبقة الثانية أو العرب العاربة : وهؤلاء بنو قحطان نزحوا من أراضى الفرات ، واتخذوا اليمن منازل لهم ، والمشهور منهم دولتان هما سبأ وحِمْيَر ، فأما

سبأ فقد ظهرت دولتهم قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون ، وقد بلغوا من الحضارة على قدر أيامهم مبلغاً عظيما ، فغرسوا البساتين ، وأقاموا السدود ، وحفروا الترع ، وشادوا الهياكل والقصور ، ومكثوا ما شاء الله حتى دبّ إليهم داء الأمم من الترف والتفاسد ، فأهلكهم الله بسيل العرم ، ومزّقهم فى الأرض كل ممزّق ، وخلفهم الحميريون وهم فرع منهم فى أوائل القرن الثانى قبل الميلاد ، وتاريخهم غامض مملوء بالتفكيك والاضطراب ، وليس للمؤرّخين اتفاق على شىء من أمرهم ، ولا عدد ملوكهم أو تبابعتهم ، ولا مدة حكمهم إلا رجماً بالظنّ ، لا يتصل إلى أدنى مراتب اليقين العلمى ، وقد زالت دولتهم فى أوائل القرن السادس الميلادى ، وكان قبل سبأ وحمير دولة أخرى عرفت بالمُعَينية نسبة إلى مدينة مُعَين التى كشفت أطلالها حديثاً فى الجوف الجنوبى من بلاد اليمن ، ويقال ان أصلهم من بقايا البابليين نزحوا إلى اليمن بعد زوال ملكهم ، وتفرّق دولتهم ، وكانت لهم أمارات تسمى المَحَافِد ، و إذا اجتمع لأمير منهم جملة محافد أطلق عليها اسم المِخْلاَف ، وقد بقيت بعض مبانيهم إلى ظهور الإسلام ، ومنها صِرْوَاحٌ وغُمْدانُ وَبَرَاقِشُ وغيرها.

وأشهر بطون حمير : حمير وكَهْلاَن . ومن حمير قُضاعة ، وقد تفرقت بطونها فى جزيرة العرب فى نجد والبحرين ومشارف الشام والعراق ، واشتملت على أكثر أخبارهم رمال الصحراء ، غير أنه ظهر من تَنُوخَ - وهى من بطون قضاعة - دولة عظيمة كانت فى العراق لِجذِيمَةَ الأَبْرَش صاحب الزّبّاء(١) فى القرن الثالث لميلادى ، وقد ملك الحِيرَةَ والأَنْبَار ، وأكثر البقاع المجاورة لبادية العراق ،

(١) وتعرف فى كتب الافرنج باسم زينوبيا ، وكانت فى القرن الثالث الميلادى ملكة على تدمر الواقعة الى الشمال والشرق من مدينة دمشق . وكان ملوك روما مع خضوعها لهم يهابونها ويهدون اليها وقد أرادت أن تتخلص من ولايتهم ، فواقع القيصر جموعها فى معركة حامية بالقرب من مدينة حمص ، فهزمهم هزيمة منكرة ، واتبع فلولهم إلى تدمر ففتحها وهربت زينوبيا من وجهه ، ولم تقم لتدمر بعد ذلك قائمة ، واندمج أهلها فى العرب الذين أخذت طلائعهم تظهر على شواطىء الفرات وسورية ، وللعرب فى قتلها روايات أشبه بالأساطير .

وهو أصل دولة المَنَاذِرة اللَّخْمِيِّين بالحيرة ، ولقُضَاعة بقايا بالحجاز ، وببلاد الصعيد من الديار المصرية .

وأما كهلان : فمن بطونه الأَزْد بنو غَسَّان ملوك العرب بالشام ، ومنها طَيِّئ ، وقد نزحوا من اليمن على أثر خروج الأزد عند تفرّقهم بسيل العرم ، ومن كهلان أيضاً : الأَوْسُ والْخَزْرَج ، وقد نزلوا المدينـة ، ومنها زُبَيْد رهط عَمْرو بن مَعدِيكَرِب ، ومنها كِنْدة والنَّخَع وبَجِيلَة ، وقد رحلت كندة إلى نجد ، ومنها ملوك كندة كان آخرهم امرؤ القيس الشاعر .

العرب المستعربة

الطبقة الثالثة أو العرب المستعربة : وكانت منازلهم شمالى بلاد اليمن فى تهامة ونجد والحجاز إلى مشارف الشام والعراق ، وهم يسمون أيضاً بالاسماعيلية نسبة إلى جدهم إِسْمَاعيل ، بن إبراهيم عليهما السلام ، ويسمون أيضاً العَدْنَانيين نسبة إلى عَدْنَان أحد أحفاد إسماعيل وكانوا بَدْوا ، أهل رحلة يقيمون حيث يكون المـاء والكلأ ، ولم يكونوا كاليمنيين أهل قصور وحَضَر ، وهؤلاء العدنانيون هم من ولد مَعَدِّ بن عدنان ، وقد أعْقَب نِزَارًا ، وولد نِزَارٌ أَنْمَـارًا وَإِيَادًا وَرَبِيعَةَ وَمُضَر . فأما ربيعة فأشهر بطونها بَكْرٌ وتَغْلِبُ . وأما مُضَر فخلف إلياسَ ، وولد إلياسُ ثلاثة وهم : قَيْسُ عَيْلاَن ، وطَابِخَةُ ، وَمُدْرِكَةُ، فمن قيس عيلان : هَوازِنُ ، وسُلَيم ، وغَطَفَانُ . ومِنْ غطفان : عَبْسٌ ، وذُبْيَان . ومن طابخة : ضَبَّةُ ، وتَمِيم . ومن مُدْرِكة : هُذَيْل ، وخُزَيْمة . ومن خُزَيْمة : أَسَدٌ ، وَكِنَانة . ومن كِنَانَة : فِهْرٌ وهو قُرَيْشٌ .

نشأة اللغـــة[1]

قد يكون القول فى أصل اللغات ونشأتها ، وتفرّع طوائفها فى الزمن القديم ، ومحاولة الاهتداء إلى وجه الرأى فى لغة الإنسان الأوّل مما يتكفل ببحثه فقه اللغة غير أننا نرى من تمام الفائدة أن نشير فى إيجاز إلى خلاصة ما قيل فى ذلك من آراء الباحثين من علماء اللغات لنجعله بمثابة الأساس لبناء بحثنا فى أصل العربية ونشأتها ، فنقول :

القائلون بالتوقيف

اختلف العلماء فى نشأة اللغات على رأيين ، فمنهم من يرى أنها وحى وتوقيف من الله سبحانه وتعالى عَلَّمَهَا الإنسانَ الأوّل ، وكأن أصحاب هذا الرأى يتوهمون أن الإنسان حين خلق كان الوجود فى حالة عَماء وسكون مُطْبِق ، فلم يكن يسمع صوتاً ، ولا يحسّ من أحد ، فكان من الضرورى أن يُلْهَم لغته الأولى التى هى بمثابة الأداة الجوهرية فى الاحتفاظ ببقاء ذاته ، وإن كان هؤلاء لا يكتفون بهذا القدر الضرورى من الالهام ، ويزعمون أن الله علمه لغات البشر ما خلق منها وما لم يخلق ، وهى الآن تعدّ بالآلاف ، ومن أصحاب هذا المذهب (أفلاطون) ، وتابعه ابن فَارِس والأَشْعَرى وغيرهم من العرب ، ويستدلون بقوله تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) ، أى ألهمه على تأويلِ لُغَاتِ العالم . ونحن نرى أنه لا فائدة فى هذا الالهام ، ولاداعى إلى تعليم الإنسان الأول لغات أهل الدنيا لعدم الحاجة إليه ، ولتعذر الاستفادة منه فى ذلك التاريخ المفقود ، ويزيد فى ضعف هـذا الدليل أيضاً تأويل الآية على وجه آخر ، وهو أن المراد بالأسماء فى الآية أسماء الملائكة لا أسماء ولغات أهل الدنيا .

---

(١) اللغة : اللسن ، وحدّها أنها أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم ، وأصلها لغوة بزنة فعلة من لغوت بمعنى تكلمت ، وتجمع على لغات ولغين ، وينسب إليها لغوى بضمّ اللام ، وفتحها خطأ .

رأى أهل الوضع والاصطلاح

ويرى غير هؤلاء أن اللغة ، وان كانت حدثت مع الإنسان فى أوّل نشأته إلا أنها مع ذلك تعتبر من أنواع الوجود الطارئة عليه ، فهى خاضعة لما تخضع له الحوادث من التغير والتدرّج فى طبقات النموّ ، والتحول فى أدوار التماثل إلى الكمال ، وأنها بناء على ذلك وقفت بالتدريج عند درجات الحدوث من الطفولة إلى ما يليها من صفات الكائنات الحية ، وكانت نتيجة لمواضعات مختلفة مبنية على دراسة تقليدية طويلة ، وأهل هذا الرأى لا يَأْبَوْنَ التسليم بأثر الإلهام فى تكوين اللغة على هذا النحو الفطرى ، ولا يفهمون من الإلهام أكثر من أنه هو الاقدار على الارتجال والتحويل ، أو التنويع فى التقليد والمحاكاة بقدر ما فى الإنسان من قوّة التمييز العاقلة التى ترفعه على الأقل عن طبقة الحيوان الأعجم .

التفاهم بالاشارات الحسية

فالإنسان الأوّل عندهم طفل تاريخى بدأ على غالب الظن لغته الأولى بالأصوات الفطرية الدالة على الانفعالات الوجدانية من الرضا والغضب والطمأنينة والفزع واللذة والألم ، بدأ بهذه وحدها ، أو كانت مصحوبة بالاشارة الحسية التى توسع فى التفاهم بها إلى أن صار يدلّ على الشىء بالاشارة إلى أو صافه ، أو إلى الأظهر منها كما يفعل الأخرس الآن فى تعبيره عن الرجل بامرار يده على شاربيه ، وعن المرأة بتكوير يده ووضعها على صدره ثم بعد ذلك أخذ يحاكى الأصوات المختلفة التى تتقلب كلّ حين على سمعه ، وبين يديه من حفيف الريح ، وهزيم الرعد ، وخرير الماء ، ومن أصوات كثير من الحيوان يعبر بما يسمعه من الصوت عن محدثه كما يسمى الأطفال عندنا كثيراً من الحيوان بما يسمعونه من أصواتها يقولون للدجاج : (كاكا) ، وللهرة (نونو) ، وللشاة : (ماما) ، وهكذا ثم تكون له من تلك الأصوات مقاطع صوتية متنوّعة استطاع بفضل فطرته أن ينحت منها اللغة الضرورية المسايرة لحاجات الحياة الأولية ، ولما استقام له ذلك حكى على مثاله ، وتابع ما يتجدّد له من الحاجات بالوضع تارة ، وبتقليب الدوال

محاكاة الاصوات

القديمة تارة أخرى حتى استطاع أن يستغنى بما حدث له من الألفاظ تدريجياً عن المحاكاة والإشارة ، وإن كانت الوراثات المتعاقبة أبقت فى لغات الانسان المتمدين بعض ما يدل على استعانته بالإشارة فى تكوين لغته الأولى كما يشاهد فى أجناس المتكلمين اليوم من تزوية الوجه ، وتقطيب الجبين ، والإشارة باليد ، والإيماء بالحاجب واللحظ واللسان ، مما هو معروف .

وقد كان هذا الدور الاستقلالى للألفاظ على دهور متطاولة ، كان اللفظ الواحد يقع فيها على المعانى الكثيرة من غير تمييز بين الواحد والكثير والذكر والأنثى والاسم والفعل كما كان ذلك شأن الإنسان فى بقية فروع الحياة الأخرى إذ كانت القطعة من الجلد تقوم لها مقام اللباس والفرش والآنية والجنة وغير ذلك إلى أن استحدث لكل نوع من هذه كفاية خاصة ، وسمى لها أداة جديدة ومر ذلك التسلسل اللغوى أيضاً بأجيال وقرون انحنت عليها أجنحة العصور ، حدث له فى خلالها التمييز بين الأسماء والأفعال ، ودخلت فى لغته الحروف والأدوات ، وتولدت بعدها مميزات الجنس والعدد ، وبعض صيغ الاشتقاق ، وانتهى نوع ذلك الكمال اللغوى فى بعض هـــذه اللغات بظهور الإعراب كما فى اليونانية واللاتينية القديمتين ، وظهرت أصول اللغات فى أسرة الأمم الكبرى من أبناء نوح بعد الطوفان حين بدأ الزمان يقلب أول صفحة من تاريخ البشرية المعروف . وإلى هذا القول بالمواضعة يذهب أكثر المحققين من اللغويين وعلماء الأصول ، وإليه ذهب من علماء العرب أبو على الفارسى من علماء القرن الرابع الهجرى ، وتلميذه أبو الفتح عثمان بن جنى فى خصائصه . وقد توقف فى آخر الفصل الذى عقده فى كتابه لبيان أصل اللغة أإلهام هى أم مواضعة ؟ وهذا آخر كلامه بعد أن شرح المذهبين ، (وان خطر خاطر فيما يعلق الكف بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنا به وبالله التوفيق) ، ولكنه جزم بهذا الرأى بعد ذلك .

رأى اللغويين في تقسيم اللغات القديمة

ولقد اصطلح اللغويون من علماء العصر على تقسيم ما عرف من لغات هـذه الأمم القديمة إلى مرتقية وغـير مرتقية . وجعلوا من غـير المرتقية اللغة الصينية والمصرية القديمتين ، ويرجح بعض المؤرخين من طريق الظن العلمي أن الصينيين والمصريين القدماء من أقدم الأمم التي نزحت من شواطئ الفرات قبل الطوفان، وأن لغتيهما في سذاجتها وقلتها ترجح اتصال نسبهما بقَايِينَ أو قَابِيلَ أحد أبناء آدم خصوصاً أن التوراة قد وصفت نسل قايين قابيل) هذا بالمهارة في الصناعة والصينيون من أقدم من عرف من أمم الأرض بالحذق في الصناعة .

ومن غير المرتقية أيضاً اللغات الحامية التي منها لغات زنوج افريقية وهنود أمريكا الذين هم على الراجح عبيد إفريقيون استخدمهم الأسبان في هذه الأقاليم بعد الفتح .

وأما الراقيـة فقد جعلوها أيضاً قسمين : متصرفة ، وغير متصرفة . وغـير المتصرفة : هي اللغات الطورانية أو المغولية ، وهذه تشمل الفروع التي يتفاهم بها سكان البلاد التي بين شرقي النمسا ، وآسـيا الصغرى ، فبلاد التتر ، ومنها التركية ، ومعنى عدم تصرفها : أن الاشتقاق فيها يكون بإلحاق أدوات لا معنى لهـا في نفسها لأصول ثابتة لا تتغير كـكلمة (ياز) ، ومعناها في التركية الأصل الدال على الـكتابة يؤخـذ منها الماضي بالحاق (دى) فيقولون (يازدى) ومعناه كتب ، وكذلك يفعلون عند النفي والجمع ، وغير ذلك يضيفون أدوات كثيرة ، وتبقى الـكلمة كما هي .

وأما المتصرفة فهي السَّامِيَّة والآرِيَّة ، ويقال لهـا أيضاً : اليافِثِيَّة نسبة إلى يَافِث بن نُوحٍ ، ومنها لغات جنوبي آسيا التي منها السَّنْسِكْرِيتِيَّة ، وفروعها كالفارسية والهندية والأفغانية وغيرها ، ومنها لغات أوربا التي أشهرها اللاتينية وفروعها من لغات فرنسا وإيطاليا واسبانيا والهِيلِينِيَّة ، ومنها اليونانية القديمة والحديثة . وَوَنْدِية ، ومنها لغات روسيا وبلغاريا وبوهميا. وتُيُوتُونِيَّة ، ومنها لغات انجلترا وألمـانيا وهولاندة والدانمـارك .

اللغـــات السامية

وأما السامية : أى المنسوبة إلى سام بن نوح ، فهى تمتاز بأنها لغات الكتب المقدسة من التوراة والإنجيل والقرآن ، وبأن التمدين اقديم ظهر أولا بين المتكلمين بها فى بابل وأشور وفينيقية ، وهى اللغات البابلية الأشورية ، والكنعانية أو الفينيقية ، والعبرية ، والآرامية ، والحبشية ، والعربية . ومن العلماء من يجعل اللغة الكنعانية أصلا للعبرية والآرامية مستدلا بما لا ينهض بصدق دعواه .

اللغـــة العربيـــة

أصلها

لايستطيع المؤرخون أن يجزموا برأى قاطع أو يأخذوا بدليل علمى يبينون به الأصل اللغوى الذى أنشعبت منه هذه اللغة وغيرها من أخواتها السامية التى تنسب إلى أب تاريخى مجهول ، ولا عبرة بدعوى بعضهم أن الأصل السامى الذى تفرعت منه هذه اللغات هو اللسان البابلى القديم ، فإن تلك ظنون أدى إليها وجود بعض المشابهة بينه و بين هذه العربية لايبعد أن يكون سببها هو قرب عهد اللغتين بالانفصال عن أصلهما المجهول ، ومن الراجح أن هذه اللغات بجملتها من سامية وغيرها يمكن أن تتصل فى سلسلة الحياة اللغوية بأصل واحد هو لغة الإنسان الأولى التى لا تزال هى الأخرى مختبئة فى ضمير الزمن ، وقد يُسْتَأْنس لهذا الاتصال بما بقى فى لغات العالم المختلفة من المشابهة فى بعض الأصول الضرورية ذات المدلولات الثابتة كلفظ الأب والأم والقوت التى تعدّ من أقدم ما تعلمه أو نطق به الإنسان ، وهى تكاد تكون واحدة فى كل لغات البشر ، وكضمير الخطاب فإنه إذا تجرد من مميزات الجنس والعدد فهو حرف التاء فى أكثر اللغات

وغاية ما توصل إليه الباحثون من تتبع نشأة اللغة العربية أن لابد أن يكون دخلها فى أدوار التكوين شىء من الأصول السامية الأخرى كالحبشية والحميرية والعبرية ، و بعض الآرامية القديمة ، و بيان ذلك أن عربية عدنان الذى ينتهى إليه عمود النسب العربى الصحيح قد ورثها عدنان عن آبائه إلى إسماعيل أبى العرب المستعربة ، وهم يقولون إن إسماعيل صلوات الله عليه كان له لسان

آخر عبرانى أو كلدانى نسيه وتعلم العربية من العرب العاربة أو القحطانية حين هاجرت جُرْهُمُ الثانية إلى بلاد العرب ، ونزلت بمكة وامتزج بهم إسماعيل بالصِّهر والجِوار ، ونشأ منهم ومنه جيل عربى جديد هم العرب المُسْتَعْرِبة أو الإسماعيلة ، ويقولون إن أولئك القحطانيين أصلهم من الحبشة عبروا إلى بلاد اليمن فعمروها وأضافوا إلى لغتهم ما اقتبسوه من لغة أسلافهم من المعينيين الذين هم قبائل من بدو الآراميين ، أو بقايا أهل بابل القديمة نزحوا إلى بلاد اليمن فعمروها ، وكانت لهم بها دولة قبل السبئيين والحميريين ، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التى انتهت بعد فى آخر صورها بالخط المُسْند أو القلم الحميرى المشهور ، وإذاً تكون هذه اللغة العدنانية مزيجا موروثا من هذه اللغات السابقة ، وقد تختلف عنها كما كان بعض هذه اللغات يختلف عن بعض ، وقد تمثلت بعد ذلك فى المضرية الفصحى فى الوقت الذى ذهبت فيه الدولة الحميرية من الوجود حَوْلَ أوائل القرن السادس الميلادى ، وحين أخذت نهضة قريش تمتد سطوتها على أكثر بقاع الجزيرة العربية ، وصارت العرب تقريباً بما أدخلوه على لغتهم من ألوان التنقيح ، وعوامل التهذيب ، إلى وحدة لسانية عامة لا يشوبها إلا قليل من الخلاف المنطقى الذى لم يتعد صورة النطق بالكلام اصطلح العلماء على تسميته باختلاف اللهجات ، وقليل مما بقى من الأشباح المتخلفة من الحميرية القديمة فى بعض قاصية القبائل اليمنية التى لم تتأثر بهذه النهضة اللغوية التى انتهت برجة عنيفة اهتزت لها أقطار الجزيرة ، وهى ظهور الإسلام ، وهذه إذاً كانت هى العربية الفصحى لغة الشعر والنثر الجاهليين ، وهى لغة قريش التى نزل بها القرآن على أفصح العرب محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهى اللغة التى ندرس اليوم آدابها ، ونؤرخ فنونها ، وطبقات المتكلمين بها فى عصورها المختلفة ، وكانت قبل الإسلام محصورة فى هذه الجزيرة العربية فامتدت بعد ذلك مع الفتوح الإسلامية بين أواسط الهند شرقا ، ومضيق جبل طارق غربا وبين البحر الأسود ، وبحر العرب شمالا وجنوبا ، ووسعت أصقاع العالم المتمدن من ذلك الحين إلى وقتنا هذا .

عوامل نموها — قد علمت مما سقناه فى الكلام على نشأة اللغات ميانا إلى المذهب الوضعى ، والقول بأن اللغة وليدة الاصطلاح والمواضعة، وليست وحيا ولا توقيفاً ، وهى بهذه المثابة لم تخلق كاملة تامة بل كانت تتكون من الارتجال والمحاكاة حتى تبلغ حالة من الحياة تجعلها أداة صالحة للتفاهم الضرورى ، ثم يتناولها بعد ذلك من دواعى الإرتقاء ، وعوامل النمو أسباب كثيرة من القلب ، والابدال ، والنحت والاشتقاق والمجاز ، ونحن نفصلها لك باختصار فنقول :

القلب — القلب وهو تقديم حرف أو تأخيره من حروف اللفظ الواحد مع المحافظة على معناه أو انحرافه قليلا عن أصله ، وهو أقل أثرا من الابدال ، ومن ذلك قولهم جَذَبَ وجَبَذَ ، ولَطَمَ ولَمَطَ ، وسَكَب وسَبَك . وكل هذه بمعنى واحد ، أومتقاربة وكذلك قولهم بَعَض و بَضَع ، وكلاهما بمعنى قطع .

ويحدث القلب فى اللسان اعتباطاً فى الغالب ، وقد يكون سببه التخفيف فى اللفظ أو التفنن فيه ، ومثل ذلك كثير الحدوث فى العامية المصرية تقول العامة « جوز » فى زوج ونقول « أجا » فى « جاء » وقد تكون هذه سرت إليهم من عوام أهل الشام .

الابدال — وأما الابدال فى ألفاظ اللغة فهو أعظم أثراً وأوسع دائرة ، وهو جعل حرف مكان حرف يقرب منه لفظا و يقع غالباً بين الحروف التى من مخرج واحد أو من مخارج متقاربة يقولون مدح ومـده ، والحثالة والحسالة والحفالة للردىء من كل شىء واستعدى عليه واستأدى بمعنى طلب إلى الحاكم أن ينصفه منـه ، وغير ذلك من الأمثلة كثير .

وهو فى الغالب نتيجة علة طبيعية فى أعضاء النطق فى أول الأمر ، ثم يصيره الاستعمال مستقلا عن الأصل ، وإن حفظ معناه ، أو تغير عنه بعض التغيير ، وربمـا جعلوا لـكل نوع من الألفاظ الحادثة ما يقابله من تنوعات المعنى الأَصلى ، فيقولون : مثلا لطم إذا ضربه بكفه مفتوحة ، ولدمه إذا ضربه بشىء ثقيل ، وكما يقولون فى قضم : أكل بأطراف الأسنان ، أو أكل خشنا ، وخضم : أكل رطباً ، أو أكل بأقصى الاضراس ، ومن نحو هـذا ما تجدونه فى اللغـة العامية

المضرية ، فإنهم يجعلون من ثقيل بالثاء لفظين لكل منهما معنى مستقل ، فقالوا : « سقيل » بالسين بمعنى ثقيل الظل ، وقالوا : «تقيل» بالتاء بمعنى رزين ، وقالوا : في ثبات « سبات » بالسين بمعنى الجلد والصبر ، وقالوا : « تبات » بالتاء بمعنى الوقاحة أو صفاقة الوجه ..

ويمكنك أن تدرك كيف كان الابدال من عوامل نمو اللغة وزيادة ثروتها اللفظية والمعنوية بالمثال الآتي ، وذلك أن مقطع « قط » وهو حكاية صوت القطع قد تولد منه بالابدال تنوعات كثيرة منها قص وخص وخد وقد وكس وجذ وجز . وكل واحدة من هذه الأنواع تولد عنه عدة ألفاظ ، فمن «قط» تولد قطع وقطب وقطف وقطم ، ومن « قص » تولد قصم وقصل وقصب وقصر وقصف ، ومن « كس» تولد كسر وكسع وكسم وكسح ، ومن «جذ» تولد جذب وجذ وجذم ، ومن « جز » جزأ وجزع وجزم وجزل وهلم جرا ، والدليل على أن هذه وأمثالها أنواع لذلك المقطع أنك ترى فيها جميعاً معنى القطع ، وإن كان بعيداً في بعضها كخدع فانه من خد ، وقالوا : (والخدع أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه من المكروه لتنزله عما هو بصدده) قال الامام البيضاوي (ولا يخفى ما يستملح في هذا من معنى القطع : أي أن تقطعه عنه أو تقتطعه دونه) ومثله خدر البنت فإن معناه ألزمها الخدر : أي قطعها عن الاختلاط بالناس وغير ذلك في نحو : قسم وقسط وقرص وقرض مما لا يخفى على المتأمل رده إلى معنى القطع ، وأنت ترى من هذا أن كثرة هذه الأنواع حادثة في الأصل من حكاية صوت القطع ، ويمكنك أن تقيس على هذا أمثاله من مواد اللغة لتدرك مبلغ تأثير الابدال في ترقية اللغة وتنميتها :

النحت

أما النحت فهو صوغ كلمة من كلمتين ، فأكثر كقولهم : حمدل إذا قال الحمد لله وبسمل وحوقل وسبحل وحسبل إذا قال بسم الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وسبحان الله ، وحسبنا الله ، ومثلها الطابقة والدمعزة في أطال الله بقاءك وأدام عزك ، وكقولهم : عبشمي وعبقسي في النسب إلى عبد شمس وعبد القيس ، وفائدته اختصار الألفاظ وتوفير الوقت وتسهيل النطق ، وهو مع ذلك نماء في اللغة لأنه

زيادة فى عدد كلماتها وتكثير لطرق التعبير فيها ، ويرى بعض علماء اللغات أن الحروف إنما هى بقايا ألفاظ لها معنى فى نفسها ، وأنها إنما صارت حروفا بعامل النحت ، ومن ذلك حروف المضارعة ، فإنهم قالوا انهم أخذوا الهمزة (من أنا) والنون من (نحن) والتاء من (أنت) والياء من (هى) ، وجعلوا الحروف دليلا على ما كانت تدل عليه الأصول تقريبا فأدت المعانى مع اختصار اللفظ .

ورجحوا أن الأصل فى استعمال باء الجر للظرفية لأنها لا تستعمل فى اللغات السامية إلا لها ، وقالوا إن أصلها بيت بدليل أن هـذه فى السريانية معناها فى أو بين ، ثم صارت بى فى الكلدانية ثم الباء وحدها فى العربية ، فكأن الباء بقية لفظ بيت أدى بها المعنى مع اختصار اللفظ .

الاشتقاق والمجاز

ولم يعد لأحد من المتكلمين بالعربية الآن حق فى استعمال الأسباب السابقة من عوامل نمو اللغة فى وضع ألفاظ جديدة بازاء ما يستحدث تباعا من المعانى المبتكرة تنمو بها اللغة وتتكاثر مادتها لأن ذلك على ما يقولون حق خاص بالعرب وحدهم ، وقد انقضى دهره منذ القرن الثانى من الهجرة ، وإن لك أن تقول حينئذ ان أكثر اللغات الحية من هذه السبيل قد يفضل اللغة العربية لخلوص هذه اللغات على الأقل من قيود الصبغة الدينية التى دعت أهل العربية إلى المحافظة على صورتها الموروثة استبقاء لطريق فهم الشريعة وحرصا على سلامة الكتاب والسنة اللذين هما عماد الملة وقوام الإسلام ولئن فاتنا الشىء الكثير من هـذا بجانب تلك الوثبات القوية للغات العالم فى طريق التوالد والنمو لن يفوتنا ما نتعوض عن ذلك من طريق الاشتقاق والمجاز فإن كلا منهما قد بنى على مقاييس ثابتة تمكن من اتخاذهما طريقا معبداً لغنية اللغة وازدياد ثروتها والأخذ بيدها إلى مساماة الحضارات العلمية المتجددة بقدر ما تدعو إليه الحاجة بشرط أن يتخذ الانتفاع بهذين العاملين وجهة قوية تعتمد فى حياتها على سلطان الحكومة القائمة بأن تصدر عن مجمع لغوى يضم نخبة من رجال العلم وحملة اللغة ، وأهل

الصناعات الراقية المختلفة يمكن أن يثمر مجهودهم فى المستقبل ما يعد كفاية للحاجة وسداداً لهذا النقص على قدر المستطاع .

وإذا كان الاشتقاق وهو أخذ كلمة من كلمة تشترك معها فى مادتها وتركيب أكثر حروفها معروفا فى صيغ الفاعل والمفعول والزمان والمكان والأداة وغير ذلك من ضروب الاشتقاق ، وكذلك المجاز وهو نقل كلمة من معنى إلى معنى آخر بينهما مشابهة بقرينة فلا حاجة إذاً إلى الاطالة بذكر أمثلة لهما .

عوامل أخرى يكثر ظهور بعضها فى اللغة العربية .

وكل ما سقناه من العوامل السابقة لا يختص بلغة دون أخرى ، بل هو أمر عام تشترك فيه معظم اللغات الراقية الآن غير أن العلماء يذكرن للغة العربية عوامل نمو خاصة ، وهى ما اصطلحوا على تسميته بخصائص العربية وستعرف فيما يأتى أن هذه التسمية ليست مسلمة على إطلاقها إذ أن معظم هذه الخصائص كالاعراب والاشتراك اللفظى والايجاز ودقة التعبير يوجد فى غير العربية من لغات العالم ، ونذكر من هذه العوامل :

الإعراب

الإعراب وهو من صفات العربية قديما وحديثاً ولا عبرة بقول من يقول إن من العرب من كانت له عامية ملحونة ، فإن ذلك على فرض وجوده قد يكون قليلا نادراً لايعتد به ، ولا يمنعنا ذلك من التسليم بأن لغة العامة من قبائل العرب لم تكن من القوة والفصاحة موازية للغات الخاصة من الشعراء والأشراف وتشارك اللغة العربية فى هذه الميزة الالمانية والحبشية وتكاد تنسلخ عنه الالمانية على مرور الأيام .

دقة التعبير فى الألفاظ والتراكيب

أما فى الألفاظ : فيكاد يوجد عندهم لكلّ معنى من المعانى وأجزائها لفظ خاص ، ولقد سموا أجزاء الحيوان والإنسان والنبات والطير والليل والنهار ، فجعلوا لكلّ جزء منها لفظا يخصه ، فساعات النهار مثلا : الذُّرور فالبزُوغ فالضحى فالغزالة فالهاجرة فالزوال فالعصر فالأصيل فالصَّبوب فالحدُور فالغُروب . وهى أيضاً : البكور فالشروق فالاشراق فالرَّأد فالضحى فالمُتُوع فالهاجرة فالأصيل فالعصر فالطَّفَل فالحدُور فالغروب . وساعات الليل . الشفَق فالغسَق فالعتمة فالسُّدفة فالفَحمة فالزُّلة فالزُّلفة فالبُهرة فالسَّحر فالفجر فالصُّبح فالصباح ..

ومن ذلك تفرّع المعانى من الفعل الواحد ، ونذكر مثلا لذلك فعل النظر يتفرّع إلى رَمَق، ومعناه نظر إلى الشيء بمجامع عينيه، ولحَظَ : أى نظر من جانب أذنه ، ولمحه : نظر إليه فى عجلة ، وحَدَجه : رماه ببصره مع حدة ، وشَفَن : نظر كالمتعجب أو الكاره ، فإن أدام النظر فى سكون طَرْف قيل رنا إلى غير ذلك مما نراه مبسوطاً فى مثل المخصص ، وفى كتب فقه اللغة ، وقد يعتبر القول بانفراد العربية وحدها بهذه الخصيصة ضربا من السذاجة والمكابرة .

وكذلك دقة التعبير فى التراكيب واتيانها على تمام مقتضيات الأحوال ، من الاسراف أن ندعى اختصاصها بالعربية ، فإن لكلّ لغة بلاغتها ، وكما يوجد عندنا من مختار المنثور والمنظوم مما يشتمل على أسرار الفصاحة و إعجاز البيان يوجد مثل ذلك فى أذواق أهل اللغات الأخرى فى مختار منظومهم ومنثورهم غير أن مزيدات الأفعال وصيغ المشاركة خاصة بالعربية حقيقة ، إذ هى تعبر باللفظ الواحد عن معنيين أو جملة معان لايتأتى التعبير عنها فى غير العربية إلا بعدة ألفاظ كتقاضوا وتقاتلوا .

الإيجاز

والعرب أقدر على هذا النوع من البيان من غيرهم من الأمم التى لا تخلو بلاغتها من شيء منه وقد تصل العبارة من القصر إلى حدّ الايماء والاشارة مع اشتمالها على المعنى ووفائها بالغرض كالمثل والحكمة ، وقلما تكون لغة من لغات العالم كالعربية فى هذين .

الترادف والتضاد

وقد فاق العرب فيهما سائر الأمم ، فعندهم المطر والريح والنور والظلام والأسد والسيف والناقة والخمر والماء والبئر أسماء كثيرة من عشرين فى بعضها إلى ثلثمائة فى بعضها الآخر ، وكذلك الشأن فى الأوصاف(١) ، فللطويل والقصير ،

---

(١) يقال : طويل . وطُوَال ـ وشَوْذَب وعَشَنَّط ـ ويقال : رجل قصير وحَنْبل وكَهْمس و بُحْتُر ، والقصير والطويل أخفها ـ ويقال رجل كريم وجواد وسخى ـ وسَمَيذَع ـ وغِطْريف وأريحى ـ و يقال بخيل وكِز وشحيح ـ وفاحش و يقال : شجاع وذَمير ـ و بُهمة ـ و بَطَل وصِمّة ونَهِيك . و يقال للجبان يراع . ورعديد ونِكْس . وفَرُوقة .

والكريم والبخيل، والشجاع والجبان ألفاظ كثيرة يعبر بها عنها تعد ثروة واسعة في اللغة ومفرداتها .

رأى العلماء في الترادف

ويرى بعض المحققين أن هذه الأسماء المترادفة كانت في الأصل نعوتاً لأحوال المسمى الواحد وظواهره ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدريج ، وكادت تتجرد هذه الألفاظ من تلك الفروق والأوصاف بالاستعمال ، وغلبت عليها الاسمية ، فان الخَطَّار والحَطَّام والباسل والأصْيَد من أسماء الأسد ترى أن لكل لفظ منها وصفاً خاصا مغايراً لما يدل عليه الآخر ، وكذلك ما يعد من أسماء السيف كالصمم والهندي والحُسام والعَضْب والقاطع وغير ذلك ، وقد يرى بعضهم أن الترادف أصله في العربية لغات لقبائل مختلفة لم يراع نقلة اللغة التنبيه على أكثره لعدم الوثوق من الدليل عليه ، وهو عتاد الشاعر والكاتب والخطيب والأستاذ عند محاولة البسط والترغيب في فضائل الأمور والبلوغ إلى تقريب الغامض من حقائق الأشياء ، وتكشيف المعاني المبهمة بعرضها في جملة صور من التعبير تعين على تجليتها للفهم ورسوخها في النفوس .

فائدته

وأما التضاد وهو دلالة اللفظ على المعنى وضده ، فهو من خصائص اللغة العربية . كالجَوْن للأسود والأبيض ، والجلَل للعظيم والحقير ، والشَّفّ للزيادة والنقصان ، وفي اللغة من هذا ونحوه مئات من الألفاظ يدل كل واحد منها على الشيء وضده . وينبغي أن يلاحظ في التضاد أيضاً اختلاف الوضع كما سبق لأن الأصل في وضع اللفظ أن يكون أداة للفهم لا وسيلة إلى الابهام والتعمية .

الاشتراك اللفظ .

أي دلالة اللفظ الواحد على المعاني الكثيرة ، وقد يكون هذا من عيوب اللغات وقصورها إلا إذا استطاع المتكلم أن يجد لهذه المعاني دوال أخرى مستقلة غير هذا المشترك اللفظي ، فقد قدمنا أن الإنسان في بدءة نشأته كان يعبر باللفظ الواحد عن المعاني الكثيرة ، وكان ذلك من معاني العجز في اعتبار علماء اللغة عن إيجاد الكفايات اللفظية لهذه المعاني إذ كانت اللغة لا تزال حينئذ في طور الوجود الأول تقريباً ، وإذاً لا ينبغي أن يعد الاشتراك اللفظي دليلا على رقي

اللغة إلا على النحو الذى قدمناه ، ومن ذلك مثلا كلمة الروح ، والعين ، والخال ، فالروح : ما به الحياة ويؤنث ، وهو الملَك والوحى والقرآن وجبريل وعيسى . والعين : الباصرة والجارية والسحاب واليد والدينار والذهب والجاسوس . والخال : أخو الأم والخيلة واللواء والظن والكبر والشامة وغيرها كثير فى اللغة نكتفى بهذا منه

اختلاف اللهجات

اتفق علماء اللغة على أن معنى اختلاف اللهجات يرجع فى جملته إلى ثلاثة أوجه ، ويلاحظ أن العلماء كثيراً ما يضعون اللغة مكان اللهجة .

الأوّل : ما يكون من تنوّع المنطق واختلاف كيفية النطق باللفظ ، وهو أهمها ، ويرجع سببه فى الغالب إلى البيئة الخاصة وتأثير الوراثة كالذى يرى الآن فى القرى المتجاورة والمتباعدة فى أعلى مصر وأسفلها ، ومن أمثلة ذلك قول بعضهم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما ترى فى رجل ظحى بضبى » ، فقال له وما عليك لو قلت : « ضحى بظبى » ، فقال انها لغة بالكسر ، فكانت هذه أعجب .

الثانى : ما يكون من اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات التى تنطق به فى المترادف(١) والأضداد ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

الثالث : ما يكون قد انفرد به عربى مع اطباق العرب على النطق بخلافه وليس لهذا النوع شأن يذكر لجواز أن يكون ذلك وقع لهذا العربى من لغة

(١) رووا أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وقعت من يده السكين ، فقال له ناولنى السكين ! فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم المراد ، فكرر له القول حتى قال: آلمدية تريد ؟ وأشار إليها فقيل له نعم ، فقال أو تسمى عندكم سكينا ؟ ودوس بطن من الأزد ، وهى يمانية .

قديمة طال عليها العهد ، وبادت آثارها ، وإذا يكون التعويل فى اختلاف اللهجات على الوجه الأول، وهولا يتعدى صورة النطق بالكلام، ويلحقها فى بعض الأحيان إبدال حرف بآخر كابدال الميم باء والباء ميما فى لغة مازن إذ يقولون با اسمُك ؟ مكان ما اسمك ؟ ويقولون : مكر فى بكر ، وكتردّد الكلمة بين الادغام والفك ، وبين الاتمام والنقص ، أو بين الصحة والاعلال والاعراب والبناء ، فمثلا أهل الحجاز يفكون المثلين من المضارع المضعف المجزوم بالسكون وأمره وتميم تقولهما بالادغام ، وخثعم وزبيد تنقص نون من الجارة ، فيقولون خرجت ملبيت كلغة عامة مصر فى قولهم خرجت من البيت ، وغيرهم من العرب يتمها ، وطيئ تعل الأفعال الثلاثية التى من باب فرح كبقى ورضى بقلب يائها ألفا وكسرتها فتحة ، وغيرهم يصححها ، وقيس بن ثعلبة تعرب لدن ، وغيرهم يبنيها .

هذا إلى أنه قد كان لكلّ قبيلة عيب فى النطق اشتهر منه : عجعجة قضاعة وهى جعلها الياء بعد العين جيما ، أو الياء المشددة مطلقاً مثل قولهم : الراعج فى الراعى ومُرِّج فى مُرِّى ، وطُمْطمانية حمير ، وهى جعل أم بدل أل ، وبلغتهم حديث : « ليس من امبرِّ امصيامُ فى امسفر » ، أى : «ليس من البرّ الصيام فى السفر » ، وتَلْتَلة بهراء ، وهى كسر أحرف المضارعة مطلقاً ، وفَحفحة هُذيل ، وهى جعل الحاء عيناً مثل : العَسَن فى الحسَن واللعْم فى اللحْم ، وعَنْعَنة تميم ، كقولهم : فى أن عن بإبدال الهمزة المبدوء بها عيناً ، وكَشْكَشة أسد أو ربيعة ، وهى إبدال الشين من كاف الخطاب المؤنث مثل عليشِ فى عليكِ ، وكسكسة هوازن ، وهى زيادة سين بعد كاف المؤنث ، فيقولون : أعطيتُكِس ومنكِس ، ولَخْلَخانية الشّحر ، كقولهم : مشا الله ، واستنطاء أسد ، كقولهم : أنطى فى أعطى بجعل العين الساكنة نونا مع الطاء ، وشنشنة اليمن ، وهى جعل الكاف شيناً مطلقاً نحو : شلمنى فى كلمنى ولبيش فى لبيك ، وكقُطعة طيئ وهى حذف آخر الكلمة ، فيقولون : يا أبا الحكا فى يا أبا الحكم كما فى لغة كثير من أقاليم مصر . هذا وقد أتى تهذيب اللغة فى أدواره المختلفة على أكثر

هذه الهنوات إلا ما كان منها تابعاً لتأثير البيئة ، فقد بقى منه شىء حتى بعد ظهور الإسلام ، ولا يزال مثل هذا الاختلاف يوجد بين طبقات المتكلمين باللغات من جميع الأمم المختلفة لا سبيل إلى تغييره إلا بالتخلص من المؤثرات القوية التى تنتجه كالانتقال من القرى إلى الأمصار ، أو من أقليم إلى غيره كما هو مشاهد(١).

أطوار تهذيب اللغة وأثر الأسواق فيه

اعلم أنه من غير المعقول أن تكون اللغة كما يقول بعضهم قد برزت إلينا من غيب التاريخ ناضجة كاملة مهذبة ، ومن المحقق أنها تقلبت فى أدوار مختلفة وأدهار طويلة ، تنازعها فيها ما يتنازع الأحياء الحادثة من عوامل الضعف والقوة وأسباب الرقى والانحطاط ، ومن العبث أن يتطاول إنسان إلى تحديد الزمن الذى تمثلت فيه اللغة بصورتها المروية لنا ، وكل مايقال فى ذلك مراعى فيه تقريب هذه الحقيقة إلى التصور على وجه من وجوه تغليب الظن لا غير ، ومما لا شك فيه أيضاً أن هذه اللغة قد تعرضت لعوامل الاندماج والتقارب بامتزاج بعض شعوبها فى بعض ، ولاتحاد أكثر قبائلها فى كثير من دواعى المعيشة ، وأساليب الحياة ، ولما كان بينهم من الأواصر القوية فى الجنس ، وطبيعة البيئة والعادة ، وأن ذلك مضافاً إلى ما تناول هذه اللغة من أسباب التهذيب التى سنذكرها بعد ، قد أدى كله إلى تخلصها من الاختلافات ونقائها بالتدريج من الوحشية والغرابة وصيرورتها إلى درجة من الوحدة والعذوبة صلحت فيما بعد لأن ينزل بها كتاب الله آيات مفصلات قد استوعبت أدق أسرار الاعجاز ، واشتملت

---

(١) لم تظهر هذه اللهجات المختلفة فى المأثور من الشعر القديم لتنحى الشعراء عنها ورغبتهم فى ذيوع أشعارهم وارضاء الحكام منهم بموافقة اللهجات الفصحى من لغة قريش . ولأن الكتابة لا يظهر فيها هذه اللهجات أولا كثيرها والشعر كما هو معلوم بلغنا مكتوبا مدونا .

على أعلى مراتب البيان والفصاحة ، ويرجح الباحثون أن من هذه الأسباب :

الدور الأول تنقيح إسماعيل عليه السلام ، وهو أصل العربية العدنانية كما سبق ، ولا يبعد أن يكون ذلك إلهاماً إلهيا خصّ الله به نبيا من أنبيائه ، أو يكون ذلك على الأقل ناتجاً عما امتاز به ذلك الأب العربى عن سائر أهل عصره من سلامة الفطرة ، وقوّة الذكاء ، وحسن الاختيار والتتبع ، مع ما يلحق بذلك من تطاول الزمن الذى هو وعاء طبعى لبلوغ الكائن الحى درجة من الكمال فى تدرجه إلى الارتقاء ، واقترن ذلك الوقت بظهور إسماعيل عليه السلام ، ثم درج العرب بعد إسماعيل على هذا السنن الفطرى من الانتقال فى مدارج النموّ والتحسين ، وقد اشترك فى هذا التهذيب أكثر القبائل العربية ، إذ كانوا يأخذ بعضهم من بعض بالمخالطة ، والاجتماع فى أيام وقائعهم ، وعند تلاقيهم فى الانتجاع ، وخروجهم فى المنافرة إلى الحكام ، وحشدهم للمفاخرة بالأحساب والأنساب ، وكان للشعراء من هذا الإصلاح نصيب لا يقلّ عنه ما كان للأشراف من خطباء العشائر فى محاكاة العامة لهم ، واجتهادهم فى مساماة ألسنتهم حتى نشأ بينهم التنافس فى إحكام اللغة ، والمفاخرة بالبيان .

الدور الثانى وكان الدور الثانى هو استفحال نهضة قريش واستيلاؤهم على ذروة النفوذ الأدبى ، والسيادة العامة فى جمهرة القبائل العربية ، وقد بينا فى بعض الفصول السابقة كيف صارت لغتهم إلى صفاء الفصاحة ، وأخذت بأطراف العذوبة ، وأقبل العرب يحاكونها و يمشون على أثرها حتى انتهى آخر ذلك الإصلاح القرشى بظهور الأسواق الأدبية التى كان لقريش فيها أيضاً من الفضل مالها إذ كان العرب يرجعون إلى منطقهم ، و يتأثرون بعذوبتهم فيما يعدونه من القريض وما يحبّرونه من الخطب التى يتحاكمون فيها إلى قضاة يصدرون عن رأيهم ، و يسمعون

عكاظ لحكمهم فى هذه الأسواق التى أشهرها عُكَاظ ، وهى موضع بين نخلة والطائف ، وأقيمت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة و بقيت بعد الإسلام ، وإن لم تكن فى شأنها الأوّل حتى نهبها الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة ، وكانت تقوم هلال

ذي القعدة إلى عشرين منه ، ثم ينتقل العرب منها إلى مَجَنَّة ، وهي موضع قرب مكة بمرّ الظّهران ، ثم إلى ذي المجاز ، وهي سوق على فرسخ من عرفة ، فيكونون بها إلى أيام الحج .

وكان الأشراف من العرب إنما يحضرون الأسواق القريبة من أحيائهم إلا عكاظ ، فإنهم كانوا جميعاً يتوافدون إليها لمفاداة أسراهم ، والتحاكم في خصوماتهم ، والمفاخرة بالأحساب ، والتباهي بصفات الفضائل ، من الكرم والشجاعة والفصاحة والجمال والأشعار والخطب ، وفيها أنشد عمرو بن كلثوم طويلته ، وقيل انها علقت في هذه السوق هي وسائر السبع الطوال كما سنبينه بعد ، وكان للنابغة الذبياني قبة تضرب له يتحاكم إليه فيها الشعراء ، وقصته مع الأعشى والخنساء وحسان مشهورة ، وفيها خطب قس بن ساعدة الأيادي خطبته المشهورة ، وقد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على جمل له أورق[1] . وقد كان هذا الاجتماع العام مظهراً جميلا من مظاهر الحضارة يقتضي طبعاً تجويد المنطق ، وارهاف اللسان ، والمبالغة في إتقان صناعة الكلام ، والاجتهاد في مقاربة العذوبة في لغة قريش ، التي لم يقتصر فضلها على حمل العرب في جملتهم على اتباع مناهجها ، والتأثر بأسلوبها ، بل كانت لا تزال تشهد هذه المواسم وتسمع من فصحاء البادية وشعراء القبائل في هذا الدور الأخير من التهذيب حتى بلغت لغتها إلى أرفع مراتب الكمال اللغوي في هذا العصر .

الخط العربي ونشأته

من المعلوم أن الكتابة من الصناعات الحضرية التي تلازم الملك وتقوم مع حضارات الأمم المتمدينة ، ولذا لم تفش هذه الصناعة في العرب إلا بعد ظهور الإسلام حين اجتمعت لهم أسباب الملك ، وصارت لهم دولة ذات قوّة وسلطان

---

(١) الأورق من الإبل : مافيه بياض إلى سواد ، وهو من أطيب الإبل لحماً لا سيراً وعملا .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من عمل على إفشاء هـذه الصناعة ، ونشر تلك المدنية الجديدة بين المسلمين بما فرضه على غير الأميين من أسرى بدر أن يفتدى الأسير منهم نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة الـكتابة ، فشاعت هذه الصناعة ، وانتشرت بعد ذلك مع المسلمين في أقطار الأرض ، أما قبل الإسلام ، فقد كانت الجزيرة العربية عدا بلاد اليمن و بعض الجهات الشمالية منها خلوًا من هذه الصناعة، ينطق العربى من أهلها بالفاخر المهذب من الشعر والنثر ، ولا يقيم لسانه حرفا واحداً من حروف الهجاء ، ولا وجوه الإعراب، وهم الأميون الذين بعث الله فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم و يعلمهم الـكتاب والحـكمة، قد ظلت فيهم هذه الآثار البدوية حتى بعد الإسلام، فقد قيل لعربىّ منهم: أتهمز إسرائيل ؟ فقال إنى إذاً لرجل سوء !! فهم من الهمز العيب أو الضغط وسئل آخر: أتجر فلسطين؟ فقال إنى إذاً لقوى!! وقيل لبعض الأعراب وهو ينشد: نحن بنى علقمة الأخيار لم نصبت بنى علقمة؟فقال ما نصبتهم لشىء !! «يريد ما عرضتهم لأمر» ، أما فى بلاد اليمن فقد قدمنا فيما سبق أن المعينيين وهم من أقدم الأمم الآرامية التى نزحت إلى هذه البلاد قد اقتبسوا الحروف الفينيقية وكتبوا بها وانتهت فيما بعد إلى أسلافهم من السبئيين فالحميريين مع التنقيح والتحوير إلى الخط المسند أو القلم الحميرى كما أسلفناه ، ومن بلاد اليمن انتقل الخط مع كِندة ، وهم بطن من كَهلان حين هاجروا إلى ديار معدّ ، وانتقل أيضاً إلى النَّبَط ، وهم جيل عربى كان فى بلاد مَدْيَن وسينا وفلسطين وحُوران قبيل الميلاد وبعده ، ومن كِندَة والنَّبَط تعلّمه أهل الحِيرة والأنبار ، ونقله بإجماع المؤرخين إلى مكة حاضرة الحجاز حربُ ابن أمية قبيل الإسـلام بقليل ، قيل انه تعلمه من بشر بن عبد الملك أخى أُكَيْدر صاحب دُومَة الجندل الذى قدم معه إلى مكة ، وتزوّج بنته الصهباء ، وعلّم عدداً من أهلها الكتابة منهم عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة ، وأبو عبيدة ، ويتلخص من ذلك أن أقدم حلقة فى سلسلة الخط العربى هى

الخط المصرى القديم ، ثم منه أخذ الفينيقى[1] ، ومن الخط الفينيقى أخذ الخط الآرامى الذى منه المسند ، ومن المسند تولد النبطى والكندى ، ومن هذين الأنبارى والحيرى ، ومنهما تولد الخط الحجازى . والخط الحيرى هو بعينه الذى يسمى بالخط الكوفى بعد بناء الكوفة إلا أن أهل الكوفة اخترعوا فيه حلية وزخرفا كالتى استعملها السريانيون فى خطهم المعروف بالسطرنجيلى وإنما كانوا يكتبون بهذا الخط المزخرف كتب الدين ، ويزينون به المعابد ونحوها ، أما الرقاع وما شاكلها فكانت تكتب بالخط الحيرى العادى المعروف بالنسخى ، وهذه خلاصة ما يقال فى تاريخ الخط العربى ونشأته قبل الإسلام ، وهى مقتبسة من كتاب تاريخ الأدب للمرحوم العلامة حفنى ناصف .

الحياة العقلية — أو معارف العرب فى الجاهلية

يحقق الباحثون أنه كان لسكان الشمال من الغسانيين والمناذرة ، ولسكان اليمن من التبابعة حضارات متناسبة مع دولهم التى أسسوها ، وأنهم كانوا على علم بهندسة أرواء الأرض ، وعمارة المدن والطب والحساب والزراعة ، وبيطرة الدواب ، وإن لم ينقل إلينا شىء كثير من آثار ما أسسوا من الملك ، وما خلفوا من الحضارة .

أما سكان الجزيرة وهم جمهرة العرب العدنانية ، فقد كانوا كغيرهم من الأمم البدوية لا يحذقون كثيراً من العلوم ، ولا ينشطون لمزاولة الصناعات إلا ما ألجأتهم إليه ضرورة الحياة ، واهتدوا إليه من طريق التجربة الصادقة ، والمشاهدات المتكررة . ولم يعرف أنهم خلفوا شيئاً من آثار المدنية العقلية أفضل من الشعر الذى هو ديوان علمهم ، ومستودع فخارهم ، والحافظ لأيامهم وعاداتهم

---

(١) ويرى بعض الباحثين أن الخط الفينيقى أصل مستقل وليس مشتقا من غيره . ويظهر أن هذا الرأى لا يستند إلى دليل أكثر من الاستنتاج الشخصى الخاص بقائله .

وعقائدهم وأكثر مظاهر حياتهم الاجتماعية ، وكل ما وصلوا إليه بعد ذلك من أسباب العلوم ، إنما كان مبنيا على قوّة النظر ، وصدق الحس ، ومستمداً من التجربة حيناً ، ومن مخالطة من كان يجاورهم من الأمم حيناً آخر ، فمن ذلك مثلا علم النجوم ، فقد كان ما انبسط لأعينهم من رقعة السماء داعياً إلى إدمان النظر فى كواكبها ، وتعرف صورها وألوانها ومطالعها وأنوائها ، وتوصلهم بذلك إلى معرفة زمان الخصب والمحل ، وأوقات الرياح والمطر ، واهتدائهم فى ظلمات البرّ والبحر ، وهم مدينون بشىء غير قليل من علم النجوم ، أوالفلك للكلدانيين (بقايا كهنة بابل القديمة ، وكانوا يسمونهم الصابئة وهم عبدة الكواكب) ، ولايزال كثير من أسماء البروج والكواكب فى اللغتين متقاربا أو متحداً ، فمن أسماء البروج مثلا الثور فى العربية ، وهو (ثورا) فى الكلدانية ، والسّرطان ، وهى كذلك أيضاً فى الكلدانية ، والجَدْى فى الكلدانية «كديا» ، ومن الكواكب المريخ ، فإنه يقابل مرادخ فى الكلدانية بلفظه ومعناه ، وترى فى كلام العرب وأشعارها كثيراً من أسماء الكواكب ، كالفرقدين والسماكين والشعرى والجوزاء والنثرة والعيوق ، وغير ذلك مما يدلّ على قدم معرفتهم بذلك على النحو الذى بيناه لك .

معرفة العرب بالنجوم

ومما عرفوا بعضه بالتجربة وبعضه من الأمم المجاورة لهم كالفرس مثلا «علم الطب» ، وإذا قلنا علم الطب لا يتبادر إلى الأذهان أنه كان علماً بالمعنى المفهوم منه الآن بل لم يكن يتجاوز عندهم الكىّ بالنار ، وبتر الأعضاء بالشفار المحماة والتداوى بشراب العسل ، وعصارات بعض العقارات النباتية ، وكثيراً ما كانوا يتداوون بالعزائم والرقى ، واشتهر بذلك العرّافون والكهان ، وكانوا يعالجون الحَوَل بادامة النظر إلى حجر الرحى فى دورانه ، ومن خرافاتهم فى العلاج أن المجروح إذا شرب الماء فاضت نفسه ، وإذا ذعرت المرأة من شىء حتى برد قلبها سقوها ماء حارا ، ومن المشهورين فى هذه الصناعة ابن حِذْيَم ، وهو رجل من تيم كان يقال فيه أطبّ من ابن حذيم ، ومن أحدث أطبائهم الحرث بن

الطبّ عند العرب

كَلَدَة الثقفى المتوفى سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وهو من الطائف ، قيل انه رحل إلى بلاد فارس ، وهناك تعلم الطب ثم رجع ، وكانت له شهرة واسعة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من تناله علة من أصحابه أن يأتيه و يستوصفه، وفى اللغة العربية من أسماء العلل ، ووصف الأعضاء الظاهرة والباطنة فى الإنسان والحيوان ما يدلّ على مبلغ ما وصلوا إليه .

الفراسة والقيافة

ومن المعارف التى توصلوا إليها بقوّة الذكاء ، وكثرة المزاولة الفِراسة والقِيافة، والأولى هى الاستدلال بهيئة الشخص وكلامه وظاهر أعضائه على أخلاقه وصفاته . والثانية ضرب من الفراسة تعين عليه قوّة الخيال كالإهتداء بآثار الأقدام إلى أصحابها ، ولقد بلغوا فى ذلك من الأعاجيب إلى ما لا يكاد يصدقه العقل، إذ كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة، والأعمى والبصير، والمثقل والخف، و إن شيئاً من ذلك لا يزال باقياً بين البدو من سكان مصر إلى اليوم ، وقد اشتهر من القافة فى العرب بنو لِهْب ، و بنو مُدْلِج كما اشتهروا أيضاً بالزَّجْر ، ولهم يقول الشاعر :

خبيرٌ بنو لِهْب فلا تكُ مُلغياً　　　مقالة لِهْبِىّ إذا الطيرُ مرّت

معرفتهم بالأنساب

وقد كانت قوة الحافظة التى أدى إليها انتشار الأمية داعيـة إلى تفوّقهم فى علم الأنساب الذى كانوا يتعرفون به القرابات و يحفظون الأحساب والأصول فلا يدخل رجل فى غير نسبه ، ولا يدعى لغير أبيه ، دعاهم إلى ذلك أيضاً شدة حاجتهم إلى الاعتزاز بالعشيرة والانتصار بالعصبية لتفرق قبائلهم ، وكثرة حروبهم ومن نسّابيهم دَغْفل بن حَنْظَلَة الشيبانى وزَيد بن الكَيِّس النمرى وابن لسان الحُمَّرة ، ومراتب النسب عندهم من الأدنى إلى الأعلى هى الفصيلة فالفَخِذ فالبطن فالعمارة ، ثم القبيلة ثم الشعب ، وهو الأب الأبعد كعدنان أو قحطان مثلا فالفصيلة كبنى أبى طالب و بنى العباس ، والفخذ ما فوق هؤلاء من بنى هاشم و بنى أمية ، والبطن كبنى عبد مناف و بنى مخزوم والعمارة ، وهى ما انقسمت

فيها أنساب القبائل مثل قُرَيْش وكِنانة ، ثم القبيلة وهى ما تعددت فيها أنساب الشعب كربيعة ومُضَر .

الكهانة والعرافة

وكانت الكَهانة والعِرافة وما إلى ذلك من العِيافة والزجر والطَّرْق بالحصى وقد تكون الكهانة فى تعرّف الغيب من الأمور المستقبلة ، والعرافة فى مثل ذلك من الأحوال الماضية ، وكان لهم اعتقاد صحيح فى كُهّانهم وكواهنهم فكانوا يستطبونهم فى الأمراض ويستقضونهم فى الخصومات ، ومن أشهر كُهانهم سَطِيحٌ الذِّئبى ، وطريفة الخير امرأة عمرو بن عامر ، وهو مُزَيْقِيا أحد ملوك اليمن ، ومن العرافين الأبلق السعدى ، وهو عَرّاف نجد ، وَرباح بن عجلة وقد شهرهما عُروة ابن حِزَام ببيت قاله وهو :

جَعَلْتُ لعَرّاف اليمامة حُكْمه   وعَرّاف نجد إنْ هُما شَفَيانى

وكانت الكَهانة والعِرافة أيضاً معروفتين عند غير العرب من الأمم القديمة كالمصريين ، والكَلْدانيين ، واليهود وغيرهم ، ولا يزال من أثرها بقية فى بلادنا إلى اليوم من أولئك الدَّجّالين الذين يعرفهم كثير من العامة ، وخاصةً النساء .

بيطرة الدواب

أما بصرُهم بالخيل ، ومعرفة شِياتها ، وأَوْضاحها وعِتْقها ، وما يُستَحب من أوصافها ، وما يذم منها ، وما يتعلق بذلك من إنْتاج ، وبَيْطَرة ، فقد فاقوا فيه سِوَاهم من الأمم ، وقد اشتهر من بياطرهم غير واحد ، منهم العاصِ بن وائل ، وظلت هذه المعرفة تنتقل بين بقايا البدو إلى اليوم ، وتراهم فى بلادنا لا يزالون من أعرف الناس بمداواة الخيل ، وقد عقد الأُلوسِىُّ فى كتابه [بلوغ الأرب] فصلا فى هذا الموضوع أتى فيه على كثير من أوصاف الخيل ، وعيوبها فى الجزء الثالث نقله عن كتاب الخيل لأبى عبد الله الإسكاف .

القصص والأخبار

وأما علمهم بالتاريخ والأخبار ، فقد وقع لهم فيه ما وقع لغيرهم من الأمم القديمة من الدس والتحريف إلا ما تظاهرت الروايات على صدقه كقصة

الفيل وكأ كثر أيامهم المشهورة كحرب البسوس ، ويوم ذى قار وغيره من الوقائع المشهورة .

الأديان الشائعة عند العرب

وكانت الديانات الشائعة فى الجزيرة قبيل ظهور الإسلام بعد عبادة الأوثان النصرانية واليهودية فى اليمن ، والشام ، والبحرين ، وبعض بلاد الجزيرة . وكان هناك الموحدون أيضاً على ملة إبراهيم . أما عباد الأوثان فكانوا يقولون بالخالق كما قال الله فى حقهم : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » .

أيام العرب ذوات الأثر فى اللغة

كانت العرب العدنانية كما قدمنا بدواً أميين قد تأصلت فى نفوسهم طبائع البدو من النجدة ، وحبِّ الغزو والميل إلى الانتقام والأخذ بالثأر ، وكان العربى منهم حين يفتح عينيه لا يرى إلا تألُّق الأسنة ، ولا يسمع إلا صهيل الخيل ، وزئير الوَحش ، ولم يكن لهم حِمًى يلْجَئون إليه إلا ظهور خيامهم ، ومَقابض سيوفهم فرسَخت فيهم صفات الفرُوسية ، وقوة المِراس ، وكثُر الفتك والنهب ، وما كان لهم مُقَامٌ بأرض وإنما كانوا يبتغون الماء ، ويرْتَادون منابت العُشْب ليَرْعَوْا أنعامهم التى عليها بلاغهم فى حَولهم وشِبَعهم ورِيِّهم ، فتنازعوا على المرعى ، وتدافعوا على النُّجْعة ونَشِبَت دواعى الخلاف التى كانت كثيراً ما تنتهى بالاحتكام إلى السيف فانتشرت بينهم العداوة ، وفشت فيهم الحرب وتخطف بعضُهم بعضاً ، واحتمت بعضُ قبائلهم بالحِلف ، وبقيت بعض القبائل الأخرى مُتَجَمِّرة[1] فى نفسها معتزة بعصبيتها ، وكان هذا أهم الأسباب التى أدت إلى هذه الأيام أو الغارات المشهورة التى سنذكر منها أهمّ ماله علاقة بتاريخ الأدب مما

(١) الجمرة القبيلة التى تعتز بعصبيتها ، ولا تحالف غيرها ، وهى من التجمر بمعنى التجمع وجمرات العرب ثلاث . ضبة . ونمير . وعبس . وبعضهم يزيد رابعة ، وهى بنو الحارث ابن عبد المدان .

يكون اشتمل على خطبة لشريف أو قصيدة لشاعر مما يقال عادة عند أول التعبئة لاستفزاز الحمية ، و إثارة الحماسة لِلاُسْتبْسال فى القتال . ومن هذه الأيام « حروب ربيعة » التى أشهرها حرب البسوس ، وكانت بين بكر وتغلب وهاجها مقتل كليب بن ربيعة . ذكر صاحب العقد الفريد أن كليباً هذا قاد معدا كلها يوم خزارى[١] ففض بهم جموع اليمن ، وهزمهم وخلصت معدّ من ولاية التبابعة يومئذ فاعترفوا لكليب بالسيادة عليهم ، وأعطوه قسم الملك وتاجه ، وعبَر بذلك حيناً من دهره حتى دخله زهو شديد ، و بغى على قومه لما هو فيه من عِزّة ولانقياد معدٍّ له، حتى كان يحمى مواقع السحاب فلا يُرْعى حِماه : وضربت العرب بعِزّته المثل ، فقالوا « أعز من كليب » واتفق أن مرت إبل له إلى موردها بناقة البَسوس بنت مُنْقذ التميمية ، وهى خَالَةُ جَسَّاس بن مُرّة من بكر ، وكانت جارة له ، فلما رأت الإبل نازعت عِقالها حتى قطعته ووردت معها الماء ، ورآها كليب فرمى ضَرعها بسهم ، وراحت ترغو على صاحبتها فخرجت إلى جساس فأحْمَسَته بكلامها حتى خرج إلى كليب وهو غَارٌّ فقتله ووقعت الحرب وتشمَّر عَدِىٌّ ابن ربيعة ، وهو مُهَلْهِل للأخذ بثأر أخيه ، وكرهت قبائل بكر مساعدة بنى شيبان رهط جساس وأعظموا قتل كليب فى ناب من الإبل ، وانقبض الحارثُ ابن عُباد فارس النعامة فى أهل بيته (وهو أبو بُجَيْر أو عمه) وقد مكثت هذه الحرب أربعين سنة على ما يقول الرواة ، وكانت فيها الغارة بين الرجلين والثلاثة ، وكان أعظم أيام تغلب على بكر يوم الذنائب[٢] الذى ذكره مُهَلْهِل فى قصيدته التى مطلعها : البسوس

أليلتَنا بذى حُسُمٍ أنيرى إذا أنتِ انقضيتِ فلا تَحورى

ويقول فيها :

فإن يَكُ بالذّنائب طال ليلى فقد أبكى من الليل القصير

---

(١) خزارى — كحبالى: موضع كانوا يوقدون عليه ناراً غداة الغارة .

(٢) موضع بنجد على يسار طريق مكة كانت به وقعة بين بكر وتغلب .

فلو نُبِشَ المقابرُ عن كليب ليَخْبُرَ بالذنائب أىُّ زير
كأنا غُدوةً وبنى أبينا بجنب عُنَيْزَةٍ رَحَيا مُــديرِ
وإنى قد تركت بوارداتٍ بُجَيْراً فى دم مثل العبـــير
هتكت به بيوتَ بنى عُبَاد وبعضُ القتل أشفى للصدور
على أن ليس عَدْلاً من كليب إذا برزت مُخَبَّأَةُ الخــدور
ولولا الريحُ أُسْمِعُ مَنْ بحَجْرٍ (١) صليلَ البَيْض تقْرعُ بالذُّكور

اشــتراك الحارث بن عباد فى الحرب بعد اعتزاله إياها

قالوا ولما بلغ الحارث بن عباد قتل ابنه بجير قال « نعم القتيل قتيلا أصلح الله به بين ابنى وائل » فقيل له أن مهلهلا حين قتله قال « بُؤْبشِسْع نَعْلِ كُلَيْب » فغضب الحارث وأحمسته بكر لذلك ، ولإسراف مهلهل فى قتلهم فتولى الحارث أمر بكر ، وأوقع بتغلب فى يوم قِضة وهو يوم تَحلاق اللِّمم ، وأسر مهلهلا وهو لا يعرفه ، ثم أطلقه وفى ذلك يقول الحارث حين تجهز لهم ، أبياته المشهورة التى أولها :

قرِّبا مَرْبِطَ النعامة مــــنى لَقِحَتْ حربُ وائلٍ عن حيالِ (٢)
لم أكن من جُناتها عَـــلِمَ اللهُ وإنى بحَرِّها اليــوم صَالِ
لا بُجيرٌ أغنى قَتيلا ولا رَهْطُ كُلَيبٍ تزَاجروا عن ضلال
يا بُجيْرَ الخيرات لا صلحَ حتى أملأَ السَّهلَ من رُءوس الرجال

روى صاحب الأغانى عن رواته :

محاورة بين أخت كليب وامرأته جليلة وما أجابت به أباها مرة

قالوا لما قتل كليب اجتمع نساء الحى المأتم فقلن لأخت كليب : رحِّلى جليلة عن مأتمنا ، فإن قيامها فيه شماتة ، وعار علينا عند العرب ، فقالت لها يا هذه اخرجى عن مأتمنا فأنتِ أختُ واترنا ، وشقيقة قاتلنا ، فخرجت وهى تجر أعطافها فلقيها أبوها مُرَّة ، فقال لها : ماوراءكِ يا جليلة ؟ فقالت : ثُكْلُ العَدَدِ وحُزْنُ الأبَدِ ، وفقدُ حَليل ، وقتل أخٍ عن قليل ، وبين ذَيْن غرسُ الأحقاد وتفتُّتُ الأكباد . فقال لها أبوها : أوَ يَكفُّ ذلك كرم الصفح وإغلاء الدّيات ؟ فقالت :

(١) قصبة اليمامة . (٢) الحيال بكسر أوله : امتناع الحمل .

أمنيّةُ مخدوعٍ وربِّ الكعبة ! أبا لبُدْنِ تدع لك تَغْلب دَم ربِّها ؟ ؟

قالوا ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رحلةَ المعتدى وفراقَ الشامت ، ويل غدا لآل مُرَّة من الكرَّة بعد الكرّه . فبلغ قولُها جليلةَ فقالت وكيف تَشْمَتُ الحرَّة بهتك سِترها ، وترقب وِتْرِها ! أفلا قالت : نُفرةَ الحياء ، وخوفَ الاعتداء . . . ثم أنشأت تقول (هو من أبرع ما قيل فى معناه) :

موقف جليلة من أخيها وزوجها

يا ابْنةَ الأقوام إن شئتِ فلا ... تعجَلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبيَّنْتِ الذى ... يوجبُ اللوم فلومى واعذِلى
إن تكن أختُ امرئٍ لِيمَتْ على ... شَفَقٍ منها عليـــه فافعَلى
جَلَّ عندى فعلُ جساسٍ فيا ... حسرتى عما انجلَتْ أو تنجَلى
فعلُ جساسٍ على وَجْدى به ... قاصمٌ ظهرى وَمُدْنٍ أجَلى
يا قتيـــلا قوّضَ الدهرُ به ... سَقفَ بَيْتَىَّ جميعاً من علِ
هَدمَ البيتَ الذى استحدثْتُه ... وانْثنى فى هَدْمِ بَيْتى الأوَّل
يا نِسائى دُونَكنّ اليومَ قد ... خصَّنى الدهرُ برُزْءٍ مُعْضِل
خصنى قتلُ كليب بلَظًى ... من وَرَائى وَلَظًى من أسْفَلَ
ليسَ مَن يبْكى ليوْمَيْهِ كَمَنْ ... إنما يبكى ليومٍ مقبلِ
يَشْتَفى المدرِكُ بالثأْرِ وفى ... دَرْكِ ثارى ثُكلٌ لِمُثْكَل
إنَّنى قاتـــلةٌ مقتولَةٌ ... ولعل اللهَ أن يَرْتاحَ لى

حرب داحس والغبراء والسباق عند العرب

ومن هذه الحروب حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان « وداحس فرس[1] لقيس بن زُهَيرِ العَبْسى ، والغبراء حِجْر لحَمَل بن بدْر » ، وكان الذى هاجها أن قَيْسًا وحَمَلا تراهنا على فرسيهما ، وجعلا الرهان مائة بعير للسابق منهما ، ثم قاداهما إلى رأس الميْدان بعد أن أضمروها أربعين ليلة وفى طرف الغاية شعاب

(١) وفى بعض الروايات : أن الفرسين لقيس ، وأن الفزاريين أجروا معهما فرسين لحذيفة بن بدر هما الخطار والحنفاء .

كثيرة ، فأكمن حمل بن بدر فى تلك الشعاب فتيانا على طريق الفرسين ، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردوا وجهه عن الغاية ثم أرسلوا الفرسين ، فلما شارفا الغاية ، وهى ذات الإصاد (اسم لقاليب بين هضب فى ديار نجد) برز داحس ، فوثب الفتية فلطموا وجهه فردوه عنه ، وتشاحن قيس ، وحُذَيْفَةُ أخو حَمَل بن بدر على السَّبَق ، ثم دفعه حُذَيْفة إلى قَيس ، وسكن الناسُ ، ثم بدا لحذيفة بعد ذلكَ وندّمه الناسُ ؛ فأرسل ابناً له يسترد السَّبَق من قَيس ، فقتله وأوشكت الحرب أن تقع ، ولكن القوم اجتمعوا ، فاحتملوا دِيته إلى حُذَيفة ، وسكنوا إلى أن استغرد حُذَيفةُ أخًا لقيس هومالك بن زُهَير فقتله ، فقامت الحرب.

اشتراك الربيع بن زياد مع قومه فى الحرب

وعاد الربيع بن زياد العبسى إلى قومه ، وكان بينه و بين قيس بن زهير شحْناء ، فتصالحا واجتمعا على قيادة عبَس فى هذه الحروب ، و إلى هذا السبب يشير قيس بقوله :

ألم يأتيكَ والأنباء تَنْمى ... بما لاقتْ لَبونُ بنى زيادِ
ومَحبِسُها على القُرَشِى تُشْرَى ... بأدراع وأسياف حِدَاد
كما لاقيتُ من حَمَل بن بدرٍ ... واخوتِه على ذات الإصاد
هُمُ فخروا علىّ بغير فخر ... ورَدُّوا دونَ غايته جَوَادى

يوم المريقب

وكانتْ بينهم أيام كثيرة من أشهرها يوم المُرَيْقِب من أرض الشَّرَبَّة فى ديار غَطَفَان ، وهو لعبَس على ذُبيان ، وفيه قتل عنترةُ الفوارس ضَمْضَما المرّى ، وهو القائل يتوعد ابنيه حُصَينا وهَرِما ، و بلغه أنهما يشتمانه و ينذُران دمه :

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تدُرْ ... للحرب دائرةٌ على ابْنَىْ ضَمْضَمِ
الشَّاتِمَىْ عِرْضِى ولم أشْتُمْهُمَا ... والنَّاذِرَيْنِ إذا لمَ الْقَهُما دَمِى
إن يَفعَلا فلَقَدْ تركْتُ أباهما ... جَزَر السِّبَاعِ وكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ

ثم يوم ذى حِسَى ، وهو واد من أرض الشَّرَبَّة ، وهو لذُبيان على عَبْس ،

يوم الهباءة

ثم يوم الهَبَاءَة ، ويُسمى أيضاً يوم جَفْر الهباءة (والجَفْر البئر الواسعة أوهى

مستنقع فى ديارهم) وفيه قتل حُذَيفة وحَمَل ابنا بدر الفَزَّارِيَّان ، وعظم عند الناس قَتْلُ حُذَيْفة ، وتفاقم الأمر ، وطالت على الحَيَّين الحربُ حتى ملوا فسعى بعض الأشراف بينهم بالصلح ، وتقدم إلى ذلك الحارثُ بن عَوْف[1] ، وهَرِمُ بنُ سِنَان بن أبى حارِثة المرّى ، فاحتملا ديات القتلى فى أموالهما ، وسكنت هذه الحروب التى دامت زمناً طويلا ، وإلى هذا أشار زهير فى معلقته بعد ما حضّ على السلم ، وعظم من رزايا الحرب قال :

الحارث بن عوف وهرم ابن سنان يسعيان فى الصلح

لَعَمْرِى لنعمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُما … على كل حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَم

تداركتُما عَبْساً وَذُبْيَانَ بعدَ مَا … تَفَانَوْا ودقُّوا بينَهُمْ عِطْرَ مَنْشِم

(ومنشم امرأة عطارة فى الجاهلية ذكروا أن قوماً خرجوا فى حرب فمسوا طِيبَها ، فانهزموا وقتلوا فتشاءم الناس بها) .

رثاء قيس بن زهير لقتلى الهباءة

ولقيس بن زهير شعر يرثِى به قَتلى الهباءة ، ولعله أول من فعل ذلك بمقتوله وهو قوله :

تَعَلَّمْ أن خيرَ الناس مَيْتاً … على جَفْرِ الْهَبَاءَةِ ما يَرِيمُ

ولولا ظلمُهُ ما زلتُ أبكِى … عليه الدَّهْرَ ما طَلَعَ النجومُ

ولكنَّ الفَتَى حملَ بنَ بدرٍ … بَغَى والبغيُ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ

أظُنُّ الحِلْمَ دلّ علىَّ قومى … وقد يُسْتَجْهَلُ الرجلُ الحليمُ

---

(١) وفى الأغانى فى ترجمة زهير بن أبى سلمى: أن الحارث بن عوف هذا رحل إلى أوس بن حارثة بن لام الطائى يخطب عليه إحدى بناته فردّه ، ثم لامته امرأته فعاد إلى الحارث ، فاعتذر إليه وزوجه من صغرى بناته بيهسة بعد أن عرض أمره على أختيها فأبتاه ، وأنه أرادها عند أبيها فمنعته ، ثم نازعها إلى نفسها فى الطريق إلى حيه فردّته أيضاً حتى رجع بها إلى قومه فأولم لها ودعا الناس ثم دخل إليها ، قالوا فقالت له : أتشتغل بالنساء والعرب يقتل بعضهم بعضاً ؟ وذلك فى آخر أيام داحس والغبراء ، فخرج فأصلح بين الحيين مع سنان بن أبى حارثة ، أو هرم ابنه على ماهو مروىّ ، ونحن نرجح ألا يكون هذا وحده هو السبب فيما خلده الحارث لنفسه من هذه الأكرومة .

وكان قيس بن زهير سيداً داهياً ، ويسمى قيسَ الرأى ، وهذه الحروبُ من حُروب مُضَر .

يوم شعب جبلة

وكان لعامر وعَبْس على ذُبْيَانَ وتميم ، ويعد من أعظم أيام العرب وأكثرها جموعا ، حدث قبل الاسلام بأربعين سنة ، وفيه ألَّبَ لَقِيطُ بن زرارة جموع العرب وأملاكها على بنى عامر و بنى عبس . فأرسل معه الجَوْنُ الكَلْبِيُّ ملك هجر وَلَدَيه ، وخرج معه حَسَّان أخو النُّعمان بن المُنْذِر لأمه ، وسِنَانُ بن أبى حارثة وغيرهم من الرؤساء .

وكان الأحوص بن جعفر — وهو رحا هوازن وشيخها — قد استشار قيس بن زهير ، فأشار عليه باحدى دواهيه فى مكايد الحروب . وذلك أنه أمره بادخال النساء والذرارى فى الشعب ، و إظماء الإبل ، ومنعها من المرعى حتى إذا جاءت هذه الجموع ، ودخلت عليهم فَمَ الشعب أطلقت الإبل من عُقُلها ، وأخذ الرجالة بأذنابها فانها تحن إلى مواردها ، فتنحدر من الجبل ، فتحطم كلَّ شيء ، والرجالة معها والفرسان والخيل من ورائهم . وقد صدق رأيه ، فان لقيطاً ومن معه اقتحموا عليهم فم الشعب ، ففعلوا ما أشار به قيس فكانت الهزيمة ، وقتل لقيط وأسر أخوه حاجب وقتل معاوية بن الجون الكلبي ، وفى ذلك تقول دُخْتَنُوس ترثى أباها لقيطاً :

فرَّتْ بنو أسَدٍ فِرا ... رَ الطَّيرِ عن أرْبَابِها
عن خَيْرِ خِنْدَفَ كُلِّها ... من كَهْلِهَا وشَبَابِها
وأَتَمِّها حَسَبًا إذَا ... ضُمَّتْ إلى أحْسَابِهَا

ويقول جرير :

ويَوْمَ الشعْبِ قد تركُوا لقِيطًا ... كأنَّ عليه حُـلَّةَ أرْجُوَانِ
وكُبِّلَ حاجِبٌ بِشَمَامِ حَوْلاً ... فَحَـكَّم ذا الرُّقَيْبَةِ وهو عَانِ

وذو الرقيبة هو الذى أسره .

أيام الفجار

ومن أيام العرب الفِجَار ، وهى أربعة أفْجِرَة ، وكانت قريش ومن معها من

كنانة على هوازن فى هـذه الأيام ، وكان أهمها الفِجَار[١] الرابع ، وهاجه قتل البَرّاض الكِنانى عُرْوَة الرَّحال ، مُجير لَطيمَةِ النُّعمان بن المنذر (وهى عيرٌ عليها قُطُفٌ وبَزّ كان يرسلها النعمان إلى أسواق العرب تباع له ، ويستبدل بها مما فى هذه الأسواق من أَدَم ومَتَاع) وكان عروة سيداً مطاعا ، والبَرّاضُ خليعا ليست له نباهة ولا شرف ، وقد شهد النبى بعض هذه الحروب ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : كنت أُنَبِّل على أعمامى وأنا ابن أربع عشرة سنة ، وقيل أكثر من ذلك (يعنى يناولهم النَّبْل) وإنما سميت هذه الأيام الفِجَار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم ، وهى عندهم : ذو القَعدة وذو الحِجة والمحرّم ورجب ، وكانوا يتناهون فيها عن الثأر والحرب .

يوم بعاث

ومن حروب الأوس والخزرج ، وهم سكان يثرب أو المدينة أنصار النبى صلوات الله عليه فى الإسلام ، يوم بُعاث ، وهو أعظم أيامهم (و بعاث فى ديار بنى قُرَيْظَة من اليهود ، وفيه مزرعة لهم تسمى قَوْرَى) وكان ليهود يثرب من بنى النَّضِير و بنى قُرَيظة شأن يذكر فى إعانة الأوس على الخزرج بسبب غدر عمرو بن النعمان

---

(١) وقد كان بعض هذه الأيام على قريش وأحلافها و بعضها لها على هَوازِن ، وهو يوم عُكاظ ، و إلى ذلك يشير ضرار بن الخطاب الفهرْى بقوله :

ألم تسأل الناس عن شأننا ... ولم يُثبتِ الأمرَ كالخابر
غَداةَ عُكاظ إذ استكملت ... هوازن فى لفها الحاضر
وجاءت سُلَيم تَهُزّ القنَا ... على كلّ سَلْهَبة ضامر
وجئنا إليهم على المضمَّراتِ ... بأرْعن ذى لَجَبٍ زَاخِرِ
فلما التقَيْنَا أذقناهُمُ ... طِعَانا بسُمْر القنَا العاثر
ففرتْ سُلَيمٌ ولم يَصْبِروا ... وطارت شَعَاعًا بَنُو عَامِرِ
وفرّت ثَقِيفٌ إلى لاتِها ... بمنقَلَب الخائبِ الخاسِرِ

ولغير ضرار شعر فى هذه الحروب اكتفينا بهذا منه .

البَياضى بِرَهائن اليهود التى كانت عند الخزرج على ألا يمينوا عليهم أخوتهم من الأوس .

وكانت الرؤساء يومئذ حُضَيْر الكتائب الأشهلى على الأوس ، وكان أمرهم قبل ذلك إلى أبى قيس بن الأسلت الوائلى ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، وفى هذا اليوم انهزمت الخزرج وأصابت حضير الكتائب جراحات شديدة مات متأثراً بها بعد ذلك اليوم ، فقال خُفَاف بن نَدْبة يرثيه وكان صديقاً له فى الجاهلية :

أتانى حديثٌ فكذبتُه ... وقيل خليلُك فى المَرْمَس
فياعينُ بكِّى حُضَيْرَ الندَى ... حُضَيْرَ الكتائبِ والمجلسِ
ويومٍ شديدٍ أُوَارِ الحَديـ ... ـدِ تَقْطَعُ منه عُرا الأنْفُس
فأوْدَى بنفسِكَ يومُ الوَغى ... ونَقّى ثيابكَ لم يَدْنس

وكان هذا اليوم قبيل الهجرة بنحو خمس سنين .

ومن الحروب التى وقعت بين العرب وغيرهم يوم ذى قار ، وهو ماء قريب من البصرة ، وكان بين العرب والفرس ، وهو أعظم أيامهم ، وكان سببه على ما يذكر الرواة أن كسرى استقدم إليه النعمان بن المنذر فى المدائن ، ثم غدر به وقتله ، وفى ذلك اليوم خطب هانِئُ بن قَبِيصَة الشَّيْبانى يحرّض قومه بَكْراً على القتال بقوله : يوم ذى قار

« يا معشرَ بَكر ! هالِكٌ معذور خير من ناج فَرُور ، المَنيَّةُ ولا الدنية ، استقبالُ الموت خير من استدباره ، وإن الصبرَ من أسباب الظفَر . قاتلوا فما للمنايا من بُدّ ؛ « وكان هذا اليوم بعد مبعث النبى صلى الله عليه وسلم » وأخبر به أصحابه فى حديث مروى « أن هذا أولُ يوم انتصَفَتْ فيه العرب من العجم وبى نُصِروا » .

وقد أكثر الشعراء من ذكر هذا اليوم ، ومن ذلك قول الأعشى من قصيدة :

لو أن كل مَعَــدٍّ كان شاركَنا ... في يَوم ِ ذى قار ما أخطاهم الشَرَفُ
لما أمَالوا إلى النُّشَّابِ أيديَهم ... مِلْنا بِبيضٍ لِمثْل الهَام ِ تَخْتَطِف
بَطارِقٌ وبَنُو مُلْكٍ مَرَازِبَةٌ ... مِن الأعَاجِمَ فى آذَانِها الشُّنُفُ
كَأنّمَا الآلُ فى حَافَاتِ جَمْعهِمُ ... والبَيضُ برق بَدَا فى عارِضٍ يَكِفُ
مَا فى الخُدودِ صُدُودٌ عَن سُيُوفِهِمُ ... ولا عَنِ الطَّعْنِ فى اللَّبَاتِ مُنْحَرَفُ

وللعرب غير ما ذكرنا أيامٌ كثيرة يطول علينا استيعابُها ، وقد استوفى معظمها صاحبُ العِقد ، ومنها فى كتب الأمثال والأغانى وابن الأثير شىء كثير ، فليرجع إليه من أراد .

وقد كانت هذه الحروب كما قدمنا من أعظم المواطن التى تهيج فيها النفوس بالشعر للتحريض على القتال ، وللنَّوْح على القتلى ، والافتخار بالانتصار ؛ والشعر كما يقولون : يوحيه الحُبُّ والحَرْبُ والموتُ .

النثر الجاهلى والشعر

وأيهما أسبق من صاحبه

من حق هذا البحث أن نصدّره بكلمة موجزة عن الشعر لا نعرض بها إلى مذاهب العلماء فيه ، ولا لاختلافهم فى تحديد معناه ، فإن لذلك موضعه من هذا الكتاب . ولكنّ شيئاً له خطره من خصائص الشعر هو الذى نعرض بهذه الكلمة للقول فيه ، وهو ما أجمع العلماء عليه منذ عرف ذلك الكلام المنظوم فى لغات الإنسان ، وذلك أنهم متفقون جميعاً على أن يكون لهذا النوع الرفيع من الأدب لغة خاصة ممتازة ، وعلى أن تكون هذه اللغة بحيث تتسع جوانبها لمطارح الخيال الشعرى ، وتنهض مادتها بكفاية الشاعر المتخير للفظ الكريم ، والقول الجزل ، وعلى أن يكون له فى الجملة حظ من الجمال الفنى غير يسير ، وهو عندهم كالغناء والتصوير ، ويشبهون بناظم الدرّ ناظم الكلام ، فلا جرم كان الشعر بهذا الاعتبار ـ والعرب لا تعرفه إلا متحلياً بإيقاع الوزن ، ومسلوكا فى نظام القافية ـ يعدّ حضارة فى اللغة ، وزينة فى بيان المنطق ، وحلية حادثة فى الأدب. وإذا ليس من المعقول أن يكون الشعر خطر فى هذه الحُلة هكذا على ظهر الزمان قبل أن يكون النثر المتحرّر من هذه القيود قد ذهب مذاهبه ، وأخذ من الحياة حاجته ، ولكن رأياً جديداً لمحض الخلاف على الناس يزعم صاحبه أن هذا الشعر مشى على قدميه فى الأمم القديمة ، وما زال كذلك يمشى قُدُماً فى الأمم الحديثة قبل أن يتخلق النثر ، وقبل أن يولد بأدهار طوال ، ثم يعود فيخفف من هذه الغُلَواء بأنه يعنى ذلك النثر الأدبى الذى يظهر فيه أثرُ التعقل ، وعمل الروية ويتصل بذلك الجمال الفنى الذى يعمد به صاحبه إلى التأثير فى النفوس ، وكأن الشعر عنده ، وله ماله مما أسلفنا آنفاً محروم من أثر التعقل فارغ من تدبير الروية

وليس فى شىء من قوّة التأثير ولا جمال الفن ، وهذا ضرب من لغو الحديث قامت فيه هذه الفكرة على أوهام ثلاثة :

الأول : هـذه الدعوى بأن الأمم القديمة والحديثة تغنت ونظمت الشعر قبل أن تعرف هذا النثر بزمن طويل ، ويوشك أن يكون هذا النثر الأدبى لم يوجد إلا حين شاعت فى الناس هذه الظاهرة الصناعية التى يسمونها الكتابة ، وهـذه الدعوى قد لا تدلّ على شىء أكثر من أن النثر فى هـذه الأمم القديمة ذهب مع أنفاس المتكلمين به فى طيات الفضاء ، ولم يتوافر له من عناية الحفاظ ، ونقل الرواة مثل ما توافر للشعر ، لكثرته ولسرعة تبدده فى الاسماع ، وشدة المئونة فى حفظه على الناس ، والأمر ليس كذلك فى الشعر لما فيه من لطف المداخلة للنفوس ، والموافقة للطباع ، ولما له من مشاكلة النَّغَم ، وتوافق الجَرْس ، وحلاوة الايقاع والوزن ، ولأنه أدب منظوم ، ومازال المنظوم من كل شىء أمتع للنفس وأحلى على القلوب من المنثور من جنسه ، وإذا تأملت رأيت النظام هو سرّ الجمال فى مظاهر الوجود حتى فى الجماد والحجر .

ونحن مع هذا ان لم تدعنا الجرأة الى الحكم على أدب الأمم الأجنبية القديمة والحديثة نستطيع أن نجعل العرب أنفسهم مقياساً لهـذه الأمم إذ كانوا شركاءهم فى هذه الموهبة التى لا تختلف فى جوهرها فى بعض هذه الأمم عن بعض ، ونحن نعلم أن العرب فى صدر الاسلام وسعت لغتهم هـذين الأدبين ، ودانت فنونها لجهابذة الكلام ، ومصاقع الخطباء ، وسفرت محاسنها لخيال الشعر . وتتابعت عصور الأدب من أموية وعباسية إلى وقتنا هذا ، وهى حافلة بكبار الكتاب ، وفحول الشعراء ، والأدبان متعاصران ، وللشعر قوم يسيرونه فى الآفاق ، وللأدب المنثور آخرون يذيعونه فى الناس ، وفى مصر وغيرها من الأقطار العربية الكتاب والشعراء متطاردون فى حلبة الأدب كفرسَىْ رِهان ، وما علمنا أن جيلا من هذه الأجيال تغنى ، ونظم الشعر ، ثم مضت به الدهور حتى استطاع أن يقول النثر المحبر والكلام المأثور .

وبعـد : فقد نزل القرآن بلغـة قريش ، وجرى على المألوف من أفصح الأساليب العربية ، فهل كان الذى بهر العرب من بيانه وأعجزهم عن معارضته أنه فاق فى أعينهم ما كانوا يتبادلونه من الأحاديث المبتذلة والعبارات المقتضبة ، ولم يكن فيهم جدل ، ولا لهم بيان مهذب ، أو أدب ممتاز .

وأىّ فضل يبقى للقرآن بعـد أن يكون إنمـا يوزن بهـذه اللغة الضائعة فى تضاعيف الحديث المبتذل فى شئون الحياة ، التى تكر مع الانسان فى الاصباح والامساء ؟ ألا إنما عارض القرآن هذه المعارضة القوية ، وتحدى ذلك البيان المأثور فى بلاغات الخطباء ، ومساجلة الخصوم ، ومقارعة أهل الجدل من قوم كان الكلامُ سـيدَ عملهم ، وأفضـل صناعة فى أيديهم ، فعجزوا والعُـدّة حاضرة ، والشمل مجتمع . وكذلك تكون معجزات الأنبياء من جنس الصناعات الشائعة فى أزمانهم كالسحر فى آل فرعون ، والطبّ فى بنى اسرائيل ، وهذا البيان فى العرب ليكون العجز من المعارضين مع فضل القدرة ، و تعاطى لهذه الصناعة ، دليلا على صدق النبوّة ، وذريعة دافعة إلى الاذعان .

الثانى : ومن الأوهام التى بنيت عليها الفكرة ، القول بأن الشعر حين ضاقت أوزانه بمظاهر العقل الانسانى دعا ذلك إلى التحلل من هذه القيود ، و إرسال الكلام منثوراً متعملا على ما يدعو الطبع وتمسّ إليه الحاجة ، ومعنى ذلك أن الناس كانوا أوّلا يشعرون ، ثم أنه لمـا خرج العقل من سذاجته ، وانبسطت آثار القرائح على ألواح الـكون ، عاد الناس فتفككوا من هذه القيود والأوزان ! أى أن اللغة حين فارقت دور المحاكاة والإشارة ، وتمـالك لها قوام لفظى مداه أن يقوم بالتفاهم الضرورى للحياة ، دبّ إليها الشعر بأوزانه وقوافيه أ ! وما أشبه هذا القول بمن يزعم أن الإنسان كان يسكن البيوت ، و يحتجز دون الأسوار ، ويعتقل بالآطام والحصُون ، وكانت له حدود وأوزان من النظام الاجتماعى دعاه تعقله الواسع بعد ذلك إلى أن يأنف من هذا الضيق ، و ينطلق من تلك الأسوار و يطأ ذلك النظام الاجتماعى ، فيغور فى الصحراء ، و يتطرح على مجاهل الأرض ،

ويخسف الله به، فيعود من كمال إلى نقص، ومن نظام إلى فوضى !! والاستدلال على فساد هذا الوهم لعب بالأفهام، وإضاعة للنفيس من الوقت .

الثالث : القول بأن فى "البيئات المنحطة، وفى أقاليمنا المصرية من ينظمون الشعر بلغاتهم العامية، وهم لا يحسنون شيئاً من هذا النثر إلا إذا أخذوا بحظ من التعليم، وهذه أيضاً مشاهدة ناقصة إذ أن الذين يلابسون العامة، ويداخلون أهل القرى، يعرفون فى لحن كلامهم أن منهم من هو سمح اللفظ قريب الاعراب له قصص، وله فصاحة على قدره فى عاميته، كما أن منهم الفَدْمَ الجَافِيَ الذى يعيا بالإبانة عن أهون مافى نفسه من المعانى، هذا وذاك يوجدان فى العامة كما يكونان فى الخاصة . ومن قال ان فطرة الشعر أو طبع الأدب وقف على فئة من أجناس الناس دون فئة، وانها لا تكون إلا فى الخاصة دون العامة، وفى المتعلمين دون الجهلاء ؟ أنها كما توجد فى هؤلاء توجد فى أولئك لأنها خلقة موهوبة أو ملكة متوارثة، وما هو إلا أن تأخذ لسان هذا الجاهل الذى يظهر منه شعور الشعر، أو فصيح المنثور العامى، فتضعه على فصيحة غير عاميته، حتى يخرج منه الشاعر، أو الكاتب المضارع للفحول المقدمين من الشعراء والكتاب، وليس الأدب هو الشعر وحده، وإنما هو هذا الطبع الذى يكون فى أحد من الناس شعراً وفى غيره انشاء وترسلا، ومن الناس من يوهب فطرة الشعر فهو دهره لا يحسن أن يكتب، وان فعل جاء له من النثر المتكلف أو المسجوع مالا يكون شعراً، ولا يبلغ أن يكون نثراً مطبوعا، ومنهم من هو منشئ ومترسل فهو أبداً كاتب أو خطيب، ولا يحسن أن يكون شاعراً، ويندر جدا أن يجمع الواحد بين الموهبتين، وتستوى بلاغته فى الأدبين ـ فطرة الله التى فطر الناس عليها ـ .

والقول الفصل فى هذا الموضوع أن ظهور الشعر فى الأمم القديمة لاينبغى أن يحمل فى جملته على شىء أكثر من أنه هو الذى وعته الصدور، وتوارثته الأعقاب، وظفر من عناية الحفاظ، وتناقل الرواة بما لم يظفر بشىء من مثله النثر، فضاع على كثرته، ولم يبق منه إلا قليل يوشك أن يكون شيئاً لا يذكر بجانب ما حُفظ.

من الشعر لما بيناه ، ولمكان الأمية عند العرب خاصة ، وعند أكثر الأمم القديمة عامة ، وهذا بعينه لا يزال شأن الشعر والنثر حتى فى العصور التى فشت فيها الكتابة ، وتوافرت آلات التقييد والحفظ ، فخطباء العرب وكتابهم فى صدر الإسلام ، وفى سائر العصور العربية ، وفى عصرنا هذا لا يجد كلامهم من حظ العناية ، وحرص الناقلين ما يجد الشعر من ذلك ، وهم على هذا عماد الملوك ، وضباط الجبايات ، ووزراء الدواوين ، وطلائع الانقلابات فى كلّ أمة ، وفى كلّ عصر ، والتاريخ أعدل شاهد : أما أن يكون الناس قد وقع لهم فى منثورهم قديماً ما يشبه الشعر فى لطف خياله ، وحسن تصويره ، فلا يزال هذا من الأدب المنثور كما قال حسان لابنه(١) ، وكما قيل لبشار فى أبياته فى المشورة تقريظاً لكلمته (أن المشاوِرَ بين صواب يفوز بثمرته ، أو خطأ يشارك فى مكروهه) أنت فى هذا أشعر ! ودعوى المجازفين بهذا الفرض أنهم إنما يقصدون بالنثر صناعة الكتابة تعتبر هرباً من التحقيق ، وفراراً من إقامة الدليل ، إذ لا خلاف بين الناس فى أن النثر بهذا المعنى متأخر فى الظهور عن الشعر ، على أن بعض كبار المستشرقين من علماء الألمان كجلدزهر وبروكلمان ، على الرأى القائل بأن السجع كان المرحلة الأولى التى عبرها النثر إلى الشعر عند العرب كما سيأتى .

ونعود فنقول إن كلا من الأدبين يفيض عن الطبع ، ويتصل بعواطف النفوس ، وهما يقاسمان بقية الفنون الجميلة وظائفها الطبيعية من نقل صور الأشياء ، وتمثيل صفاتها وخصائصها وألوانها فى جمالها ودمامتها ، من غير تشويه ولا مجاملة ،

---

(١) وكان قد لسعته نحلة أو نحوها ، وجاء أباه يبكى فاستوصفه ما أصابه ، فقال : كأنه ملتف فى بردحبرة ! فقال له شعرت يا بنى . وكما قال لبيد لابنته حين قالت للوليد أمير الكوفة فيما ردت به من أبياتها عن أبيها :

فعد إن الكريم له مَعَادٌ وظنى بابْنِ أَرْوَى أن يعودا

فقال لها أبوها : أحسنت يابنية لولا أنك استطعمته ، فقالت : يا أبى ان الملوك لا يستحيا من مسألتهم . فقال لها : وأنت فى هذه أشعر .

بزيادة أونقص ، وإن الأديب المطبوع بلطف تأليفه وسلامة أقسامه ، يريك من الحروف والكلمات شمائل الأشياء ، وصور الكائنات ، ويتجاوز ذلك إلى تحضيل المعانى الوجدانية ، التى قلما تنالها تهاويل النقش ولا أصباغ التصوير ، وكان الأدب من هذه الناحية أرقى طبقات الفنون وأكبرها أثراً فى النفوس ، وهو بلا ريب نتيجة الهبة الفطرية المتصلة بمشاعر النفس وقوّة الخيال ، لا يختلف فيه الشاعر والكاتب إلا بأن يكون فى أحدهما كلاما موزونا ، وفى الآخر طليقاً مرسلا ، ينفذان كلاهما عن الخيال ، ويصدران عن الطبع ، ولا يحرمان جميعاً عمل العقل الذى يتمثل فى الموازنة المفضية إلى خلوص صفحة الأدب من بعض ما يكون فيها من الهجنة أوخطأ الفكرة . ولو صح أن تكون قوّة العقل مصدراً لأحد الأدبين لكان أولئك الرياضيون ، وعلماء الفلك والمتبحرون فى علوم الطبيعة والمنطق والفلسفة كتابا أو شعراء ! والأمر ليس كذلك ، بل التجربة الواقعة تدلّ على أن الذين تنضج عندهم قوّة التفكير يضعف فيهم التخيل وتخمل الحافظة ، والذين يسمو خيالهم يقصر مداهم فى التفكير ، ويقلّ تعمّقهم فى البحث . وكذلك قوى النفوس لا تستوى فى أحد إلى درجة من الرقىّ واحدة إلا أن يكون من أفذاذ الخلقة الخارقة للعادة .

وإنك لترى أكثر ما يغلب على الأديب ، أن يكون هادئ الفكر ، نفوراً من الاستقصاء ، قليل الإمعان فى استخراج المعانى من مظانها البعيدة المجهدة ، إذ كانت وظيفته الاسفار عن محاسن الوجود ، وتمثيل مايتصل بالاجتماع من ألوان الأخلاق والعادات ، وتوجيه الرسالة دائما إلى العاطفة النافرة من سماجة الفلسفة ، وثقل التكاليف العلمية والمباحث العميقة ، وحسبه أن يصف السماء والأرض وما بينهما من غير أن يقول : ان هـذا الأديم الصافى المحيط بالأفق وهم لا وجود له ناشئ من خطأ النظر ، وإنما هو طبقات الهواء المتكاثف ، ولا أن يتناول شيئاً من نبات أو حيوان ، فيذكر فصائله ، ويعلل لقاحه كما يفعل علماء النبات والحيوان ، وذلك الذى جعل النقاد من أهل الأدب يعتبرون أمثال أبى تمام وأبى الطيب والمعرى حكماء ، وإنما الشاعر البحترى .

ومن جهة اتصال الأدب بالحياة البشرية صحّ اعتباره كذلك موجوداً حيا، يتحتم أن يتعرض وجوده لأدوار النشوء والارتقاء، وأن تكون له طفولة تاريخية، شأن جميع الموجودات الحية، لم يكن يزيد فيها على أن يكون جملة أو جملتين يتصلان بفيض الشعور، ويحملان بعض ما في الوجود من الجمال.

وحينئذ كان الأدب كله كلاماً منثوراً مضى في هذه النشأة دهراً لم يتميز فيه أحد قسميه عن صاحبه، حتى أصغى الإنسان إلى تلك الطبيعة الراقصة المغنية بضروب من الإيقاع والنغم على مضاربها وأوتارها المختلفة. وما لبث أن اختمر الطرب في نفسه، فأرسله على نبرات صوته كهُتاف الحمائم، وبُغام الظباء، وتناوح الرّياح، ثم أنِفَ أن يكون يضاهي الحيوان الأعجم فعمد إلى تصيير تلك السذاجة الصوتية كلاماً مفهوماً موقعاً على تلك المسافات المتساوية من نقرات الحوافر، ودقات الأخفاف، فنشأ الوزن، وتولدت الأقسام في الكلام، وهي طفولة الشعر المتمثلة في صورة الفقر القصيرة من الأسجاع الموزونة والفواصل المتساوية، وكان السجع بالطبع كالفصال لذلك الوليد الناهض حتى تحرك، وأخذت تمدد به أوزانه الواسعة، وأعاريضه المختلفة، وامتاز حينئذ عن سائر الكلام المنثور، على الأقل بالوزن الذي لا يخلو منه في لغة من لغات الناس.

وإذاً كانت نشأة الأوزان متأخرة في الظهور عن الإرسال والبسط للكلام، وكان الشعر بهذا الاعتبار متولداً من النثر، ومتأخراً عنه في الوجود، ولا يقال إنه كان في ذلك الوقت شعراً فنياً يقابل كلاماً متبذلا لما يترتب على ذلك من أنه يكون ولدا مخلقاً كاملا مناقضاً لسنة الوجود في جميع الأشياء وهو كما يرى كلام ظاهر الفساد والبطلان.

ومن هنا يتبين خطأ التقليد وسوء النقل من المتتبعين لآراء الافرنج وهم ينسبونها كذبا مع هذا لاختراعهم، واحتيال عقولهم في درس نظريتهم القائلة بظهور الشعر في الآداب القديمة قبل النثر، لأن ذلك على ما يظهر محمول على أنه كان قليلا طريفا أمكنت العناية من الاحاطة به ومن تدوينه، وخفت المئونة

على الناس فى تحمله وروايته ، وهو شأنه فى كلّ أدواره التاريخية ، قلما يساويه النثر فى حظه من هـذه العناية . وأنت تجد لكلّ شاعر ديوانا يتناوله العلماء بالتأويل والشرح حتى المتشاعرين من أدعياء زماننا ، ولا تجد لأبلغ الكتاب إلا متفرقات فى بطون الكتب ، لا تعد شيئاً بجانب ماضاع من آثارهم وثمرات قرائحهم ، وهذا جرير والفرزدق والأخطل ، ولكلّ منهم ديوان حافل ، قد زها زمانهم بجهابذة البيان المنثور، كزياد والحجاج وعبد الملك وابن صفوان وأضرابهم، وليس بأيدى الناس من بلاغاتهم على سعة شهرتهم وامتداد حياتهم ، سوى هذه الخطب القليلة و بعض النتف المقتضبة من رسائلهم وأحاديثهم، و يمضى بك التنقير فى عصور الأدب ، فلا تجد حظ النثر من التدوين إلا على هذا النمط الذى بيناه لك حتى فى أجمع الكتب لأشتات هذا الأدب من أمثال الأغانى وأشباهه .

ولعلك تقول : فما بال هذه المؤلفات النافعة وتلك الكتب العلمية لا تكون دواوين لهذا النثر ؟ وما نحسب أن أحداً من الناس يقول إن مؤلفاً فى النحو والاشتقاق ، ولا جامعاً فى الأصول أو الفلسفة ، ولا كتابا فى الكيمياء والمنطق، بل ولا محيطاً من جوامع اللغة يصحّ أن يسمى نثراً أدبيا . وأنت تعرف أن لهذه العلوم والصناعات حدوداً واصطلاحات تخضع لها الأقلام ، وترتبط بقوانينها اللغات ، إلى ما يتصل بأبحاثها دائما من أثر الفكر المتعمق والمبالغة فى بحث بواطن الأمور وعلل الأشياء ، وما يزال الأدب المنثور مستثقلا لهـذه المئونة كارهاً كما قدمنا لهذا الاستقصاء . وإنمـا يكون أدبا مطبوعا إذا كان سهلا ممتنعاً صادراً عن شـعور النفس ، ومتحللا من ذوب القلوب جمالا و بيانا للناس ، ولا نقول بحرمان هذه اللغات التأليفية فى العلوم والصناعات المختلفة من آثار الأدب ، فقد يفيض عليها قلم الكاتب توخياً لتقريب الأسلوب ، وتسهيل التناول بقدر مايسمح به المقام ، كما لا نقول بتجرّد الأدب من المعانى الحكيمة والأمثال المضروبة ، الناشئة من تجارب الحياة ووقائع المشاهدة مما يعرفه الناس سواء ، تجىء من عفو

الخواطر غير مكدودة ولا متعملة ، فتكون كالثمرة اليانعة بين نواضر الزهر حين يستسلم الأديب لعواطفه الوطنية ، ويهيب بالجماعة إلى ابتغاء المنزلة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والله الموفق إلى الصواب .

منزلة النثر الجاهلى من الأدب والتاريخ

الحافظة والرواية عند العرب واتصالهما بطبقات الرواة الإسلامية .

المعلوم أن العصر الجاهلى يمتد إلى ما قبل الاسلام بنحو قرنين تقريباً ، وأن اللغة خلال ذلك التاريخ ، وعند اقترابها من ظهور الإسلام ، كانت ملحمة لقِرَاع الألسنة ، وتصاوُل الفصحاء فى الأسواق الأدبية والمحافل الجامعة ، وأنه لم يكن لأشراف العشائر عند تفاقُم الفتن ، ولا لحكّام القبائل عند ترافع الخُصُوم ، ولا للأبطال فى صعصعة الحروب ولا للآباء عند تصرُّم الأعمار ، ولا للأمهات مع بناتهن عند الإهداء ، ولا للفتيان فى المناقلة والسمر ، لم يكن لهؤلاء جميعاً بُدٌّ من كلام بل من كلام طويل يجذون به قرون الفتنة ، ويصيبون مقاطع الرأى ، ويصرفون الناس من قبله إلى السلامة . فأين ذلك النثر كله ، وما بال هذا الكلام ليس من جملته بأيدى الرواة إلا قليل يستطيع كاتب فى عصر واحد أن ينشئ مثله ، ولا يبلغ أن يكون فى عرض أدب ابن المقفع ، ولا فى سَعَة بلاغات الجاحظ ؟ وهذا قُسُّ بنُ ساعدة خطيب العرب وقاضى خطبائها فى عُكَاظَ ، ليس له إلا هذه الأسطر القليلة من خطبة لو لم يشهدها رسول الله ماتناقلها الرواة ، وما اتصل خبرها بنا إلى اليوم ! لاجرم لقد عدت عليه أسباب التضييع ، وتبدّد لكثرته على الأسماع ، وثقلت المئونة فى حفظه على الناس ، وشغل العرب عنه بالشعر لاستطرافهم له ، وغلبته على عقولهم ، ولوفائه بما حرصوا عليه من تقييد مآثرهم ، وتخليد مناقبهم وأيامهم ، حتى مست الحاجة فى ذلك الوقت إلى من يتخصص فى حفظ أنساب القبائل والاحتياط لما يفوت على الكافة من جملة

أخبارها ، فنشأت طبقة النسّابين الذين من أشهرهم : دَغْفَل الشَّيبانى ، وزَيْد ابن الكيِّس النَّمَرى ووَرْقَاء بن الأشعر المعروف بابن لسان الحُمَّرَة وأضرابهم .

وإذاً لا ينبغى لما بقى من هذا النثر ــ على أن له خطراً من الوجهة الأدبية ــ أن يكون له قيمة تاريخية يعتمد عليها الباحثون فى استخراج صورة واضحة لحياة العرب فى هذا العصر الجاهلى .

ولما كانت حظوة الشعر بتوافر الرواة على تتبعه، وصرفهم وجوه العناية لروايته، وتسييره مع قوّة إثبات المحفوظ منه فى الصدور ، إنما حدثت لمكان الوزن والقافية. وإن النثر لم يحظ بكل هـذا فى الجاهلية ولا فى غيرها من العصور الأدبية كما قدمنا ، كان ذلك غير قادح فى الحافظة العربية التى بلغت من القوة والوعى عند العرب إلى مالم يصل إليه غيرهم من الأميين من أمم التاريخ ، لأنهم ــ فوق أميتهم ، وقلة اشتغالهم بغير الكلام من الصناعات ــ كانوا أهل حجاج وجدل ، قد فشت فيهم عادة المساجلة ، وانتشر بينهم التفاخر بالمآثر والتنابز بالألقاب ، فتداعوا إلى ما يرتبطون به مناقبهم و يشهدونه على جملة تاريخهم ، وأصبح العربى منهم كَلِفاً بأن يتخذ من قوّة حافظته سجلا جامعاً يساعفه عند الخاطر الهاجس والحجة البادية ، وعنـد محاولة الإقناع ، والظفر بالغلبة عنـد المناظرة ، ولا تغنى فى ذلك الكتابة ، حتى لو كانت ممكنة حاضرة وصناعة فاشية ، ما عدلوا إليها ولما استغنوا عن الحافظة بها .

وقد يقال إن الحافظة قلما تسلم من خطأ أو تبرأ من غفلة أو سهو مهما ألححنا فى الإيمان بعجائبها ، ومهما قلنا إن فى أيامنا هـذه من الأميين من لهم أعمال واسعة ، وتجارات كثيرة ورؤوسهم دفاتر أعمالهم ، وسجل حسابهم ، وتقولون ما ظنك بالخطيب يقوم على الناس بالكلمة الطويلة يسمعها الراوية لأول مرّة ، فيحفظها على استوائها وأنت لو حاولت من المتكلم نفسه أن يعيد عليك كلامه ، فقد يعجزه ذلك ، وربما غير فيه وبدل . وهبك توقفت إلى تصحيح الخطبة وتعديل الكلمة فى المقام الواحد لكثرة الحضور ، وحرصهم على الاستماع والحفظ

وقلت ماعسى أن يفوت أحدهم من عبارة أو لفظ ، قد لا يفوت الآخرين ، فكيف بهذا الكلام يبقى مصونا فى تلك السلسلة الطويلة من المتناقلين من راوية إلى راوية ، ومن جيل إلى جيل ، حتى ينْسخ فى الكتب كما قيل من غير تغيير ولا تبديل !! ونحن نُسلم بما تقولون ، ونحسَب أن شيئاً من هذا لا يقدَح فى أصل الخبر ، ولا يَزيد على أن يَدخُله بعضُ التحريف من زيادة أو نقص ، والأصل على الجملة صحيح ثابت ، حتى لقد يتصل الخبر المروى باعتبارات قوية تظاهر الناس على حفظه ، وشدة الأمانة فى أدائه كشرف قائله إذ كان فى حفظه تشريف لهم ، أو كاشتماله على تفصيل لدين أو تأويل لشبهة فى حلال أو حرام كما فى خطب النبى صلى الله عليه وسلم وأحاديثه ، وابعضها طول ، وفى بعضها قَصَص ، وهى لم تكتب إلا بعد زمن طويل ، وكذلك خطب الخلفاء ، وأعيان المتكلمين فى العصرين الإسلامى والأموى من بعده ؛ ومع ذلك لم تسلم هذه على الأقل من الاختلاف فى الرواية كما تعلمون .

ولقد قويت العناية بالرواية والحفظ للشعر واللغة ، فى الصدر الأول لما ظهر من الحاجة إلى ذلك فى التفسير والتأويل ، حتى اتصلت هذه الآثار بطبقات الرواة الإسلاميين طبقة بعد طبقة ، وصار آخرهم كأولهم فى الاستبصار والتثبت ، إلى أن استبحر التدوين فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، وبذلك وصلت اللغة أو التاريخ اللغوى والأدبى فى جملته إلى الأخلاف من العصور المتأخرة ، وكانت أولية ذلك على يد الطبقة الثالثة من الرواة التى رأسها الخليل بن أحمد المتوفى بعد منتصف القرن الثانى الهجرى ، وهو واضع كتاب العين الذى هو أول كتاب جمعت فيه اللغة .

وبعد : فنستطيع أن نمشى بقدم ثابتة على هذه القاعدة فيما نورده من أقسام الكلام العربى من الخطب والوصايا والمحاورات والحكم والأمثال ، بقدر مايهدى إليه اجتهادنا فى التوفيق ، وحرصنا على تحرى الصواب والله الموفق .

الخطابة عند العرب

لاشك أنه كان للعرب خطابة ممتازة ، وكان فيهم سادة مُقدَّمون لهم عارضة ، وفيهم بيان ولَسَنٌ ، وأنه كان لهم من أشراف عشائرهم خطباء يقومون فيهم مَقام المؤدِّبين من الوُلاة فى الأمم ذات النظام الثابت والدولة القائمة ، وكان لهذا الفنّ من الكلام دواعٍ حاضرة تكون فى كلّ جماعة تضمُّهم رقعة من الأرض ، وذلك أن العرب كغيرهم من الأمم كانوا خاضعين لضرورة الاجتماع البشرى الذى يَحْتِم على القبيل من الناس أن يُلقوا بأيديهم إلى واحد منهم ، يتميز بما يكون له دون سائرهم من فضل العقل ، أو بَسْطَة الغنى ، أوقوة البأس ، أو مايشبه ذلك ، مما يُصَيِّرُ الناس إلى التسليم له اختياراً من عند أنفسهم ، واسْتِكْفافاً للعادية من سُفَهائهم ، وهذا هو معنى قول علماء الاجتماع : إن الملك مَنْصِب طبيعى فى الإنسان . إذ لا ينبغى أن يكون الأصل فى معنى الملك شيئاً أكثر من هذه السيادة الناشئة عن التفوُّق الطبيعى لبعض أفراد الجماعة على بعض ، واعتبر ذلك بالآباء فى أبنائهم وأهليهم ، وهم الأسرة الصغرى ، وما الجماعات والأمم إلا أمثلةٌ مكبرة على نحو هذا النظام الاجتماعى الصغير ، فالعرب على أنه لم تكن لهم دولة ، ولم يجمعهم ملك ولاانتظمتهم شريعة ، كان حتما عليهم أن يخضعوا كما يخضع سائر البشر لهذه الظاهرة السابقة ، التى كانت السيادة فيها مصدرا للهداية ، ومادة للإصلاح ، وأداة لحراسة الاجتماع ، وتنظيم ما فيه من قوى الحياة ، وأسباب تنازع البقاء ، واستتبع ذلك بالضرورة الحاجة إلى استعمال الجارحة التى هى فى الحقيقة مترجمة عن الفكر ، مؤدية إلى هذه المعونة الاجتماعية وهى اللسان ، وكانت هذه الحاجة الماسة هى التى فتقت له وجه الحيلة فى تأليف هذا النوع من الكلام ، ونشأت حينئذ الخطابة تالية فى الوجود لاستقرار الجماعات البشرية ، وظهور هذه الرياسات المختلفة ، وهى لا تزيد فى معناها على أن تكون كلاماً له شأنه من التأثير ، يلقى على

نشأة الخطابة

معنى الخطبة

الجمع من الناس لإقناعهم بما فيه الخير لعامتهم فى معاشهم ومعادهم ، وقد جرت العادة أن يكون بطش الحكام متأخراً فى الوجود عن الإعذار بالكلام .

ومن هنا نستطيع أن نتصور كيف كانت الخطابة صفة لازمة للأنبياء والرسل، فيما يبلغون عن الله من الدعوة إلى الهدى ودين الحق ، وكيف كانت عماد القادة من هداة الأمم ، يتقدمون بها فى مفاتح الانقلابات العامة حين يتجرّد المصلحون منهم للدفاع عن مذاهبهم والانتصار لآرائهم ، وحمل الناس على اتباع سبيلهم وكيف يستفحل شأنها حين يستحر النزاع فى الأمة الواحدة وفى الأمم المتجاورة ، على تجاذب المنافع المؤدى إلى كثير من ألوان الخصومات السياسية والمذهبية ونحوها ، وكيف تصير إلى الفتور والسكون حين تبلغ الأمة إلى دعة الأمن ، واستقرار النظام ، وقيام الحدود العادلة من الشرائع المنزلة ، والقوانين الموضوعة ، وحين ينبعث الناس فى وجوه معايشهم فى ظل هذه الطمأنينة الشاملة ، وتنصرف العقول إلى ضروب أخرى من الإصلاح فى الابتكار والتأليف ، والعمل على استكمال ما وهب للإنسان من خير وما أعدّ له من سعادة واصلاح . دواعيها العامة

وهناك دواع أخرى يوشك أن تكون خاصة بالعرب فى هذا العهد دعت إلى بلوغ الخطابة عندهم درجة قد تكون تجاوزت حد الغضاضة إلى شىء من النضج والكمال ، ينبغى أن يجعل من أهمها: تأصل ملكة البيان فيهم ، وصيرورة الكلام صناعة لهم ، وتداعيهم إلى شهود المواسم الجامعة للتفاخر بهذه الآثار الأدبية ، وقد سبقت الإشارة إلى شىء من ذلك فى الكلام على الأسواق ، ومن ذلك أيضاً شيوع الأمية بينهم وتباعدهم فى ديارهم ، واستقلالهم فى عشائرهم وهم أهل حلّ ورحلة ، فكانت الضرورة ماسة إلى أن يقوم الوافد الرفيق لهم مقام الرسائل الضافية فى سفارات الصلح ، وعقد المحالفات وتأمين السبيل ، وكانت بعد ذلك حروبهم ، وأيام منافراتهم ، وأندية ساداتهم مثاراً لهذه الخطب يقصرونها ، أو يطنبون فيها على مقتضى الأحوال الداعية والمقامات المختلفة . ولو كان العرب يكتبون فى الرقوق ، أو ينقشون كغيرهم من أمم التاريخ على الأحجار لاستطاع دواعيها الخاصة بالعرب

الناس أن يجدوا من آثار بلاغتهم فى المساجلة بالخطب ، والمحاورات شيئاً كثيراً غير أنك لا تزال تعد كثيراً من أسماء خطبائهم وساداتهم ، ولا تجد لهم أو للأكثر منهم شيئاً يذكر .

أشهر خطباء العرب فى الجاهلية

وهم يعدون كَعْبَ بنَ لُؤَى ، وهو الجدّ السابع للنبىّ صلوات الله عليه من أقدم خطبائهم ، ولا يعرفون عنه إلا أنه كان يخطب على العرب عامة ، ويحضّ كِنَانَةَ خاصةً على البرّ ، وأنه لما مات أكبروا موته وأرّخوا به إلى عام الفيل . ويعدون من أشهرهم قَيْسَ بنِ خَارِجَةَ خَطِيبَ حرب دَاحِسٍ والغَبْراء ، وليس له كلام إلا قوله حين سُئِل عما عنده فى حَمالاتِ داحس والغبراء : عندى قِرى كُلّ نازِلٍ ، وأمانُ كُلّ خائف ، وخُطْبَةٌ من لَدن تَطْلُع الشمسُ إلى أن تَغْرُب ، آمُرُ فيها بالتواصل ، وأَنْهَى عن التقاطع . وكذلك خُوَيْلِد بن عُمَرَ الغَطَفَانى خطيب الفِجَار ، وقُسُّ بن ساعِدَة خطيب عُكاظ ، وأَكْثَم[1] بن صَيْفى حكيم العرب وقاضيها وزعيم خطبائها ، وغير هؤلاء كثيرون لا يعرف تاريخ الأدب غير أسمائهم ، ولم يصل إليه إلا الشىء القليل من آثارهم .

وإنا نورد هنا بعض ما أعثر عليه التوفيق من أمثلة الخطابة الجاهلية مما تحرفت عنه عادية التضييع ، ثم نتبعها بكلمة عن الوصايا ليكون ما نصف به النثر فى هذا العصر مأخوذاً من هذه المادة إن شاء الله .

---

(١) روى صاحب العقد أن النعمان بن المنذر أوفد أكثم بن صيفى إلى كسرى بالمدائن ، ومعه رهط من أشراف العشائر العربية وخطبائها وسادتها ، فيهم حاجب بن زرارة التميمى والحارث بن عبادة البكرى ، وعمرو بن الشريد السلمى ، وعامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة العامريين ، والحارث بن ظالم ، وعمرو بن معديكرب الزبيدى وغيرهم ، وقد أورد صاحب العقد مقالاتهم بين يدى كسرى ، وما رد به عليهم ، ومن الناس من يستبعد صحة هذه الوفادة .

خطبة المأمور الحارثى

روى أبو على القالى بسنده عن أبى عبيدة قال : (رواه أبو علىّ بالنون مكان الراء . قعد المأمور الحارثى فى نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم فكر طويلا ، ثم قال : أَرعُونى أسماعَكم ، وأَصْغُوا إلىّ قلوبَكم يَبْلُغُ الوعظُ منكم حيث أريد ؛ طَمَحَ [١] بالأهواء الأَشَرُ [٢] ، ورَانَ على القُلوبِ الكَدَرُ [٣] ، وطَخْطَخَ [٤] الجهلُ النظرَ . إن فيما نرى لمُعْتَبَراً لمن اعتبر : أرضٌ موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلعُ وتغرُب ، ونجوم تَسْرِى فتَعْزُب ، وقمر تُطْلِعه النُّحورُ وتَمْحَقُهُ أدبارُ الشهور ، وعاجز مُثْرٍ ، وحُوَّلٌ [٥] مُكْدٍ [٦] ، وشاب مُخْتَضَر [٧] ، ويَفَن قد غَبَرَ [٨] ، وراحلون لا يئوبون ، ومَوْقُوفون لا يَفْتُرون ، ومطر يرسل بقَدَر ، فيحيى البشر ، ويورق الشجر ، ويُطْلِع الثمر ، ويُنْبِت الزَّهَر ، وماء يتفجر من الصخر الأيَرّ [٩] ، فيَصدع المدر [١٠] عن أفنان الخُضَر ، فيُحْيِي الأنامَ ، ويُشْبِع السَّوام ، ويُنْمى الأنعام ، إن فى ذلك لأوضحَ الدلائل على المدبِّر المقدِّر البارئ المصوِّر . يا أيها العقول النَّافرةُ والقلوب النَّائرة ! [١١] أنى تُؤْفَكُون [١٢]

---

(١) طمح : ذهب والطماح ككتاب : النشوز والجماح .

(٢) الأشر : كالفرح معناه المرح . (٣) ران : غطى . الكدر : ضدّ الصفو .

(٤) الطخطخة : تسوية الشيء أو ضم بعضه إلى بعض .

(٥) حول : شديد الاحتيال وهو كصرد وبومة وهمزة وسكر .

(٦) مكد : قليل الخير من أكدى الرجل : بخل أو قلّ خيره .

(٧) مختضر : ميت فى فتوته يقال اختضر الشاب : إذا مات فى شبابه .

(٨) اليفن : الشيخ الكبير . غبر : بقى أومضى ضد . (٩) الأير : الشديد الصلب ويقال : صخرة يراء أيضاً ، ولا يقال كذلك لنحو الماء والطين .

(١٠) المدر : محركة قطع الطين اليابس . (١١) النائرة : العداوة ، وهو إما أن يكون من الوصف بالمصدر أو فى الكلام حذف أى ذات العداوة .

(١٢) تؤفكون : أى تصرفون ، وفعله أفك يأفك .

وعن أيّ سبيل تَعْمَهُون[١] ، وفى أيّ حيرة تَهِيمُون ، و إلى أيّ غاية تُوفِضُون[٢] لو كُشِفت الاغْطِيَةُ عن القلوب وتَجَلَّت الغِشَاوة عن العيون ، لصرّح الشكُّ عن اليقين ، وأفاق من نَشْوَة الجهالة ، من استولت عايه الضلالة .

خطبة أكثم بن صيفى فى قومه يدعوهم إلى الاسلام

روى فى مَجْمَع الأمثال عن ابن سلاَّم الجُمَحى قال : لما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ودعا الناس إلى الإسلام بعث أَكْثَمُ بن صيفى ابنَه حُبَيْشًا فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال : يا بنى تميم ! لا تُحْضِرونى سفيهاً ، فانه من يَسمعْ يَخَل أن السفيه يُوهِنُ من فوقه و يثَبِّطُ من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له ، كَبِرَت سنى ودَخَلَتْنى ذِلة ، فاذا رأيتم منى حسناً فاقبلوه ، و إن رأيتم مني غير ذلك فَقَوِّمونى أستقم . إن ابنى شَافَه هـذا الرجل مشافهة وأتانى بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليـه ، وأن الرأىَ تركُ ما ينهى عنـه . إن أحق الناس بمعونة محمد صلى الله عليه وسلم ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقا فهو لكم دون الناس، وان يكن باطلا كنتم أحقّ الناس بالكف عنه وبالستر عليه ، وقد كان أُسْقُفُ نجرانَ يُحدث بصفته ، وكان سُفيان ابن مُجاشع يحـدث به قبلُ وسمى ابنـه محمداً ، فكونوا فى أمره أوّلا ، ولا تكونوا آخراً ، أئتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين ، ان الذى يدعو إليـه محمد صلى الله عليه وسلم لو لم يكن ديناً كان فى أخلاق الناس حسناً ، أطيعونى واتبعوا

(١) تعمهون : تتحيرون وفعله عمه كمنح وفرح وهو التردد والتحير فى الضلال .
(٢) توفضون : تسرعون .

أمرى أسأل لكم أشـــياء لا تُنزَعُ منكم أبداً ، وأصبحتم أعزَّ حيّ فى العرب ، وأكثرَهم عدداً ، وأوسعَهم دارا ، فإنى أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذلّ ، ولا يلزمه ذليل إلا عزّ ، إن الأول لم يدع للآخر شيئاً ، وهذا أمر له ما بعده ، من سبق إليه غمر المعالى ، واقتدى به التالى . والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز . فقال مالكُ بن نويره قدخَرِف شيخكُم ! فقال أكثم : وَيْلٌ لِلشَّجِى من الْخَلِي ! ! والَهفِي على أمر لم أَشْهَدْه ولم يَسْبِقْنى ! !

معارضة مالك بن نويرة لأكثم

ومن هـذا الباب أيضاً مقامات الوفود بين يدى الملوك فى التهنئة بالمحابِّ والتعزية عندَ المصائب . ويتحدَّث الرُّواةُ أن سيفَ بن ذى يزَنَ لما ظفِرَ بالحبشة وأجلاهم عن بلاده ، أتته وفود العرب تهنئه ، وكان فيهم وفد من قريش وسيدُهم ومُتَكلمهم عبدُ المُطَّلب بن هاشم ، فلما مَثَلوا بين يديه قال عبد المطلب: إن الله تعالى ـ أيُّها الملكُ ـ أحلَّك محلا رفيعاً صعباً منيعاً باذخاً شامخاً ، وأنبتَك منبِتاً طابت أُرُومته ، وعزَّت جُرثومته ، ونَبُلَ أصلُه ، و بَسَقَ فرعُه ، فى أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت ـ أبيت اللعن ـ رأس العرب ، ور بيعُها الذى به تُخْصِب ، وملكها الذى به تنقاد ، وعمودها الذى عليه العِماد ، ومَعْقِلها الذى يلجأ إليه العباد، سلفُك خيرسلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ولن يَخْمُلَ من أنت سلفهُ ، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسَدَنَة بيته ، أشخَصَنا إليك الذى أبهَجَنا بكشفك الكربَ الذى فدَحَنا ، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرْزِئَة .

مقام عبد المطلب عند سيف ابن ذى يزن

وعزَّى أكثمُ بن صيفى عمرَو بن هِندٍ مَلِكَ العرب عن اخيه ، فقال له : أيها الملكُ ! إن أهل هـذه الدارِ سَفْرٌ لا يحُلُّون عَقْدَ التَّرحَال إلا فى غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك من سيظعَن عنك ويَدَعُك . إن الدنيا ثلاثة أيام : فأمسِ عظةٌ وشاهد عَدْلٍ فجعك بنفسه وأبقى لك وعليك حُكْمَه ، واليومُ غَنيمةٌ وصديق أتاك ولم تأته ، طالت عليك غيبته ، وستسرع عنك رحلتُه ، وغـدٌ لا تدرى مَنْ أَهْلُه

تعزية أكثم لعمرو بن هند

وسيأتيك إن وجدك ، فما أحسن الشكر للمنعم ، والتسليم للقادر ، وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها ! ! واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله .

ومن قِصَار خُطبهم فى الإِمْلاَكِ :

خطبة أبى طالب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى تزويجه خديجة بنت خويلد وهى :

خطبة أبى طالب فى تزويج خديجة

الحمد لله الذى جعلنا من ذرّية إبراهيم ، وزَرْع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراما ، وبيتاً مَحْجُوجاً ، وجعلنا الحُكَّامَ على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله بن أخى من لا يُوزَن به فتًى من قُرَيش إلا رجَحَ عليه بِرًّا وفضلا وكرما وعقلا ومجداً ونُبْلا ، وإن كان فى المال قُلٌّ فالمال ظلّ زائل وعارية مُسْتَرجَعة ، وله فى خديجة بنت خُوَيلد رغبة ولها فيه مثلُ ذلك ، وما أَحْبَبْتُم من الصَّداق فعَلَىَّ .

ومن الخطب المأثورة خطبة قسّ بن ساعدة الأيادى فى عكاظ :

خطبة قس فى عكاظ

روى أبو الفَرَج الأصبهانى عن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : لما قَدِم وفد إياد على النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : ما فعَلَ قسّ بن ساعدة ؟ قالوا مات يا رسول الله ، قال كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدنى أحفظه ، فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يارسول الله ، قال كيف سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول :

أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليلٌ داج ، وسماء ذاتُ أبراج ، بحارٌ تَزْخَر ، ونجوم تَزْهَر ، وضوء وظلام ، وبِرٌّ وآثام ، ومطعَم ومشرَب ، وملبس ومركَب . مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرَضُوا بالمُقام فأقاموا ؟ أم تُرِكُوا فناموا ؟ وإلٰهِ قُسٍّ ما على وجه الأرض دِينٌ أفضلُ من دين قد أظلّكم زمانُه ، وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه ، ثم أنشأ يقول :

فى الذَّاهبين الأوَّلِينَ ... من القُرُون لنا بَصَائِرْ
لمَّا رأيتُ مَوَارِداً ... الموت ليسَ لها مَصَادِرْ
ورأيتُ قَومِي نَحْوَهَا ... يَمْضِي الأصَاغِرُ والأكَابِرْ
أيْقَنْتُ أَنِّى لاَ محَا ... لَةَ حيثُ صارَ القومُ صائِرْ

وإن المتأمل فى هذه الخطبة ، وفى خطبة المأمور السابقة يجد بينهما مشابهة تدلُّ على اتفاق الخواطر ، أو تَوَارُدِها على مُشَاهدات واحدة ، هى التى أنتجت هذا التشابه .

كلمة قبيصة بن نعيم

فى وَفْد بنى أسد حين قَدِموا على امرئ القيس بعد مَقْتَل أبيه

وهى على ما فى الأغانى وصبح الأعشى فى روايات بعضُها يُتَمِّم بعضاً قالوا: وفد على امرئ القيس — بعد مقتَل أبيه — رِجَالاتٌ من بنى أسد كُهُولٌ وشبان ، فيهم عَبِيدُ بن الأبْرَص الشاعر ، والمُهَاجر بن خُدَاش ، وقَبِيصة بن نُعَيم ، فلما علم امرؤ القيس بمكانهم ، أمر بإنْزَالهم وتقدَّم فى إكرامهم والإفْضَالِ عليهم ، واحتجَب عنهم ثلاثاً ، فقالوا لِمَنْ ببابه من رجال كِنْدَةَ : ما بَالُ الرجُلِ لا يخرجُ إلينا ؟ فقال : هو فى شُغُلٍ بإخراج ما فى خزائن حُجْرٍ من العُدَّة والسلاح . فقالوا اللهم غَفْرًا ! إنما قَدِمنا فى أمر نَتَنَاسَى به ذِكْرَ ما فات ، ونَسْتدرك ما فرط فليبلِّغ ذلك عنا . فخرج عليهم فى قَبَاء وخُفٍّ وعمامة سوداء ، وكانت العرب لا تَعْتَمُّ بالسواد إلا فى التِّرَات .

فلما رأوْه نَهَضوا له وبَدَر قبيصةُ فقال : إنك فى المَحلِّ والقدر ، والمعرفة بتصرُّفِ الدهر وما تُحدِثُه أيامُه ، وتنتقل به أحوالُه ، بحيث لا تحتاج إلى تَبْصِير واعظ ، ولا تَذْكِرَةِ مُجَرِّبٍ ، ولك من سُؤْدُدِ منصِبك ، وشرفِ أعْرَاقِك ،

وكرم أصلك فى العرب محتد يحتمل ماحمل عليه من إقالة العثرة ، والرجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأى ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ، ما يُطَوِّل رغبَاتِهَا ويَسْتَغْرِق طَلِبَاتِها ، وقد كان الذى كان من الخَطْب الجليل الذى عمَّت رَزِيَّتُه نزاراً واليمن ، ولم تُخْصَصْ به كِندةُ دوننا ، للشرف البارع الذى كان لِحُجْر ؛ التَّاجُ والعِمَّة فوق الجبين الكريم وإخَاءُ الحمد وطِيبُ الشِّيَمُ ، ولو كان يُفْدَى هالك بالأَنْفُس الباقية بعده لما بخلت كَرَائِمُنا على مثله ببَذْل ذلك ولَفَدَيْنَاهُ منه ، ولكن مضى به سبيل لا تَرْجِعُ أُولاَه على أُخراه ، ولا يَلْحَقُ أقصاهُ أدناهُ ، فأَحْمَدُ الحالات فى ذلك أن تَعْرِف الواجبَ عليك فى إحدى خلال ثلاث : أما أن اخترتَ من بنى أسد أشرفَها بيتاً ، وأعلاها فى بناء المكرُمات صوتا ، فقُدْناه إليك بِنِسْعَة ، تذهب معشَفَرَات حُسامك بباقى قَصَرَتَه ، فيقال رجل امتُحن بهُلْك عزيز عليه فلم تُستَلَّ سَخيمتُه إلا بتمكينه من الانتقام أو فداء بما يروح على بنى أسد من نَعَمِهَا ، فهى ألوف تجاوز الحِسْبة ، وكان ذلك فداءً ترجع به القُضُب إلى أجفانها ، لم يردُده تسليطُ الإِحَن على البرآء . وإما أن توادعَنا حتى تضعَ الحواملُ فنَسدُل الأُزُر ونعقِد الخُمُر فوق الرايات ، قالوا : فبكى امْرُؤُ القيس ساعةً ، ثم رفع طرْفه إليهم فقال : قد علمت العرب أن لا كُفْءَ لِحُجْرٍ فى دم ، وإنى لن اعتاضَ به ناقةً أو جملا ، فأكتسبَ بذلك سُبَّة الأبد وفَتَّ العَضُد ، وأما النَّظِرة فقد أوجبتْها الأجِنَّة فى بُطون أمهاتها ، ولن أكونَ لعطَبها سبباً ، وستعرِفون طلائعَ كِنْدة من بعدُ ، تحمل فى القلوب حَنَقاً وفوق الأسنة عَلَقاً

إذا جالتِ الخيلُ فى مأزِق تُصافحُ فيه المنَايا النفوسا

أتُقيمون أم تَنْصرفون ؟ قالوا بل نَنصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار لحرب وبَلِيَّة ومكروهٍ وأذِيَّة ، ثم نهضوا عنه وقَبيصَةُ يقول متمثلا :

رد امرئ القيس

لعلك أن تستوخم الوِرْدَ إن غدَت   كتائبُنا فى مأزِق الموتِ تمْطِرِ

فقال امرؤ القيس: لاوالله لاأستوخمه، فرويداً ينكشف لك دُجاها عن فُرسان كِندة وكتائب حِمْير! ولقد كان ذكر غير هذا أولى بى، إذ كنت نازلا بَرَبْعى ومتحرما بذمامى، ولكنك قلتَ فأجبتُ. قال قبيصة: إن ما نتوقع فوق قدر المعاتبة والاعتاب، قال امرؤ القيس: فهو ذاك!

وفى ذلك يقول عَبيدُ بن الأبرص:

يا ذا المخوفُنا بقتل   أبيه إذلالا وحَيْنا
هَلاّ على حُجْر بن أم   قَطَام تبكى لا عَلَيْنا
نحن الألى فاجمع جمو   عَك ثم وجههم إلينا
نحمى حقيقتَنا وبعض   القوم يسقط بين بينا

الوصايا

ثم نقول فى الوصايا ـ وهى أيضا من الخطب ـ وإنما تكون من حكيم لقومه أو من سيد لعشيرته أو أب لبنيه أو أم لابنتها، ويغلب أن يكون ذلك عند الاحساس بالأجل، أو العزم على الرحلة. فمن ذلك وصية النُّعمان بن ثوَاب العَبْدى. قال فى مجمع الأمثال: وكان رجلا يوصى بنيه ويحملهم على أدبه، فأوصى أحدهم، وكان صاحب حرب قال: يا بُنىّ! ان الصارمَ ينبو، والجوادَ يكبو، والأثرَ يعفو، فاذا شهدت حربا فرأيت نارَها تُسعَر، وبَطَلَها يَخْطُرُ، وبحْرَها يزخَر، وضعيفَها يُنصَر، وجبانَها يجْسُر، فأقلل المُكْث والانتظار، فان الفِرَارَ غيرُ عار، إذا لم تكن طالبَ ثَار. (وصية النعمان ابن ثواب)

ومنها ما قالته امرأة عَوْف بن محلّم الشّيْبانى (وكان يقال فيه لاحُرّ بوادى عَوْف) لابنتها أم إياس، وكان عَمْرو بن حُجْر جد امرئ القيس الشاعر قد خطبها

أمامة بنت الحارث وابنتها أمّ إياس

إلى أبيها فزوجها منه، فلما كان بناؤه بها أوصتها أمها وصيّةً لم تدع شيئا من تأديب المرأة وكفايتها إلا وَعَتْه فيها، قالت : أي بُنَيَّة ! إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت وعُشّك الذى فيه درجت ، إلى رجل لم تعرفيه وقَرِين لم تألَفيه ، فكونى له أمَة ، يكن لكِ عَبْدًا ، واحفظى له خِصالا عَشْراً ، يكنَّ لكِ ذُخْرا ؛ أما الأولى والثانيةُ : فالخشوعُ له بالقناعة ، وحسنُ السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة : فالتفقُّد لموضع عَيْنه وأنْفِه فلا تقع عينه منكِ على قبيح ، ولا يشَمُّ منك إلا أطيبَ رِيح ، وأما الخامسة والسادسة : فالتفقُّد لوقت مَنامه وطعامه ، فان تواتُر الجوعِ مَلْهَبة وتنغيصَ النوم مَغْضَبة ، أما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله والإرْعَاء على حَشَمِه وعِياله ، وملِاكُ الأمر فى المال حسنُ التقدير ، وفى العِيَال حسنُ التدبير ، وأما التاسعة والعاشرة : فلا تَعصِينَ له أمرًا ولا تُفْشِينَ له سرا ، فإنك إن عصَيتِ أمرَه أوغرْتِ صدرَه ، وإن أفشيتِ سرّه لم تأمَنِى غَدْرَه ، ثم إياكِ والفرحَ بين يديْه إذا كان مُهتَمّا ، والكآبةَ بين يَدَيْه إذا كان فَرِحا .

المنافرة

ومن النثر المأثور عن أهل هذا العصر ، ما كان يقع أولا على جهة المحاورة بين رجلين ، ثم يتورط أحدهما أو كلاهما فينزِع بهما الجدل إلى المنافرة ، وهى التحاكم إلى الأشراف ! من حُكّام العرب ، ليفصلوا بينهما ويقضِىَ الحَكمُ لأحدهما أو يسوّىَ بينهما . ومن ذلك ما وقع لعامر بن الطُّفَيل وعَلْقَمة بن عُلاثَة العامريين وحديثهما مشهور .

عامر بن الطفيل وعلقمة

قالوا : إن عامراً وقف لعلقمةَ يوما فجعل ينازعه الشرف فى قومه، وتفاقم بينهما الأمر ، وكان مما قاله عامر : والله لأنا أشرف منك حسباً وأثبت منك نسباً وأطول قصباً ! قال علقمة : أنافرك وإنى لبَرّ وإنك لفاجر ، وإنى لوَلود وانك لعاقر ، وانى لوفىّ وانك لغادر ! قال عامر : أنافرك وانى أنْشَر منك أُمّة ، وأطول

قِمَّة ، وأبعد هِمَّة ! وطال بينهما الكلام ، فتواعدا على الخروج إلى من يحكم بينهما ، وجعلا يطوفان الأحياء ، وهاب الناس أن يحكموا بينهما خيفة أن يقع فى حيَّيْهما الشرّ ، حتى دفعا إلى هرِم بن قُطْبة الفَزَارى (وهو غير هرم بن سنان المرُى ممدوح زهير) فلما علم بأمرهما أمر بنيه أن يفرقوا جماعة الناس تفاديا من الفتنة . وجعل يطاولهما ويخوف كلّ واحد منهما من صاحبه ، حتى لم يبق لواحد منهما همّ سوى أن يسوى فى حكمه بينهما ، ثم دعاهما بعد ذلك والناس شهود فقال لهما : أنتما كركبتى البعير تقعان إلى الأرض معاً وتقومان معاً ! !

حكم هرم ابن قطبة

فرضيا بقوله وانصرفا عنه إلى حييهما . وقد عُمِّر هَرِم هذا إلى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال عمر : أيهما كنتَ مُنَفِّراً ؟ فقال : يا أمير المؤمنين لو قلتُها الآن لعادت جَذَعة (يعنى الفتنة أو الحرب) فقال له عمر : إنك لأهل لموضعك من الرياسة .

سؤال عمر بن الخطاب لهرم

الحكمة والمثل

قد تصل صورة العبارة إلى الغاية من إيجاز اللفظ وصحة المعنى وصواب التشبيه ، فتصيخ إليها الأسماع وتأنس بها الأفئدة ، وتسمى حينئذ بالحكمة والمثل . والحكمة : قولٌ موجز يتضمن حكما مسلما فى الحثّ على الخير ، أو الكفّ عن الشرّ ، والعرب — على بدواتهم — أكثر الناس إرسالا للحكمة وضربا للأمثال ، لاقتدارهم على ألسنتهم ، ولمطاوعة الكلام لهم ، ولتفرّغهم لصناعة الكلام ، والمساجلة بالبيان . وقد اشتهر من حكمائهم فى الجاهلية أكثم صيفى وذو الأصبع العَدْوانى (وهو حُرْثان بن مُحَرِّث) وسمى ذا الأصبع لأن حية نهشته فى أصبعه ، وعامر بن الظَّرِب وهو من عَدْوَان أيضاً، وقُسّ بن ساعِدَة الإيادى . ومن أقدم حكمائهم لقمانُ المشهور وينسب إليه أنه أول من قال : رب أخ لك لم تلده أمُك ، الصمت حكم وقليلٌ فاعلُه ، آخر الدواء الكى .

تعريف الحكمة

أشهر حكماء العرب

ومن حِكَم أَكْثَمَ بن صَيفى : خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، وشرّ الملوك من خافه البرىء ، آفة الرأى الهوى ، رب قول أنفذُ من صَوْل ، مقتل الرجل بين فَكَّيْه ، رب عَجَلة تهب رَيْثاً .

وقد تجىء الحكمة فى الشعر ، ومن عرف بالحكمة من شعراء الجاهلية: أمية ابن أبى الصلت ، وزهير بن أبى سلمى ، وطرفة بن العبد ، وغيرهم . ومعلقة زهير التى أولها (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) حالية بضروب شتى من الحكم .

أثر الحكمة فى الكلام

وحسب الحكمة فائدة أن يضمنها الكاتب أو المتكلم عبارته ، فلا تزال تورثها من البهاء والقبول ، ما يرتفع به جانبها و يشرف حسبها ، فتكون أمتعَ فى الصدر وآنق فى الأسماع وأسيرَ فى الآفاق ، إلى ما تثيره فى النفوس من حبّ الفضيلة والهداية إلى مكارم الأخلاق وصالح الأعمال .

أما المثل فهو كالحكمة فى شرائطها السابقة ، غير أنه قد يشير إلى قصة أو يرتبط بحادثة أو يقع جوابا فى مناقلة . وعرّفه بعضهم : بأنه قول موجز سائر يشبه به حالُ الذى حُكِى فيه بحال الذى قيل لأجله . والأمثال تصدر من وحى الفطرة السليمة والحسّ الصادق والتجربة الصائبة ، ولم تختص بها العرب دون سائر الأمم : وهى ميزان تعرف به قيمة انتزاع العقول و إسعاف الخواطر ، والقدرة على الإفحام . وقد عنى المتقدمون بجمعها وشرحها ، وأشهر ما بأيدى الناس من ذلك: مجمع الأمثال الميدانى ، وكتاب الأمثال المفضَّل الضبى ، وفى غير هذين من كتب الأدب منثور منها كثير .

تعريف المثل

أثر المثل

وهى كالحكمة تهب ما تقع فى تضاعيفه من الكلام رونقاً ، وتفرغ عليه قبولا وحسناً ، وناهيك من المثل مايعطيك من بلاغ الحجة وانقطاع الخصم ، والاستغناء به ــ على قلة ألفاظه ــ عن بسط المعنى المتنازع عليه فيما تحكيه صورة المثل من رفعة أوضعة أومن مدح أو ذم ، فهى من مظاهر الإيجاز فى اللسان العربى .

ومن أمثالهم : إن العَوَانَ لاتعلم الخِمْرَة (والعَوَانُ النَّصَف التى بلغت مبلغ النساء ، والخِمرة لبس الخِمَار . ويضرب للعالم بالأمر المجرّب له) تجوع الحرة

ولا تأكل بثديبها (أى لا تكون الحرة ظئراً وإن آذاها الجوع . يضرب لترفع الكريم عن ملابسة الخسيسة ، قائله الحرثُ بن سَليل الأسَدى) أساء رَعْيا فسقى (يضرب لمن يفرط فى الأمر ثم يروم صلاحه فيفسده) عينك عَبْرى والفؤادُ فى دَدٍ (الدد اللهو : يضرب لمن يظهر لك خلاف ما يبطن) . يداك أَوْكَتا وفُوك نَفَخَ (أوكتا: أى ربطتا. يضرب لمن يقع فى شر ما يفعله) إن البلاء موكل بالمنطق (يضرب لمن يتورط بقوله فيما يؤذيه . وقائل هـذا المثل أبو بكر حين أُمِرَ رسولُ الله أن يعرض نفسه على قبائل العرب . قالوا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه أبو بكر وعلى رضى الله عنهما ، قال علىّ : فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر ـ وكان نسَّابة ـ فسلم فردوا عليه السلام فقال : ممن القوم ؟ قالوا من ربيعة . فقال : من هامتها أم من لهازمها ؟ قالوا من هامتها العظمى قال : فأى هامتها العظمى أنتم ؟ أنتم ذُهْل الأكبر؟ قالوا : نعم . قال : أفمنكم عوف الذى يقال له لاحرّ بوادى عوف ؟ قالوا لا ! قال أفمنكم بِسطَام[١] ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا لا ! قال أفمنكم جسَّاس بن مرة حامى الذمار ومانع الجار ؟ قالوا لا ! قال أفمنكم الحَوْفَزَان[٢] قاتل الملوك وسالبُها أنفسها ؟ قالوا لا ! قال أفمنكم المزدَلِف[٣] صاحب العِمامة الفَرْدة ؟ قالوا لا ! قال فأنتم أخوال الملوك من كندة[٤] ؟ قالوا لا ! قال فأنتم أصهار الملوك من لخم[٥] ؟ قالوا لا ! قال فلستم ذُهْلا الأكبر ، أنتم ذُهْلٌ الأصغر . فقام إليه غلام منهم حين بَقَل وجههُ يقال له دَغفَل فقال :

إن على سائلنا أن نسألَه   والعبءَ لا تعـــرفُه أو تحملَه

(١) هو بسطام بن قيس بن مسعود الشيبانى ، أفرس فرسان بكر فى الجاهلية .

(٢) لقب الحارث بن شريك ، لقبه به قيس بن عاصم حين حفزه بالرمح ففاته .

(٣) عمرو بن أبى ربيعة بن ذهل الشيبانى ، سمى بذلك لازدلافه إلى العدو وحده بين الصفين ، وكان إذا اعتم لا يجرؤ بكرى أن يلبس مثل عمامته ، ومثله فى الاسلام سعيد بن العاص .

(٤) هم كليب ومهلهل وأختهم فاطمة أم امرىء القيس الشاعر .

(٥) هم النمر بن قاسط من ذهل بن شيبان ، منهم ماء السماء أم المنذر أحد ملوك الحيرة .

يا هذا ! إنك سألتنا فلم نكتمك شيئاً من أمرنا ، فمن الرجل أنت ؟ قال رجل من قريش . قال بخٍ بخٍ ! أهل الشرفِ والرياسة ، فمن أى قريش أنت ؟ قال من تيم بن مرة . قال أمكنت والله الرامى من صَفاء الثُّغرة ! أفمنكم قُصَىّ بن كلاب الذى جمع القبائل من فِهر وكان يُدعى مجمعاً ؟ قال لا ! قال أفمنكم هاشم الذى هَشَم الثريدَ لقومه ورجالُ مكةَ مُسنِتون عِجاف ؟ قال لا ! قال أفمنكم شَيْبةُ الحمد مطعِم طيرِ السماء الذى كأنّ بوجهه قمرا يضيء ليلَ الظلامِ الداجى ؟ قال لا ! قال أفمنَ المفيضين بالناس أنت[1] ؟ قال لا ! قال أفمن أهل الندوة أنت ؟ قال لا ! قال أفمن أهل الرفادة[2] أنت ؟ قال لا ! قال أفمن أهل الحجابة أنت ؟ قال لا ! قال أفمن أهل السقاية[3] أنت ؟ قال لا !.

واجتذب أبو بكر زمام ناقته ورجع إلى رسول الله ، فقال دغفل :

صادف درِ السيل دَرا يدفعه   يرفَعُه حيناً وحيناً يضَعُه

أما والله لو ثبتَّ لأخبرتك أنك من زَمَعَات قريش ، أو ما أنا بدَغْفل ! !

قال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال علىّ: قلت لأبى بكر لقد وقعت من الأعرابى على باقعة ، قال أجل ! إن لكل طامّة طامّة ، و إن البلاء موكل بالمنطق .

وقد يتمثل بالقول على لسان طائر أو بهيمة تفاديا من جور حاكم ، أو قصدا إلى الاستطراف فى انتزاع الحكمة ووضعها فى صورة التسلية واللهو ، و يسمى هذا النوع «بالأمثال الفرضية» ومن ذلك قولهم (فى بيته يؤتى الحكم) ويزعمون فى أصل هذا المثل أن أرنباً التقطت تمرة فاختلسها الثعلب ، وانطلقا يختصمان إلى الضَّب ، فقالت الأرنب يا أبا الحِسْل ! قال سميعا دعوتِ . قالت أتيناك لنحتكم إليك . قال عادلا حكّمتما . قالت فاخرج إلينا . قال فى بيته يؤتى الحكم . قالت الأمثال الفرضية

(١) الإفاضة من مراتب قريش فى الجاهلية ، وكانت فى آل صوفان من بنى سعد بن زيد مناة ثم انتقلت إلى عبد الدار وإليهم كانت السدانة . (٢) كانت لبنى نوفل .

(٣) كانت لبنى هاشم فى العباس بن عبد المطلب والحجابة أيضاً .

إنى وجدت تمرة . قال حلوة فكليها . قالت فاختلسها الثعاب . قال لنفسه بغى الخير . قالت فلطمته . قال بحقك أخذتِ . قالت فلطمنى . قال حرٌّ انتصر . قالت فاقض بيننا . قال قد قضيت . . . فذهبت أقواله كلها أمثالا .

نثر الكهان

وهذا باب واسع من كلام الجاهليين ، قوامه السجع الذى يعمد به غالبا إلى زيادة التأثير فى السامعين ، وإلهائهم عن التتبع لما يلقى إليهم من الأخبار ، التى كانت منتهية إلى غاية من الغرابة ومستدعية للعَجَب . وقد كانت الكهانة شائعة فى الجاهلية ، وخاصة قبيل مبعث النبى صلوات الله وسلامه عليه . ويذكر العلماء أن من الكهان من كان له رَئِىٌّ من الجن يسترق له السمع من الملائكة ، ثم يلقيه إليه فيخبر به الناس عند استبهام أمر ، أو حدوث ريبة لامرأة ، أو عند افتقاد ضالة من متاع أو مال . ومنهم من كان يعتمد على قوة نفسه وتسليط خواطره على استنتاج ما يقوله من مقدمات تظهر له ، ولا عجب فان للنفوس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية والتحليق فى عالم الأرواح ، وإن ذلك ليقع لكثير من الناس فى حال النوم واليقظة ، ويأتى بعضه صدقا وبعضه كذبا . على أن استراق الجنّ للسمع واصطفاءها لكثير من الإنس ، مما لا يجوز إنكاره بعد الذى استفاض من ذكره فى القرآن .

ويتحدث الرواة بأعاجيب كثيرة لأولئك الكهان والكواهن ، فى تعرفهم الحوادث وصدق كثير من أخبارهم ، وانطباقها على الحقيقة فى الأمور الماضية والحاضرة . أما أخبارهم عما يأتى به الغيب فى المستقبل ، فإن صدق بعضها فإنما يحمل على المصادفة أو الفراسة ، ومعظمها من قبيل حديث الخرافة كإفتاء الكاهن فى قضية هند .

قصة هند مع زوجها وأبيها

ويقولون إن هند بنت عتبة — وهى أم معاوية بن أبى سفيان — كانت فى الجاهلية فى بيت الفاكه بن المغيرة المخزومى ، وكانت داره مثابةً يغشاها الناس ،

فاطلع عليها زوجها يوما وهى نائمة وقد خرج من عندها رجل ، فاتهمها به واستلحقها بأبيها ، وفشا فى الحديث الخبر عنها . فخرج بها أبوها إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها ، وأخرج معها نسوة من قومها ، وأقبل معهم الفاكه بن المغيرة فى رجال من قومه ، فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبة من ابنته انكساراً وتغيراً فقال لها أبوها : يا بنية ! لا تكتميني من أمرك شيئاً ، فان كان ما بك لريبة نرجع ولا بأس عليك ، فقالت هند (وكانت امرأة عاقلة منجبة) لا والله يا أبت ! ما ذاك لريبة ولا فاحشة، ولكنكم تقدمون على بشر يخطئ ويصيب ، وأخشى أن يسمنى بسِمَة ، تبقى علىّ وصمةَ عارٍ آخرَ الدهر . قال سأبلوه لك ! ثم خبأ خبيئاً ، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن فأخبرهم بخبيئهم ، ثم استنظروه فى أمر النسوة فجعل يتصفحهن واحدة واحدة حتى أقبل على هند فقال : انهضى غيرَ رسْحَاء ولا زانية ، وستلدين ملكا اسمه معاوية ! !

أشهر الكهان والكواهن

ويذكرون من كواهنهم طريفة الكاهنة وكانت باليمن ، وفاطمة الخَثْعَمِيَّة وكانت بمكة ، ولها حديث مع عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل زواجه بآمنة بنت وهب الزُّهرية رضى الله عنها . ومن أشهر كهانهم شِقٌّ أنمار ، وسَطِيح الذِّئبي . ويقولون إن شقا هذا كان نصف إنسان ، له عين واحدة ويد ورجل واحدة . وأن سَطِيحاً كان يدرج كما يدرج الثوب ، لا عظم فيه إلا الجُمجُمة ، وأن وجهه كان فى صدره ، وأنهما اتفقا على تعبير رؤيا رآها ربيعة بن نصر اللخمى أحد ملوك العرب ، وأخبره سطيح بإغارة الحبشة على بلاد اليمن بسجع متكلف يبعث على التردد فى تصديقه إذ قال : أحلف بما بين الحَرَّتَيْن من حَنَش ، ليهبطن أرضَكم الحبشُ ، وليملكُنَّ ما بين أَبْيَنَ إلى جُرَش(١) . وقال شق : أحلفُ بما بين الحرتين من إنسان ، ليهبطَنَّ أرضكم السودان ، وليملكن ما بين أَبْيَنَ إلى نجْران . ويزعمون أن عَبدَ المَسيح بن بُقَيْلة الغسانى أرسله كِسرى إلى سَطِيح الذئبي ، لما حصلت الآيات بمولد النبيّ صلى الله

(١) مخلافان باليمن .

عليه وسلم ، فوافاه وقد أشرف على الموت فلما كلمه رفع رأسه إليه ثم قال : عَبْدُ المسيح ، على جَمَل مُشيح ، إلى سَطِيح ، وقد أوفى على الضَّريح ، بعثك مَلِك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخُمود النيران ، ورُؤيا المو بَذان ، رأى إبلا صِعَابًا ، تقود خَيْلا عِرابًا ، قد اقتحمت فى الوادِ ، وانتشرتْ فى البلاد ! عبدَ المسيح ! إذا ظهرت التلاوة ، وغاض وادى السماوة ، وظهر صاحب الهِرَاوة ، فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملِكات ، عددَ سقوط الشُرُفات ، وكلّ ماهو آت آت !! فرجع عبد المسيح إلى كسرى ، فأخبره فغمه ذلك ثم تعزى فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشرَ ملِكا يدور الزمان !! قالوا فهلكوا كلهم فى أربعين سنة والله أعلم .

على أننا بعد ذلك لانستطيع الجزم بصحة هذه النصوص ، لما قدّمناه من الرأى فى الرواية والحفظ ، وإن كان ذلك لا ينفى صحة هذه الحوادث أو بعضها على الأقل . وقد آن لنا أن نصف هذا النثر بما نجعله نقدًا له فى ألفاظه ومعانيه وأساليبه ، ثم نذكر شيئًا من خصائص الخطابة والموازنة بينها و بين الشعر ، وما يذكره العلماء من أدب الخطباء والله المستعان .

أقسام النثر الجاهلى

قد رأيت فيما سقناه من الأمثلة السابقة كيف كان يغلب على أكثرها السجع ، وهو التزام التقفية وتساوى الفواصل من كل فقرتين أو أكثر ، كما فى خطبة قسّ بن ساعدة والمأمور الحارثى ، وكيف كان بعضها مفصلا مزدوجًا (والتفصيل والازدواج : أن يبنى الكلام على جمل متساوية ، ذات مقاطع تستقل غالبا بمعناها ، و ينتهى الكلام بانتهائها من غير التزام قافية ولا اتحاد فاصلة) كما فى أكثر كلمة قَبيصَة بن نُعيم ، و بعضه كان نثرًا مرسلا ، وهو الخالص من تساوى الجمل والتزام التقفية ، كما فى تعزية أكثم بن صيفى لأحدِ الملوك .

وإذاً يكون النثر العربي فى الجاهلية دائراً بين السجع والازدواج والترسل أو المنثور المرسل ، وقد جاء القرآن الكريم على هذه الأنواع الثلاثة : فمنه المرسل كآية الميراث فى سورة النساء ، ومنه السجع كسورة المدثر وغيرها من قصار السور ، ومنه المزدوج أو المفصل وهو كثير[1] .

صفات الألفاظ

من المحقق أن نُثَّار الجاهليين لم يكونوا — فى الجملة — أهل تحبير وروية ، وقد كانت لهم بديهة وكان لهم ارتجال يُعْجِلهم فى كثير من الأحيان عن تخير الألفاظ واجتناب الجفاء والخشونة . يعرض لقائلهم المعنى فيرسله فيما يحضر من اللفظ ، وقد يكون بالغا إلى حد الغرابة والنفرة من ذوق أهل العصور المتأخرة كقول الحارثى (طخطخ الجهل النظر) و (كالصخر الأيرّ) فى كلمته السابقة ، ولا ينبغى أن يحمل هذا إلا على نبوّ الطبع وجفاء الغريزة ، ولا يبرأ الكلام العربى فى هذه الجاهلية من ذلك العيب وإن أحسنت به الظن . نعم قد تكون جفوة اللفظ وغرابته فى ذاته ، غير قادحة فى لطف موقعه وغنائه فى مكانه ، ولكن ذلك معوز إلى تمهر وتمام حذق فى تهيئة الموضع اللائق له ، وتأنيس غيره من الكلمات به ، والاجتهاد فى المجانسة بينها و بينه . وذلك إنما يكون برعاية المقامات ، وإحكام الصلة بين المعنى وعديله من اللفظ ، وقلما يتهيأ ذلك إلا عند طول الروية والقعود لاختيار الكلام ، وحسبك أن ترى ذلك فى قوله تعالى : (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى) فان هذه الفاصلة الأخيرة لو ذهبت تضع

---

(١) غير أنه يلاحظ أن فى نظم القرآن على هذه الأساليب المعروفة للعرب ضربا من التحدى ، الغرض منه المبالغة فى قطع العلل عنهم ، وإفساح الطريق لمن يتقدم إلى المعارضة منهم ، ويكون بعد ذلك عجزهم عن التحدى والمعارضة ناشئا من قصور مقادير البشر عن محاكاة هذا الكلام ، ويلاحظ أيضاً ما بين سجع العرب وسجع القرآن من الفرق الكبير فى التقدير الأدبى ، فقد تطول السجعات فى القرآن وهى مبنية على حرف واحد كالراء فى سورة القمر ، والدال فى البروج والراء فى المدثر ، ولا تجد فاصلة قلقة ولا حرفا مستكرها ، بخلاف السجع العربى فلن يبرأ فى الجملة من التكلف والاستكراه ، ومن ألطف ما فى القرآن أنه قد يسجع الفقرة المسجوعة وفى هذا من جمال القسمة ولطف الأسلوب ما يعرفه الذوق ، كالذى تراه فى قوله تعالى (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد) .

مكانها أدمث الألفاظ جانبا وأرقها حاشية ، ما أصبت من الغناء والكفاية مثل ما تصيب من هذه اللفظة الجاسية الغليظة . وكأن القرآن عادل هذه الغرابة فى تلك القسمة الجائرة عن مواقع الصواب والمقاربة ، بما فى هذه اللفظة من الغرابة وقوة الشكيمة محاكاة ، لها على طريق التقريع والتهكم ، كما تعيد كلام محدثك وتحكى صوته وشمائله عند قصد الاستهجان والسخرية .

نقد الألفاظ من حيث الجزالة والسلاسة

وإنكم لتجدون لتركيب اللفظ من حروف قوية كحروف الإطباق والقلقلة وكحروف الجهر وبعض أحرف الحلق ، أومن حروف رخوة لطيفة النطق كأحرف الشفتين من اللام والميم والنون ونحوها ، تجدون لذلك دخلا فى قوّة اللفظ وجزالته ، وفى سلاسته ولينه ، وكذلك تضعيف بعض الحروف أو تكريرها ، وكون الكلمة زائدة على ثلاثة أو على صيغة من صيغ المبالغة ، أو كونها تدل على معانى العلاج والقوة ، كل ذلك له شأن فى تصوير معنى جزالة الكلمة وقوة مُنّتها ، كما أن عكس ذلك له أثره فى تصيير الكلمة إلى الدماثة والرقة والعذوبة ، وقد يختلف على المعنى الواحد لفظان أحدهما قوىّ مجهد والآخر لطيف سهل : كالمَهْيع والسبيل ، وكالحَوْباء والنفس ، وكالخِضرِم والكثير ، وأشباه ذلك مما لا يخفى على أهل البصر بهذه الصناعة .

ومن مميزات الألفاظ الإيجاز والخلو من اللحن ، ومن تكاف المحسنات اللفظية كالجناس والتورية وما إلى ذلك من أنواع البديع إلا ماجاء من ذلك عفواً

صفات المعانى

وإن المتأمل فى معانيهم ليراها فى الأكثر معانى فطرية ، مسايرة لطبائع الأشياء ، مشتقة من هذه المشاهدات البدوية التى لم تصل بهم إلى حدّ الفلسفة والتعمق فى استخراج المعانى البعيدة ، ولا إلى ما يقع فى خواطر الأمم المتحضرة ذات المدنيات الصناعية والمظاهر المتنوعة ، وبذلك يمكن التمييز بين معانى هذا العصر والعصور التى استبحر فيها العمران وتنوعت المشاهدات وتغير الوطن العربى من بداوة إلى حضارات إقليمية عظيمة كان لها شأنها فى استحداث كثير من المعانى المنتزعة من هذه المشاهدات الجديدة التى تختلف من

وجوه كثيرة عن صحارى البدو ومراتع الماشية ومطارد الوحوش ودوارس الأطلال وتلك الآفاق البدوية المالكة على العربى سمعه و بصره وتفكيره . على أن لهم فى حِكَمهم ومضارب أمثالهم وكثيرٍ من وصاياهم من المعانى الاجتماعية الخالدة ، ما لا يزال أهل الأجيال الحاضرة يبتغونها ، ويسلكون سبيلها و يتجملون فى أقوالهم بما يتمثلون به من محاسنها .

ومن أظهر صفات المعانى الجاهلية خلوها من المبالغات المفضية غالباً إلى الكذب ، وذلك لما ركب فى طباع أهل البدو من حبّ الصراحة و إيلاف الصدق فى حكاية الحال الراهنة ، بما هى عليه من قوّة أو ضعف لا يزيدون ولا ينقصون .

أسلوب النثر الجاهلى

ينبغى أن يدخل فى نقد الأسلوب ما يأتى :

أولا — صور وضع الألفاظ على وجه من وجوه النثر السابقة من سجع أو ازدواج أو ترسل .

ثانياً — طريقة الأداء من الحقيقة أو الخيال ، باتباع الطريف من طرق التعبير ، كالكنايات القريبة ، وتجاهل العارف ، وخطاب ما لا يعقل من الحيوان والجماد .

ثالثاً — النظر فى جملة الأسلوب من حيث الجزالة أو الرقة الناشئة عما يتركب منه من المفردات على نحو ما أسلفنا فى نقد الألفاظ .

رابعاً — النظر إلى الربط والملاءمة بين العبارات ، ثم النظر إلى ما يكون من فضول و ترادف أو حذف واختصار .

خامساً — مراعاة قواعد الإعراب من جهة سلامة الأسلوب من الحذف وطول الفصل والتقديم والتأخير ، ومن جهة استعمال كنايات بعيدة ، أو

استعارات غريبة مع المطابقة لمقتضيات الأحوال ، ويزاد على ذلك براءة المعانى من الإحالة أو الكذب .

وإنك لو نظرت فى الأساوب بهذه المقاييس السابقة تستطيع أن تصل إلى حكم صحيح فى النقد الأدبى للكلام . وانتظر بعد فى هذا الأسلوب الجاهلى ، فقد نرى أن الذى يغلب عليه السجع خصوصاً فى تخرصات الكهان وفى الوصايا وفى أكثر الخطب كما قدمناه ، وكانت طريقتهم فى الأداء الاتجاه إلى الحقيقة ، وقلما نظفر منهم بكلام مبنى على التخييل أو مخاطبة الجماد ، إلا أن يكون ذلك فى الشعر لا فى النثر .

وفى أسلوبهم الجزالة وقوة الأسر ، مع شيء من عُنْجُهِيّة البداوة فى ارتضاخ الغريب والوعر من الكلمات ، أما العناية بالربط والتجنيس بين الجمل فقد يفوتهم ذلك أحيانا ، كما فى أكثر المأثور عن أكثم بن صيفى . وجملة الأسلوب نقية من الفضول والترادف إلا عند دعوة المقام ومساس الحاجة ، كما رأيت فى قول قيس بن خارجة (وأنهى عن التقاطع ؛ بعد قوله آمُرُ فيها بالتواصل) على أن الحكم على أهل البدو جملة بالخشونة والقوة فى الكلام ، قد لا يسلم من الإسراف إذ كانت سنة التكوين تقضى أن يوجد فى كل جملة من الناس خلقة وجبلة ، من يكون كزًّا غليظ الطبع ومن يكون سهلا سمح السجية رقيق الحاشية ، بل قد يعرض ذلك للشخص الواحد فى حالين مختلفين : يتوعر فى إحداهما حتى ليكاد يعجم ما يعرب ، ويتسهل فى الأخرى حتى ليكاد يذوب عذوبة وسلاسة ، وإن كنا لا نستطيع أن نجد الدليل على ذلك من كلامهم المنثور لقلة ما بأيدينا منه .

أغراض الخطابة

لم تكن الخطابة فى هذا العصر تتعدى معظم الشئون العامة ، التى تكون فى أمة بدوية كالعرب فى الجاهليـة ، فكان من أهم أغراضها إصلاح ذات البَيْن لكثرة ما كان يقع من التنافر والمشاحنة ، ثم التحريض على القتال عند نشوب الحروب ، وكانت لهم سِفارات إلى القبائل المتفرقة والأمم المجاورة فى عقد المحالفات وتأمين السبُل واحتمال الديات ، ذلك إلى ما كانوا يتنازعونه بينهم من قواعد الشرف والتفاخر بالحسب والعدد ، وكان لهم خطبة إملاك يضمّنونها ما يشاءون من الترغيب فى الصهر والتنوية بالعروسين ، مع التزام القصد فى المديح بما يجرى مع الواقع المعروف .

أدب الخطيب

وكانوا يعدون للخطيب خصالا . لا يكمل عندهم إلا بها ، فمنها شرف الأصل وصدقُ الحديث وجَهارةُ الصوت وقلة التافُت وكثرةُ الرِّيق ونظافةُ البزّة ، وكانوا يخطبون على رواحلهم أو قياما على نَشز من الأرض ، مع اعتجار العمامة واتخاذ المِخْصَرة أو العصا ، والغرض من ذلك كله استكمال ما يكون الخطيب به أكثر تأثيراً ، وتكون النفوس لقوله أكثر قبولا .

الخطابة والشعر

ولم تَقُم الخطابةُ للشعر فى الجاهلية ، وما زال الشاعر عندهم أكثرَ فضلاً وأرفعَ شأناً من الخطيب ، وإن كان لبعض خطبائهم ذكر وحرمة لم ينلْهما شاعر ، ورغمَ ذلك كان الشأن فى الجملة للشعر ، وما زال الأمر كذلك حتى أفضَى الشعر إلى قوم اتخذوه أداةً للكسب ، وانْتَجعوا به أقاصىَ البلاد ووضعوه

عند الملوك والسُّوقَة ، فاستَخْذى منه الأشراف وتحاماه السادة ، ونَبُهت الخطابة بعض نباهة ، ومع ذلك فما بذَّت الشعر ولا قامت له وبقى الشعراء على هذا أسيرَ ذكراً وأعزّ جانباً ، حتى جاء الإسلام واشتغل الناس بما سحرهم من بيانه ، فسكتوا حيناً عن الشعر ، وحينئذ عظمت الخطابة ولم يستطع فى ذلك الصدر أن يقوم لها الشعر .

الشعر

تمهيد : قد يتعذَّر على الباحثين أن يهتدوا بين ثنايا الأحقاب إلى الوقت الذى يؤرِّخون به مولدَ هذا الفن الجميل فى لغات الإنسان ، ومن المُحقَّق أن الزمان دَارَ بعينيه فيما حولَه ، فإذا هو يَرى الإنسانَ وهذه الطّبيعةُ الساحرةُ تخطرُ بين يديه فى ردائها المُرَقَّش ، فتُلهِمُ طبعَه أسرارَ ما استودعَتْه من محاسن هذه الحياة ، حتى شاقَهُ ذلك إلى التَّغَنِّى ببدائع مارسَمَتْه يمينُ القدر على صحائف الوجود من لطيف الأثر . وكانت هذه الفطرة الشاعرة تَخْتَمِر فى صدره ، وتَتَمَاثَلُ إلى الكمال فى نفسه ، حتى غلبَتْه على احتماله ، وتَبدَّت فى ذلك المثال العذب من جمال الأدب على لسانه . وإذا الغناء والشعرُ يُحلِّقان كزوج الطائر فوق رؤوس الربى وبين خمائل الزهر ، يتناغيان بنَجْوى النفوس ويُوَقِّعان على أوتار الأفئدة ، وقد ضاعت أوائلُهما من حساب الزمن ، كما اخْتَفَت عن عينيه أَوَّلِيَّاتُ كثير من الأحداث التاريخية ، كاصْطِناع الثياب واتِّخاذِ الأَبنية واستيقاد النيران وأشباهِ ذلك مما فَطِنَ الإنسان إلى استنباطه بفضل حيلته ، واهتدى بقوّةِ الحاجة إليه . وكان الشعر باعتبار أنه شعور منبعث عن النفس ووجدان طبيعى فى تركيب الخلقة ، شبيهاً بحلاوة الحُلُوق التى هى أساس لُحُون الغناء ، كلاهما قديم على الزمن ، وهو بهذه المثابة لايتميز عن النثر ، بل هو من قبيل ماسماه المتأخرون من أهل الأدب بالشعر المنثور ، وإنما حدث للإنسان اصطناع أقيسة

نشأة الشعر فى لغات الناس

الغناء واختراع أوزان الشعر فى دهر متأخر ، وصلت فيه اللغات إلى مدًى من الرقى ، يساير هذين الفنّين إلى ما يُعْوِزُهما من الكلام ، وهكذا مشى الشعر يتسرّبُ فى أعقاب العصور ، حتى ظهر أيضاً على غَلَسٍ من التاريخ فى هذه البادية العربية ، فرتعَ ما شاء الله بين آفاقها الجاُوّة وسمائها الصافية ، ورسم لهذه الأمة الخالدة صفحةً ناصعةً حَليَتْ بها صدورُ الأسفار ، وتمثّلَتْها الأجيال بعد الأجيال عليها تماثيلُ الحياة الجافيةِ البدوية فيما بقى من هذا الشعر الجاهلى ، الذى آن أَنْ نُفَصل القولَ فيه ومن الله التوفيق .

تعريف الشعر عند العرب

العرب تعدّه من الفنون الجميلة التى يُسمونها الآدابَ الرفيعةَ ، وقد اختلف العلماء فى تعريفه فمنهم من جعله كلامًا وأجودُه أشعرُه ، ولم يشترط له وزنا ولا قافية ، ويدخلُ فيه حينئذ ما يُشْبِهُ أن يسمّى شعراً منثوراً من حكمة أو مثل ، يُبْنيان غالباً على صواب التشبيه وإيجاز اللفظ ولطف التصور ، ومنهم من اشترط فيه الوزن دون القافية ، ومنهم من جعله موزونا مقفى وأجاز تعدد القافية ، والجمهور على اشتراط الوزن ووَحْدة القافية . قال صاحب المقدمة (الشعر هو الكلام المبنى على الاستعارة والأوصاف ، المفصّلُ بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقلٍ كلُّ جزء منها عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة) .

وهم وإن اختلفوا — كما رأيت — فى تعريف الشعر متفقون جميعاً على أنه لا يكون شعراً إلا إذا كان صادراً عن الطبع ومتصلا بهذا البهاء من جمال الفن ولطف التخيل ، وإلا فهو نظم لا غير ، وإذا كان المصوّرُ البارعُ يَعْرِضُ عليك الصورة من نقشه فتأخذها عَيْنُك وتحيّرُكَ فيما تستحسن منها أو تَدَعُ ، فكذلك الشاعر يحمل إلى خيالك فى تماثيل ألفاظه صورَ الأشياء مُتَجَلّيَةً فى أزيائها الطبيعية ، حتى لتكادُ تراها ماثِلَةً بين عينيك . ذلك هو الشعر يتحدث عن الرياض

الشعر عند المحدثين

فيكاد يَسْـــطَع طيبُها ، ويصفُ الغَانِيَاتِ فيُسَاقِطُ عليك اللؤلؤ من حديثها ، ويَحْكى طِرادَ الفرسان فتُمْسِك جَنْبَيك حِذاراً من وَقْع رِمَاحها ، فهو أُغْنِيَّةُ الزمان وحِلْيَةُ هذا البيان .

أوّلية الشعر العربى

يكاد الرأى يستقر على أن التاريخ المعروف للشعر الجاهلى الحديث ينسب أقدم مُطَوَّلاته إلى عَدِيٍّ بن ربيعة أخى كُلَيْب فى حرب البَسُوس التى أثارها مقتَل أخيه بين بَكر وتَغْلِبَ . وينتهى أقدم مقطوعاته إلى شعراء آخرين منهم من عاصره ، وأكثرهم لايبعدون عنه طويلا كدُوَيد بن زيد بن نَهْد ، والأفْوَه الأوْدِى ، وعمرو بن قَمِيئة ، وزهير بن جَنَاب الكلبى ، وأبى دُوَاد الأيادى ، ومن غير المعقول أن يكون عدى والذين تبعوه كامرئ القيس وعَبِيد بن الأبرص وطَرَفة وغيرهم هم الذين وثَبُوا هذه الوثبة بالشعر على تعدُّد قوافيه وتنوع أوزانه ونضج صناعة ، إذ كان ذلك يحتاج إلى مِرَاس قوى ودراسات طويلة تتخرج فيها هذه المواهب الفنية ، وتصل إلى ما يتاح لها من درجات التكوين والتنقل بين أسباب النموّ والارتقاء ، وإن المتامل فى قول امرئ القيس : أوائل الشعراء

عُوجا على الطَّلل المَحِيل لأننا نبكى الدِّيارَ كما بكى ابنُ خِزَام

(وهو طائى قديم لا يعرف عنه شىء فى غير هـــذا البيت) وفى قول زُهَيْر المُزَنِىّ :

ما أرَانا نَقُولُ إلا مُعَاراً أَوْ مُعَاداً من قولنا مَكْرُوراَ

وقول عَنْتَرة :

هلْ غَادرَ الشُّعراء من مُتَرَدَّم أَمْ هَل عرفتَ الدارَ بعد تَوَهُّم .

ليَعرِفُ أن الشعر الجاهلى أقدمُ مما يُظَنُّ بكثير ، وأنه تدرج من السجع إلى الرجز ، ثم إلى المقطعات والقصيد ، ثم إلى هـــذه الضروب من الأوزان والقوافى

قبل هذا العهد بزمن طويل . وإذا كان الباحثون إلى الآن لم يوفقوا إلى العلم بشيء من أوّلية الشعر وراء هذا التاريخ ، فمن العبث إذاً محاولةُ الكلام فيما ينسب من الشعر إلى العرب البائدين ، وإلى الجن والملائكة وإلى آدم صلوات الله عليه ، وقد قال ابنُ عبّاس رضى الله عنه (من زَعم أنَّ آدمَ قال الشعر فقد كَذَب على الله ورسوله) .

نشأة أوزان الشعر الجاهلى

قد بيّنا فيما سبق كيف كانت الطبيعة بمنزلة الأستاذ التاريخى الذى يرجع إليه أكثر الفضل فى اهتداء الإنسان إلى كثير من معارفه الضرورية الأولى ، وما كان العربى إلا إنسانا كغيره من أجناس البشر ، له حِسٌّ وفيه عاطفة وبين جنبيه نفس متأثرة تحبّ الجمال ، وقد طال إصغاؤها لهذه الأغانى الطبيعية المتردِّدة فى أسجاع الطيور وحنين الإبل وتَناوُح الرياح ، فما هو إلا أن حكى صدَاها وشدا معها وصار وتراً آخر من أوتارها ، دعتْه تكاليفُ العيش فى تلك البادية القاحلة إلى قطع المسافات وهو على ظهر راحلته فى مثل أُرْجُوحة الطفل ، تُرْقِصُه تلك الإيقاعاتُ المتوالية التى أخذ يُلقِى على ضُروبها من ألحانه الساذجة حِدَاءً لناقته. وأنيساً له فى وحشته ، إلى أن هدته تلك النفس الشاعرة إلى لون من الكلام المؤلَّف الموزون على هذه المقاطع المتساوية يُوشكُ أن يكون هو الرجز ، الذى لو تأملتَه فى تقطيعه وتفاعيله لوجدتَه أكثر شىء شبهاً وأشده مساواة لحركات الإبل فى اهتزازها ومسافات سيرها ، ثم جعل ذلك الميزان الجديد من الكلام يُطرِبه ويَسْتولى عليه ، فألِفَه وأخذ يزيد فيه ويحتَفِل فى تأليفه ، ومضَت طفولتُه مع الزمن فنهض إلى صِباه وقام ينبعِثُ مع الحياة على قدميه ، وتنازعته حينئذ الألسنةُ استحلاءً لموقعِه ، واستروحا للراحة من التَّغَنِّى به ، فتفتحت له عيون وتخلَّقت أوزان ، وأوشك أن يكون صناعة فنية آخذة كسائر الصناعات طريقها

إلى النضج ، ومتمشية إلى ماتهيأ لها من الكمال ، وساعد على ذلك ما فى هذه النفوس العربية من لطافة الفطرة وصفاء القريحة وقوة الاستعداد ، وكذلك دعتهم حاجتهم إلى الأخذ بنصيب من الجمال ، أن يبتغوا ذلك فى حسن التعبير وجمال الكلام ، إذ كانت آفاق بلادهم فقيرة من تلك الألوان الزاهية لجمال الطبيعة ، من بحار وجزر وجبال وأنهار وحقول وخمائل ، فكان طبيعيا أن يقضوا هذا الأرب فى جمال الشعر فأرهفوا له الألسنة وشحذوا به العقول ، وما لبثوا أن ملأوا به الحياة البدوية فصار ديوان تاريخ وسجل حكمة وينبوع جمال ، وعلى ذلك أكثر الباحثين[1] فى نشأة الشعر الموزون الذى هو بعد هذا يُعَد أشهى ثمرات العبقرية العربية فى هذا العصر الجاهلى .

شاعرية العرب

وما كان للناس عجباً أن يمتاز العرب بهذا الشعر ، وأن يفوقوا فيه سائر الأمم ، وأن يقوله منهم الرجال والنساء والسادة والصعاليك والرعاة واللصوص ، إذ لم يعرف عنهم أنهم يميلون إلى الفلسفة أو ينشطون لتعلم العلوم أو مزاولة الصناعات ، وإنما كانت صناعتهم ، وإنما كان اهتمامهم مصروفين إلى هذا الفن الجميل من الكلام ، ولم يزد ما أُثِر عنهم من ضروب الحكم على أن يكون فى جملته أشبه بالحقائق المجردة التى لا تبتعد عن متناول الفطرة وإنتاج التجربة والمشاهدة ، وكان الذى أعان هذه الموهبة الفنية على مثل هذا الإنتاج

---

(١) ذلك ومن المؤرخين من يجعل مبدأه السجع ، وهو كما تعلمون قسم من المنثور ويقول بهذا الرأى بعض كبار المتعربة من علماء الألمان كجلد زهر وبروكلمان وفى معجم المراجع لهذا العالم ، أن ذلك أيضاً كان شأن الشعر عند الأحباش وهم أقرب أقرباء العرب ، وعند غيرهم من الأمم القديمة ، وهو يؤيد ما ذهبنا إليه من قدمة النثر فى الميلاد عن الشعر كما بينا فى غير هذا المكان .

الغزير ، (أولا) هذه اللغة العربية التى هى بإجماع علماء اللغات لغة شعرية غنائية ، أسبابها
ذات جرس ورنين فى مفرداتها وتراكيبها ، غنية بما فيها من دقة التعبير وأساليب الكنايات وكثرة الترادف المعينة على تنويع القافية وتسهيل النظم ، و (ثانياً) تلك الحياة البدوية ، وهذا أمر له خطره ، فإن من شأن تلك الحياة أنها تجعل الطبائع البشرية أقوى وجوداً وأشدّ التهاباً وأكثر تأثراً ، يهيجها الحبّ ويطيش بها الغضب وتهزها الرغبة ويثيرها الطرب ، وهذه كلها تعتبر من أقوى فواعل الشعر ودواعيه . وإذا لم يكن للعربى كما قدمنا من الصّناعات ما يشغله عن التفرّغ لهذا الفن والانقطاع لإتقان صناعته ، فقد كان ذلك سبيل التجويد وذريعة الكمال والارتقاء ، مع ما كان فى هذه النفس العربية من صفاء ، وما كان فى تلك العواطف البدوية من قوة ، وما تأثرت به من طول التأمل فى المشاهدة الطائفة بها ، وما كان يدفع العربى فى هذه البادية إلى المحاماة عن النفس والدفاع عن الذّمار من الانتصار بالعصبية ، التى صار الشعر عندهم من أقوى أدواتها وأوثق أسبابها ، وأصبح الشاعر بينهم صاحب المقام الأعلى فى إثارة الحروب وإطفاء الفتن والتنويه بمفاخر القبيلة ، فأنتجت لهم هذه الحياة الخاصة من الشعر ما لم تفقهم فيه أمة من الأمم ، ولولا ما عدا على هذا التراث الأدبى من عوادى الضياع ، كشيوع الأمية وموت كثير من الحفاظ فى المغازى والفتوح الإسلامية ، لبلغنا منه الخير الجمّ والشعر الكثير ، وقد قال أبو عمرو ابن العلاء « ما بلغكم مما قالت العرب من الشعر إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لبلغكم منه علم وشعر كثير » .

طبيعة هذا الشعر ونوعه[1]

يقول بعض الغلاة من المستشرقين : إن فكرة التوحيد نشأت عند العربى من وحدة الحياة فى أفقه . وذلك أنه ـ على زعمهم ـ عاش فى حياة جامدة قليلة التنوّع تسير على وتيرة واحدة . هى التى أكسبته هذه السذاجة فى تصوّره وأساليب حياته .

فهو قد قضى دهراً طويلا فى هذه البادية الجرداء ، لم ير فيها من حلى الأرض إلا ذلك النخل المصعد وتلك الصحراء المحرقة ، فأثر ذلك اللون الثابت من ألوان الطبيعة فى خياله وإنتاج نفسه ، إذ كان الاجتماع يصور الشاعر ـ والشاعر كما يقولون صورة من الاجتماع ـ حتى صار قليل الميل إلى التحول ، شديد الإعجاب بالنفس ، والإيثار للوطن ، والرضا بما لديه ، على ما فى ذلك من شظف وسوء عيش ، وكان طبيعيا أن يكون مستقرّ الفكر ، غير نزاع إلى الاستقصاء والتعمق فى البحث ، وألا يكون له ذلك القلق العقلى ولا تلك الحيرة الفكرية التى تدعو صاحبها إلى الدخول فى أعماق الأشياء ، والتغلغل فى أسرار الكون ، وكان لهذا الاعتبار أثره الظاهر فى قصر الخيال عند العرب ، لانتهائهم إلى تصور الأشياء من هذه الطريق الفطرية البعيدة عن الاستقصاء والبحث ، فلم يكونوا لذلك أهل أساطير ولا أصحاب قصص ، يحتاج إلى مثل ذلك الخيال البعيد وهذا النفس الممتد الطويل ، ولا نعنى بقولنا الخيال ذلك الذى ينبنى على نقل صورة من وضع إلى مايشبهه لعلاقة بينهما مما يسمى تشبيهاً أومجازاً ، وإنما هو ذلك الانطلاق الفكرى وراء تصوّر الأشياء وتلوينها بألوان من الوهم ، قد لا يكون لها فى الواقع وجود كالخرافات والأساطير اليونانية التى هى ثمرة من ثمار العقل الحائر والفكرة المتحركة الجائلة ، بل إن العرب زادوا على هذا أيضاً أنهم

---

(١) رجعنا فى تأليف هذا الفصل إلى كتاب الشهاب الراصد لواضعه العالم الجليل الأستاذ لطفى جمعه الكاتب المعروف .

عمدوا إلى الاختصار والإيجاز ، فضمنوا الجملة القصيرة من ضروب الحكمة ، وساقوا المعانى الكثيرة فى الألفاظ اليسيرة ، حتى جعلوا البيت الواحد من الشعر قائماً بمعناه مستقلا عما قبله و بعده ، وكان الشعر أفضل آثار العقول وخير ثمار الألسنة ، فتجلت فيه هـذه النزعة الفطرية الساذجة ، وأظهرت منه البديهة والارتجال ذلك المدى القصير من جولة الفكر وعمل الروية .

ونحن نقول إن هذا الكلام و إن كان فى جملته صحيحاً ، إلا أن فيه مبالغة وتحاملا ظاهراً ، تستطيع أن تلمسه فى هذه المحاولة التى يقصد منها تهجين هذه العقيدة الصادرة عن دين صحيح ، لأن أمماً أخرى سامية كانت تقول بتوحيد الخالق قبل العرب ، وكانت تعيش فى ريف خصيب وطبيعة متنوعة وحضارة قديمة معروفة ، ولأن العرب تصوروا كما تصور اليونان آلهة كثيرة نصبوا لها الأنصاب والتمسوا بها الزلفى ، وسموا أنفسهم بأسمائها كيغوث ويعوق والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وتصوروا فوق ذلك أرواحا خفية من الجن كانت توحى إليهم عبقريتهم الشعرية كما سنفصل ذلك بعد . ولكننا مع ذلك نرى من الحق أن نعترف بأن الشعر العربى لم يكن شعراً قصصيا بالمعنى المفهوم عند الأمم الآرية أو الأوربية الحديثة ، لأن ذلك يعتمد فى جوهره على سعة القافية وطول القصيدة ، إلى حد لم يألفه العرب ولم يعرفوه ، إذ قد تبلغ القصيدة الواحدة آلافاً من الأبيات ، وهو يذكر الوقائع والعادات ، يصور الشعوب ويصف أحوال الاجتماع وسير الأبطال ، ويذكر الآلهة ويستوحيهم الكلام وجمال الإلهام . والحق أن الشعر العربى لم يكن فيه قصص بهذا المعنى ، وإن كان فيه قصص فهو بغير هـذا اللون المفهوم عند غيرهم من الأمم الأخرى ، وكذلك لم يكن فيه شعر تمثيلى من شأنه أن يعتمد على المحاورة بين قائلين وأكثر من قائلين ويختلط بحركات جوارحهم ومجموع هيئاتهم وشمائلهم وأغانيهم ، وليس لنا أيضاً مثل هـذا النمط من الكلام فى الشعر العربى . ولكن أيغض ذلك من

الشعر القصصى

الشعر التمثيلى

الشعر العربى أو ينقص من بهائه وجمال ألوانه ؟ كلا ! ولو عرفت العرب هذا القصص وهذا التمثيل لأخرجوا منه للناس عجباً ، وهم الذين حين جمعهم الملك واستوت لهم الحضارة ؛ وثبوا على آداب الفرس وفلسفة اليونان وأنظمة الرومان فخلطوا ذلك بلغتهم وآدابهم ، وصيروا منه مزاجا بديعاً تنورت به مدنيات العالم الحديثة إبان عصورها المظلمة ، فالشعر العربى شعر غنائى غنى بوفرة أوزانه وتعدد قوافيه ، وجدانى يصف آثار النفوس وصور العواطف المستمدة من الإحساسات النفسية ، ويتناول طبائع الأشياء من حيث هى من غير مبالغة ولا إسراف ، ويعتمد على الحقائق الثابتة البريئة من تكلف الاختلاق والكذب اللذين هما فى الغالب عتاد القصاصين وأصحاب الخرافات من الأساطير ، وهو فى مجموعه مظهر من مظاهر الاجتماع العربى ، فيه مسحة البادية وعلى مخايله كثير من آثار الأعراب ، وهو شعر فطرى فى معانيه التى هى حقائق مكشوفة لا يعالج الفكر عناء كبيراً فى انتزاعها من معادنها الطبيعية ، وربما كانت هذه السذاجة فى تركيبه واستنباط معانيه ، هى سر مافيه من المتانة وخفة الظل والموافقة لكثير من الطباع .

الشعر الغنائى



تنقل الشعر فى القبائل

والقرابة بين الشعراء

ذكر أبو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بن سَلاَّم الجُمَحِى فى كتاب طَبَقَات الشعراء ، وذكر غيره من المؤلفين أن الشعر كان أولا فى ربيعة ، وهى شعوب وقبائل كثيرة منها بَكْر وتَغْلب وعبدُ القَيْس والنَّمِر بن قَاسط ويَشْكر وعِجْل ولُجَيم وضُبَيعة وشَيْبَان وذُهْل وسَدُوس ، وكانوا يقيمون قديماً فى اليمن ثم فى نَجْد ثم نزحت بكر وتغلب نحو العراق ، ونبغ منهم ـ وهم فى نجد ـ المُهَلْهِل وهو عَدِى بن رَبِيعَة أخو كُلَيب ، ومن شعرائهم المُرَقِّشُ الأكبر وهو عَمْرو بن سَعْد وقيل عَوفُ بن سَعْد شاعر قديم يقال إنه نَشأ فى ربيعة قبل خروجها من اليمن ، والمُرَقِّش الأصْغَر وهو أشعر المُرَقِّشَيْن واسمه عَمْرو بن حَرْمَلة وهو عَمُّ طَرَفَة بن العَبْد ، ومنهم سَعْد بنُ مَالك ، وعَمْرو بن قَمِيئَة ويقال انه أخو المرقش الأكبر أو ابنُ أخيه ، وطَرَفة بن العبد ، والمُتَلَمِّس وهو خال طرفة واسمُه جريرُ بنُ عبد المسيح ، والحارث بن حِلِّزَة ، وَالأعْشَى وهو مَيْمُون بن قَيْس ، وخاله المُسَيَّب ابن عَلَس واسمه زُهَيْر ، وعمرُو بن كُلْثُوم التَّغلبى . ثم تحوَّل الشعر فى قَيْس وهى قيس عَيْلان ، ومن بطونها عَبْس وَذُبْيان وَغَطَفَان وَهَوَازِنُ وَسُلَيْم وَعدْوَان وَثَقِيفٌ وَعَامر بن صَعْصَعة وَنُمَيْر وَجَعْدَة وَقُشَيْر وَعَقيلٌ ، وكانت هذه القبائل فى نجد وأعالى الحجاز ، ومن شعرائها النَّابِغَتَان الذُّبيانى وَالجَعْدِى ، والثانى منهما مُخَضْرَم أدرك الإسلام ، ويقال إنه كان أسَنّ من النابغة الذبيانى ، ومنهم زُهَير بن أبى سُلْمى المزنى ، وكَعب ابنه ، ولَبيد بن رَبيعة العامرى ، والحُطَيْئَة ، والشَّمَّاخ واسمه مَعْقِل بن ضِرَار ، وعَنْتَرة العبسى ؛ ثم استقرّ الشعر فى

تميم وهى قبيلة كبيرة من مضر ، ومن بطونها مَازِنٌ ودَارِمٌ ويَرْبوع ومُجَاشِع ومالك وبَهْدَلة ، وكانت تميم فى تِهَامَة ثم نزحَتْ فى أواسط القرن الثانى قبل الهجرة إلى بادية العراق وما يليها جنوبا ، ومنهم أَوْسُ بن حَجَر وكان شاعرَ مضرَ فى الجاهلية غيرَ مدافع . ثم ظهر الشعرُ بعد ذلك فى بطون مُدْرِكَة وهى هُذَيل وأَسَد وكِنَانة وقريش والدُّئِل وكل هؤلاء من أهل البادية . وأما الحواضر فكانت قليلة فى بلاد العرب وهى مَكَّةُ والمدينة والطَّائِف ولم ينبُغ منها شعراء كثيرون ، وعندهم أن أشعرَ أهل المدر فى الجاهلية حَسَّانُ بن ثَابِت شاعرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لكلّ شاعر راوية يحفظ شعره ويذيعه فى القبائل ، فيتناشده الرجال والولدان فى أَسْمَارهم وأنديتهم ، وتَتَغَنَّى به الركبان والرعاة ، ويأنس به المُدْلِجُ فى ظلمة الليل ، ويُنْشِدُه المَاتِحُ على البئر ، ومن هذا وأشباهه سار الشعر فى الآفاق وغلب على أكثر أهل البادية حتى تكاد تحسَبُهم كلَّهم شعراء .

فنون الشعر ووحدة اللغة بين الطبقات المختلفة من السكان

يذكر العلماء فنون الشعر وهم يقصدون بها تلك الأنواع المبثوثة فى تضاعيف الكتب ، من المدح والحماسة والفخر والنسيب والوصف والاعتذار والحكمة والهجاء ، ومنهم من يدخل بعض هذه الأنواع فى بعض فيجعل الرثاء والفخر والنسيب داخلةً فى باب المديح ، بل منهم من يجعل الشعر كلَّه قائمًا على المدح والهجاء لا غير ، ولكن الحقَّ أن بعضَ هذه المقاماتِ يختلف عن بعض ، وأن الرثاء مثلا وإن كان فيه ذكرُ تمَادِح المرثى ، غير أن ذلك فى الجملة منحرِفٌ عن قصد الشاعر حين تَنْصَدِع نفسه ويضرِبُ الهمُّ بين جوانحه ، ويكون همه الشكوى من الدهر والبكاء لفقد الحميم ، وكذلك فى النسيب وغيره مما ذكرناه ، ومما

يحسن التنبيه إليه هنا أن هذه الأنواع لا ينبغى أن تكون هى ضروب الشعر أو أقسامه فى ذاته ، ولكنها أنواع الفن واحد منه كما أسلفناه : هو ذلك الشعر الغنائى الذي يتحدث عن عواطف النفوس ومايحيط بها من مظاهر هذه الطبيعة الفطرية فى إخلاص وصدق وسذاجة ، هى سرّ ما فيه من جمال وظلّ ، أو من طريق آخر هى أنواع ذلك الشعر العربى (١) .

فقد كان العربى يفتخر بنفسه وقومه ، فلا يدعوه الإسراف ولا يجرّه الغلوّ إلى وصف نفسه بما ليس فيه ، وإنما يذكر الإسراع إلى الصريخ والصبر عند اللقاء ، ويذكر الخيل والسلاح والغناء فى الحرب ، واعتبر ذلك فى قول ودّاك ابن ثُميل المازنى فى يوم كان لهم على شيبان :

رُوَيْدَ بنى شيبانَ بعضَ وَعيدِكم ... تلاقوا غداً خَيلِى على سَفَوَانِ (٢)

تلاقوا جِيَاداً لا تَحِيدُ عن الوَغَى ... إذا ما غَدَتْ فى المَأْزِقِ المُتَدانى (٣)

عليها الكُماةُ الغُرُّ من آل مازِنٍ ... لُيُوثُ طِعانٍ عند كُلِّ طِعانِ (٤)

مَقادِيمُ وَصَّالُون فى الرَّوْعِ خَطْوَهم ... بكلِّ رَقيقِ الشَّفْرَتَيْنِ يَمانِ

إذا اسْتُنْجِدُوا لم يَسأَلُوا من دَعاهم ... لِأَيَّةِ حَرْبٍ أم بِأَىِّ مَكانِ

موازنة بين كلام الجاهليين وكلام غيرهم من العصور الأخرى

فأنت ترى كيف انتزع هذا الشاعر مفاخره من هذه المظاهر البدوية الصادقة ، ولم يدّع فيها ما ادّعاه ابن سَناء الملك — بعد هذا العصر — من مغالبة الدهر واختراع الكذب إذ يقول :

توقَّدُ عَزْمى يَتركُ الماءَ جَمرةً ... وحِيلَة حِلْمى تتْرُكُ السَّيفَ مِبْرَدَا

---

(١) الذى توحدت لغته بين شعراء الجبال وسكان الأودية وبين أهل الحواضر وفى ألسنة الرجال والنساء والرعاة والصعاليك واللصوص ، وكان ذلك من الأسباب التى ألفت بين القبائل المختلفة وصيرتهم كأمة قائمة قبيل ظهور الإسلام .

(٢) اسم ماء كانت عنده الموقعة . (٣) المكان الضيق من أزق كفرح وضرب .

(٤) واحده كمى ، وهو الشجاع أو لابس السلاح .

ولو مَدَّ نحوى حادِثُ الدَّهرِ كَفَّه ... لحدَّثتْ نفسِي أن أمُدَّ له يَدَا
وإنَّك عَبْدى يا زمانُ وإنَّنى ... على الرَّغْمِ منِّى أن أرَى لك سَيِّدَا !

وكانوا يمدحون فلا يبالغون فى رفعة الممدوح ، وإنما يؤثرون إصابة الصواب ، ويحفِلون للحقائق ككُلّ الأمم البدوية التى لم تتَلَوَّثْ حاباتها بأكاذيب المدنية ، وانظر إلى ذلك فى قول زُهَيْر بن أبى سُلمى فى حِصْنِ بنِ حُذَيفةَ بن بَدْر الفَزارِى :

وأبيضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ ... على مُعْتَفِيه ما تَغِبُّ فَوَاضِلُه (١)
بكَرْتُ عليه غُدْوَةً فرأيْتُه ... قُعُودًا لديه بالصَّريم عَوَاذِلُه (٢)
يُفَدِّينَه طَورًا وطَوْرًا يَلُمْنَه ... وأعْيَا فما يَدْرِينَ أينَ مَخَاتِلُه
فأقْصَرْنَ منه عن كَرِيم مُرَزَّإٍ ... عَزُومٍ على الأمْرِ الذى هُو فَاعِلُه
أخِى ثِقَةٍ لا تُتْلِفُ الخمْرُ مَالَه ... ولٰكِنَّه قد يُتْلِفُ المالَ نَائِلُه
تَرَاهُ إذا ما جِئْتَه مُتَهَلِّلاً ... كأنك تُعْطِيه الَّذى أنْتَ سائِلُه

مديح الجاهليين ومديح غيرهم

وكم بين هـذا وبين قول عَلِي بن جَبَلة وهو العَكَوَّك ، فى بعض الأمراء العباسيين :

أنتَ الذى تُنْزِل الأيَّامَ مَنْزِلَهـا ... وتَنْقُل الدهرَ من حَالٍ إلى حَالِ
ومامَدَدْتَ مَدَى طَرْفٍ إلى أحدٍ ... إلاَّ قَضَيْتَ بأرْزَاقٍ وآجَالِ

وكانوا اذا هَجَوا تباعدوا عن الهُجْر وعَفُّوا عن ذكر السَّوءات ، وإنما يتهاجَوْن بالعجز عن اكتساب المحامد والتشبه بالآباء ، وبالنقص من صفات المروءة والنجدة ، ومن أمثلة ذلك قول قُرَيْطِ بن أُنَيف العَنْبَرِى يهجو قومَه ويخلط ذلك بمدح أعدائهم ، ليكون ذلك أبلغَ فى غيظ صدورهم يقول :

لو كُنتُ من مَازِنٍ لم تَسْتَبِـحْ إبِلِى ... بنُو اللَّقِيطةِ من ذُهْلِ بنِ شَيبانا

---

(١) المعتفى : الطالب المعروف . تغبّ : تنقطع . (٢) الصريم : القصر أو الصباح .

إذاً لقَام بِنَصْرى مَعْشَرٌ خُشُنٌ ... عنــد الحَفِيظَة إن ذُو لُوثَةٍ لانَا
قومٌ إذا الشرُّ أبدَى ناجِذَيْه لهم ... طاروا إليــــه زُرَافات وَوُحْدَانا

ثم يقول :

لـكنَّ قومِى وإن كانُوا ذَوِى عدَدٍ ... ليسُوا من الشَّرِّ فى شَىء وإن هَانَا
يَجْزُون من ظُلِم أهلِ الظُّلْم مَغْفِرَةً ... ومن إساءةِ أهلِ السُّوءِ إحْسَانا
كأنَّ رَبَّك لم يَخْلُق لخَشْيَتِهِ ... سِـوَاهُمُ من جميعِ النَّاسِ إنسَانا!
فليتَ لى بِهِمُ قومًا إذا رَكِبُوا ... شَـدُّوا الإغَارَةَ فُرسَانا ورُكْبانا.

ويرثون فلا يزعمون أن السماء قد وقعت على الأرض ، وأن الأفلاك تحيرت فى مدارجها ، وإنما يبكون فى المرثى صبره فى المكروه ووفاءه فى الملمات وحفظه للعواقب ، كما يقول دريد بن الصمة فى رثاء أخيه عبد الله :

فإن يَكُ عبــــدُ الله خَلَّى مكانَه ... فمــا كان وَقَّافاً ولا طَائِشَ اليَدِ
كَمِيشُ الإزَارِ خارِجٌ نِصْفُ ساقِهِ ... بَعِيدٌ من الآفات طَلَّاعُ أنجُدِ
قليلُ التَّشَـكِّى لِلْمُصِيبَاتِ حافِظٌ ... من اليَوْمِ أعْقابَ الأحاديثِ فى غَدِ
وهَوَّنَ وَجْدِى أنَّنى لم أقُلْ لَهُ ... كَذَبْتَ ولم أبْخَلْ بما مَلَكَتْ يَدِى

وإذا اعتذروا من ذنب أو تنصَّلوا من هفوة ، تلطَّفوا فى الدعاء إلى العفو ، وتقدَّموا بأدب العَتب الممزوج بالخوف من الوعيد ، والقلق من مَوجِدة المعتذَر إليه ، وفارسُ هذه الحلْبَة فى الجاهلية النابغة فى النُّعمانيَّات التى منها :

نُبِّئْت أن أبا قابُوسَ أوْعَدَنى ... وَلاَ قَرَارَ على زَأْرٍ من الأَسَدِ
فلاَ لعَمْرُ الذى طِيفَتْ بكَعبتِه ... وماهُرِيقَ على الأنْصَابِ من جَسَدِ
ما قُلْتُ من سَيِّئٍ مما أُتِيتَ به ... إذاً فَلاَ رَفَعتْ سَوطِى إلىَّ يَدِى
إذاً فعاقَبنى رَبى مُعاقَبــــةً ... قَرَّتْ بها عينُ من يَأتيك بالحَسَدِ

وقد بالغوا فى باب الوصف وأكثروا منه ، فوصفوا ديارهم ومواردهم وما كان

فى باديتهم من نبات ووحش وطير ، ووصفوا الخيل والإبل والسماء والرياح والمطر ، وكانت المرأة أنفس مظاهر الجمال عندهم ، فهاموا بها ووصفوا محاسنها وتقدموا بذكرها فى مفاتح الكلام ، حتى عند الرثاء والفخر ، وتحدثوا إليها بما يجيش فى صدورهم ، وشبهوها بالظبية والمهاة والماء والشمس والنار ، وما كان الوصف يزيد فى بيانهم على انتزاع الحقائق من معادنها محلاة بألوانها الطبيعية فيما كانوا يستخرجونه من بيئة البادية ومظاهر هذه الحياة العربية من حرب وسلم وظعن وإقامة ، ويقول طَرَفَةُ بن العَبْد وهو أحد الوَصَّافِين للإبل من معلقته المشهورة :

وإنى لَأُمْضِى الهمّ عند احْتِضَاره ... بعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدِى[(1)]
أَمُونٍ كألْوَاح الإرَان نَسَأْتُها ... على لَاحِبٍ كأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ[(2)]
جُمالِيَّةٍ وَجْناء تَرْدِى كأنَّها ... سَفَنَّجَةٌ تَبْرِى لأَزْعَرَ أَرْبَدِ[(3)]
لها فَخِذَان أُكْمِلَ النَّحْضُ فيهما ... كأنَّهما بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ[(4)]
وجُمْجُمَةٌ مثلُ العَلَاةِ كأنما ... وَعَى المُلْتَقَى منها إلى حَرْفِ مِبْرَدِ[(5)]
وخَدٌّ كقِرْطَاس الشَّآمى ومِشْفَرٌ ... كَسِبْتِ اليَمَانِى قَدُّهُ لم يُجَرَّدِ[(6)]

ويقول العبسى فى وصف روضة ، استطرد إلى ذكرها من التشبيب بصاحبته :

---

(١) العوجاء : الناقة لا تستقيم فى سيرها لنشاطها . المرقال : مبالغة من الإرقال وهو ضرب من السير . (٢) أمون : مأمونة العثار . الإران : كتابوت التابوت العظيم . نسأتها : ضربتها بالعصا . لاحب : طريق واضح . البرجد : كساء مخطط .

(٣) جمالية : تشبه الجمل فى وثاقة الخلق . الوجناء : المكتنزة أو العظيمة الوجنات . الرديان : ضرب من السير أيضاً . السفنجة : النعامة . الأزعر : القصير الشعر . الأربد : الذى لونه يشبه التراب ويقصد به الظليم . (٤) النحض : اللحم .

(٥) العلاة : السندان . وعى : اجتمع . (٦) السبت : الجلد المدبوغ . يجرد : يعوج .

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِى غُرُوبٍ وَاضِحٍ ... عذْبٍ مُقَبَّلُه لَذِيذِ المَطْعَمِ (١)
وكأنَّ فَارَةَ تاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ ... سبَقَتْ عوارِضَها إليكَ من الفَمِ (٢)
أو رَوْضَةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نبتَها ... غيثٌ قليلُ الدِّمْنِ ليس بِمُعْلَمِ (٣)
جادَتْ عليه كُلُّ عيْنٍ ثَرَّةٍ ... فتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كالدِّرْهَمِ (٤)
سَحًّا وتَسْكابًا فكلَّ عشيَّة ... يَجْرى عليها الماءُ لَم يَتصَرَّمِ
وخلا الذبابُ بها فليس ببَارِحٍ ... غَرِداً كفعل الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذراعَه بذراعِه ... قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ (٥)

ولا ترى أبدع من رقة هذا العربى فى وصف فرسه ، حين ازْوَرَّ من كثرة ما ناله من أرماح الأعداء إذ يقول :

لما رأيتُ القَوْمَ أقْبَلَ جَمْعُهم ... يَتذامَرُون كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ (٦)
يدعُون عَنْتَرَ والرِّماحُ كأنَّها ... أشْطَانُ بِئْرٍ فى لبَانِ الأدْهَمِ (٧)
ما زِلْتُ أرْمِيهمْ بِثُغْرَةِ نَحْرِه ... ولبَانه حتى تَسَرْبَل بالدَّمِ (٨)
فازْوَرَّ من وَقْعِ القَنا بلبَانه ... وشَكا إلىَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ (٩)
لو كان يَدْرى ما المُحاوَرَة اشْتَكى ... ولَكَانَ لَو عَلِمَ الكَلاَمَ مُكَلِّمِي

ولعنترة بن الأخْرَس يصف ثعبانا :

لعلَّكَ تُمْنَى من أرَاقِمِ أرْضِنا ... بأَرْقَمَ يُسْقِى السَّمَّ من كُلِّ مَنْطَفِ (١٠)

---

(١) الاستباء : الأسر . الغروب : جمع غرب وهو الحدّ .
(٢) الفارة : حقة المسك (٣) الروضة الأنف : التى لم ترع بعد . الدمن : السرجين.
(٤) العين : المطر يدوم أياماً . الثرة : الكثيرة الماء. (٥) الأجذم : المقطوع اليدين.
(٦) يتذامرون : يتحاضون على القتال . (٧) الأشطان : الحبال جمع شطن . واللبان : الصدر . (٨) الثغرة : كالقمرة وزناً ومعنى . (٩) الازورار : الميل . التحمحم : صهيل فيه حنين . (١٠) الأرقم : أخبث الحيات وأطلبها للناس . المنطف : مكان من نطف أى سال ، ويراد منه هنا موضع السم الخالص .

تَرَاه بِأَجْوازِ الهَشِيمِ كَأَنَّما ... على مَتْنِه أَخْلاَقُ بُرْدٍ مُفَوَّفِ(١)
كَأَنَّ بِضَاحِي جِلْدِه وسَرَاتِه ... ومُجْمَعِ لِيتَيْه تَهَاوِيلَ زُخْرُفِ(٢)
كَأَنَّ مُثَنَّى نِسْعَةٍ تحتَ حَلْقِهِ ... بِما قَدْ طَوَى من جِلْدِه المُتَغَضِّفِ(٣)

ويقول الأَعْشَى يصف فرساً :

ولقد أَغْتَدى إذا صَقَعَ الدِّيكُ ... بِمُهْرٍ مُشَذَّبٍ جَوَّالِ(٤)
مُدْمَجٍ سَابِغِ الضُّلُوعِ طَوِيلِ الشَّخْصِ ... عَبْلِ الشَّوَى مُمَرِّ الأَعَالى(٥)
يَملأُ العينَ عادِيًا ومَقُودًا ... ومُعَرًّى وصَافِناً فى الجِلاَلِ(٦)
مُسْتَخِفًّا على القِيَادِ ذَفِيفًا ... تَمَّ حُسْناً فَصَارَ كالتِّمْثَالِ(٧)

ومن ألطف ما قيل فى وصف القوم ، عند تبييت العزم على الارتحال ، وتصايُحهم وتناديهم عند الإصباح ، واختلاط أصواتهم حينئذ بأصوات الخيل ولَجَب المتاع ، قول الحارث بن حِلِّزَة :

أَجْمَعوا أَمرَهم عِشاءً فلمَّا ... أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لهم ضَوْضَاءُ
من مُنادٍ ومن مُجِيبٍ ومن تَصْـ ... ـهالِ خَيْلٍ خِلالَ ذَاكَ رُغَاءُ

ومن قول طَرَفَة بن العَبْدِ فى وصف نَدَاماه ومغنيته :

نَدَامَاى بِيضٌ كالنُّجُوم وقَيْنَةٌ ... تَرُوحُ علينا بين بُرْدٍ ومُجْسَدِ(٨)
إذا رَجَّعَتْ فى صوتها خِلْتَ صوتَها ... تَجَاوُبَ أَظْآرٍ على رُبَعٍ رَدِى(٩)

---

(١) الأجواز : جمع جوز هو الوسط . الهشيم : اليابس المتكسر من النبات والشجر . المتن : الظهر . المفوّف : المنقوش . (٢) السراة : الظهر . الليتان : عرقان فى جانبي العنق . التهاويل : النقوش . الزخرف : الزينة والحسن . (٣) النسعة : سير من جلد ينسج عريضاً . المتغضف : المتثنى . (٤) صقع : صاح . مشذب : كمهذب .
(٥) المدمج : المحكم . سابغ : عظيم . الشوى : الأطراف . الممر : المفتول .
(٦) الصافن : الذى يثنى سنبكه . (٧) الذفيف : الشيط الحادّ .
(٨) القينة : الجارية المغنية . والمجسد : المصبوغ بالجساد وهو صبغ .
(٩) الأظآر : جمع ظئر ، وهى المرضعة من الإبل والنساء : والربع كصرد : الفصيل . الردى : الهالك .

إذا قلتُ هاتِي أسْمِعِينا انْبَرَتْ لنا على رِسْلِها مَطْرُوفَةً لم تَشَدَّدِ

كيف ترون أنه كان فى تشبيه نغمة المرأة بحنين الإبل المتجاوبة على فصيل هالك جافيا بدويا ، وهو فى هـذا الموضع قد كان يعذر على الاختراع والمبالغة إلا أنه كالمقلّ ينفق مما فى يده ؟ ؟

ويقول لَبِيد فى وصف بقرة وحشية ، وفيها أيضا وصف تعقب الرماة لهـا ، وإرسالهم جوارح الكلاب عليها ، بعد أن خلصَ من صفة أتان وحشية بلغ غاية فى الغرابة :

أَفَتِلْكَ أَمْ وَحشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خُذِلَتْ وهادِيةُ الصِّوارِ قِوَامُهَا(١)
خَنْساءُ ضَيَّعَتِ الفَرِيرَ فلم يَرِمْ عُرْضَ الشَّقائِق طَوْفُها وبُغَامُهَا(٢)
لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تنَازَعَ شِـلْوَه غُبْسٌ كَوَاسِبُ مَا يُمَنُّ طعامُها(٣)
صادَفْنَ منها غِرَّةً فأَصَبْنَها إنَّ المنايا لا تَطِيشُ سِهامُها

إلى أن يقول :

حتّى إذا يَئِسَ الرُّمَاةُ وَأَرْسَلُوا غُضْفاً دَواجِنَ قَافِلاً أَعْصَامُها(٤)
فَلَحِقْنَ واعْتَكَرَتْ لها مَدْرِيَّةٌ كالسَّمهرِيةِ حَدُّها وتَمامُها(٥)
لِتَذُودَهن وأيقَنَتْ إن لم تَذُدْ أَنْ قَدْ أَحَمَّ مع الحُتُوفِ حِمَامُهَا
فتَقَصَّدَتْ منها كَسَابِ وضُرِّجَتْ بِدَمٍ وغُودِرَ فى المَكَرِّ سُخامُها(٦)

---

(١) المسبوعة : التى أصابها السبع . الهادية : المتقدمة . والصوار : القطيع من البقر .
(٢) الخنساء : من الخنس، وهو تأخر أرنبة الأنف. الفرير : ولد البقرة . يرم : يبرح. الشقائق : جمع شقيقة ، وهى أرض صلبة بين رملتين . البغام : صوت رقيق .
(٣) القهد : الأبيض . الشلو : بقية الجسد أو العضو . والغبس : جمع أغبس أو غبساء من الغبسة ، وهى لون يشبه الرماد . يمنّ : يقطع . (٤) الغضف : المسترخية الآذان . الدواجن : المعلمات . قافلا : يابساً . الأعصام : العذبات تكون فى أعناق الكلاب ، الواحد عصمة وعِصام . (٥) اعتكرت : عطفت . المدرية : القرون .
(٦) تقصدت : تقطعت وقتلت . كساب : اسم كلبة وكذلك سخام .

وأما الغزل عنـدهم ـ وأكثر الناس لا يفرقون بينه وبين النسيب ولا التشبيب ـ فهو باب واسع لم يخل منه فى الغالب مقام من مقامات الشعر ، لأن المرأة كما قدمنا كانت هى كلّ الجمال فى آفاق البادية ، فجعل العربى حديثه كله إليها ، فذكرها عند الافتخار ببلائه وكرمه ، وعند صبابته وعشـقه ، وعند حله ورحلته ، وفى كلّ مقام وعلى كلّ حال ، وقد يكون من الخير لنا أن نذكر ـ بقدر مانستطيع ـ شيئاً نجعله شبيهاً بالتحديد لهذه الكلمات العامة غير المضبوطة فى قولهم الغزل والنسيب والتشبيب ويترجح عندنا أن الغزل هو الاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والحديث إليهن والعبث بذلك فى الكلام ، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو صبابة وأما التشبيب فهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة فى مطالع الكلام ، وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال ، توخياً لتعليق القلوب وتقييد الأسماع قبل المفاجأة بغرضه من الكلام ، ويذكر أحياناً مايحاول المتيمون من العشاق ستره من المحبوبة ، كالوعد واللقاء وإفضاء الأمر إلى بعض ما يستمتع به المحب من المحبوب فى الخلوات وأما النسيب فهو أثر الحب وتبريح الصبابة ، فيما يبثه الشاعر من الشكوى وما يصفه من التجنى وما يعرض له من ذكر محاسن النساء ، وهو بلا شك مظهر الرقة ويَنْبوع السلاسة فى الشعر العربى ، إذ كان حديثاً عن هذه الآلام العذبة ، ودموعا تنحدر من أجفان الكلام ، ويقول الجرجانى فى الوساطة « وترى رقة الشعر إنما تأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المُتَهالك » وسنورد من ذلك طرفا ـ ولعله يعين على تحقيق ما أشرنا إليه ـ يقول عنترة العبسى فى مَعْرِض الذكرى وهى تَهيج عواطف الشوق وتُثير آثار الصبابة :

الفرق بين الغزل والنسيب والتشبيب

سقَتْك يا عَلَمَ السَّعْدِىِّ غَادِيَةٌ ... من السَّحاب ورَوَّى رَبْعَك المَطَرُ
كم ليلةٍ قد قطَعْنا فيكَ صالِحَةٍ ... رَغِيدَةٍ صَفْوُها ما شَابَهُ كَدَرُ
معْ فِتيةٍ تتَعاطى الكأسَ مُترَعَةً ... من خَمْرةٍ كلهيبِ النَّارِ تَزْدَهِرُ
تُديرُها من بناتِ العُرْبِ جاريةٌ ... رَشيقةُ القَدِّ فى أجْفانها حَوَرُ

إنْ عشتُ فهى التى ماعِشْتُ مالِكَتِى ... وإن أمُتْ فاللّيالى شأنُها العِبَرُ

ولمالك بن الصَّمْصَامَة وهو أحد الشعراء العشاق ، وكان يهوى جَنُوب بنت مُحَصِّن الجَعْدى ، وكان أخوها أحدَ الأشراف الفرسان ، فحلف لئن ذكرها مالك أو عرّض بها فى شعره ليقتُلَنَّه :

أُحِبُّ هُبُوطَ الوادِيَيْن وإنّنى ... لَمُشْتَهِرٌ بالوادِيَيْن غَرِيبُ

أحَقًّا عِبَادَ اللهِ أنْ لستُ غادِيًا ... ولا رائحًا إلاّ علىَّ رَقِيبُ

ولا زائرًا وَحْدِى ولا فى جَماعَةٍ ... من النّاس إلا قِيلَ أنتَ مُرِيبُ

وهل رِيبَةٌ فى أنْ تَحِنَّ نَجِيبَةٌ ... إلى إلْفِها أوْ أنْ يَحِنَّ نَجِيبُ

(وتُروى هذه الأبيات لابن الدُّمَيْنَة) .

ذلك وأكثر الناس لا يَفرِقُون بين هذه الثلاثة ، وبعضُها عندهم يَخْلُف بعضاً ، وقد قرّبنا لك على قدر اجتهادنا مسافة ما بينها من خلاف ، على أن شيئاً منها لم يكن يوجد منحرفا عن غيره من أغراض الشعر فى هذا العصر ، إلا ما كان مثل هذا من قول شاعر عاشق ، لم يرو له كلام فى غير هذه الشكوى من لوعة الصبابة .

وأما الحكمة ، فقد كان لكثير من شعرائهم نصيب منها ، كأُمَيَّة بن أبى الصَّلْت وزُهَير بن أبى سُلمى وطَرَفة بن العبد وغيرهم ، وإن طويلة زُهَير التى مطلعها :

أمِنْ أُمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

قد حَلِيَتْ بكثير من ضروب الحكمة كقوله :

ومن يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بفضلِه ... على قومِه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

إلى آخر ماقاله فى « ومَن ومَن » ، ولطرفة من المدائة أيضاً قوله :

أرَى الموتَ أعْدَادَ النفوسِ ولا أرَى ... بَعِيداً غدًا ما أقْرَبَ اليومَ من غَدِ

لَعَمْرُك إنَّ الموْتَ ما أخْطَأَ الفتَى ... لَكَا لطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ باليَدِ

متى ما يَشَأْ يومًا يَقُدْه لِحتفهِ ... ومن يَكُ فى حبل المنيّة يَنْقَدِ

إلى قوله :

ستُبْدِى لكَ الأيّامُ ما كنتَ جاهلا ... ويَأْتِيك بالأخْبار منْ لم تُزَوِّدِ

ومن أمثالهم فى الشعر قول الأسود :

لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفْعى وتُرْسِلَهَا ... إن كنتَ شَهْمًا فَأَتْبِـع رَأْسَها الذنَبَا

وقول النابغة :

ولَسْتَ بمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّه ... على شَعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المُهذبُ

الحياة الاجتماعية والشعر العربى

لو استطاع المنقّبون أن يستخرجوا آثار الأمم القديمة كالمصريين واليونان ، مما زيّنوا به معابدهم ونقشوه على صفائح قبورهم وقصورهم ، لقد يستطيع الباحث المنقب أن يرى مثل هذه الصورة أو قريباً منها فى ذلك السجل الباقى من تاريخ العرب فى الشعر الجاهلى ، فهو القائم عندهم مقام الآثار المنقوشة والرُّقوق المكتوبة عند غيرهم من أهل الحضارة القديمة من أمم التاريخ ، وإنك لتنظر فى صفحة الشعر الجاهلى فتنعكس على خيالك من مرآته صورة واضحة لتلك البادية العربية ، تترسم فيها على ذلك البساط الممدود من رمال الصحراء مضارب خيامهم ، وملاعب ولدانهم ، وأسماء منازلهم ، وموارد مياههم ، وأحاديث سادتهم ، ومنجبات نسائهم ، وعتاق خيولهم ، وأوصاف سيوفهم وآلاتهم ، وكثيراً من أيامهم ووقائعهم وعاداتهم وأخلاقهم ، مما صح أن يتخذه المؤرّخون مصدراً يعتمدون عليه فى وصف هذه الحياة الجاهلية ، فقد كان الشاعر يبدأ قصيدته بذكر الديار ومساءلة الأطلال ، ثم يصف هذه الأماكن ويذكر مواقعها ويُعرّفها كما يفعل الباحثون فى علم تقويم البلدان ، ألا ترون كيف فعل امرؤ القيس بعد قوله :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل . . . .

أنه يقول . . . . بسِقط اللِّوى بين الدَّخول فَحَوْمَل

فتوضحَ فالمِقراة لم يعف رسمُها لما نسجتْها من جنوب وشمْأل

ونحن نذكرهنا نماذج من هذا الشعر ، هى التى أخذ التاريخ منها ماأخذ من هـذه العادات والآداب ، وهى التى كانت فى مجموعها مظهرا صادقا لهذا الاجتماع العربى .

عقـر الرواحل على قبور الأبطال

كان من عاداتهم فى الجاهليـة أن يعقروا رواحلهم على قبور أبطالهم وسادتهم ، وقد مرّ حسان بن ثابت على قبر رَبيعة بن مُكَدَّم (وهو الشاب الذى يقال إنه حمى ظعينَته وهُو ميت) فقال :

نفرتْ قَلوصى من حجارةِ حَرَّةٍ بُنيت على طَلْق اليدين وَهوب(١)

لولا السِّفارُ وبعدُ خَرْق مَهمهٍ لتركْتُها تَحْبُو على العُرْقوب(٢)

(وفى الأغانى أن الأبيات لكُرْز بن حَفص أولضِرار بن الخطَّاب الفهْرى) .

وكان السارى إذا جنَّه الليل ، ولم يجد هدًى نبح كما تنبح الكلاب فتنبح على نُباحه ، فيهتدى بذلك إلى مكان الحىّ ، ولهم فى ذلك أشعار كثيرة منها قول نابغةِ بنى جَعْدة (٣) :

عادتهم فى الاستنباح

ومُسْتَنبحٍ تَستكْشِطُ الريحُ ثوبَه ليَسقُطَ عنه وهو بالثوب مُعْصِمُ

عَوى فى سواد الليل بعد اعْتِسافه لينبحَ كلبٌ أو ليَفْزَع نُوَّمُ

فجاوبه مُسْتَسْمعُ الصوت للقِرى له عند إتيان المُهِبِّين مَطْعَمُ

يكادُ إذا ما أبصرَ الضيفَ مقبلا يُكَلِّمُه من حُبِّه وهو أعْجَمُ

الوشم

وكان من عادتهم فى التزين، الدق بالنئور وهو الوشم ، ويقول طرفة فى معلقته:

---

(١) القلوص من الإبل : الشابة الباقية على السير . الحرة : أرض ذات حجارة .

(٢) السفار : مصدر سافر . الخرق : القفر والأرض الواسعة . والمهمه : المفازة .

(٣) وتروى هذه الأبيات لابن هرمة .

لخولَةَ أطلالٌ ببُرقة ثَهْمد   تلوحُ كباقى الوشْم فى ظاهر اليَدِ

وكقول زُهَير :

ودارٌ لهـا بالرَّقمتيْن كأنها   مراجيعُ وَشْم فى نواشر مِعْصَم

الطلاق — كان العرب يطلقون الثلاث بالتفريق ، ومن ذلك قول الأعشى وقد هدده أهل امرأته بالضرب أو يطلقها :

أيا جارتى بينى فإنكِ طالقه   كذاكِ أمورُ الناس غادٍ وطارقه

فقالوا له : ثانية ! فقال :

و بينى فإن البَيْن خيرٌ من العصا   و إلا تَرىْ لى فوق رأسكِ بارقه

فقالوا : ثالثة ! فقال :

و بينى حَصَان الفرج غيْر ذميمةٍ   ومَوْمُوقَةً قد كنت فينا ووامقه

التهـادى بالريحان — وكان العرب يحيون سادتهم وملوكهم فى الأعياد بطاقات الزهر كما يصنع الفرنجة فى زماننا ، ومن ذلك قول النابغة فى ملوك غسان :

رقاقُ النعال طيبٌ حُجُزاتهم   يُحَيَّوْن بالريحان يوم السباسب

الحلبـة والرهان — ومن ذلك قول عنترة فى مقتل مالك بن زهير :

فلله عيناً من رأى مثلَ مالكٍ   عقيرة قومٍ إذ جَرى فرسان

فليتهما لم يجريا قيـد غلوة   وليتهما لم يرسـلا لِرِهَانِ

الغناء — وقد أشار عنترة إلى بعض أنواعه عنـدهم فى تشبيهه المشهور وهو قوله فى الروضة :

وخلا الذبابُ بها فليْسَ ببارحٍ   غَرِداً كفعل الشارب المترَنِّم

هَزِجا يحكُّ ذراعه بذراعه   قدح المُكِب على الزناد الأجذم

وقد قدمنا لكم فى أيام العرب من الأشعار الدالة على أسماء هـذه الوقائع من كلام مهلهل والأعشى وغيرهما ، فلا نطيل بذكر ذلك هنا . ولم يكن لهم غنى عن

ذكرهم للموارد

ذكر المياه والشوق إلى ورودها وتعريف مواقعها ، إذ كانت عزيزة نادرة فى هذه الصحراء القاحلة ، ويقول جابرُ بن الأزرَق ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقرظ هذه الأبيات ويتعجب من حسنها :

فيالهفَ نفسِى كلما التحْتُ لَوحة — على شَرْبَةٍ من ماءِ أحواضِ مَأْرِب

بقايا نِطافٍ أودعَ الغيمُ صفوَها — مُصَقَّلَةَ الأرْجاء زُرْقَ المشارب

ترقرقَ دمعُ المُزْن فيهنَّ والتَوتْ — عليهن أنفاسُ الرياحِ الغرائب

أسماء الخيول

وكذلك كانوا يذكرون أسماء خيولهم التى يدركون عليها الأوتار ويصولون بها فى الحروب ، كقول الحارث بن عُباد :

قرِّبا مربِطَ النعامـــةِ منى — لَقِحَت حربُ وائلٍ عن حِيَال

فى أبيات مشهورة ، وكقول خالد بن جعفر :

فمن يكُ سائلاً عنّى فانّى — وحَذْفَةَ كالشَّجا تحْتَ الوَرِيد

(حذفة : فرسه)

منجبات النساء

ويذكرون النساء النجيبات ويفخرون بولادتهن ، كقول لبيد «نحن بَنِى أم البنينَ الأربَعة » فى رجز أنشده النعمان بن المنذِر ، فنفره به من الربيع بن زياد العبسى ، وكان بينه وبين العامريين ـ رهطِ لبيد ـ شحْناء فكسره بذلك لبيد ونفاه .

البحار والسفن

وتجد فى الشعر الجاهلى مايدل على أن الحاجة كانت تدعوهم أحياناً إلى ركوب البحار ، وأنهم قد وصفوا سُفُنها ، ومن ذلك قول طَرفة :

كأن حُدوجَ المالكيّةِ غُدوةً — خَلايا سَفِين بالنَّواصِفِ من دَد[1]

عَدَوْلِيَّة أو من سَفين بن يامِن — يجُورُ بها المَلّاحُ طوراً ويهتدى

---

(١) الحدوج . جمع حدج وهى من مراكب النساء . الخلايا : جمع خلية وهى السفينة العظيمة . النواصف : جمع ناصفة وهى أماكن متسعة من نواحى الأودية . دد : اسم واد .

يشق حَبَابَ الماء حَيْزُومُها بها كما قسم التُّرْبَ المُفايِلُ باليد

الخط بالقلم — وما يدل كذلك على ظهور الكتابة عندهم كقول المرقش الأكبر :

الدارُ وَحْشٌ والرسومُ كما رَقَّشَ فى ظهر الأديم قَلَمْ

وقول لبيد :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها

تحريم الخمر — وكان من أشرافهم من حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية ، ومن هؤلاء قيس ابن عاصم المِنقَرى وهو الذى يقول :

لعمرك إن الخمر ما دمتُ شاربا لَسَالبةٌ مالى ومُذْهِبَةٌ عقلى

وتاركةٌ بينَ الضيوف قِرَاهُمُ ومورثَةٌ حَرْبَ الصديقِ بلا ذَحْلِ

تعليق الحلى على اللديغ — وكان من عادتهم تعليق حلى النساء على اللديغ ، تفاؤلا له بالشفاء ، ومن ذلك قول النابغة :

فبت كأنى ساوَرَتْنى ضَئيلة من الرُّقْش فى أنيابها السّمُّ نَاقِعُ(١)

يسَهَّد من ليل التمام سليمها لِحَلْى النساء فى يَدَيْهِ قَعَاقِعُ(٢)

زواج امرأة الأب — وكان الرجل يتزوّج امرأة أبيه بعد موته ، ويدلّ عليه قول عمرو بن معديكرب فى امرأة أبيه حين كرهته من أبيات :

فلولا إخوتى وَبَنِيَّ مِنها ملأت لها بذى شُطَبٍ يمينى

التأله — وكان فى جوف هذه الوثنية المظلمة ، من أدرك بثقوب رويته ، أن للخلق خالقاً وأن لهم مَعادا ولأعمالهم حسابا ، ويقول زهير بن أبى سلمى :

فلا تكتُمُنَّ اللهَ ما فى نفوسكم ليخْفَى ومَهْما يكتَمِ اللهُ يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فيوضَعْ فى كتابٍ فَيُدَّخَرْ ليوم الحسابِ أو يُعَجَّل فَيُنْقَمِ

---

(١) ساورتنى : نازلتنى . الضئيلة : الحية . الرقش : جمع رقشاء وهى حية ذات نقط فى لونها . (٢) ليل التمام : كناية أطول ليالى الشتاء .

تأثير الشعر . منزلة الشاعر . التكسب بالشعر

عظمة الشاعر في الجاهلية .

ومن جملة ما قدمناه تعلم كيف كانت منزلة الشعر من آدابهم ، وما كان للشاعر من المكانة فيهم ، حتى كانوا لا يهنئون إلا بشاعر ينبغ أو فرس تنتج ، وكانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أقبلت إليها وفود القبائل يهنئونها به ، وتتباشر الرجال والولدان وتصنع الأطعمة ويقبل النساء يلعبن بالمزاهر كما يفعلن فى الأعراس ، توقيراً للشعر واعتداداً بفضل الشاعر ، الذى هو لسانهم المدافع عنهم والمخلد لمفاخرهم . ولقد كان الشاعر يمدح الخامل المغمور فلا يزال قد رفعه وسير فى الآفاق ذكره ، وكان يهجو الشريف المذكور فيغض منه ويضعه . . وهذا المحلق الكلابى وهو عبدُ العُزَّى بن عامر ، وكان رجلا كثير البنات سيء الحال قد كسدت بناته ورغبت عنهن الأزواجُ لفقره ، قد مدحه الأعشى بقصيدته التى مطلعها

الأعشى والمحلق الكلابى

أَرِقْتَ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ وما بِيَ من سُقْمٍ وما بى تَعشُّقُ

ويقول منها :

أبا مِسْمَع سار الذى قد فعلتُمو فأنجدَ أقوامٌ به ثم أَعْرَقُوا
وإن عِتَاقَ العِيس سوف يزورُكم ثناء على أعجازهنَّ معلَّق
ترى الجُود يجرى ظاهراً فوق وجهه كما زان مَتْن الهُنْدُوانِيِّ رَوْنَقُ
يداه يدَا صدقٍ فكفٌّ مُبيدَةٌ وأُخْرَى إذا ما ضُنَّ بالمال تُنْفِقُ

فسار ذكره وحسنت حاله وتزوجت بناته .

حسان وبنو عبد المدان

وهجا حسان بن ثابت بنى عبد المَدَان وكانوا أشرافا طوال الاجسام بقوله :

لا بأس بالقوم من طُول ومن غِلَظٍ جسمُ البغال وأحلامُ العصافير

فعيرهم الناس بذلك حتى قالوا والله يا أبا الوليد لقد تركتَنا ونحن نستحى

من طول أجسامنا بعد أن كنا نفتخر به على الناس ! فقال لهم سأصلح منكم ما أفسدت ، ثم قال فيهم :

وقد كنا نقولُ إذا رَأينا لذى جِسْم يُعَدُّ وذِى بَيانِ
كأنك أيها المعطَى بَيانا وجِسما من بنى عَبْد المَدَان

الحطيئة وبنو أنف الناقة

وذكر ابن رشيق « فى العمدة » أن هذا التأثير قد بقى بعد الاسلام قال : ولقد كان بنو أنف الناقة (وهم رهط من تميم لهم سؤدُد وشرف) يفرّقون من هذا الاسم ويسأل الرجل منهم عن نسبه فيقول من بنى قُرَيْع بن عَوْف ، يتجاوز جعفرا أنفَ الناقة ، إلى أن نزل الحطيئةُ ببغيض بن عامر أحد رؤسائهم مغاضباً للزبرقان بن عمه فأحسن مثواه فقال فيهم :

سيرى أمامُ فإن الأكثرين حصا والأكرمينَ إذا ما ينسبُون أبا
قوم هم الأنفُ والأذنابُ غيرُهُمُ ومن يسوّى بأنفِ الناقةِ الذَّنَبا

فصاروا بعد ذلك يتطاولون على العرب بهذا النسب ويفتخرون به

جرير والراعى النميرى

وكانت نُمَيْر إحدى جمرات العرب إذا سئل الرجل منهم عن نسبه يقول نميرىّ ويمدّ بها صوته ، حتى صنع جريرٌ قصيدته التى هجا بها عُبيدَ بن حُصَيْن ، وهو الراعى النميرى يقول منها :

فَغُضّ الطرفَ إنك من نُمَيْر فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابًا

فأخزاهم بذلك وأطفأ جمرتهم ، وصاروا بعد ذلك لاينتسبون إلى نمير ، وإنما ينتسبون إلى أبيه عامر بن صَعْصعة .

وكان مولى لباهلةَ يرد سوق البَصرة فيعبث به النميريون ، فعلمه مواليه البيتَ فاجتاز بهم بعد ذلك وأراد البيت فنسيه فقال : غمّض وإلاجاءك ما تكره !! فانقطعوا عنه . ومرت بجماعة منهم جارية فأحدُّوا إليها النظر فقالت : والله يا معشر نمير ما امتثلتم فى واحدة من اثنتين ، لا قول الله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ولا قول الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير .. البيت . فكأنما ألقمتْهم حَجَرا

النجاشي وبنو العجلان

وكان بنو العَجْلان - وهم رهط بن مقبل الشاعر - يفخرون بلقب أبيهم هذا ، لزعمهم أنه إنما سمى به لتعجيله القِرَى للأضياف ، فهجاهم النَّجاشِيّ الشاعر واستعدَوْا عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسألهم ماذا قال فيهم ؟ فأنشدوه قوله :

إذا الله عادى أهل لُؤم ورِقَّة فعادى بنى العَجلان رهطَ بن مُقْبل

فقال عمر : إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب ! فقالوا إنه قال :

قبيلتــه لا يخفرون بذمة ولا يظلمون الناس حَبَّة خَرْدَل

فقال عمر : ليت آلَ الخطاب كذلك ! . . قالوا إنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشــيةً إذا صدر الورَّادُ عن كل مَنهَل

فقال عمر : هذا أقل للسكاك « يعنى الزّحام » ! . . قالوا إنه قال :

وما سُمِّى العَجلان إلا لقوله خذالقَعْب واحلُبْ أيها العبدُ واعجَل

فتوى عمر في الاستعداء وأوليته في ندب المختصين

فدعا عمر حسان بن ثابت ، وكان يعلم ما قال النجاشى إلا أنه أرادَ أن يدرأ الحد بالشبهة ، فقال حسان إنه قد سلح عليهم ! ! فحينئذ أمر به عمر إلى السجن ، وكذلك فعل بالحطيئة حين هجا الزبرقان ، وهى إحدى أوليات عمر فى استفتاء الخبراء ، وقد صارت من سنن الناس إلى يومنا هذا .

ذلك كان شأن الشعر وتلك كانت هيبة الشاعر ومكانته عند العرب ، وما كانوا فى إبان هذه النهضة الشعرية يقولون الشعر إلا فى المقاصد النبيلة من المدح العفيف والفخر الصادق ، ولم يقولوه تعرّضاً للصــلات ولا تشفيا من

عبيد الشعر

الأشخاص ، حتى ظهر فيهم عبيدُ الشعر الذين أنحَوْا عليه بالتهذيب وتتبعوه بالصناعة والتنقيح ، استدرارا المغانم وانتجاعا للمكسب وطمعا فى جوائز الملوك . ومن هؤلاء النابغةُ مع ملوك الحِيرة من المناذرة وأبناء جَفْنَة من ملوك الشام ، وكذلك حسانٌ مع هؤلاء وهؤلاء ، وزهير مع هَرِم بن سنان ، والأعشى مع الملوكِ والسُّوقة ، فتطامنت بذلك منزلة الشعراء وترفع كثير من أشراف العرب

عن الشعر لمكان هؤلاء ، ورغبوا عنه إلى الخطابة ، وإن كان الشعر فى ذاته يقى صاحب الدولة على العقول كما قدمنا فى غير هذا المكان .

طبقات الشعراء

أما من حيث الشعر والشهرة ، فالعلماء مختلفون فى ترتيب طبقاتهم ، وتقديم بعضهم على بعض ، ولكل واحد من الفحول جماعة تقدمه وتتعصب له . فعلماء البصرة مثلا يقدمون امرأ القيس ، وأهل الكوفة يقدمون الأعشى ، والحجازيون يقدمون زهيراً والنابغة . ولعلك لا تجد لهذا الخلاف كبير خطر إذ لم يجر قياس الأئمة بين هؤلاء الفحول على ناحية من النظر واحدة ، فالذين قدموا امرأ القيس نظروا إلى أوائله وسبقه ، والذين قدموا النابغة نظروا إلى ديباجته واستوائه ، وذهب أصحاب الأعشى إلى أنه أكثرهم طويلة جيدة ، ونظر أصحاب زهير إلى حِكَمه وقلة معاظلته وفضوله . وإذاً يكون الخلاف لفظيا كما يقولون ، وقد جعل أبو عبيدة معمر بن المثنى شعراء الجاهلية ثلاث طبقات : ووضع فى الطبقة الأولى امرأ القيس والنابغة وزهيراً ، وأسقط الأعشى وجعله فى الطبقة الثانية مع طرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة ، وجعل شعراء الطبقة الثالثة. عنترة وعُروَة بن الورد ودريد بن الصِّمة وعمرو بن كلثوم والمرقش وحاتم الطائى . ونحن نذهب إلى هذا الرأى لاختصاره .

رأى أبى عبيدة

تقسيم الشعراء من حيث العصور

وأما الشعراء عامة من حيث عصور التاريخ فهم أربع طبقات : الجاهليون والمخضرمون (وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وقالوا فيه الشعر كحسان والحطيئة) وإذاً لا ينبغى أن يكون لبيد من المخضرمين ، لأنه وإن أدرك الإسلام ، لكنه لم يقل فيه شعراً إلا بيتاً أو بيتين ، ولعلهما قوله :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجَلى ... حتى اكتسيتُ من الاسلام سِرْبالا

أو قوله :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناسِ كيفَ لَبيدُ

ثم الشعراء الإسلاميون إلى أواخر العصر الأموى ، ثم المولدون وهم الذين فسدت سليقتهم باختلاطهم بشعوب الأمم الأخرى من الترك والفرس والمصريين وغيرهم من الدولة العباسية إلى ما شاء الله .

تقسيم الشعراء من حيث الإجادة

وللعلماء تقسيم آخر للشعراء من حيث الشاعرية والإجادة ، فعندهم الشاعر الخِنْذيذ : وهو الذى يجمع إلى جيده رواية الجيد من شعر غيره ، ثم الشاعر الفحل : وهو الذى يجيد ولا يروى لغيره ، ثم شاعر فوق الردىء بدرجة : وهو الوسط ، ثم شُعرور أو شويعر : ليس بشيء ، وعندهم أن الشعر والغناء والمُلَح مما لا يحسن وسطه و إنما يحسن طرفاه وهما الحار والبارد ، فجيد الشعر معجب ، ورديئه مضحك ، والوسط بين الحارّ والبارد ساقط ، وكذلك الغناء ، وكذلك النكتة تستخف إلى السرور والعَجَب من طرفيها ، ووسطها فاتر لا فضل فيه لسرور الاستحسان ولا لضحك الهزؤ والسخرية .

شياطين الشعراء :

هبيد شيطان عبيد

يزعم العرب أنه كان لبعض الفحول من شعرائهم شياطين يلهمونهم هذه العبقرية فى كلامهم ، ونقل صاحب الجمهرة أن صاحب عبيد بن الأبرص واسمه هَبيدُ هو الذى لقنه قصيدة :

طاف الخيالُ علينا ليلَةَ الوادى   من أم عَمْرو ولَمْ يُلمِمْ بميعاد

وهى التى يقول فيها :

لا أعرفَنك بعد الموت تندبنى   وفى حياتِىَ ما زودْتنى زادى

الخير أبْقى و إن طال الزمانُ به   والشرُّ أخبثُ ماأوعَيْتَ من زاد

مسحل ولافظ وهاذر

وزعم أن للأعشى شيطانا اسمه مِسحَل ، ولامرئ القيس آخر اسمه لافِظ ، وللنابغة صاحب اسمه هَاذِر ، وقد يكون ذلك جاريا على تصور الإنسان لهذه الأرواح الخفية ، وشدة قدرتها على مايعجز عنه البشر ، و إن العرب لفرط كلفهم

بالشعر وحبهم للإبداع فيه ، نسبوا تلك الأشعار إلى من هو فى ظنهم أقدر منهم على اختراع مالا يكاد يخطر على العقول البشرية . وقد قالوا فى كلمة عبقرى وهو الفائق أو غير المشارك فى أوصافه ، أنه منسوب إلى عبقر وهم طائفة من الجن أو هو وادٍ لهم استرجاحا لحسنه وتعجبا من فوقانه ، وليس العرب وحدهم من بين أمم العالم هم الذين كانوا يستلهمون الجن أو يعتقدون بوجودهم ، فمن قدماء الهنود طوائف كثيرة لم تكن تعتقد وجود هذه الجنيات فقط ، بل كانت فوق ذلك تعبدها عبادة : وشعراء العالم القديم والحديث لايزالون يذكرون هذه الأرواح الطيبة والخبيثة ، مما ينطبق عندنا على معنى المَلَك والجنى ، ويستوحونهم مثل هذا الإلهام فى أشعارهم ورواياتهم ، والقرآن يحدثنا عن هذه الأرواح بسورة (قل أُوحِيَ إلىّ أنهُ استمَعَ نَفَرٌ من الجن) فلم يبق من سبيل إذاً إلى استنكار هذه العجيبة ، وعدها من ضروب الخرافات كما يقول بعض المتعنتين ، وقد حكى أن أبا السرى سهل بن أبى غالب الخزرجى وضع كتابا فى الجن وأخبارها وحمله إلى الرشيد ، فقال له فى بعض حديثه : إن كنتَ رأيتَ ما ذكرتَ فقد رأيت عجباً ، وان لم تكن رأيتَه فقد وضعتَ أدبا !! وظاهر من هذا الكلام أن الرشيد لم ينكر من الأمر شيئاً . على أن بعض أدباء العرب قد حاولوا تعليل هذا الضرب من الشعر ، الذى زعم بعض الأعراب أنه للجن ، ومنهم أبو اسحق المتكلم من أصحاب الجاحظ وهو فى رأيه يبين كيف نشأت هذه الفكرة عند العرب قال :

إن أصل ما يذكره بعض الأعراب من عزيف الجِنّان وتغول الغيلان ، أن العرب لما نزلت بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ، ومن انفرد وطال مقامه فى الفلاة والخلاء والبعد من الإنسِ استوحش ، ولاسيما مع قلة الأشغال والمذاكرين ، والوحدة لاتقطع أيامهم إلا بالمُنى وبالتفكير ، والفكر ربما كان من أسباب الوسواس ، وقد ابتلى بذلك غير حاسب ، وإذا استوحش الإنسان مثل له الشىء الصغيرُ فى صورة الكبير ، وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه فيرى مالا يرى ، ويسمع مالا يسمع ويتوهم على الشىء الصغير الحقير أنه عظيم

عبقرى

الرشيد وكتاب أبى السرى فى الجن

رأى أبى إسحق المتكلم فى نشأة هذه الفكرة

جليل ، ثم جعلوا ما تصوّر لهم من ذلك شعراً تناشدوه وأحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشئ ، وربى به الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافى ، وتشتمل عليه الغيطان فى الليالى الحنادس ، فعند أول وحشة أو فزعة ، وعند صياح بوم ، أو مجاوبة صدى ، تجده وقد رأى كل باطل ، وتوهم كل زور ، وربما كان فى الجنس وأصل الطبيعة نفّاجا كذّابا ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول فى ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة ، فعند ذلك يقول رأيت الغيلان وكلمت السّعْلاة ، ثم يتجاوز ذلك فيقول قتلتها ، ثم يزيد فيقول رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها ، ومما زادهم فى هذا الباب وأغراهم به ومدّ لهم فيه ، أنهم ليس يلقون بهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم وإلا غبيا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التصديق أو التكذيب أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت فى هذه الأجناس .

وهذا الكلام من أبى إسحق ، وإن كان صادراً عن حسّ صادق وتمييز صحيح ، لا يكاد يدفع وجود هذه العقيدة عند العرب ، ومهما بلغت هذه الأسباب من الصحة ، فلن تكون هى وحدها التى دعت العرب إلى الاعتقاد بوجود الجن بعد الذى قدمناه من البيان .

المعلقات

أكثر الرواة على أن المعلقات سبع طوال، امتازت عن شعر هذا العصر بامتداد القوافى وتنوع الأغراض وكثرة الاختراع، وأصحابها: امرؤ القيس صاحب (قفا نبك) وطَرَفة صاحب لخولة أطلال ببُرقة ثهْمَد) وزهير بن أبى سُلمى صاحب (أمن أمّ أوفى دِمْنة لم تَكلَّم) وعنترة وطويلته (هل غادر الشعراء من متردَّم) وعمرو بن كلثوم وواحدتُه (ألا هُبِّى بصحنك فاصبَحينا) و(عفت الديار محلها فمقامها) للبيد، و(آذنتنا ببينها أسماء) للحارث بن حِلِّزة، وبعضهم يعد دالية النابغة (يا دارمَيّةَ بالعلياء فالسندِ) ومدحة الأعشى للنبى (ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا) من المعلقات، ويسقط قصيدتى عنترة والحارث بن حِلِّزة ويزيد (أقفرَ من أهلِه مَلْحوبُ) لعبيد بن الأبرص.

سبب تسمية هذه القصائد بالمعلقات

وقد اختلف الناس فى هذه المعلقات، وأنكر بعضهم تعليقَها على الكعبة، ومنهم أبو جَعفر النحّاس المتوفَّى سنة ثلاثمائة وثمان وثلاثين هجرية فقد قال فى شرحه عليها ما نصه (واختلفوا فى جمع القصائد السبع، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعُكاظَ فيتناشدون الأشعار، فإذا استحسن الملكُ قصيدةً قال علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خِزَانتى) ولم يذكر من هو هذا الملك، ولعله النعمان بن المنذر وقد أسلفنا أنه كان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول، وأنه صار ذلك إلى بنى مَرْوان أو ما بقى منه، على ماروواه ابن سلاَّم فى كتاب الطبقات.

انكار أبى جعفر النحاس اتعليقها فى الكعبة

قال أبو جعفر «وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة» وهو يستند فى رأيه هذا، إلى أن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر، جمع لهم هذه القصائد السبع، وقال هذه هى المشهورات! فسميت القصائد المشهورة، ويؤخذ من ذلك أن تسميتها بالمعلقات على فرض

التسليم منه بقدم هذه التسمية ، يرجع إلى قول الملك علقوا لنا هذه ، لا إلى أنها علقت فى الكعبة .

رأى ابن عبد ربه صاحب العقد

وأما صاحب العقد وهو أحمد بن عبد ربه القرطبى ، وكان قد ساح فى بلاد المشرق وسمع من العلماء ، فهو يخالف أبا جعفر النحاس وكانا متعاصرين وهذا كلامه « وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له ، أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى[1] المدرجة ، وعلقتها بأستار الكعبة ، فمنه يقال مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع يقال لها المعلقات » وقد يلاحظ على قوله هنا ، إن هذه المعلقات كتبت كلها فى وقت واحد ، وهذا لا يتفق مع ما ذكره أبو جعفر النحاس من أن الملك النعمان كان يأمر بتعليق القصيدة الجيدة من الشعر وإثباتها فى خزانته ، ولا مع ماسنذكره لغيره من مخالفيه .

صاحب العمدة

وذكر ابن رشيق فى العمدة ، وهو ممن يوافق صاحب العقد فى الرأى قال « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت فى القباطى بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل كان الملك إذا استجيدت قصيدة لشاعر يقول : علقوا لنا هذه ! لتكون فى خزانته . »

رأى ابن خلدون

وقال صاحب المقدمة (وهو أيضاً ممن يقطع بتعليقها فى الكعبة) ويظهر أن كل هؤلاء جروا وراء ابن عبد ربه « بعد كلام له » : . . . حتى انتهوا — أى العرب — إلى المباهاة فى تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم ابراهيم ، كما فعل امرؤ القيس والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى وعنترة ابن شداد العبسى وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع . وينكر بعض المستشرقين من الفرنجة وبعض الأدباء من باحثى زمانا ، تعليق هذه الأشعار على الكعبة ، ولعل شبهتهم فى ذلك أن الذين نقلوا

---

(١) جمع قبطى بضمّ القاف على غير قياس نسبة إلى قبط مصر بكسرها ، وهى ثياب كانت تنسج بمصر .

تعليق هذه المعلقات على الكعبة لم يذكروا تفصيلا شافياً عن كيفية تعليقها ، ولا عن الذين كتبوها ، والذين أمروا بتعليقها من الملوك أو الأشراف والقضاة ، وأن الكعبة حين هدمت وجدد بناؤها فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يذكر عن هذه المعلقات شىء وأنه ما كان للعرب — وهم يوقرون هذه البنية — أن يدنسوا أركانها بمثل مجون امرئ القيس ولا فسوق طرفة ، ويرون من هذا أن التسمية حديثة مصنوعة فى عصر التدوين أو قبله بقليل .

رأى الاسكندرى

ويرى شيخنا الاسكندرى أن السبب فى تسمية هذه القصائد بالمعلقات ، أن العرب لم تكن تكتب فى دفاف ، وأنها لم تكتب قبل القرآن كتابا مدففاً ، وإنما كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد ، يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة ، وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة ، بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرض فأرة أو عُثّ أو نحو ذلك من دواب الأرض ، قال : وذلك تأويل قوله تعالى « يوم نطوى السماء كطىّ السجلّ للكتب » إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذى كان يعلق الكتب أو يطويها لعله كان يستعمل مثل هذا العود فى طىّ الكتاب وتعليقه .

رأى البغدادى

وذكر البغدادى فى خزانة الأدب فى معنى المعلقة قال «إن العرب كانت فى الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر فى أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتى مكة فى موسم الحج . فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه » على أننا

ترجيح رأى البغدادى

نقول والعقل لايرى مانعاً من صحة تعليق هذه القصائد فى الكعبة على نحو ما يراه البغدادى ، ويجوز أن يقع ذلك فى أيام الموسم كلها أو بعضها ، ويجوز أن

تعليق قريش للصحيفة

يكون فى ساعة من نهار وهم لا ينكرون أن قريشاً حين تآمروا على قطيعة بنى هاشم ، كتبوا بذلك صحيفة وعلقوها بأستار الكعبة ليعظموا أمرها ، وليحملوا

تعليق الرشيد لكتاب العهد

أنفسهم على المبالغة فى تنفيذها ، والوفاء بما تعاهدوا عليه فيها . وأن الرشيد حين كتب العهد للأمين والمأمون ابنيه بالخلافة بعده ، أمر به فعلق فى أستار الكعبة

ليزيد بذلك نفاذاً وهيبة وليزداد الناس له إذعانا وتسليما و إذًا لا مانع أن يكون العرب — وللشعر عنـدهم من المنزلة ماله — قد فعلوا ذلك بهذه المعلقات ، لفرط شغفهم بها وحمل الناس على روايتها وتعظيم أمرها ، ومما يسقط شبهة القائلين بأن العرب كانوا يأنفون أن يضعوا فى أركان البيت الحرام هُجْر امرئ القيس وتعاهُرَ طرفة ، أن عبد الله بن عباس كانت له مجالس فى مسجد رسول الله ، يسمع فيها شعر ابن أبى ربيعة فى دبيبه وغزله ، وما كان له مع إسلامه وقرابته ومكانه من صاحب هذه الروضة المباركة أن يسمع بمثل ذلك فى هذا المكان ، لولا أن استجادة العرب للشعر لم تكن تتوقف على شرف معناه كما يزعم أصحاب هذه الشبهة الواهية !

أما مكانها من التاريخ ومنزلتها من الشعر فينبغى ألا نستعجل بالفتوى فيها ، قبل أن نبسط من كلٍّ واحدة أبياتا ، تبين ما اشتملت عليه من أغراض وما وقع لقائلها من صواب ، وما توفق إليه من اختراع فى وصف أو حكمة أو تشبيه ، ليكون ذلك كالتمهيد لما نصفها به بعد ذلك ، من رفعة أو ضعة ومن قوة أو ضعف ، ونبدأ بمعلقة امرئ القيس .

معلقة امرئ القيس (١)

قِفا نَبْكِ من ذِكرَى حبيبٍ ومنزلِ بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فَحَوْمَلِ (٢)
فَتوضِحَ فَالمِقْراةِ لم يَعْفُ رسمُها لِما نَسَجَتْها من جَنوبٍ وشَمْألِ (٣) .

---

(١) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو المقصور ، وينتهى نسبه إلى كندة ويكنى أبا وهب وأبا الحارث ، وقيل اسمه حندج ، وفى كتب الروم اسمه قيس وعاش بين القرنين الخامس والسادس من ميلاد المسيح وستأتى ترجمته . (٢) السقط : مثلث الثاء وهو منقطع الرمل . اللوى : حيث يلتوى الرمل ويدق . الدخول وحومل : موضعان .

(٣) توضح والمقراة موضعان . نسج الريح : مجاز عن اختلافها على المكان بما تحمله من التراب . وقوله لما نسجتها البيت تعليل المنفى لا للنفى ، ومعنى ذلك أن يقال انتفى عفاء الرسم لسبب آخر غير نسج الريحين لأن ذلك من أسباب العفاء لكنه غير مراد هنا .

وُقُوفًا بها صَحْبِي عَلَىَّ مَطِيَّهم   يقولونَ لا تَهلِكْ أسًى وتَجَمَّل
وإنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ   فهل عندَ رَسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّل (١)
كدأبِكَ من أمِّ الحُوَيْرِثِ قبلَها   وجارَتِها أمِّ الرَّبابِ بمَأْسَل (٢)
إذَا قامتا تَضَوَّعَ المِسْكُ منهما   نَسيمَ الصَّبا جاءت برَيَّا القَرَنْفُل (٣)

وقال :

ألا ربَّ يومٍ صالحٍ لكَ منهُما   ولا سِيَّما يومٍ بِدَارَةِ جُلجُل (٤)
ويومَ عقرْتُ لِلْعذَارَى مَطِيَّتِي   فيا عجبًا من كُورِها المُتَحَمَّلِ (٥)
فظَلَّ العذَارى يَرْتَمِين بلَحمِها   وشَحْمٍ كهُدَّاب الدِّمَقْسِ المُفَتَّل (٦)

وفيها يقول :

أفاطمَ مهلا بعضَ هذا التَّدلُّل   وإن كنتِ قدْ أزمَعْتِ صَرْمِى فأجْمِلى
أغَرَّكِ منى أنَّ حبَّكِ قاتلى   وأنَّكِ مَهْمَا تأمُرِى القلبَ يَفعَل
وما ذَرَفتْ عيناكِ إلا لِتَضْرِبى   بِسَهْمَيكِ فى أعْشارِ قلبٍ مُقَتَّل

ثم قال :

وبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها   تَمَتَّعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ (٧)
تجاوزْتُ أحْراسًا إليها ومعشرًا   علىَّ حِرَاصًا لو يُسِرُّون مَقْتَلى (٨)

---

(١) العبرة : الدمعة . مهراقة : مصبوبة فعلها هراق وأراق أيضا . المعول : إما المعتمد وإما مصدر عولت أى بكيت كاعولت . (٢) مأسل : مكان .

(٣) الريا : الرائحة . (٤) دارة جلجل : غدير معروف .

(٥) الكور : الرحل . المتحمل : المحمول . (٦) الهداب والهدب : المترسل . الدمقس : الحرير أو الأبيض منه . (٧) بيضة خدر : كناية عن المرأة وهى تشبه بالبيضة لصفائها وسلامتها وبياضها . والخباء : البيت من قطن أو شعر أو وبر .

(٨) الاسرار : الإضمار والإظهار جميعاً ، فهو من الأضداد وبهما فسر البيت .

ثم مضى يصفها بقوله :

تَصُدُّ وتُبْدِى عن أَسِيلٍ وتَتَّقى ... بناظرةٍ من وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ (١)
وتُضْحَى فَتِيتُ المسكِ فوقَ فِراشها ... نَؤُومُ الضُّحى لم تنتطِقْ عن تفضُّلِ (٢)

ثم خرج من ذلك إلى وصف الليل والمناجاة له بقوله :

وَليلٍ كَمَوْجِ البحْرِ أَرْخَى سُدُولَه ... علىَّ بأنواعِ الهُمُومِ لِيبْتَلى (٣)
فقلتُ له لَما تَمطَّى بصُلْبه ... وَأَرْدَفَ أعجازًا وَناء بِكَلْكَلِ (٤)
أَلاَ أَيُّها الليلُ الطَّويلُ أَلاَ انْجَلى ... بِصُبْحٍ وما الإصْبَاحُ منكَ بِأَمْثَلِ
فيا لَكَ من ليلٍ كَأَنَّ نُجُومَه ... بِكلِّ مُغَارِ الفتلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ (٥)

ثم قال يصف الفرس :

وقد أَغْتَدِى والطَّيرُ فى وُكُنَاتِها ... بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ (٦)
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا ... كَجُلمودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ من عَلِ

ثم قال يصف البرق والمطر ، ومرح الطيور وطربها بصفاء السماء بعد المطر :

أَصاحِ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِيضَهُ ... كَلَمْعِ اليَدَيْنِ فى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ (٧)
يُضىءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ ... أَمَالَ السَّلِيطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّلِ (٨)
عَلَى قَطَنٍ بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ ... وَأَيْسَرُهُ على السِّتَارِ فَيَذْبُلِ (٩)

(١) الصدود : الإعراض والميل . الأسيل : الخد النقى على امتداد وطول . وجرة : مكان . المطفل : ذات الولد . (٢) نؤوم الضحى : كناية عن الدعة والنعمة والكفاية . تنتطق : تلبس المنطقة ، وعن بمعنى بعد ، أى لم تصر عزيزة بعد ذلك بل هى ناعمة عزيزة منذ كانت . (٣) السدول : جمع سدل وهو الستر . الابتلاء : الاختبار .
(٤) الاعجاز : المآخير جمع عجز . ناء : مقلوب نأى . الكلكل : الصدر .
(٥) يذبل : جبل . مغار الفتل : وثيقه ومحكمه. (٦) الوكنات : الأوكار واحدها وكنة . المنجرد : الماضى أوالقصير الشعر . الأوابد : الوحوش جمع آبدة . الهيكل : المرتفع .
(٧) الوميض : لمعان البرق وتحركه . الحبى : السحاب . (٨) السليط : الزيت . الذبال : جمع ذبالة وهى الفتيلة . (٩) قطن : جبل. الشيم : النظر إلى البرق مع توقع المطر. الصوب : المطر أو انصبابه . الستار ويذبل : جبلان وبينهما وبين قطن مسافة بعيدة .

فأضْحَى يَسُحُّ المَاءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ ... يَكُبُّ عَلَى الأَذْقَانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ (١)

كَأَنَّ ثَبِيرًا فِى عَرَانِينِ وَبْلِهِ ... كَبِيرُ أُنَاسٍ فِى بِجَادٍ مُزَمَّلِ (٢)

كَأَنَّ مَكَاكِىَّ الجِوَاءِ غُدَيَّةً ... صُبِحْنَ سُلَافًا من رَحِيقٍ مُفَلْفَلِ (٣)

كَأَنَّ السِّبَاعَ فيه غَرْقَى عَشِيَّةً ... بِأَرْجَائِهِ القُصْوَى أَنَابِيشُ عُنْصُلِ (٤)

فأنت ترى أنه بدأ هذه القصيدة بما عده الأدباء بحق أجود مطالع الشعر الجاهلى جملة ، وضربوا بحسنه المثل فقالوا « أحسنُ من قِفا نبك ! » وإن كانوا يريدون القصيدة كلها ، وقد جمع فى شطر هذا المطلع بين أشياء عدها الناس من أولياته ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى وبكيا معه ، وذكر الحبيب والمنزل ، ثم جعل يذكر حبائبه ويصفهن بالطيب والنعمة فى عذوبة ورشاقة ، ويتحدث عن قصته معهن يوم الغدير ، ويرجح أنه نظم قصيدته بسبب هذه القصة ، وما كان من تخالمه الممزوج بمطاوعة الشباب ونبل الملوك ، وكان فى مثل عذوبة الشلاف حين رقق الغزل فى قوله « أغرك منى » إلى قوله « وما ذرفت عيناك ــ البيت » وحين وصل إلى وصف الدبيب والاستهتار فى الحب ، والتعرض للهلكة فى مخاتلة الأحراس الحراص على قتله ، ثم انتحى نحواً آخر فى وصف طول الليل ، ووصف الفرس ، بما هو فيه أول بالإجماع ، ثم وصف البرق والمطر ، وجعل الطيور ــ وهى المكاكى ــ من شدة سرورهن بصفاء السماء بعد المطر الذى غرقت فى أقاصيه السباع ، كأنما شربن رحيقاً مفلفلا ، وكلّ هذا مفرغ فى ذوب من ماء العربية بين الجزالة والعذوبة ، تستطيع بعد ذلك أن تحكم بهما على هذه المعلقة بأنها أجلّ أثر تاريخى لتلك الفصاحة العربية فى العصر الجاهلى ، وهى فى جملة أغراضها وأوصافها ونسيبها وكناياتها ، المثال الذى احتذى عليه الشعراء بعده ، وجعلوه به رئيس فحولهم والمقدم عليهم غير مدافع .

---

(١) كتيفة : موضع . الدوح : عظام الشجر . الكنهبل : ضرب منه فى البادية .
(٢) ثبير : جبل . العرانين : الأنوف مستعار لأوائل المطر . البجاد : الكساء المخطط . المزمل : الملفوف . (٣) المكاكى : ضرب من الطير ، الواحد مكاء . الجواء : الوادى . (٤) الأنابيش : أصول النبات الواحدة أنبوشة . العنصل : البصل البرى

معلقة زهير بن أبى سلمى المزنى[١]

وقد بدأها أيضاً بالتشبيب ومساءلة الدِّمَن ، ثم مضى يصف تلك الآثار والظعائن واجتيازهن فى السَّرَاب إذ يقول :

أمِن أمِّ أوْفى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بِحَوْمانَةِ الدَّرَّاجِ فالْمُتَثَلَّمِ[٢]
ودارٌ لها بالرَّقْمَتَين كأنها ... مَراجيعُ وشْمٍ فى نَوَاشِرِ مِعْصَمِ[٣]
بها العِينُ والآرامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطْلاؤُها يَنْهَضْنَ من كلِّ مَجْثِمِ[٤]

حتى قال :

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدارَ قلتُ لِرَبْعِها ... ألا أنْعَمْ صَباحًا أيُّها الربعُ وَاسْلَمِ
تَبصَّرْ خليلى هل تَرَى من ظَعائنٍ ... تَحَمَّلْنَ بالعلياء من فوقِ جُرْثُمِ[٥]
عَلَوْنَ بأنماطٍ عِتاقٍ وكِلَّةٍ ... وِرَادٍ حواشيها مُشاكِهَةِ الدَّمِ[٦]
وفيهنَّ مَلْهًى للصديقِ ومنظَرٌ ... أنيقٌ لِعَيْن الناظر المتَوَسِّمِ
فلما وَرَدْنَ الماء زُرقًا جِمامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المتَخَيِّمِ[٧]

---

(١) هو ابن أبى سلمى ربيعة بن رباح وقيل بالياء بن قرة بن الحارث ، وهو من مزينة ونزل فى أخواله من بنى عبد الله بن غطفان ، وستأتى ترجمته . (٢) الدمنة : ما اسودّ من آثار الديار بالبعر والرّماد ، حومانة الدراج والمتثلم : موضعان بالعالية ، والدراج بفتح الدال وضمها والأول أشهر . (٣) الرقمتان : حرّتان احداهما قريبة من البصرة والأخرى قريبة من المدينة ، وأزاد دارين فاجتزأ بواحدة لأمن اللبس . المراجيع : واحدها رجوع أى معاد . الوشم : معروف . النواشر : العروق ، الواحدة ناشرة . المعصم : موضع السوار من اليد . (٤) العين : جمع عيناء وأعين وهى بقر الوحش ، أى واسعة الأعين . الآرام : الظباء الخالصة البياض ، الواحد رئم . الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية . المجثم : موضع الجثوم وهو بمنزلة المناخ للبعير . (٥) الظعائن : النساء فى الهوادج واحدتها ظعينة . جرثم : ماء . (٦) الأنماط : جمع نمط ضرب من الثياب . العتاق : الكريمة . الكلة : الستر الرقيق . الوراد : جمع ورد وهو الأحمر . المشاكهة : المشابهة .

(٧) الجمام : جمع جمة وهى مجتمع الماء . المتخيم : الضارب الخيمة .

وفرغ من وصف هذه الظعائن إلى غرضه الشريف من نظم هـذه المعلقة وهو مدح عظيمى غَطَفَان ، اللذين أصلحا بين عبس وذبيان فى الحرب قال :

سعى ساعيا غيظِ بن مُرّة بعد ما تَبَزَّل ما بين العشيرة بالدّم (١)
فأقْسَمتُ بالبيت الذى طاف حَوْله رِجالٌ بَنَوْه من قُرَيشٍ وجُرْهُم
يمينًا لَنِعْم السَّيدانِ وُجِدْتما على كُلِّ حالٍ من سَحِيلٍ ومُبْرَم (٢)
تَدَارَكْتُما عَبْساً وذُبيانَ بعدَ ما تَفانَوْا ودَقُّوا بينهم عِطرَ مَنْشِم (٣)

ثم انتقل إلى ذكر ربّانيته وعلمه بقوله :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فى نفوسِكم لِيَخْفَى ومَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَم
يُؤَخَّر فيُوضَعْ فى كتابٍ فَيُدَّخَر ليومِ الحِساب أو يُعَجَّلْ فَيُنْقَم

ثم ذكر رزايا الحرب وهوّل من شأنها وعظّم من مصائبها، وذكر ما أراقته من دماء أشرافهم وسادتهم ، وخلص من ذلك إلى الوجه الذى أتمّ فيه الشعراء به من الحكم السائرة التى سلكها فى هذا النسق المتكرّر فى (وَمَنْ وَمَنْ) حيث يقول :

وما الحَرْبُ إلاَّ ما علِمتُم وذُقْتُمُ وما هُو عنها بالحديثِ المُرَجَّم
متى تبعثوها تبعثوها ذَميمَةً وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُمُوها فتَضْرَم
فَتَعْرُكُكُمُ عَرْكَ الرَّحا بِثِفالِها وتَلْقَح كِشافاً ثُمَّ تنتج فتُتْئِم
فتُنْتِجْ لكمْ غِلمانَ أشْأَمَ كُلُّهُم كأحْمَرِ عادٍ ثمّ تُرْضِع فتَفْطِم

وحيث يقول:

ومن يَعْصِ أَطْرافَ الزِّجاجِ فإنَّه يُطيعُ العَوالى رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَم (٤)
ومنْ لم يَذُدْ عن حَوضِه بِسلاحِه يُهَدَّم ومن لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَم

إلى أن جعل خاتمة مطافه قوله :

---

(١) تبزل : تفتح . (٢) السحيل والمبرم : الضعيف الفتل والقوى المحكم .
(٣) منشم : عطارة يتشاءم بها . (٤) الزجاج : جمع زج وهو الحديدة تكون فى أسفل الرمح . العوالى : جمع عالية وهى ضدّ سافلة الرمح . واللهذم : السنان القاطع .

ـ ألنا فأعطيتم وعُدنا فعُـدتُمُ ومن يُكثِرِ التَّسآل يومًا سيُحْرَمِ

وقد ترون أنه سلك فى مطلَع قصيدته مسلك امرئ القيس ، و بعد أن فرغ من وصف الظعائن ودِمَن الديار وجِمَام الماء والأنماط العِتاق والكِلَل الوراد، دخل فى أمر الصلح واحتمال الديات ومدح السيدين « الحارث بن عوف وهرم بن سنان » ثم وصف الحرب وخرج منها إلى هـذه الأشتات البديعة من حِكَمه ، التى فتح للشعراء بعده عُيونَها وأنْهَجَ لهم سبيلها ، مما يُعَد أظهر ميزة لهذه المعلقة ، عدا ما فى أسلوبها من القوّة وحسن الاختصار والتشابه القوى بين أبياتها من أولها إلى آخرها .

وكان السبب فى إنشاء هذه القصيدة ، هو تلك المكرمة الفاخرة التى قام بها هَرِم والحارث من الإصلاح بين الحيين ، واحتمال ديات القتلى منهما فى أموالهما .

معلقة طرفة بن العبد[1]

وهى كذلك مُحْتَذَاة فى مطلعها على معلقة امرئ القيس :

لِخَوْلَةَ أطْلالٌ بِبُرْقة ثَهْمَدٍ تلوحُ كَبَاقى الوَشْمِ فى ظَاهِرِ اليَدِ[2]

وقد وقع خاطره على ما سبق به امرؤ القيس من ذلك الأسلوب ، الذى لم يقع لشاعرين ـ على ما نعلم ـ إلا لهما فى هذا الأدب وهو قوله :

وُقوفًا بها صَحْبِى علىّ مَطِيَّهم يقولون لا تَهْلِكْ أسًى وتَجَلَّد

ولم يغير فيه سوى القافية . وهو وإن لم يكن من جمال الشعر بالمكان البعيد،

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة ينتهى نسبه إلى بكر بن وائل ، وهو من أشرافهم، ويسمى ابن العشرين قيل لأنه مات وهو ابن عشرين سنة ، وقيل قتل وهو ابن ست وعشرين سنة . وطرفة بالفتح والتحريك فى الأصل واحدة شجر الأثل .

(٢) أطلال : جمع طلل وهو ما شخص من رسوم الدار . برقة: مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى . ثهمد : موضع .

أساوب خاصّ بهما ، وقد شبه حُدُوج المالكية بخلايا السّفين وجعل يصف السفينة نفسها ، وفعلها بالماء فى شق حَيْزُومها له ، ثم وصف المرأة فشبّهها بالظبى الشادن الأحوى ، وشبه ثغرها بنَور الأقاحى النّدية ، ثم دخل فى بابه الذى لاينازع فيه وهو وصف الناقة من قوله :

وَإِنّى لَأُمْضِى الهمَّ عند احْتِضاره ... بِعَوْجَاء مِرْقَالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدِى[1]

إلى قوله :

على مِثْلِها أَمْضِى إذا قال صاحِبِى ... ألاَ لَيْتَنِى أَفْدِيكَ منها وأَفْتَدِى

و بدأ بعد ذلك فى فخاره وذكر فُتُوته ، واندفاعه مع أسباب المجُون واللهو فى نَدَاماه وقِيَانه قال :

إذا القَوْمُ قالوا مَنْ فَتًى خِلْتُ أننى ... دُعِيتُ فلمْ أَكْسَلْ ولمْ أَتَبَلَّدِ

ولَسْتُ بِحَلَّالِ التِّلاعِ مَخَافةً ... ولـكنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ[2]

فإن تَبْغِنِى فى حَلْقَةِ القَوْمِ تَلْقَنِى ... وإن تَلْتَمِسْنِى فى الحَوَانيت تَصْطَدِ[3]

وإن يَلْتَقِ الحىُّ الجميعُ تُلاقِنِى ... إلى ذِرْوَةِ البيت الشَّرِيفِ المُصَمَّدِ

نَدَامَاىَ بِيضٌ كالنُّجوم وقَيْنَةٌ ... تَروحُ علينا بينَ بُرْدٍ ومُجْسَدِ[4]

رحيبٌ قِطابُ الجَيْبِ منها رَفِيقَةٌ ... بِجَسِّ النَّدامى بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ[5]

إذا قلتُ هاتِى أَسْمِعِينا انْبَرَتْ لنا ... على رِسْلِها مطْرُوفَةً لم تَشَدَّدِ[6]

ثم ساقته غِرّة الشباب وسَكْرة الصِّبا ، إلى الاعتراف بمجونه والتحدث بأمانيه فقال :

---

(١) الهمّ : النية والعزم . احتضاره : حضوره . العوجاء الناقة : التى تعوج فى سيرها مرحا ونشاطا . المرقال : وصف من أرقل ضرب من السير .

(٢) التلاع : جمع تلعة وهى مسيل الماء . ويسترفد : من الرفد وهو العطاء .

(٣) الحوانيت : جمع حانوت وأراد منازل الخمارين . (٤) الندامى : جمع نديم كيتامى ويتيم ، وهو الجليس على الشراب والحديث . القينة : الجارية المغنية . والمجسد : الثوب الذى يلى الجسد أو المصقول الذى يكاد يقوم من الصقال . الجساد : صبغ وهو الزعفران .

(٥) الجيب : مدخل الرأس من الثوب . قطابه : فتحته واتساعه . البضة : الناعمة . المتجرد : الجسد . (٦) الرسل : المهل .

وما زَالَ تَشْرابِى الخُمورَ ولَذَّتى   وبَيْعى وإنفاقى طَرِيفى ومُتْلَدِى(١)

إلى أنْ تَحَامَتْنى العَشِيرةُ كُلُّها   وأُفْرِدْتُ إفْرادَ البعير المُعَبَّدِ(٢)

ثم قال وهو فى أمانيه هذه ـ على جاهليته ـ صادق النظر، ولو لم يُحْمَل ما وصفه من الشراب والمرأة على ما يحل دون ما يحرم :

ولولا ثلاثٌ هُنَّ من عِيشَةِ الْفَتَى   وعَيْشِكَ لم أحْفِلْ مَتَى قامَ عوّدى .

فمنهن سَبقُ العاذلاتِ بشَرْبَةٍ   كُمَيْتٍ مَتَى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ(٣)

وكَرِّى إذا نادَى المُضافُ مُحَنَّباً   كَسِيدِ الغَضَا نَبَّهْتَه المُتَوَرِّدِ(٤)

وتَقْصِيرِ يوم الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ   بِبَهْكَنةٍ تحتَ الخِبَاءِ المُعَمَّدِ(٥)

ثم أفاق من هذه النَّشوة وصحا من تلك الغَواية، فأخذ يذكر الموت واصْطِفَاءه لعَقِيلة الفاحش الحريص ويستبكى حبيبته عليه يوم موته، استعزازاً منه لنفسه، ثم انطلقت هذه النفس الشَّابَّةُ بفريدة من الحكمة لاتزال مثلا سائراً بين الأدباء لا يُبْلَغُ شَأْوُه، قال :

أرَى المَوْتَ يَعْتامُ الكِرامَ ويَصْطَفِى   عَقِيلَةَ مالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ(٦)

أرَى العَيْشَ كنزاً ناقصاً كُلَّ ليلةٍ   وما تَنْقُصِ الأيَّامُ والدَّهرُ يَنفَدِ

لعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخْطأَ الفتَى   لَكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاه باليَدِ(٧)

إذا مِتُّ فابْكِينِى بما أنَا أهلُه   وشُقِّى علىَّ الجَيْبَ يابْنَةَ مَعْبَدِ

إلى قوله :

---

(١) الطريف : الحديث . المتلد : القديم . (٢) المعبد : المذلل والمطلى بالقطران .

(٣) الكميت : الخمر، والكمتة لون حمرته إلى صفرة . (٤) المضاف : المستغيث . المحنب : الفرس الذى فى يديه انحناء . السيد : الذئب . المتورد : الوارد للماء .

(٥) الدجن : الباس الغيم آفاق السماء . البهكنة : الجميلة الناعمة الرابية .

(٦) يعتام : يقصد . العقيلة : الكريمة على الشخص من ماله وغيره . الفاحش : البخيل .

(٧) الطول : الحبل ترسل به الدابة فى المرعى . الثنى : الطرف .

سَتُبْدِى لكَ الأيَّامُ ما كُنْتَ جَاهلا ... ويَأتِيكَ بالأخْبَارِ مَنْ لمْ تُزَوِّدِ

والرواة مجمعون على أن هـذه المعلقة أكثرهن أسرًا ، وأجزلهن عبارة ، ولو أنها خلت من عُنْجُهِيَّة الغريب فيما تعاطاه طرفة من وصفه لناقته ، لكان بها أجودهم طويلة ، وهى كمعلقة امرئ القيس لم يتعلق بانشادها غرض معروف سوى هذه الطبيعة الشعرية ، وسوى ما يذكر من أن امرأ القيس ساقها فى غزله بفاطمة وقصته معها يوم الغدير ، و يصح أن يكون طرفة أنشأ طويلته فى الوصف والفخر أيضا أو فى استرداد الإبل الضائعة كما سيأتى .

معلقة لبيد بن ربيعة العامرى(١)

وهذه المعلقة لا تكاد تعثر فيها ببيت واحد تستطيع وحدك أن تفهمه من غير استعانة بغريب اللغة ، فهى محفوفة من أطرافها بوحشـة البداوة ، متناهية فى الإغراب والخشونة ، قال لبيد يذكر عفاء الديار ودروسها و يشبب بخلته نوار :

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها ... بِمِنًى تَأبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُها(٢)

فَمَدافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّىَ رَسْمُها ... خَلَقًا كما ضَمِنَ الوُحِىَّ سِلاَمُها(٣)

ثم جعل يصف الرعد والمطر وتدافع السيول على الطلول ، وقد يكون فى بيته هذا واضحاً بعض الوضوح إذ يقول :

---

(١) هو لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب من بنى عامر ثم من هوازن ، وينتهى نسبه إلى قيس عيلان من مضر ، وكان أبوه ربيعة يسمى « ربيعة المقترين » لجوده ولبيد أحد الشـعراء الفرسان الأجواد الفتاك ، وهو معمر أدرك الاسـلام . ومات سنة ٤٠ للهجرة .

(٢) عفا : لازم ومتعد ، ومعناه تغير . المحل : مكان الإقامة القصيرة . المقام : بالعكس تأبد : توحش . الغول والرجام : جبلان . (٣) المدافع : جمع مدفع وهى مساقط المياه . الريان : جبل معروف . الخلق : البالى . الوحى : جمع وحى وهو الكتابة . السـلام : جمع سلمة بكسر اللام الحجارة .

وجَلاَ السُيُولُ عَنِ الطُلُولِ كَأَنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقلامُها

وبعد أن وقف فى الرسوم وذكر تحمُّل الحى وتشوقه لظعائن المحبوبة ، أطافَ بناقته فشبهها تارة بالأُتان الوحشية فى السرعة وخفة التوجُّس ، وتارة بالبقرة المذعورة التى فقدت فَرِيرَها ، وقد أغرب هنا إغرابا تعرفه مما نسوقه فى أبياته الآتية حين يشبه الناقة بحمارة الوحش إذ يقول :

أَوْ مُلْمِعٌ وَسَقَتْ لِأَحْقَبَ لاَحَهُ طَرْدُ الفُحُولِ وَضَرْبُها وَكِدَامُها(١)

يعْلُو بِها حَدَبَ الإِكامِ مُسَحَّجٌ قد رَابَهُ عِصْيانُها وَوِحامُها(٢)

بِأَحِزَّةِ الثَّلَبُوتِ يَرْبَأُ فَوْقَها قَفْرَ المَرَاقِبِ خَوْفُها آرَامُها(٣)

وحين يصفها بالبقرة الوحشية فى قوله :

أَفَتِلْكَ أمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبوعَةٌ خُذِلَتْ وهَادِيَةُ الصُّوارِ قِوَامُها

وقد مضت هذه فى أغراض الشعر مع وصفه لكلاب الصيد ، فلا نطيل به هنا ، ومازال يتيه فى هـــذه الغرابة الدامسة ، حتى تخلص إلى الفخر بنفسه ، والتحدث إلى نَوَاره ، ومقامرته لإخوانه ، وإكرامه لأضيافه ، قال :

أَوَ لَمْ تَكُنْ تَدْرِى نَوَارُ بِأَنَّنِى وَصَّالُ عَقْدِ حَبَائِلٍ جَذَّامُها(٤)

---

(١) الملمع : المشرفة الطبيين . وسقت : حملت . الأحقب : العير فى وركيه بياض . لاحه : غيره . الكدام : المكادمة مفاعلة من الكدم وهو العض .

(٢) الحدب : المحدودب . الإكام : واحده أكمة وهى التلّ دون الجبل . المسحج : المعضض . الوحام والوحم : اشتهاء الحبلى لشىء . (٣) الأحزة : جمع حزيز وهو المكان الغليظ المنقاد . الثلبوت : كحلزون ، واد أو أرض من طيء أو ذبيان . يربأ : يرقب ومنه الربيئة لمن يستطلع أمر العدو . المراقب : جمع مرقب وهو مكان الربيئة . الآرام : جمع أرم وهى أعلام الطريق . وقوله خوفها آرامها مبتدأ وخبر — أى آرامها موضع مخافتها.

(٤) الحبائل : جمع حبالة وهى مستعارة للعهد . الجذام : مبالغة فى الجذم هو القطع .

تَرّاكُ أمْكِنَةٍ إذا لم أرْضَها   أوْ يَرْتَبِطْ بعضَ النُّفُوسِ حِمامُها(١)
بَلْ أنتِ لا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ   طَلْقٍ لَذِيذٍ لهوُها ونِدامُها(٢)

حتى قال وقد ظرُف فى هذه الاستعارة :

وغَدَاةِ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وقِرّةٍ   إذْ أصْبَحَتْ بيد الشَّمال زمامُها(٣)
ولقد حَمَيْتُ الخيلَ تَحْمِلُ شِكَّتي   فُرُطٌ وِشاحِي إذْ غَدَوْتُ لِجامُها(٤)

ثم ذكر فضله للعظيمة ، ونحره للأَيْسار ، وعطف على قومه ففخر بكثرة سادتهم وما سنّه لهم آباؤهم ، إذ يقول :

وكَثيرةٍ غُرَباؤُها مَجْهولَةٍ   تُرْجَى نَوَافلُها ويُخْشَى ذامُها(٥)
أنْكَرْتُ باطِلَها وبُؤْتُ بِحَقِّها   يَوْمًا ولم يَفْخَر علىَّ كِرامُها
وَجَزُورِ أيْسارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِها   بِمَغَالِقٍ مُتَشابِهٍ أعْلامُها(٦)
فالضَّيفُ والجارُ القَرِيبُ كأنّما   هَبَطَا تَبالَةَ مُخْصِبًا أهْضامُها(٧)
إنّا إذا التقَتِ المَجَامِعُ لم يَزَلْ   مِنّا لِزازُ عَظِيمَةٍ جَشّامُها(٨)
ومُقَسِّمٍ يُعْطِي العَشِيرَةَ حقَّها   ومُغَذْمِرٍ لحُقُوقِها هَضّامُها(٩)

---

(١) الحمام : الموت . (٢) الندام : المنادمة . (٣) وزعت : كشفت . القرة : البرد . الشمال : ريح تهب من الشمال وهى باردة. (٤) الشكة : السلاح . الفرط : الفرس الخفيفة المتقدمة السريعة . (٥) وكثيرة . البيت يريد رب دار يكثر الوافدون عليها . ممن لا يعرفونها . النوافل : العطايا . الذام : العيب والعار ، وكأنه يشير إلى المناظرة التى جرت بينه وبين الربيع بن زياد العبسى عند النعمان بن المنذر ، ولعل إنشاءه لهذه المعلقة قد يكون من أسبابه تقييد هذه المفخرة للعامريين بعد كبرة لبيد وإدراكه .

(٦) الجزور : الذبيحة . الأيسار : جمع يسر وهم المقامرون . المغالق : سهام الميسر .

(٧) تبالة : واد مخصب من أودية اليمن . الأهضام : الأراضى المطمئنة ، الواحد هضم .

(٨) اللزاز : الذى يلز الخصوم أى يقهرهم ويغلبهم حين يقرن بهم . التجشم : ركوب الخطر والمشقة . (٩) الغذمرة : الغضب مع همهمة . الهضم : الكسر والظلم .

فَضْلاً وذُو كَرَمٍ يُعِينُ على النَّدى   سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُها
مِن مَعْشَرٍ سَنَّتْ لهمْ آباؤُهم   ولِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وإمَامُها

وهذه القصيدة القوية النسج ، تمتاز أيضاً بتساويها من كل جهاتها فيما هى مُفرَغة فيه من الإغراب الذى قد تَستَجْفِيه الآذان ولا تقع عليه الطباع ، غير أنها بعد ذلك كله تعتبر فى شدتها وصدق انتزاعها من صميم الصحراء ، أجمل وثيقة تاريخية تدل على صدق هذا الأدب الجاهلى .

معلقة عنترة العبسى(١)

ومن الغريب أن يكون عنترة ، وهو فى نشأته راع طريد وفى شبابه فارس مُقَدَّم ، يتجلَّى عن هذه الشيمة الكريمة ، ويتبين فى قوله ذلك الطبع السهل الذى بدا منه على هذه المعلقة . فى غير موضع أثر من السلاسة ورقة الحاشية ، وإن لم تخرج عن أدب العصر بالانحراف عن الغريب والخشونة فى الجملة ، قال العبسى :

هَلْ غَادَرَ الشُّعراءُ من مُتَرَدَّمِ   أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ(٢)
يَا دَارَ عَبْلَةَ بالجِواءِ تَكَلَّمِي   وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ واسْلَمِي(٣)
وَتَحُلُّ عَبْلَةُ بِالجِوَاءِ وَأَهْلُنَا   بالحَزْنِ فالصَّمَانِ فالمُتَثَلَّمِ(٤)

---

(١) هو عنترة العبسى ابن شداد بن عمرو بن قراد ، وقيل شداد جده غلب على أبيه وقيل عمه كفله بعد أبيه ، والعنتر فى الأصل الذباب الأزرق ، الواحد عنترة ويترجح أن السبب فى ارتجاله هذه المعلقة ماوقع له من بعض العبسيين فى تعييره إياه بالسواد ، وعدم قول الشعر . ذكر ذلك البغدادى فى الخزانة ونقله أيضاً ابن قتيبة فى طبقات الشعراء ، وعاش عنترة إلى حدود القرن السادس الميلادى . (٢) المتردم : المكان الذى يحتاج إلى إصلاح أو هو من التردم كالترنم وزنا ومعنى . (٣) الجواء : موضع وفى غير البيت جمع جو .
(٤) الحزن والصمان والمتثلم : مواضع .

دَارٌ لآنِسَةٍ غَضِيضٍ طَرْفُها طَوْعِ العِنَاقِ لَذِيذَةِ المُتَبَسَّمِ (١)
فوقَفْتُ فيها نَاقتِى وكأنَّها فَدَنٌ لأقْضِىَ حَاجَةَ المُتَلَوِّمِ (٢)

وبعد ذكر حبه لعبلة وقتاله لقومها ، وأنه على هـــــذه الحال كالطامع فى السَّراب ، جعل يصف حلاوتها وثغرها ، فشبّه طيبَه مَرَّةً بِفَأْرَةِ المسك ، وأُخرى بالروضة الأُنُف ، واستطرد إلى ذلك التشبيه الدقيق التصوير فى قوله :

وخَلا الذُّبَابُ بها فليْسَ بِبَارِحٍ غَرِداً كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَه بذِرَاعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأجْذَمِ (٣)

وجهابذة البيان لا يزالون يستجيدون هذا التشبيه ويُقِرُّون حسنه ويعدونه من التشبيهات العقم ، ثم عاد يصف تنعمَها وشقاءه وأنهما كما يقول :

تُمْسِى وتُصْبِحُ فوقَ ظَهرِ حَشِيَّةٍ وأَبِيتُ فوقَ سَرَاةِ أَدْهَمَ مُلْجَمِ (٤)
وحَشِيَّتِى سَرْجٌ على عَبْلِ الشَّوَى نَهْدٍ مَرَاكِلُه نَبِيلِ المَحْزَمِ (٥)

ثم جعل يصف الناقة على مثال طرفة ، ولم يُسرف ، وتخلص إلى ذكر كرمه وإبائه وكراهة ظلمه قال :

أن تُغْدِفِى دُونِى القِنَاعَ فإنَّنِى طَبٌّ بأخذِ الفَارِسِ المُسْتَلْئِمِ (٦)

---

(١) الآنسة : المؤنسة . الغضيض : المكسور من الحياء . المتبسم : الفم .
(٢) الفدن : القصر . المتلوّم : الباقى المتمكث .
(٣) المكبّ : المطأطىء . الأجذم : المقطوع الكف .
(٤) كأنها فعيلة بمعنى مفعولة أى المحشوّة . السراة : الظهر . الأدهم : الذى تضرب زرقة لونه إلى السواد . (٥) العبل : الغليظ . الشوى : الأطراف جمع شواة . النهد : المشرف الضخم . المراكل : جمع مركل مواضع عقب الراكب من جنب الفرس . المحزم : موضع الحزام . نبيل : بمعنى عظيم وسمين . (٦) الإغداف : الإرسال والإرخاء . الطب : العالم الحاذق . المستلئم : اللابس اللامة وهى عدة الحرب .

أثني عليَّ بما علمت فإنني ... سهلٌ مخالقتى إذا لم أظلَمِ
فإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظلمِيَ باسلٌ ... مُرٌّ مذاقته كطعم العلقَمِ
ولقد شربتُ من المُدامةِ بعدَ ما ... رَكَدَ الهواجرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ[1]
فإذا شربتُ فإنني مستهلِكٌ ... مالِي وعِرْضِى وافرٌ لم يُكْلَمِ
وإذا صَحَوْتُ فما أقَصِّرُ عن نَدًى ... وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمِى

وقد أسلفنا فى أغراض الشعر شيئاً من وصفه لنَجْدته ، وحديثه عن منازلته قِرنَه ، وشكوى أدْهَمه ، ولم يُلْهه ذلك عن العودة إلى الغزل ، إذ قال بعد ذلك وهو من رقيق الكلام وحلو القريض :

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ ... منّى وبيضُ الهند تقْطُر من دَمِى
فوَدِدْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها ... لَمَعَتْ كبارق ثغرِكِ المتبسِّمِ!

ثم ختم طويلته بما ساقه من الوعيد لابنى ضمضم ، وكان قتل أباهما فتوعّداه ونذرا دمه قال :

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تَدُرْ ... للحربِ دائرةٌ على ابْنَىْ ضَمْضَمِ
الشاتمَىْ عِرضِى ولَمْ أشتِمْهُمَا ... والنّاذرَيْنِ إذا لَمَ ألْقَهُما دَمِى
إن يفعلا فلقدْ تركْتُ أباهُما ... جَزَرَ السِّباعِ وكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ

معلقة عمرو بن كلثوم[2]

وقد ساقها بعد التشبيب فى الفخر بقومه وذكر أيامهم و بلائهم فى الحروب ،

---

(١) المدامة : الخمر . ركد : استقرّ . الهواجر : جمع هاجرة شدة الحرّ . المشوف : المجلو المحسن . (٢) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير التغلبى ، أحد فتاك العرب المشهورين ، وأمه ليلى بنت مهلهل أخى كليب ، وأبوه فارس تغلب ، فقد أحاط به الشرف والعزّ من كلّ نواحيه توفى سنة ٥٢ قبل الهجرة .

والتهديد لعمرو بن هند الملك ، وقد كانت سيادته وشغله برياسة قومه مما صرفه عن الإكثار من الشعر ، فلم يُشهَر إلا بهذه الواحدة التي كان يُنشدُها في عكاظ ، وكانت تغلب تعظمها وتحتفل لإنشادها ، ويفتخرون بها حتى عـيَّرهم بذلك بعض الشعراء المتأخرين إذ يقول :

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عن كُلِّ مَكْرُمَةٍ قَصيدَةٌ قالها عَمْرُو بنُ كُلْثُوم !

ومطلعها :

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينا ولا تُبْقِي خُمورَ الأَنْدَرِينا(١)

وقال بعضهم إن المطلع هو :

قِفِي قبلَ التَّفرُّقِ يا ظَعِينَا نُخَبِّرْكِ اليقينَ وتُخْبِرينَا

وبعد أن أطال في وصف صاحبته ، بدأ يهدد عمرو بن هند ، وجعل يذكر آباءه وأيامهم وصنائعهم قال :

أَبا هِنْدٍ فلا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وأَنْظِرنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِينَا
بِأَنَّا نُورِدُ الرَّاياتِ بِيضاً وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قد رَوِينَا
وأَيَّامٍ لَنَا غُرٍّ طِوَالٍ عَصَيْنَا المَلْكَ فِيهَا أَن نَدِينَا

ثم قال :

وَرِثْنا مَجْد عَلْقَمَةَ بنِ سَيْفٍ أَبَاحَ لَنَا حُصونَ المجدِ دِينَا
وَرِثْتُ مُهلهِلا والخَـيْرَ مِنْهُ زُهَيْراً نِعْمَ ذُخْرُ الذَّاخِرِينَا
وَعَتَّابًا وَكُلْثُومًا جَمِيعـاً به نُحْمَى ونحْمِي المحْجَرِينا(٢)
ومنَّا قَبْـلَه السَّاعِي كُلَيْبٌ فَأَيُّ المَجْـدِ إلاَّ قد وَلِينا
مَتَى نَعْقِدْ قَرِينَتَنَا بِحَبْلٍ تجُذُّ الحبلَ أو تَقِصُ القَرِينا(٣)

---

(١) الأندرين : قرى بالشام طيبة الخمر . (٢) المحجر : الممنوع أو الملتجئ .
(٣) تجذ : تقطع . تقص : من الوقص وهو القتل .

ثم قال :

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ ... إِذَا قُبَبٌ بِأَبْطَحِهَا بُنِينا
بِأَنَّا العاصمون إِذَا أُطِعْنَا ... وَأَنَّا العارمون إِذَا عُصِينَا[1]
وَأَنَّا المنعمونَ إِذا قَدَرْنَا ... وَأَنَّا المهلكون إِذَا ابْتُلِينَا
مَلَأْنَا البرَّ حَتَّى ضَاقَ عنَّا ... ونحن البحرَ نَمْلَؤُهُ سفينا
إذا بَلَغَ الرَّضِيعُ لنا فِطَامًا ... تخِرُّ له الجبَابِرُ سَاجِدِينَا

ومن جيد ما جاء فيها قوله :

عَلَى آثارِنَا بِيضٌ حِسَانٌ ... نحاذِرُ أَنْ تُفَارِقَ أَوْ تَهُونا
ظَعَائِنُ من بَنِي جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ ... خَلَطْنَ بِمِيسَمٍ حَسَبًا وَدِينا[2]
أَخَذْن على فَوارِسِهِنَّ عهداً ... إِذَا لَاقَوْا فَوَارِسَ مُعْلَمِينا[3]
لَيَسْتَلِبُنَّ أَبْدَانًا وَبَيْضًا ... وَأَسْرَى فى الحَدِيدِ مُقَرَّنِينا
يَقُتْن جِيَادَنَا وَيَقُلْنَ لَسْتُمْ ... بُعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا

والمتأمل فى هذه المعلقة والتى قبلها يرى فيهما شيئاً من أثر الرقة والسهولة ، قد يكون أكثر ظهوراً فى هذه الأخيرة ، ويلحظ فيها شيئاً من المعانى المتكررة ، والفخر المبالغ فيه كما فى قول ابن كلثوم (إذا بلغ الرضيع لنا فطاما . البيت) وإلى جانب ذلك معانىَ حسانا وألفاظا رشيقة .

ولعل ما يتصل بارتجال هذه القصيدة من فتكه بعمرو بن هند على النحو المروى فى قصته المشهورة مما يصح أن تؤخذ تفصيلاته بشىء من التحفظ ، إذ لايبعد — وإن كانت الحادثة فى ذاتها مسلمة — أن يكون شىء مما أحاط بها غير

---

(١) العاصم : المانع والحامى . العارم : الشديد الثقيل الوطأة .

(٢) الميسم : الحسن . (٣) المعلم : الذى يعلم نفسه فى الحرب بعلامة ليكون معروف البلاء .

صحيح ، لأن لأحد أن يقول : وكيف يقتل ابن كلثوم هذا الملكَ على سرير ملكه وفى وسط أعوانه و بين الطائفين به من جُنده وحراسه ثم لا يسمع الناس خبراً ولا يجدون من أحد نكيراً ؟ وقد يكون هذا القول اعتراضاً ، بل ربما سهل السبيل إلى القول باتصال هــذا العبث من افتعال الرواة بأبيات من القصيدة نفسها ، خصوصاً حين تقرءون معلقة الحارث بن حلزة اليشكُرى ، وهى قد قيلت لهذا الملك بعينه من شاعر معاصر لابن كلثوم وفيها بداوة قوية ، وفى هذه لين وسهولة .

ولكن هذا الاعتراض سيتداعى من أساسه حين تقفون على الاعتبارات الآتية، وهى فى جانب من الاعتبار والشأن ، وذلك أن هذا الملك كان قد طالت أيامه ، وثقلت على الناس وطأته ، ودوخهم عسفه وجوره ، حتى باتوا يرقبون له داهية القرون ، و يتربصون به دوائر السوء ، وكان فى آل المنذر من يتطلع إلى هذا الملك من بعده . وهم حين ضعُفت عصبيتهم فى العراق ولم يكن لهم من المنعَة إلا هــذه الولاية التى يمنحها لهم ملوك الفرس على سنة سلفت وعادة جرت ، و يومئذ كان العزُّ والعددُ فى ربيعة قد انتهى إلى هذين الحيين من بكر وتغلب ، وكانت السيادة والشرف فيهما لعمرو وأبيه وجده ، ومن اليسير إذاً أن تكون هذه الفتكة وليدة فكرة مختمرة وتآمر مدبر ، استروح الناس منها العافية وتولوا إلى ظلّ من الطمأنينة والدعة ، وذلك هو السر فى تخاذل الأعوان وتقاعد التبع ، عمن أراحهم من هــذا الجبار فى اللحاق بهم والتعقب لآثارهم ، حتى انصرفوا موفورين لم يصَب أحد منهم بكَلْم .

وأما ماعسى أن تعجبوا منه من الفرق بين القصيدتين ، فى لين واحدة وقوة أخرى ، فأعجب منه أن تسلموا بأن من الناس من يكون له عدة بنين فى دار واحدة ومن صلب واحد وهذا غبى فَدْم وذاك فصيح مُعرِب ، وأشد من ذلك عجباً ، أن تقولوا إن الرجل الواحد قد تمرّ به حالتان مختلفتان ، يكون فى إحداهما سهلا دَمِثا ، وفى الأخرى غليظا متوعراً ، وما كان العرب إلا خلقا من خلق الله ،

يكون فيهم القوى كما يكون فيهم الضعيف ، وتختلف طباعهم كما اختلفت ألوانهم ، وأنتم تعلمون أن من آثار البادية تعويد الناس البأس والخشونة والنجدة ، وفى العرب من كان جبانا هرابا ونفاجا مخلوعا ، والطباع ما زالت قسمة بين الناس .

معلقة الحارث بن حلزة اليشكرى[1]

وكان السبب فى ارتجالها أن دماء كانت بين بكر وتغلب ، اختلفوا عليها وترافعوا فيها إلى عمرو بن هند ليحكم بينهم ، وعلم الحارث أن ضِلَع الملك على رهطه من بكر مع تغلب، فوقف ـ وكان به وَضَحٌ ـ فألقى الملك بينه و بينه ستراً ثم جعل يعجبه قوله حتى رفع الستر عنه وأدناه فأجلسه معه وحكم لبكر على تغلب :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ[2]
بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمَّا ... ءَ فَأَدْنَى دِيَارِهَا الخَلْصَاءُ[3]

وبعد أن مضى قليلا فى هذا التشبيب ، أخذ يصف الناقة ويشبهها بالنعامة فى الإسراع والخفة ، ثم تركها مكانها وجعل يذكر تجنى تغلب على قومه ، ويرد عليهم ويذكر ما لقومه من المَنَعَة والأيام والمآثر ، واتصل من ذلك بمدح الملك ، وتذكيره بأياديهم عنده ، وتعييره تغلب باستخذائها له ، وهو فى هذا أشبه بمن كان يهدد الملك ويتوعده ، لا بمن كان يمدحه ويتزلف إليه قال :

غَيْرَ أَنِّى قَدْ أَسْتَعِينُ عَلَى الْهَمِّ ... إذا خفَّ بالثَّوِيِّ النَّجاءُ[4]

---

(١) الحارث بن حلزة ومعناها القصيرة والبخيلة والسيئة الخلق ، ابن مكروه بن عبد الله ابن مالك ينتهى نسبه إلى يشكر رهط من بكر بن وائل ، وهو من أصحاب الواحدة الجيدة ، عمر طويلا ومات قبل الهجرة بنحو خمسين سنة . (٢) البين : الفراق . الثاوى : المقيم .

(٣) برقة شماء : مكان . الخلصاء : كذلك .

(٤) الثوى : المقيم . النجاء : الاسراع .

بِزَفُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ أُمُّ رِئَالٍ دَوِّيَّةٌ سَقْفَاءُ (١)
آنَسَتْ نَبْأَةً وأَفْزَعَهَا القُنَّاصُ عَصْراً وقدْدَنَا الإِمْسَاءُ (٢)

ثم قال :

إِنَّ إِخْوانَنَا الأَرَاقِمَ يَغْلُونَ عَلَيْنَا فِي قِيلِهِمْ إِحْفَاءُ (٣)
زَعَمُوا أَنَّ كلَّ مَنْ ضَرَبَ العَيْرَ مَوَالٍ لنا وأَنَّا الوَلاءُ (٤)
أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لهم ضَوْضَاءُ
مِنْ مُنَادٍ ومِنْ مُجِيبٍ ومِنْ تَصْهَالِ خَيْلٍ خِلالَ ذاكَ رُغَاءُ
أَيُّهَا النَّاطِقُ المُرَقِّشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو وهَلْ لِذَاكَ بَقاءُ (٥)
لاَ تَخَلْنَا عَلَى غَرَاتِكَ إِنَّا قَبْلُ مَا قَدْ وشى بنا الأَعداءُ (٦)
فَبَقِينَا عَلَى الشَّنَاءَةِ تَنْمِينَا حُصُونٌ وعِزَّةٌ قَعْسَاءُ (٧)
وكأَنَّ المَنُونَ تَرْدِي بنا أَرْعَنَ جَوْناً ينجابُ عنه العَمَاءُ (٨)
إِرَمِيٌّ بِمِثْلِهِ جَالَتِ الخَيْلُ فَآبت لِخَصْمِها الإِجْلاءُ
مَلِكٌ مُقسِطٌ وأَفْضَلُ مَنْ يَمْشِي ومِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الثَناءُ

وقال :

---

(١) الزفيف : إسراع النعامة فى سيرها ، وقد يستعار لسير غيرها كما هنا ، فالزفوف مبالغة فى وصف الناقة بالسرعة . الهقلة : النعامة . الرئال : أولادها ، الواحد رأل . الدوّ : المفازة ، والدوية المنسوبة إليها . السقفاء : الطويلة مع انحناء .

(٢) آنست : أحست . النبأة : الصوت الخفى . القناص : الصيادون .

(٣) الأراقم : بطون من تغلب . الغلو : مجاوزة الحدّ . القيل: القول . الإحفاء: الإلحاح .

(٤) العير : الحمار وقد يكون بمعنى السيد وبهما فسر البيت .

(٥) الترقيش : الزخرف والتزيين . (٦) الغراة : اسم بمعنى الاغراء ، وفى العبارة حذف أى لاتظن أننا خضعنا . (٧) الشناءة : البغض . تنمينا : ترفعنا وتعدمنا . القعساء : الثابتة العزيزة . (٨) تردى : ترمى من باب ضرب . الأرعن : الجبل الشامخ . الجون : الأبيض ، والأسود ضد . الانجياب : الانكشاف . العماء : السحاب .

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّا ... سُ غِوَاراً لِكُلِّ حَيٍّ عُوَاءُ[(١)]
إِذْ رَفَعْنَا الجِمَالَ مِنْ سَعَفِ البَحْـ ... ـرَيْنِ سَيْراً حتى نَهَاهَا الحِسَاءُ[(٢)]
ثُمَّ مِلْنَا عَلَى تَمِيمٍ فَأَحْرَمْـ ... ـنَا وَفِينَا بَنَاتُ قَوْمٍ إِمَاءُ
لاَ يُقِيمُ العَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّهْـ ... ـلِ وَلاَ يَنفعُ الذَّلِيلَ النَّجَاءُ
ليس يُنْجِى مُوَائِلاً من حِذَارٍ ... رأسُ طَوْدٍ وَحَرَّةٌ رَجْلاءُ[(٣)]
مَلِكٌ أَضْرَعَ البَرِيَّةَ لا يُو ... جَدُ فيها لِمَا لَدَيْهِ كِفَاءُ[(٤)]
كَتَكَالِيفِ قَوْمِنَا إِذْ غَزَا المُنْـ ... ـذِرُ هل نحنُ لِابْنِ هِنْدٍ رِعَاءُ
مَا أَصَابُوا مِنْ تَغْلَبِيٍّ فَمَطْلُو ... لٌ عليـه إِذَا أُصِيبَ العَفَاءُ[(٥)]
إذ أَحَلَّ العَلْيَاءَ قُبَّةَ مَيْسُو ... نَ فَأَدْنَى دِيارِها العَوْصَاءُ
فَتَأَوَّتْ لَهُ قَرَاضِبَةٌ مِنْ ... كُلِّ حيٍّ كأنَّهُمْ أَلْقَاءُ[(٦)]
فَهَدَاهم بالأَسْوَدَيْنِ وأَمْرُ ... اللهِ بَلْغٌ تَشْقَى به الأَشْقِيَاءُ[(٧)]

ثم مضى بعد ذلك يذكر أياديهم على عمرو بن هند ، ثم حُجْرِ بن أم قَطام وعلى امرئ القيس من بعده ، وغيره من الملوك والأشراف الذين نصروهم فى الحرب ، ثم جعل يذكر تغلباً بما كان بينهما من الحِلْف ، وانتهى من ذلك إلى العتاب الممزوج بالإنكار ، والغرابة لما تريدهم عليه تغلب من الهوان والتسليم قال :

وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِى المَجَازِ وماقُدِّ ... مَ فِيهِ العُهُودُ والكُفَلاَءُ

---

(١) الغوار : المغاورة مفاعلة من الغارة أى الهجوم من الجانبين .

(٢) رفعنا الجمال : سيرناها . سعف البحرين : أطرافها ، وأصل السعف للنخلة . نهاها : كفها . الحساء : مكان بعينه . (٣) الموائل : الهارب الطالب الموئل . الطود : الجبل . الحرة الرجلاء : الغليظة الشديدة . (٤) الكفاء : الجزاء والنظير .

(٥) المطلول : المهدر الدم . العفاء : التراب والمراد هنا الفناء والذهاب .

(٦) تأوَّت : اجتمعت . القراضبة : اللصوص . والألقاء : جمع لقوة وهى العقاب .

(٧) الأسودان : التمر والماء . بلغ : بالغ .

واعلموا أَنَّنا وَإِيَّاكُمُ فِيـــما اشْترطنا يَوْمَ اخْتَلَفْنا سَواء

أَعَلَيْنا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغْـــنَمَ غَازِيهُمُو وَمِنَّا الجَزَاء

والقصيدة كلها من هذا النمط القوى ، وفيها من أثرالأرتجال الإقواء فى قوله :

فَمَلَــكنا بذلك النَّاسَ حتى مَلَكَ المنذرُ بنُ ماء السَّماء

هكذا بالجر ، والقافية كلها مرفوعة ، على أننا نرجح أن هـذه القصيدة غير مرتجلة ؛ و إنمـا هى محبرة فكر فيها الشاعر وأعدها إعداداً لهـذا المقام ، الذى لم يكن مفاجئاً ولا معجلا عن الروية كما هو ظاهر .

وهـذه هى القصائد السبع ، ممتازة عن سائر الشـعر الجاهلى ، بأوّليتها وسعة قوافيها ، وتلك الأغراض المتنوعة ، و بهذا الأسـلوب البدوى المشتمل على أثارة من الحسن فى الجزالة والرقة ، مع المعانى الـكثيرة والأدب الشـعرى الذى كانت هذه القصائد خير مثال منه مضى فى أثره الشعراء من بعد .

أوصاف الشعر فى لفظه وأسلوبه ومعانيه

لفظه

أما من حيث اللفظ فهو كما ترى تغلب عليـه الجزالة و يكثر فيـه الغريب وخاصة عند تعاطى الوصف للشىء من حيوان وجماد وطير ونبات ، وهو أيضاً لفظ معرب لا ترى فيـــــه لحنا ، وقد قدمنا أن ذلك كان جبلة وكان طبعاً ، والمعروف أنه لم يؤثر عن واحد من أهل هذه الجاهلية لحن يذ كر ، ومن أوصاف الألفاظ أنها كانت غالباً تسـتعمل فى معانيها الحقيقية ، كما أسلفنا فى النثر ، إلا ما كان فى باب الوصف والغزل و بعض المادح من التشبيهات البارعة المصوّرة و بعض الـكنايات الرائعة الحسن ، كمثل « نؤوم الضحى » فى قول امرئ القيس و إن كانت نومة الضحى قد أصبحت لاتعجب أهل هذا العصر النشيط المتحرك ، إلا أنها مع ذلك كانت ولا تزال تدلّ على مقدار النعمة والفراغ .

وكذلك لم يكن لهم فى لفظهم من دخيل أعجمى إلا ما عرفوه من قبل وخلطوه بأوضاع لغتهم فى إبان التكوين ، وقد أشرنا إلى ذلك فى الكلام على أصل العربيــة ، وقد وقع للأعشى بعض ذلك الأعجمى كان يتظرف به فى شعره كقوله :

لهـا جُلَّسَانٌ عِنْدَها و بَنَفْسَج　　وسِيسَنْبر وَالمَرْزَجُوشُ مُنَمْنَمَا[1]

الأسلوب　وأما الأســــلوب فأظهر أوصافه ما تراه من غلبة الإيجاز وحذف الفضول واطراد التعبير من طريق الحقيقة والتشبيه فى الغالب ، وكذلك ما فيه من الطابع البدوى الذى يكاد يمتاز به شـــعر الجاهليين من إيراد المعانى فى صورة الخطاب لمـا لا يعقل من طلل أو ناقة أو فَرَس .

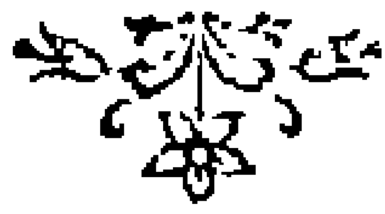
وهذا النسيب أو ذلك الحديث الى النساء الملم بأطراف كلامهم ، والداخل فى أكثر أغراض الشعر عندهم ، وهناك شيء آخر فى الأسـلوب هو قلة العناية بترتيب الأفكار وعدم الحرص على الربط بين أجزاء الكلام ، حتى ليخرجون من غرض إلى غرض من غـير توطئة ولا تمهيـد ، فى مفاجأة واقتضاب ، ولم يعرف أنه دخل فى أسـلوبهم شىء من المحسنات البديعية التى يصح أن تكون من اختراعات العصور الأخرى كالجناس والتورية وما أشبه ذلك .

المعانى　أما معانى الشعر الجاهلى فأظهر أوصافها أنها كانت معانى فطرية قريبة التناول ، متزحزحة عن هذه النزعات الفلسفية ، وذلك الاستقصاء العميق فى اسـتخراجها من مظانها ، وكانت فى الغالب بريئة من المبالغات المفرطة المفوتة لمحاسن الكلام ، مفرغة فى هذه الألوان الزاهية من الصراحة والصدق ، تكتسب من هذه السذاجة الظاهرة فى ترتيبها وقلة الاكتراث لتحقيق التناسب الظاهر بينها لونا آخر من جمال الفطرة المحبوبة .

(١) أنواع من الرياحين .

الأوزان والقوافى

والحق أن العرب نظموا الشعر على تلك الأوزان الغنائية ، أو التى كان استحداثها فى الأصل لإيجاد مادة غزيرة من المقاطع ، يعتمد عليها الساجع فى تطريبه وما كان امرؤ القيس حين قال « قفا نبك » يعلم أن الخليل بن أحمد الفراهيدى سيقطعها على قوله « فعولن مفاعيلن » وإنما وقعوا على هذه الأبحر الشعرية من طريق الفطرة وطول المعاناة ، ونظموا فى بعضها أكثر من بعض وأكثروا فى قوافيهم من بعض حروف الهجاء دون بعض ، كما يتبين ذلك من النظر فى أشعارهم وقوافيهم .



النقــــد

نشأته وأثره

يكاد النقد يكون عملا من أعمال الفطرة ، تأثرت به قديمًا مبادئ الحياة البشرية ، تتمثله فى ذلك التعليل الواضح لاهتداء الإنسان إلى كثير من علومه الأولى ، بمقتضى ما فى تركيبه الخِلْقى من القدرة على تعرّف مواطن الكمال والنقص ، وإدراك الفرق بين النفع والضرر ، والشعور بمعنى اللذة والألم عند امتحانه المتكرر لطبائع الأشياء المختلفة ، كما يشاهد من عمل الأطفال فى ابتداء تيقظ التمييز فى أنفسهم ، من اختيارهم لأكبر الأشياء ، واستحسانهم لأزهى الألوان ، ومن حركاتهم القلقة المنبعثة عن عدم الاكتفاء بمجرّد اللمس والنظر لما يقع فى أيديهم ، حتى لتراهم يكسرون دُمَاهم ويفككون لُعَبهم ، خضوعا لحبّ الاستطلاع وإشباعا لشهوة هذه الغريزة ، من الحرص على استظهار بواطن الأمور، والاستكثار من العلم بحقائق الأشياء ، للتمكن من تقرير الأحكام المناسبة لمدى مداركهم الصغيرة ، إلى أن تعرفهم التجربةُ فى مؤتنف الحياة بما فى أحكامهم من الصحة والفساد عند اكتمال الخبرة واستحكام العقل . وذلك بالضرورة هو منشأ الترجيح والتخير أو التمييز والحكم المؤلفين فى الجملة لمعنى النقد ، الذى أصبح — حين فطنت لآثاره العقول — أداة دائبة فى تدريج الانسان بين مراتب الترقى ، والسير به رويداً إلى مناهج المدنية ، حتى أوشك أن يبلغ به حسن انتخابه للأكمل من مظاهر الحياة العامة من العلم والفن والصناعة والنظام ، إلى ما ينبغى له من الكمال . وكان الأدب — وهو فى أوسع معانيه — ذلك المجهود النفسى البارز فى الصورة اللغوية ، طبيعة من الطبائع وفنًّا من الفنون ، تعقب النقد خطاه ومضى فى الحياة معه ، حتى تبوأ مكانه بين سائر الكمالات المعنوية ، وصار وسيلة جديدة من وسائل تهذيب الاجتماع ، لاسبيل إلى إنكار ثمراتها الغزيرة ، فى تصيير النفوس البشرية إلى ظلال وارفة من جمال الوجود وسعادة الحياة .

أركان النقد الأدبى

وحين نحاول أن نضع لهـــذا النقد الأدبى قاعدة جامعة ، أو نعرفه بقياس صحيح ، ينبغى لنا أن نبين ما يصحّ أن يتوقف عليــه من الأمور ، ليكون محققا لرغبة المتعقبين من أهل العلم فيما يسنح لهم من إصلاح حال أو استكمال منفعة . ومن أهم هـــذه الشرائط الاقتدار على حسن الفهم للكلام ، والأصابة لدقائق أسرار البلاغة ، والتجرد من استبداد الهوى الخاص ، والإستناد بالضرورة إلى طبيعة صالحة من الأدب ، مع الاستعانة بالدراسة الواســـعة للأطوار الأدبية المختلفة فى جملة لغات أو فى لغة واحدة منها على الأقل .

تعريف النقد الأدبى

وعلى هذا الاعتبار يمكننا تعريف النقد الأدبى بأنه : بيان مافى الكلام من جمال أو عيب ، وإنمـا يكون ذلك بصحة تصوّر المعانى المفردة للألفاظ ، وإدراك الأغراض الأصلية للعبارات ، وتعيين مقدار الصواب والخطأ ، أو الجمال والعيب من جهة أوضاع اللغة ومن قِبَل الاستعمال الأدبى . ويكون الحكم المتأثر بالذوق اللغوىّ، المتعارف لأوساط البلغاء من أهل اللغة ، وهو المسمى فى اصطلاحهم بالذوق السليم تَتِمَّة مقررة لحظ القائلين من جمال الأدب وبلاغة الكلام ، يزداد بها المحسن ويقلع المسىء ، ويتسامى الأدب إلى منزلة من الرفعة ، تعين على اجتلاء محاسن الأشياء وتخفيف مافى الحياة من أعباء .

وبذلك يتضح معنى حرص العلماء على تحرير أحكام النقد من الخضوع للأذواق الخاصة ، لاحتمال تخلفها ، أو فساد قياسها ، أو مجانبتها جملة لهذه الطبيعة الفنية من الأدب ، كأذواق أهل الصناعات العلميــة المختلفة من الطبّ والمنطق والهندسة ومن الفقه والنحو ، وأكثر أجناس العلوم التى يكسب مراسها مزاجا علميا قد لايتصل بفهم جمال الكلام والشـــعور بمواطن البلاغات ، على أن من المحتمل أن يسلم بعض هذه الأذواق من عيب العصبية للصناعة أو العلم الخاص ، فلا مانع حينئذ أن يكون طريقا للحكم المسلم والرأى المقبول .

النقد الأدبى عند العرب

تاريخه وآثاره

لا ريب أن تنقل اللسان العربى فى المراحل اللغوية المسماة فى تاريخ الأدب «بأطوار تهذيب اللغة» يعد عملا من أعمال النقد ونتيجة ظاهرة من نتائجه ، وإن كنا لا نجد لهذا التنقل دليلا أكثر من الاستنتاج المعقول ، لبقاء الأصول التاريخية للغة العربية غامضة كما كانت ، لم يكشفها إلى الآن تنقير الباحثين ولا تناولها أحد من العلماء برأى قاطع ، ومهما يكن من شىء فقد ظهر النقد — على الأقل — مع الشعر الجاهلى فى تاريخه المعروف منذ الطبقة الأولى إلى غيرها من الشعراء الجاهليين وخاصة عند ما فشا التكسب بالشعر ، ونشأت طبقة الصناع المنقحين المعروفين « بعبيد الشعر » أمثال الأعشى وزهير والنابغة ، وكانت الأسواق العربية محكا لقرائح الأدباء من العرب ، تناول فيها النقدُ أطرافَ الكلام من الخطب والأشعار والمحاورات ، ونهضت اللغة من وراء ذلك نهضتها القوية قبل ظهور الإسلام .

نقد طرفة وهو صبى

ونورد هنا بعض ما فصلناه فيما سيأتى من تراجم الشعراء من الأمثلة ، إيفاء للبحث وتتمة للفائدة . فقد رووا أن طرفة بن العبد سمع وهو صبى منشداً من قومه فى بعض مجالسهم يقول :

وقد أَتَنَاسَى الهمّ عند احْتِضَاره ... بِنَاجٍ عليه الصَّيْعَرِيّة مِكْدَم

فعابه بقوله « استنوق الجمل» لأنه وصف الفحل بالصيعرية وهى عندهم من سمات أناث الإبل . وكذلك حكومة أمّ جندب الطائية بين امرئ القيس وعلقمة الفحل ، فيما تناوله شعرُهما فى البائيتين من وصف الفرس ، حين قال امرؤ القيس:

حكومة الطائية بين امرئ القيس وعلقمة

فللسوط أُلْهُوبٌ وللسّاقِ دِرّةٌ ... وللزّجر منه وَقْع أَهْوَجَ مِنعَب

وقال عَلقَمة :

فأدرَكَ لم يجْهد ولم يَثْنِ شَأْوَه ... يمرُّ كَمَرِّ الرائح المُتَحَلِّب

وإن كان صاحب اللسان لايذكر هذا التحكيم ، ويحمل القصة على مجرد المعارضة من علقمة لامرئ القيس ، وظاهر على الاعتبارين أن الأمر لم يخرج عن معنى النقد ، لما تتضمنه المعارضة من معنى تعقب المتأخر ومحاولته الغلبة للمتقدم بالتجويد والزيادة . وكان النابغة كغيره من شعراء الجاهلية يُقوى فى شعره فدخل المدينة وأهل الحجاز يُعجَبُون به ويقدمونه فدسوا له قَينةً تغنيه بشعره فى المُتجرِّدة وفيه الإقْواء ، وهو اختلاف حركة الروى فلما بلغت قوله :

القينة المغنية وشعر النابغة

زعمَ البوارِحُ أنَّ رحلتَنا غداً وبذاك خبَّرنا الغرابُ الأسْوَدُ

أطالت ضمة الدال ، والقافية كلُّها بالكسر ، ففطن لهذا العيب وأصلحه بما يأتى « وبذاك تَنْعابُ الغرابِ الأسوَدِ » ثم قال «دخلت يثرب وفى شعرى عاهة وخرجت وأنا أشعر الناس »

الأعشى وحسان والخنساء فى عكاظ

وكان من الوافدين عليه ، وهو يقضى بين الشعراء فى عكاظ ، حسان بن ثابت والخنساء ، أولها والأعشى ، فأنشده حسان قصيدته :

لنا حاضِرٌ فَعْمٌ وبَادٍ كأنَّه شماريخُ رَضْوى عِزَّةً وتكرُّمَا

وقيل أنشده غيرها ، وأنشدته الخنساء :

قذًى بعينِكَ أم بالعينِ عوَّارُ أم ذَرَّفَتْ مُذْ خَلت من أهلِها الدَّارُ

وهى من جيد رثائها لأخيها صخر ، وأنشده الأعشى « ما بُكاء الكبير بالأَطْلَال ؟ » وهى من مدائح الأعشى وطواله وستأتى فى ترجمته . فيروى أنه قال للخنساء لولا أن أبا بصير « يعنى الأعشى » سبقكِ لقلت إنكِ أشعر من بالسوق ، وقال لحسان إنك لشاعر ! فأغضبه ويروى أنه قال له فى بيتيه من القصيدة :

لنا الجَفنَاتُ الغرُّ يلمعْنَ بالضُّحى وأسيافُنا يقطُرْن من نَجْدةٍ دَمَا

ولدْنَا بنى العَنقاء وابْنَىْ مُحرِّقٍ فأَكرِمْ بنا خالاً وأَكرم بنا ابْنَمَا

حكم النابغة على شعر حسان

أضعفت فخرك وأقللت جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك !! وفى الأمالى لأبى علىّ القالى أنه قال له وللخنساء : إنك لشاعر وإنها لبكاءة !! وهو الأقرب إلى الصواب .

وذكر المرزبانى فى الموشح أن الأعشى أنشد قيس بن معديكرب أحد أشراف اليمن ، مديحاً له أتى فيه على قوله :

ونُبِّئْتُ قيساً ولم أَبْلُه وقد زعموا سادَ أهلَ اليمن

الأعشى مع قيس بن معديكرب

وزعموا — كما يقولون — مطية الكذب ، فعابه قيس ، ولم ينفعه أصلاحه البيت بقوله :

ونُبِّئْت قيساً ولم آتِهِ على نَأْيِهِ سادَ أهلَ اليَمَن

وأكثر مايذكره الرواة من أسباب تسمية السبع الطوال بالمعلقات ، ظاهرة قوية من ظواهر النقد ، فهم يقولون إن العرب عمدَت إلى قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، ويقولون كان الملك إذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزاناتى ! يعنون النعمان بن المنذر .

ذلك وجاء الإسلام وأقبل المشركون من العرب يحادون الله ورسوله ، ويقارعون المسلمين فى المجالس ، ويتهاجَوْن ويتناظرون بالأشعار والخطب ، ومن ذلك ما روى أبو الفرج فى الأغانى عن وفد تميم من أنهم قدموا على رسول الله بخطيبهم وشاعرهم وفيهم يومئذ سادتهم قيسُ بن عَاصم والأَقْرَع بن حَابس والزِّبْرِقَان بن بدر وعَمرُو بن الأَهْتَم وعُطَارد بن حَاجب فخطب خطيبهم وأنشد شاعرهم ، ثم دعا رسول الله قيسَ بن شَمَّاس فرد عليهم بخطبة طويلة وأنشد حسَّان قصيدته :

وفد تميم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن الذَّوائبَ من فِهْرٍ وإخوتِهم قد بيَّنُوا سُنَنَا للناس تُتَّبع

يَرضَى بها كلُّ من كانت سَريرتُه تَقْوى الإلٰهِ وبالأَمْرِ الذى شَرعُوا

فقال قائلهم — يريد النبى — والله إن هذا الرجل لَمُؤْتَى له ، والله لخطيبهم أبلغ من خطيبنا ، ولشاعرهم أجود من شاعرنا . وهم الذين نزل فيهم (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون)

ثم مست الحاجة لأجل تصحيح التأويل وفهم السنة ، إلى تتبع الشعر

القديم وروايته وترتيب أبوابه وطبقات شعرائه ، وحفلت مجالس المسلمين بالأدب والنظر والمحاورات ، وكان عمر بن الخطاب وابن عباس من خير الناظرين فى الشعر وترتيب الشعراء ، ولهما فى فحولهم وأجود أشعارهم أقوال أتينا على أكثرها فى تضاعيف هذا الكتاب . وظهرت الطبقة الأولى من رواة المسلمين بأبى الأسود وتلاميذه ، وأمره علىّ بن أبى طالب أو زياد بوضع النحو ، أو وضعه نصر بن عاصم الليثى ، أو وضعه غيرهما على ما هو مروى . فكان ذلك ولا ريب تطوراً جديداً فى النقد الأدبى ، عالجه السلف حين أحسوا الخطر على الكتاب والسنة واللغة من طروء اللحن ، ومن تلاميذ هذه الطبقة أبو عمرو بن العلاء ومعاصروه والآخذون عنه ، كالخليل وأبى عبيدة والأصمعى ويونس وأضرابهم ، ولا تكاد الرواية فى الأدب تتجاوز هؤلاء إلى أشياخهم من الطبقة الأولى ، واستبحرت حينئذ رواية الأشعار وأخبار العرب وأيامهم ، ورحل الرواة إلى بوادى الأعراب للسماع والأخذ . واضطرب الناس فى الموازنة بين ثلاثة الفحول الإسلاميين جرير والفرزدق والأخطل ، وكانت مجالس عبد الملك بن مروان أبدا زاخرة بأدباء العرب ، فلما خلا مقام منها من المفاوضة فى الحديث والشعر ، وذكروا أنه صنع ذات يوم طعاما فأكثر وأطيب ، ودعا إليه الناس فلما فرغوا قال بعض القوم : ما رأيت كاليوم طعاما أكثر ولا أطيب ؛ فقال أعرابى من ناحية السماط : أما أكثر فنعم ! وأما أطيب فقد والله أكلت أطيب منه ! وبعد أن ذكر حالا وقعت له فى البادية ، أدناه الخليفة وكلمه فوجده لبيباً عارفا فقال ألك علم بالشعر ؟ فقال سلنى عما بدا لك يا أمير المؤمنين ! فقال أىّ بيت تقوله العرب أمدح ؟ قال قول جرير (وجرير فى المجلس) :

أبو الأسود الدؤلى زعيم الطبقة الأولى من الرواة

وضع النحو

الموازنة بين ثلاثة الفحول الاسلاميين

أعرابى على سماط عبد الملك

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فاستشرف لها جرير وحرك رأسه ، قال عبد الملك فأى بيت تقوله أغزل ؟ قال قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

قال فأىّ بيت أفخر ؟ قال قوله أيضاً :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبتَ الناس كلهم غضابا

قال فأيها أهجى ؟ قال قوله :

فغُضّ الطرفَ إنك من نُمير فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابا

قالوا فهمّ جرير بأعطائه جائزته ، فأرضاه عنه عبد الملك .

سؤال هشام وهو أمير لخالد بن صفوان عن الشعراء الثلاثة

وذكر أبو الفرج الأصبهانى أن هشام بن عبد الملك ــ وهو أمير ــ سأل خالد ابن صفوان ، وهو من بلغاء الناس ، أن يصف له أولئك الثلاثة فقال (وكلامه يشبه فى كثير من الوجوه ما يسميه المعاصرون بالنقد التحليلى) أما أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عذراً ، وأشدهم ميلا ، وأقلهم غزلا ، وأحلاهم عللا ، الطامى إذا زخر ، الحامى إذا زأر ، والسامى إذا خطر ، الذى إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فوتا ، الذى إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوه ستراً ، الأغر الأبلق ، الذى إن طَلَب لم يُسبَق ، وإن طُلِبَ لم يُلْحق فجرير ؛ وكلهم ذكىّ الفؤاد ، رفيع العماد ، وارى الزناد . فقال له هشام : ما سمعنا بمثلك ياخالد فى الأوّلين ، ولا رأينا فى الآخرين ، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً ، وألينهم عطفاً ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعالا . فقال خالد : أتم الله عليكم نعمه ، وأجزل لديكم قسمه ، وآنس بكم الغربة ، وفرج بكم الكربة ، وأنت والله ــ ما علمت ــ أيها الأمير كريم الغراس ، عالم بالناس جواد فى المحل ، بسام عند البذل ، حليم عند الطيش ، فى ذروة قريش ، ولباب عبد شمس ، ويومك خير من أمس ، فضحك هشام وقال : ما رأيت كتخلصك يابن صفوان فى مدح هؤلاء ، ووصفهم حتى أرضيتهم جميعاً ، وسلمت عليهم .

الكميت والفرزدق

قالوا وإن الفرزدق قدم الكوفة فأتاه الكميت بن زيد الأسدى ، وهو شاعر عَصَبِىٌّ لبنى هاشم ، وأجود شعره فى مدحهم ، فقال يا عمّ أنت شيخ مضر وشاعرها ، وقد قلت شعراً أحببت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسناً أمرتنى بإذاعته ، وإن كان قبيحاً سترته علىّ ، فقال له الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك ، فهات ما قلت ! فأنشده (وهى إحدى قصائده المعروفة بالهاشميات) :

طَرِبتُ وما شوقاً إلى البيضِ أَطْرَبُ . فقال له : فالِى مَن تطرب ؟

فقال :

ولا لَعِبا منِّى وذُو الشَّوقِ يَلعَبُ . قال : بلى فالعب فإنك فى أوان اللعب ! !

قال :

ولم يُلهِنِى دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يَتَطَرَّبْنِى بنانٌ مُخَضبُ

قال : فإلى من تطرب ويحك ؟

فقال :

ولا السانِحاتُ البارِحاتُ عشيَّةً أَمَرَّ سليمُ القرنِ أم مَرَّ أعضبُ

فقال : نعم لا تتطير ! !

فقال :

ولكن إلى أهلِ الفضائلِ والتُّقَى وخيرِ بَنى حَوَّاءَ والخيرُ يُطْلَبُ

فقال : منْ هؤلاء يا بنى ؟

فقال :

إلى النَّفر الغُرِّ الذين بحُبِّهم إلى اللهِ فيما نَابنى أتقَرَّبُ

فقال : من هؤلاء ويحك أرحنى ؟ !

فقال :

بنى هاشمٍ رهْطِ النَّبىِّ وأهلِهِ بهم ولَهُم أرْضَى مِراراً وأَغْضَبُ

فقال له الفرزدق ـ وكان شيعيًّا أيضاً ـ يا بُنى! أَذِع ثم أذع ، فأنت أشعر من مضى ومن بقى ! !

سُكَيْنَة وكُثَيِّر عزة

وكانت سُكَينة بنتُ الحسين أديبةً ظريفة ، تقعدُ للرجال ، ويغْشَى ناديَها الشعراء ، فقالت يوما لكُثَيِّر عَزَّة أنت القائل :

فما رَوضةٌ بالحَزْن طَيِّبةُ الثَّرى ‍ ‍ ‍ ‍ يمجُّ النَّدى جَثْجَاثُها وعَرَارُها
بأطْيبَ من أَرْدَان عَزَّة مَوْهِناً ‍ ‍ ‍ ‍ وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَل الرَّطبِ نَارُها

أى زنجية منتنة تتبخر بالمندل الرطب ، إلا طاب ريحها ! ! ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم تَرَيانى كلَّما جئتُ طارِقاً ‍ ‍ ‍ ‍ وجَدْتُ بها طِيباً وإن لم تَطَيَّب

وهو كما يرى نقد فى موضعه . ولقد بلغ الحال بجهابذة البلغاء وحذاقهم فى

كتاب ابن المهلب والحجاج

هذا الصدد أن يلحقوا الكلام بقائله ، وقد أُتى الحجاج بكتاب من يزيد بن المهلب عامله على خراسان وفيه (انَّا لقينا العدو ففعلنا وفعلنا واضطررناهم إلى عُرْعُرَة الجبل) فقال ما لابن المهلب ولهذا الكلام ؟ فقيل له انَّ يحيى بنَ يَعْمَرَ عنده قال فذاك إذن ، وكان الحجاج سأله يوما أتجدنى ألحن ؟ قال نعم وفى كتاب الله !! قال ذاك أشنع ! ففى أى كتاب الله ؟ قال قرأتَ (قلْ إنْ كان آباؤُكم وأبناَؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتمُوها وتجارةٌ تخشَوْن كَسادَها ومساكنُ ترضَوْنها أحبَّ إليكم من الله ورسوله) فقلت أحبُّ بالرفع وهو منصوب ، فقال لا تساكننى ببلد أنا فيه ! ونفاه إلى خراسان ، وهو من تلاميذ أبى الأسود وكان مشهورا بالغريب .

ويطول بنا الكلام ان حاولنا استيعاب جميع الأمثلة الدالة على شيوع النقد بين طبقات المتأدبين فى ذلك العصر ، وما خلا القرن الثانى من الهجرة حتى نهض الرواة والعلماء إلى وضع الكتب فى معانى الشعر وطبقات الشعراء والتعريف بمذاهبهم وجملة أوصافهم ، ولم يكتفوا بما كان متبعا من قبل من الاقتصار على

النقد للبيت وللأبيات من كلام الشاعر ، بل عرضوا لتاريخ الشاعر نفسه ، وشرح بعض خصائصه البارزة فى شعره ، وألموا فى الجملة بمآخذه وعيوب كلامه ومقدار اختراعه وصدقه وكذبه فى معانيه ، ونظروا فى أسباب الانتحال ، وما اتصل بالشعر والأدب من عبث المتزيدين وأهل السمر من الرواة ، وتماثل البحث إلى درجة بلغ فيها النقد حالة من النضج .

ظهور كتاب الطبقات للجمحي

وكان من خير ما وضع فى ذلك الوقت كتاب «طبقات الشعراء» لابن سلام الجمحى ، وقد أتى فى صدوره على أهم النظريات الأدبية التى اتخذها المتأخرون حتى المعاصرون أمامهم فى البحث ، يفصلون إجمالها ويطولون فيها ، وهم يظلمون الناس حين يزعمون أنهم يأتون بشىء أو يجددون فى الأدب ، وجاء بعده كتاب «الشعر والشعراء» لابن قتيبة ، على مثل هذا النمط من النظر والتعقب . ووضع الجاحظ كتاب «البيان والتبيين» فأسهب فى مفاتحه فى وصف البلاغة وقيمة تأليف الألفاظ ، ونبه إلى مخارجها الكريمة وصنيعها بالعقول ، وتناول أقسام الكلام كلها بالتمحيص والنقد . ووضع أبو الفرج كتابه «الأغانى» أحاط فيه بتراجم أكثر الشعراء وأشهر الكُتاب والمغنين ، فى أسلوب عذب فصيح ونقد حسن . وظهرت الكتب المختارات الخاصة بالشعر ، من المفضليات إلى حماسة أبى تمام ، والجامعة بين الأدب والتاريخ وبعض المباحث اللغوية واللسانية الأخرى ، ككامل المبرد وأمالى القالى وغيرها ، وكان طول تأمل الأدباء وأهل العلم فى كلام العرب ، مترقيا بالنقد إلى مرحلة أخرى ، ترتب عليها وضع قواعد البلاغة التى لا يزال أفضل مؤلفاتها إلى الآن كتب الإمام عبد القاهر الجرجانى « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ومثلهما كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ، ويصح أن يلحق بهما كتاب « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر ، فإنه — مع صغر حجمه — متعلق فى الجملة بمباحث البلاغة ، ولو توفق المتأخرون من العلماء إلى

الشعر والشعراء لابن قتيبة

والبيان والتبيين للجاحظ

الأغانى لأبى الفرج

المفضليات والحماسة والكامل

عبد القاهر وأبو هلال

المضىّ فى مناهج هذه الكتب ، لأمكن أن تؤتى هذه العلوم ثمرات أكرم مما يجنيه المتعلمون من دراستها الآن .

وفى أواخر القرن الرابع الهجرى تقدم اهتمام العلماء بوضع الموازنات بين الشعراء والكتاب ، ونشأت المناظرات الأدبية ، ومال فى ذلك الوقت اتجاه النقد الأدبى إلى صورة من التعمق يراد بها تناول الشخصيات الأدبية بالتكشيف والشرح ، وعقد الصلات بين الشاعر وشعره ، و بينهما و بين البيئة المنشئة لهما ، وهو النوع الذى يلهج المعاصرون من رواة الأدب الأجنبى بتسميته « النقد التحليلىّ » وأهم مظهر لهذه الحالة الجديدة كتاب الآمدى فى «الموازنة بين أبى تمام والبحترى » وكتاب الإمام الناقد علىّ بن عبد العزيز الجرجانى « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ثم ظهر كتاب «العمدة » لابن رشيق فى نقد الشعر ، والإمام ابن خلدون يقرظه ويعتد به أنه أوعى كتاب فى النقد ، وقد تناول فيه أكثر ماقيل إلى عهده فى الشعر والشعراء من عيوبه ومحاسنه ، وقوافيه وأوزانه وطبقات شعرائه ، ولم تتغير طريقته فى البحث الأدبى حتى فى هذا العصر ، إلا من حيث ما يظهر من بعض المحاولات الكلامية فى تزيين الألفاظ ، والمخالفة للأوضاع الأدبية المتعارفة ، المسماة فى عرف كثير من المعاصرين « بالتجديد » ولا يزال البحث فى صميمه وجوهره كما أداه إلينا القدماء ، لم نزد عليه ولم ننقص منه ، مع انقطاع العذر وكثرة المشتغلين وسهولة التحصيل ، ومع توافر أسباب البحث واتصال أطراف العالم ، وكثرة العارفين باللغات الأجنبية ، ذلك كله ولا نجد لدينا كتاباً واحداً ، يصح أن يزاحم أسفار القدماء ، لا فى الأدب ولا فى غيره ، إلا شيئاً قليلا يرجع فى جملته إلى الاقتباس من كلام القدماء ، مع بعض تصرف فى العبارة أو تغيير فى التبويب ، من غير اختلاف فى الجوهر أو الموضوع .

الموازنة بين الطائيين والوساطة بين المتنبى وخصومه

ما يتوخاه الناقد

أما ما يصحّ أن يتوخاه الناقد ، فقد أشرنا فى الكلام على أوصاف النثر إلى شىء منه ، ونزيد هنا أنه يجب أن يحرص الناقد على الغاية النافعة من النقد ،

وهى إبلاغ ما يتناوله من الأدب ومنشئه إلى المرتبة اللائقة بهما ، توصلا لجعله ـ كما قدمنا فى صدر هذه الكلمة ـ وسيلة إصلاح للاجتماع ، والطريقة المثلى فى ذلك ألا يكون النقد ذريعة إلى شفاء حزازة الصدر ، ومظهراً للنّيل من أعراض الناس ، والتدلى إلى المهاترة بالتعرّض لما قد لا يكون له علاقة بأدب الكاتب أو الشاعر ، من بعض صفاته الشخصية ، فإن ذلك فى الغالب داع إلى نبوة النفوس وإعراض الأدباء عن الانتصاح ، ولكن ينبغى أن يلين مسّ الناقد وتلطف مداخله ويعتدل ميزانه ، فيذكر الحسنة والسيئة ، ويشير فى رفق وأدب لسان إلى الأخذ بما يراه ، ولاينبغى له أن يغض من الأدب لقلة إمعانه فى المعانى الفلسفية أو لخلوه من الأفكار المخترعة ، أو لأنه غير مجار لآداب لغات أخرى ، كأولئك الذى يعيبون الشعر العربى لخلوه من التمثيل والقصص لمجرد أنهما يوجدان فى الأدب الأجنبى ، وإذ كنا بيّنا كيف يكون أخذ اللفظ والمعنى والأسلوب وشخص الكاتب والشاعر والوطن الأدبى بالنقد فيما أسلفنا فى أبواب النثر الجاهلى ، فلا نطيل بذكرها هنا ، وسنعاود البحث فى هذا الموضوع مرة أخرى ، ونرجو أن نستدرك ما فاتنا منه إن شاء الله .



تراجم الشعراء

١ — امرؤ القيس

نشأته

فى بلاد نجد ، وبين رباها المعشبة وأوديتها الغريضة ، كان ذلك الشاعر صبياعر بيا يلهو مع لداته، ويمرح فى أعطاف الصبا بين رعية أبيه ، وما كان يدرى أنه بعدُ قليل سيفضى إلى الدنيا بسرّ من أسرار العظمة ، ولا أنه سيخلع على جبين الزمن ذلك الإكليل الفاخر من الخلود والشهرة ، فبيْنَ تلك الأدْوَاح الظليلة وفى خلال رَيَّا العَرَار الشَّـذِىِّ ، رسَم شاعرُ التاريخ مَدَارجَ طُفولته وملاعِبَ صباه ، فى تلك الأرض التى كانت الطبيعة المتجهّمة فى سائر بقاع الجزيرة العربية تفترّ فيها افترارا عن بعض محاسنها ، التى أكثر الشعراء من تواصف طيبها ، وجمال مُصطَافها ومُتَربَّعها .

وما بلغ مبلغ الفتيان ، حتى مدَّ عينيه إلى تلك العزة الشاملة ، تحيط به من طرفيه ، وذلك المجد العربى يتلقاه من قبل أبويه ، فمضى على غُلوائه مُسْتَنًّا فى مَيْعة الشباب كأمثاله من أبناء الملوك ، محبا للتَّبطُّل ، مُوْثِراً للذات الفراغ ، لا تشغله تكاليفُ العيش عن الإمعان فى هذه الفتوة ، فجرّر مآزر اللهو وترَنَّح فى سكرة الحداثة ، وألِفَ الفتيان يغشى بهم مناقع المـاء ، ويرتاد أكْنَان الخلاعة والقَصْف ، وهو فى خلال ذلك يسمعُ الشعر ويرويه لشعراء عاصروه ، ومنهم من كان فى حاشية أبيه .

وكان منهوما بالشراب والصيد ، مفتونا بصهوات الخيل ، فما لبث أن تفتحت فى نفسه عيون هذه الغريزة الشاعرة بألوان من الكلام ، تجرى مع هذا المسلك الخليع ، من وصف النساء وركوب الخيل ومجالس الشراب وحكاية

الذيب واختداع الأحراس . وشُهر بذلك فى الشعر ، حتى أنف له أبوه من هذه الحياة الخليعة التى ارتمى فى حَمْأتِها ، ولم يعد فى رأيه صالحا لما كان يرشحه له من الملك بعده ، فنفاه وطرده ، فزاده ذلك استمراء لمذاق هذا العبث ، ومضيا فى أسباب المجانة ، وتناوحت بركابه حينئذ أحياء العرب ، ينزل مياهها وينتقل بين مرابعها ، فتضرب له القباب ، وتنحر الجزر ، وتغنيه القيان .

سيرة أبيه حجر فى قومه ومقتله

وكان أبوه — وهو حُجْر بن عَمْرو أحد ملوك كِنْدَة — قد عتا فى بنى أسد وأحلافها من رعيته ، وبغَى عليهم وسامَهُم صنوفاً من العسف ، أو شكوا معها أن يطيروا به طَيْرَةً بطيئاً سقوطها ، وقعدوا يتناذرون به ، ويَبغون له غائلة الدهر ، حتى دسُّوا إليه غلاماً منهم كان حجر قد قتل أباه ، فاغتاله على غِرَّة من جنده وحاشيته . وفى بعض الكتب أن كاهنة لهم تنبأت بقرب مصرعه ، ودلتهم على مكانه فاغتالوه ، وانتهى نعيُه إلى امرئ القيس بدَمُّونَ — إحدى قرى حَضْرَمَوْت من بلاد اليمن — وهو على شراب مع نديم له يلاعبه النَّرد ، فقال كلماته المأثورة : ضَيَّعنى صغيراً ، وحَمَّلنى عِبْءَ الثأر كبيراً ، لا صَحْوَ اليومَ ، ولا سُكْرَ غداً ، اليومَ خمرٌ وغداً أمرٌ . ثم تجهز للأخذ بثار أبيه واسترداد ملكه ، فجمع جموعا من بكر وتغلب وغزا بهم أسدا ، وكانوا قد نَذِرُوا به فارتحلوا عن ديارهم ، وأصابت جموعه بنى كنانة ولم يكونوا له موضع ثأر ، فتشاءم به جنده وخذلوه وتفرقوا عنه ، وفى ذلك الوقت ألَحَّ المنذرُ اللخمى أحد ملوك الحيرة ، فى طلبه لموجدة كانت لآل المنذر على ملوك كندة ، وأعانه على ذلك كسرى قباذ أحد ملوك الفرس ، فلم يكن له بهما طاقة ، فأقبل يطوف بقبائل العرب ويستنجد بأشرافهم ، حتى دُفِع إلى السموءل بن عاديا أحد أشراف اليهود فى حصنه الأَبْلَقَ بتَيْماء بالقرب من المدينة ، فاستودعه سلاحَه وأموالَه وابنته ، ثم ارتحل إلى بلاد الشام متوجهاً إلى قيصر الروم « جوستنيان[1] » بالقسطنطينية

تشمير امرئ القيس للأخذ بثأر أبيه

رحلته إلى قيصر الروم

(١) وكانت إمارة كندة فى الجزيرة موالية لملوك الروم ، وكانوا هم والغساسنة معهم فى حروبهم على ملوك العراق والفرس .

يستعين به على أعدائه ، فأمده ذلك القيصر بجيش ثم بدا له فاسترد الجيش .

نونوز المؤرخ الرومـــانى وامرؤ القيس

وقد ذكر صاحب شعراء النصرانية ما يأتى : وقد جاء ذكر امرئ القيس فى تواريخ الروم ، مثل نونوز وبركوب وغيرهما ، وهم يسمونه قيساً ، وقد أخبر هذا المؤرّخ الرومانى نونوز أن جوستيان قلده إمرَة فلسطين ، إلا أنه لم يسع فى إصلاح أمره وإعادة ملكه ، فضجر امرؤ القيس وعاد إلى بلاده . وأصيب وهو عائد من بلاد الروم بعلة قُروح كالجدَرى مات منها بأنقِره . وذكر صاحبُ شعراء النصرانية ، أن قيصر لمـا بلغه موته أمر بأن ينحت له تمثال وينصب على قبره ، وقد بقى هـــــذا التمثال إلى أيام المأمون العباسى ، ورآه هذا الخليفةُ فى أيام غزو الصائفة ببلاد الروم .

وما كان امرؤ القيس بِدْعًا فى ذلك ، فمن قبله سيف بن ذى يَزَن استعان بأكاسرة الفرس على اســـترداد ملكه وطرْد الأحباش من بلاده ، وكانت ملوك أوربة تستعين فى مثل هذه الأحوال بعينها ببعض ملوك القسطنطينية من الأتراك ، وما زال التاريخ يكرّر الأمثال لهذه الحوادث ، وهذه ملوك الشرق وأمراء العرب لايزالون يجتازون إلى أمم أوربة ، يستعينون بملوكها وليس فى ذلك كبير غرابة ولا عَجَب .

ويرجح أنه نظم معلقته ولاميته الأخرى ، التى مطلعها « ألا عم صباحا أيها الطلل البالى » فى الشطر الأول من حياته ، أما حياته بعد مقتل أبيه فكانت شاغلة لمثله عن اللهو ، صارفة له عما كان فيه من الاستهتار وقلة المبالاة ، وكان طول تقلبه فى الأحياء وكثرة مالاقاه من المحن ، زائداً فى تجربته ، ناهضا به إلى تعرّف ما فى طبائع الناس من الوفاء والغدر ، فلانت شكيمتُه ، وتطامنت نفســه ، وشكا الزمانَ وتنكُّرَ الإخوان ، وتعرض على غير عادته لشىء من المديح والهجاء لمن كانوا يكرمون جِواره أو يقعدون عن نُصرته ، وتلك كانت حياة هـذا الشاعر العظيم حافلة فى شطرها الأول بأنواع اللذة والقصف ، وفى

شطرها الثانى بضروب من البلاء والفتن ، فلم يكن غريبا أن تفيض نفسه بهذا العجب من الشعر ، الذى عد به رأس الفحول من الطبقة الأولى فى الجاهلية .

شعره

يعتبر امرؤ القيس من شعراء العالم الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، ولئن جاز فى عقل امرئ أن يشك فى حياة أحد من أولئك الجاهليين ، ليكونن امرؤ القيس آخر من يتطرق إليهم الشك أو تتصل التهمة بحياتهم ، ولقد روى شعره ثمانية من ثقات الرواة ، ودونوه وتناولوه بالانتقاد والشرح ، ونبهوا على المنحول منه ، حتى قال بعضهم : إن كثيراً من الشعر المنسوب إليه ليس له ومن ذلك يعلم مبلغ عناية العلماء بأثر هذا الشاعر فى اللغة والأدب ، ومن هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة ، وأبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب الأصْمَعى ، والإمام ابن السِّكِّيت ، والوزير أبو بكر عاصم بن أيوب وغيرهم ، وليس فى شعراء الجاهلية من تشعر بقوة شخصيته فى شعره مثل امرئ القيس ، وأنت قد عرفت حياته الأولى فاطلبها فى معلقته التى أسلفنا لك فيها رأيا ، وأثبتنا من مختارها أبياتا ، فى شرحنا المعلقات فى الجزء الأول من الكتاب ، وسنذكر لك منها بعض ما أغفلناه هناك .

قال بعد أن ذكر وقوفه وبكاءه ووصف عشقه وذكر قصته مع صواحبه يوم الغَدِير ، وما كان من عَقره لهن ناقته واقتسامهن متاعه ، وركوبه على رحل صاحبته فاطمة ، يذكر حالة أخرى له معها :

القصص فى شعره

وبَيضةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِباؤها ... تمتَّعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعْجَل
تجاوَزْتُ أحراساً إليْهَا ومَعْشَراً ... علىَّ حِرَاصاً لو يُسِرُّون مَقْتَلى
إذا ما الثُّرَيَّا فِى السَّماءِ تعرَّضَتْ ... تعرُّضَ أثناء الوِشَاحِ المُفَصَّل
فقالت يمينُ الله مَالَكَ حِيلةٌ ... ومَا إنْ أرَى عنكَ الغَوَايةَ تَنْجَلى
فقمت بِهَا أَمْشِى تَجُرُّ وَرَاءنا ... عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
فَلمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحَىِّ وانْتَحَى ... بنا بَطْنُ خَبْتٍ ذى قِفافٍ عَقَنْقَلِ

هَصَرْتُ بِفَوْدَىْ رَأْسِها فَتَمَايَلَتْ ... عَلَىَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ رَيَّا الْمُخَلْخَلِ
مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ ... تَرَائِبُها مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ
كَبِكْرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضُ بِصُفْرَةٍ ... غَذَاهَا نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ
تَصُدُّ وَتُبْدِى عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِى ... بِنَاظِرَةٍ من وحشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ
وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيسَ بِفَاحِشٍ ... إِذَا هِىَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلِ
وَفَرْعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ ... أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثْكِلِ
غَدَائِرُهَا مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَا ... تَضِلُّ الْعِقَاصُ فى مُثَنًّى وَمُرْسَلِ
وَتُضْحِى فَتِيتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا ... نَؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ
تُضِىءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا ... مَنَارَةُ مُمْسَى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ
إِلَى مِثْلِهَا يَرْنُو الْحَلِيمُ صَبَابَةً ... إِذَا مَا اسْبَكَرَّتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَمِجْوَلِ

وصف زينة المرأة وما بلغته من المدنية فى الجاهلية

وهى أيضا قصة من مذاهب الشباب والتوافر على ابتعاث اللذات ، يتناول فيها زينة المرأة العربية وما كانت تبلغ إليه من التنعم ، فذكر خدرَها وأحراسها ، وأنه خرج بها من الحىّ إلى مكان حريز يتهنَّأ فيه بالانفراد معها ، وتعفيتها الأثر بأذيال مِرطها المرحَّل ، وجعل صَفاء ترائبها وسلاستها كالمرآة المصقولة ، ولونها كبِكر المقاناة «وهى اللؤلؤة ، والمقاناة المخالطة ، يريد ميل بياضها إلى الصفرة وهو أمدح للون المرأة» وذكر شعَرها فجعله كقِنْو النخلة وأنه فاحم أسود ، تضل عقاصه فى مثناه ومرسله لغزارته وسبوطته ، ثم مثل تنعمها وعدمَ تبذلها بما تبثه فوق فراشها من فتيت المسك وبنَوْمة الضحى ، وبأنها لم تنتطق عن تفضل ، أى أنها منذ نشأتها متقلبة فى هذه الحالة من الخَفْض ، فلم تكن تلبس ثوبا واحداً للبذلة والعمل ثم لبست بعده المِنطقة ، والغرضُ أنها لم تصر عزيزة بعد بؤس ، وأراد بذكر الدرع والمجوَل «وهو ثوب قصير يعمل فيه أو هو خاص بالجارية الناشئة» أراد بذلك أنها ليست صغيرة لاتشتهى ولا كبيرة فارطة ، بل هى بين الحالتين ، أو يريد أنها تلبسهما جميعا وتمتد بينهما ، وانتهى من هذه

تحليل الأبيات

الحالة الثانية إلى وصف الليل والخيل بما شرحناه فى المعلقات ، وذكر الصيد والطهاةَ وَصفيفَ اللحم وشواءه ، وخلص من القصيدة إلى ذكر العاصفة والبرق والمطر ، وقد عقدنا لذلك موازنة بينه وبين أوْس بن حَجَر فى ترجمته فلا حاجة إلى الإطالة به هنا .

وابغها أيضا فى هذه القصيدة الآتية ، فأنت لاشك واجد الأثر الواضح لهذه الشمائل الملكية ، وواقع على الشباب الناعم وما فيه من أفراح الحياة وتمجيد لذات العيش ، ومطلعها :

ألا عِمْ صباحا أيها الطللُ البالى ... وهل يَعِمَنْ من كانَ فى العُصُرِ الخالى

وهو يقول :

مثال آخر من دبيبه وقصصه

سموتُ إليها بعد ما نامَ أهلُها ... سُمُوَّ حَبابِ الماء حَالاً على حَال

فقالت سباكَ اللهُ إنكَ فاضِحى ... ألستَ ترى السُّمَّارَ والناسَ أحوالى (١)

فقلت يمينُ الله أَبْرَحُ قاعداً ... ولو قطَّعوا رأسى لَدَيْكِ وأوْصَالى

حَلفْتُ لها بالله حِلْفَةَ فاجر ... لَنامُوا فما إنْ من حديثٍ ولا صال (٢)

فلما تنازعْنا الحديثَ وأسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذِى شماريخَ مَيَّال (٣)

وصِرْنا إلى الحُسْنى ورقَّ كلامُنا ... ورُضْتُ فَذَلَّت صَعْبةً أىَّ إذْلال

فأَصْبَحْتُ مَعْشُوقاً وَأَصْبَحَ بَعْلُها ... عليه القَتَامُ سَيِّءَ الظنِّ والبَالِ (٤)

يَغِطُّ غَطيط البَكْرِ شُدَّ خِناقُه ... لِيَقْتُلَنى والمرءُ ليس بقَتَّال (٥)

أَيَقْتُلَنى والمَشْرَفِىُّ مُضَاجِعِى ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغوَال

---

(١) السمار : جمع سامر وهو الجليس النادم ، وهو أيضاً متحدث القوم بالليل . الأحوال: جمع حول ، ويقال أحول القوم فلانا أى صاروا حوله .

(٢) الصال : المصطلى بالنار . (٣) أسمحت : لانت . هصرت : عطفت .

(٤) القتام : الغبار . (٥) الغطيط : صوت يتردد فى الصدر .

وَلَيْسَ بِذِى رُمْحٍ فَيَطْعَنُنى به ... وَلَيْسَ بِذِى سَيْفٍ وَلَيْسَ بِنَبَّال

وقدعلمت سَلمى وَإِنْ كَانَ بَعْلُها ... بأن الفتى يَهْذِى وليس بفعَّال

ثم اقرأ فيها وصفه لفرسه وتشبيهه بالعقاب فى شدة الهُوِيِّ وسرعة الكرَّة :

كأنى بِفَتْخاء الجَنَاحَيْنِ لَقْوَةٍ ... صَيُودٍ مِنَ العُقْبَانِ طَأْطَأْتُ شِمْلالى (١)

تَصَيَّدُ خِزَّانَ الشَّرَبَّة بالضُّحى ... وقد حُجرت منها ثعالبُ أوْرَالِ (٢)

كأنَّ قلوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابساً ... لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِى

التشبيه الملفوف فى شعره

وقوله فى ذكر صبوته وفتائه :

كَأَنِّىَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أتبطَّنْ كاعِبا ذَاتَ خَلْخَالِ

ولم أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِىَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجْفال (٣)

وَلَمْ أَشْهَدِ الخيلَ المُغِيرَةَ بالضُّحى ... على هَيْكَلٍ نَهْدِ الجُزَارةِ جَوَّال (٤)

إلى قوله :

علوّ نفسه ونبله

فلو أنَّ ما أسعَى لأدْنَى مَعِيشةٍ ... كَفَانِى وَلَمْ أَطْلُبْ قليلٌ من المَال

ولكنَّما أسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ ... وقد يُدرِكُ المجدَ المُؤَثَّل أمْثَالِى

وفى هــذه العينية التى كشف بها عن رغائبه من لذات العيش فيما صحّ أن يكون مثلا احتذاه طَرَفة فى ذكر أمانيه ، كما سيأتى فى ترجمته ، وهى تشير أيضاً إلى اتصال هــذا المذهب بشعر ابن أبى ربيعة فى عينيته « ألم تسأل الأطلال فالمُترَبَّعا »

قال امرؤ القيس :

---

(١) الفتخاء : الليِّنة الجناح فى طول . اللقوة : السريعة الخطف . طأطأت : دانيت . الشملال : السريعة وهى فرسه . (٢) الخزان : جمع خزز كصرد هو ذكر الأرانب . حجرت : تخلفت من الخوف . الشربة وأورال : موضعان .

(٣) سبأ الخمر وسباؤها : شراؤها. (٤) الهيكل : العظيم المشرف . النهد : الغليظ العصب . الجزارة : القوائم .

وأصْبَحْتُ ودَّعتُ الصِّبا غَيْرَ أنَّني … أراقِبُ خَلَّاتٍ مِنَ العَيْشِ أرْبَعَا
فَمِنْهُنَّ قَوْلِي للنَّدامَى تَرَفَّقوا … يُداجُون نَشَّاجًا من الخَمْرِ مُتْرَعا(١)
ومِنْهُنَّ رَكْضُ الخيلِ تَرْجُمُ بالقَنَا … يبادِرْنَ سِرْبًا آمِنًا أن يُفَزَّعا
ومنهن نَصُّ العِيسِ واللَّيْلُ شامِلٌ … يُيَمِّمْنَ مَجْهُولاً من الأَرْضِ بَلْقعا(٢)
خَوَارِجُ مِنْ بَرِّيَّةٍ نَحْوَ قريةٍ … يُجَدِّدْنَ وَصْلا أو يُرَجِّينَ مَطْمَعا
ومنهن سَوْفُ الخَوْدِ قَدْ بَلَّها النَّدى … تُرَاقِبُ مَنْظُومَ التمائم مُرْضَعا(٣)
يَعِزُّ عَلَيْهَا رِيبَتِي وَيَسُووُّها … بُكَاهُ فَتَثْنِي الجيدَ أَنْ يَتَضوَّعا
بَعَثْتُ إليْهَا وَالنُّجُومُ ضَوَاجِعٌ … حِذاراً عَلَيْهَا أَنْ تَهُبَّ فَتَسْمعا
فَجَاءَتْ قَطُوفَ المشْيِ هَيَّابَةَ السُّرَى … يُدافِعُ رُكْنَاها كَوَاعِبَ أربعا
تَقُولُ وَقَدْ جَرَّدْتُها مِنْ ثِيابِهَا … كما رُعْتَ مَكحولَ المَدامِعِ أَتْلَعا
وَجَدِّكَ لو شيءٌ أتانا رَسُولُهُ … سِوَاكَ ولكن لم نَجِدْ لكَ مَدْفَعَا
تَصُدُّ عَنِ المَأْثُورِ بَيْنِي وبينَها … وتُدنى عليَّ السَّابِرِيَّ المُضَلَّعا(٤)
إذا أخذَتْها هِزَّةُ الرَّوْعِ أَمْسَكَتْ … بِمَنْكِبِ مِقْدامٍ عَلَى الهَوْلِ أرْوَعا

أمانيه الأربع في الحياة

فنجد هذا الحديث العذب والخيال البارع والتدفق المعجب ، وهذه الفتوة ولطافة المخالعة ، وذلك الابتكار فى التشبيه، وهذه اللذات العجيبة التى وصفها من الركوب والشراب والدبيب والعشق ، هى امرؤ القيس فى حياة صبوته ، وامرؤ القيس فى ذلك الوقت هو هذه الأشياء ، أو هو ذلك الشعر الذى لم تشهده جزيرة العرب قبل هذا الأمير العربى .

ثم انظر إليه فى ابتداء محنته بموت أبيه ، وتشميره للأخذ بثأره وهو يذكر أرقه ومبيته بليلة ذى الأرمد ، وما أعده للحرب من السلاح والآلة فى قوله :

(١) المداجاة : المساترة . النشاج : المصوت والمقصود به الزق .
(٢) النصّ : أقصى ما عند الدابة من السير .
(٣) السوف : التشمم . الخود : الناعمة الحسناء .
(٤) المأثور بين الرجل والمرأة فى الخلوة معروف وهو مايجرى بينهما من الدعابة والتجميش ونحو ذلك .

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالأَثْمَدِ ونام الخَلِىُّ ولم تَرْقُدِ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْـلَةٌ كَلَيْلَةِ ذِى العائرِ الأَرْمَدِ(١)

وحين يقول :

فَإِنْ تَدْفِنُوا الداءَ لا نُخْفِهِ وَإِنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ لانقْعُدِ
وَإِنْ تَقْتُـلُونا نُقَتِّلْـكُمُ وَإِنْ تَقْصِدُوا لِدَمٍ نَقصِدِ
وأعدَدتُ للحربِ وَثَّابَةً جوادَ المَحَثَّـةِ والمُرْوَدِ(٢)
سَـبوحًا جَموحًا وإحضارُها كمعمعة السَّـعَفِ الموقَدِ(٣)
ومطَّرِداً كرِشَاءِ الجَرُو رِ من خُلُبِ النخلة الأَجرَدِ(٤)
وذا شُـطَبٍ غامضاً كَلْمُهُ إذا صابَ بالعظم لم ينْأَدِ(٥)
ومشدودةَ السَّكِّ موضُونَةً تَضاءلُ فى الطَّىِّ كالمِبْرَدِ
تفيض على المرءِ أرْدانُها كفيض الأَتِىِّ على الجَدْجَدِ(٦)

تهديده لأعدائه واستعداده لحربهم

تراه لا يزال قوىّ اللفظ ، ثائراً إلى الانتقام ، غضوبا على الأعداء ، متأهباً للأخذ منهم بمـا اعتَدَه لهم من خيل وسلاح .

وانظر إليه فيما يأتى من قوله وقد ظفر ببعض قبائل أسـد من قصيدته التى مطلعها « يا دارَ ماوِيَّةَ بالحائل » :

قُولا لِدُودَانَ عبيدِ العصا ما غرَّكُمْ بالأَسدِ الباسـلِ
قد قَرَّت العينانِ مِنْ مَالِكٍ ومن بنى عَمْرٍو ومن كاهلِ
ومن بنى غُنْمِ بن دُودَانَ إذْ نقذِفُ أعلاهُمْ على السافِلِ

---

(١) العائر : فاعل بمعنى المصـدر وهو وجع العين ، ويقال أيضاً للسهم يصيب ولا يعـلم مأتاه . (٢) المحثة : السرعة . المرود : التمهل . (٣) المعمعة : صوت الحريق ، السـعف : خوص النخل . (٤) المطرد : الرمح ، ومعناه المستقيم . الرشاء : الحبل . الجرور : البئر البعيدة القاع . الخلب : الليف . (٥) ينآد : ينثنى .
(٦) الأتىّ : السيل . الجدجد : الأرض المستوية ، أو الفيف الأملس .

نَطْعُنُهم سُلْكَى ومَخْلُوجَةً   كَرَّكَ لأْمَيْنِ عَلى نَابِلِ(١)
حتى تركْناهُمْ لدى مَعْرَكٍ   أرجُلُهمْ كالخشَبِ الشَّائِلِ
حلَّت لىَ الخمرُ وكنت امْرَأً   عن شُربِها فى شُغُلٍ شَاغلِ
فاليومَ أشربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ   إثماً من اللهِ ولا وَاغِلِ

تراه نازعا إلى البأس ، متنكباً عن اللذات ، عازفاعن النساء والشراب ، ممعنا فى الافتخار بالحرب ، والنيل من العدوّ ، قد شغلته هـذه المحنُ عن صبوته ، وكذلك تجده حين تقرأ قوله من قصيدته التى مطلعها :

(حَيِّ الحمُولَ بجانب العَزْلِ   إذ لا يُلائمُ شَكْلُهاشَكْلى)
أقبلتُ مقتصـــداً وراجَعنى   حِلْمِى وسُدِّدَ لِلنَّدَى فِعْلى
واللهُ أنْجَحُ ما طلبتَ به   وَالبِرُّ خيرُ حَقيبةِ الرَّحْل
ومنَ الطريقةِ جائرٌ وهُدًى   قَصْدُ السبيل ومنه ذُو دَخْلِ
وأخى إخاء ذى محافظةٍ   سهْلِ الخليقةِ مَاجِدِ الأصْلِ
حُلوٍ إذا ما جئتُ قال ألاَ   فى الرَّحبِ أنتَ ومنزلِ السَّهْلِ
نازعتُهُ كأسَ الصَّبُوحِ ولم   أجهَل مُجِدَّةَ عِذْرَةِ الرَّجُلِ
إنى بحبلِكَ واصلٌ حَبْــلى   وبريش نَبْلِكَ رَائِشٌ نَبْلى
وشمائلى ما قد علمتَ وما   نَبَحتْ كلابُك طارقا مِثلى

صـــورة من العـبرة والحـكمة فى شعره

جمال الكناية عن نفسه

أوشك أن يثوب إلى ما يجمل بمثـــله ، حين يمضى به العمر وتلحّ عليه الأيام ، فتخرجه من عن الكفاية والدعة إلى مثل ما صار إليه ، من مقاساة الشدائد ومعاداة الرجال والتقلب فى اختبار الأمور ، والانتهاء بعد ذلك إلى هذا الوضع من الحكمة ، فى الاستنجاح للطلب والاحتقاب للبرّ واتباعه للقصد من السبيل .

ثم اقرأ قوله من قصيدة « سما لك شوق بعد ما كان أقصرا » وهى من شعره

(١) سلـكي : طعناً مستوياً . مخلوجة : الطعنة المعوجة عن يمين وشمال . اللأم : السهم.

فى حياته الثانية ، بعد ما صار أمره إلى الشتات والتفرق ، واختلفت به البلاد فى الاستنجاد والطلب :

ولوشاء كان الغزوُ من أرض حِمْيرٍ ولـكنه عَمْداً إلى الروم أنفَرا

خروجه إلى قيصر

بكى صاحبى لمـا رأى الدرْبَ دونَه وأيقَنَ أنا لاحقانِ بقَيصرا

فقلتُ له لا تُبكِ عينيكَ إنمـا نحاولُ ملكا أو نموتَ فنعذَرا

وقوله :

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رَضِيتُه وقَرَّت به العينانِ بُدِّلْتُ آخَرَا

كذلك جَدِّى ماأُصاحِبُ صاحِبا من الناس إلا خانَنى وتَغَيَّرا

وكنا أُناساً قبل غَزْوةِ قَرْمَلٍ وَرِثْنا الغِنَى والمجدَ أكْبَرَ أكبَرا

ثم اقرأ قوله يمدح رهط المعَلَّى من بنى تيم ، وكانوا أنزلوه وأحسنوا جواره :

مديحه لرهط المعلى

كأَنِّى إذْ نَزَلْتُ على المُعَلَّى نزلتُ على البوَاذخِ من شمَامِ

فمـا مَلِكُ العِرَاقِ على المُعَلَّى بمقتـــدِرٍ ولا مَلِكُ الشآمِ

أقَرَّ حَشَا امرِئِ القَيْسِ بنِ حُجْرٍ بَنُو تَيْمٍ مصابيحُ الظلامِ

ثم اقرأ قوله من قصيدة « أرَانَا مُوضِعين لحَتْمِ غَيبْ » :

شكواه من الدهر

وقد طَوَّفتُ بالآفاق حتى رَضِيتُ من الغنيمَةِ بالإيابِ

أبعد الحارثِ الملكِ بنِ عمرٍو وبعد الخَيْرِ حُجْر ذى القِبَابِ

أُرَجِّى من صُرُوفِ الدهرِ لِيناً ولم تَغْفُلْ عن الصُّمِّ الصِّلابِ

وأعْـــلمُ أنَّنى عَمَّا قليلٍ سأُنْشَبُ فى شَبَا ظُفُرٍ ونَابِ

ثم قوله من قصيدة « أَلِمَّا على الرَّبعْ القديم بعَسْعَسَا » :

فإمَّا ترَيْنى لا أُغَمِّضُ ساعةً من الليل إلاَّ أن أكُبَّ فأنْعَسا

فيارُبَّ مكروبٍ كررتُ وراءه وطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تنفَّسا

ويا ربَّ يوم قد أرُوحُ مُرَجَّلا حَبيباً إلى البِيضِ الكواعِبِ أمْلَسا

وصفه لتقلب النساء وغدرهن

أَرَاهُنّ لا يُحبِبْنَ من قَلّ مالُهُ ولا من رأينَ الشيبَ فيهِ وقَوّسا
فلو أنها نفسٌ تموتُ جميعةً ولكنها نفسٌ تَساقَطُ أنفُسا
وبُدِّلتُ قُرْحا داميا بعدَ صِحّةٍ فيالَكِ من نُعْمى تحوّلْنَ أبْؤُسا

اقرأ هذا وأمثاله من شعر امرئ القيس بعد مقتل أبيه ، تر ذلك الشاعر وقد صحا باطله وتكشفت غَوَايته ووهَنَ بعض الوهن شعرُه ، وعاد فشكا الدهر وتقلب الاخوان ، وبكى على ما ألمّ بنفسه ، وتوقع ما غال آباءه من قبله ، ذلك أيضا هو امرؤ القيس فى أيام محنته ، وانك لتجد لشعره مميزات قلما تلمحها فى شعر غيره ، فهو أبداً صادر عن نفس نبيلة ، لا تلهيها الصروف القاسية عن الحديث عن الشرف ، والارتباط بأسباب النبالة والمجد . ألا ترى إلى قوله وهو يعالج هما ، ويتقلب على أشواك محنة وغربة :

فقلت له لاتُبك عينيك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ولا تكاد ترى له عبارة نازلة إلاقليلا ، وإنما كلامه كله أو أكثره متصل بفصاحة البداوة المزوجة بنعيم الحياة وترف الغنى ، وهو حوك الفطرة القادرة والطبع السليم .

منزلته وما قدمه الناس به

وكذلك يعتبر أهل العلم أن امرأ القيس سبق الشعراء جميعا إلى أشياء ابتدعها واستحسنها الشعراء بعده فاحتذوا عليها ، بل ولم يكفهم ذلك حتى أخذوا من أساليبه أبياتا بعينها أوأنصافَ أبيات ، وعندكم قولُ طرفة «وقوفا بها صحبى..البيت» وأنتم تعلمون أنه لم يختلف عن قول امرئ القيس فى شىء إلا فى القافية ، وقوله فى ناقته أيضاً « أمُونٍ كألواح الإران . . البيت » مأخوذ من قول امرئ القيس :

وعَنْسٍ كألواح الإران نَسَأْتُها على لاحب كالبُرْد ذى الحِبَرَات

وقول زهير فى معلقته :

تبصّرْ خَليلِي هل ترى من ظعائن تحمَّلْن بالعلياء من فوقِ جُرثُم

مأخوذ منه فى قوله :

أخذ طرفة وزهير منه

تبصّرْ خليلى هل ترَى من ظعائنٍ سَوالِكَ نَقْباً بين حَزْمَى شَعَبْعَب

ومما قدمه الناس به ، أنه أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى وشبه النساء بالبَيْض والظباء والمَها ، والخيل بالعُقْبانِ والعِصِىِّ ، وهو أول من رقق النسيب ، وفرّق بين الغزل وغيره من فنون الشعر ، وهو أول من قيّد الأوابد وهذا المعنى سَبَق إليه امرؤ القيس ولم يُلْحَق فيه ، وذلك أنه جعل القرس لسرعة عَدْوه كأنه قيد لهـــذه الأوابد — وهى طرائد الوحش — إذا رأته يعدو خلفها ، أيقنت بسرعة اللحاق فتقف عن الجرى كأنها مقيدة ، وهو أول من اخترع هذا النوع من التشبيه الذى سماه العلماء بعد « بالتشبيه الملفوف » فى مثل قوله :

كأن قُلوبَ الطير رطبًا ويابساً لدى وَكْرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالى

حسد بشار له

وكان بشار الأعمى يقول : ما زلت أحسُد امرأ القيس على جمعه بين تشبيه شيئين بشيئين فى بيت واحد حتى قلت :

كأن مُثارَ النَّقع فوقَ رُءوسنا وأسيافَنَا ليلٌ تَهاوَى كَوا كِبُه

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة !

ومما يذكره علماء البلاغة ، ويطيلون العجب من استحلائه قوله :

كأن عُيونَ الوَحْشِ حَول خِبائِنا وأرحُلِنا الجزْعُ الذى لم يُثَقَّب[1]

ومن اختراعاته المتنازعة فى الحسن ، قوله فى عرفان الأطلال الدارســة المتنكرة ، بما فى نفسه من الشوق والشغف :

لمن طَلَلٌ درستْ آيُهُ وغيَّرهُ سالِفُ الأحْرُسِ
تنكِرُه العينُ من حادث ويعرِفُه شَغَفُ الأنْفُسِ

أخذه شاعر قرشىّ فقال من أبيات :

---

(١) الجزع : خرز يمانى فيه سواد وبياض تشبه به الأعين .

لو بُدِّلَتْ أعْلى مَنازِلِها سُفْلا وأصبح سُفْلُهَا يَعْلو

لعرفْتُ مَغناهَا بما احْتَمَلت منّى الضلوعُ لأَهْلِها قَبْلُ

وقد سمع بعض النقاد منشداً ينشد هــذه الأبيات فقال : ما بقى على هذا إلا أن يدعو على ديار صاحبته بحجارة من ســجيل تجعل عاليها سافلها ! ! وأخذه آخر فأحسن وجعل الحديث عن هداية راحاته :

لا تَقفْها على السبيلِ ودَعْها يَهدِها شَوْقُ مَنْ عليها السَّبيلا

وقد تبعه النابغة فى وصف طول الليل فى قصيدته « كلينى لهمّ » وهى من فاخر الكلام الجاهلى .

قال الشيخ أبو عبد الله المرزُبَانِى فى «الموشح» . . وأبيات امرئ القيس فى طول الليل ، قد اشــتمل عليها الإحسانُ ، وليس فيها مَعاب إلا هــذا التضمين فى قوله :

فقلت له لما تمطى ... البيت ، وقوله : ألا أيها الليل الطويل .. البيت

قال : وإنما يبرأ الشعر من هــذا العيب ، إذا كان كلّ بيت منه مستقلا بمعناه عن غيره ، وأفضل من هذا أن يستقل بعض أجزاء البيت عن بعض كقول امرئ القيس :

والله أنجَحَ ما طلبتَ به والبر خيرُ حقيبةِ الرحْل

قال : وقد غــير الناس يذكرون طول الليل ، ويجعلونه وحده مألف الهموم ومراح الأحزان ، كقول النابغة هذا وكقول غيره :

تقريظ صاحب الموشح لأبيات امرئ القيس فى وصف الليل

أُقَضِّى نهارِى بالحديثِ وبالمُنى ويَجْمَعُنى والهمّ بالليلِ جَامِعُ

ولم يخالفهم إلى غير ذلك إلا أحذقهم وأجودهم طبعا امرؤ القيس ، فإنه جعل ليله ونهاره ســواء فى حزنه وهمه ، وإن كان ذلك منحرفا عن المعقول ولم تجر به العادة ، وقد صبّ الله على امرئ القيس من أراه اســتحالة معناه فى المعقول ، لما فى النهار من إرسال العين وبعض الشُّغْل بتأمل مشاهد الكون ، مما قد

ينسى الهم ويسرى عن النفس ، وذاك أبو نَفَر الطِّرِمَّاح بن حكيم حيث قال وقد أخذ من امرئ القيس :

أَلا أيها الليلُ الذى طالَ أصْبح ... بِبَمٍّ وما الإصباحُ منكَ بأروَح

ثم استدرك فقال :

بلى إن للعينينِ فى الصُّبح راحةً ... لطرْحِهِما طَرْفَيْهما كُلَّ مَطْرَح

فأتى فى قليل كلامه من الحجة ، ما لوعاناه أحذق المتكلمين بكثير منثوره لما زاد عليه ، وتبعه عمر بن أبى ربيعة فى غزله ودبيبه وتعرضه ، ورائية عمر التى أولها « أمن آل نعم . . . » وعينيته التى أولها :

ألم تسأل الأطلالَ فالمتربَّعا ... ببَطْنِ حُلَيَّاتٍ دوارسَ بَلْقَما

يدلان على ذلك ، ومن عجب الأمر أنك ترى من يستبعد صدور هـذا التعاهر من امرئ القيس على جاهليته وملكه ، ويدّعيه لعمر على إسلامه وقربه من المسجدين ، ويدعى بعد ذلك أن هذا الشعر مدسوس على ابن حُجْر وإنه بابن أبى ربيعةَ أشبه ! !

وقد عابوا قولَ طَرَفة :

أُسْدُ غِيلٍ فإذا ما شَربوا ... وهبوا كلَّ أَمُونٍ وطِمِرِّ

بأنه جعل سخاءهم فى هـذا الوقت الذى تذهل فيه العقول ، وقدّموا عليه قول عنترة :

فإذا شربتُ فإننى مستهلِك ... مالى وعِرْضى وافِرٌ لم يُكْلَمَ

وإذا صحوتُ فما أقصِّر عن نَدًى ... وكما علمتِ شمائِلى وتكرُّمى

إلا أنهم قالوا إنه جعل المعنى فى بيتين ، وصاحب هـذا المعنى امرؤ القيس وفاه وصححه فى بيت واحد من بيتين هما قوله :

ونعرفُ فيه من أبيهِ شمائِلا ... ومن خالِه ومن يزيدَ ومن حُجُر

سماحةُ ذا وبرُّ ذا وَوَفَاء ذا ونائِلُ ذا إذا صَحَا وإذا سَكِرْ

وهـذا بعض ما وَسع المقام من المعانى التى اخترعها امرؤ القيس ، وصارت بعده سنةً من سُنَن الشعر فى هذا العصر الجاهلى، بل وفى غيره من العصور الأخرى.

تعرضه لشعراء عصره

قد تعلمون أن الفُرّاغ من الفتيان يحلَوْلى لهم السَمَر ، بمناقلة الحديث والتنادُر بإلقاء الأحاجِىّ والتملح بمطارحة الأشعار ، تماجُنا فى الخلوات وتفرُّجا من الهموم ، وجِماما لنَشاط النفوس ، وما زالت هـذه المجاذبة بين الإخوان مادة الظرف ، وبقية اللذات ، وكانت البديهة الصالحة ، كاسرة من سَوْرة الجبابرة ، ومحْصِنة لرقاب المأخوذين ، وآثار الأوائل حافلة بالعريض من الشواهد على اتصال هـذه العادة بطبقات الناس فى أسمارهم ومجالسهم ، وفى كتب الأدب فصول معقودة للجواب القاطع والبادرة المرتجلة ، وجرّدها أحد أئمة القرن السابع الإمام على بن ظافر فى كتاب له سماه « بدائع البدائه » وهو كاسمه قد حوى من طرائف المشارقة وأدباء الأندلس ، ومن كلّ عصور الأدب إلى وقت المؤلف ، ما ترجعون إليه فترون شـذوراً من أدب المنثور والمنظوم ، صادرة عن هذا الارتجال فى أوحى من خطف البارق والسهم المارق .

وإذاً فما كان بعجيب أن يبغى امرؤ القيس حظه من هذه اللذة فى مُماتنة

موقفه مع عبيد بن الأبرص

الشعراء ، ومُحاجَاتهم والعُرَام عليهم ، وقد ذكر غير واحد من العلماء أن عبيد ابن الأبرص الأسَدى لقيه مرة فقال له: كيف علمُك بالأوابد ؟ «وهى الدواهى أو شوارد القوافى » فقال له : ألق منها ما أحببت !

فقال عبيد :

ما حيَّةٌ مَيْتَة حَيَّت بِمِيتتها دَرْدَاء ما أنبتَتْ سنًّا وأضْرَاسا

فقال امرؤ القيس :

تلكَ الشعيرةُ تُسقَى فى سَنابِلِها فأخرجَتْ بعد طولِ المكْثِ أكْدَاساَ

فقال عبيد :

ماالسودُ والبِيضُ والأسماء واحدة لا يستطيعُ لهنّ الناسُ تَمْسَاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك السحابُ إذا الرحمنُ أرسَلها رَوّى بها من مُحُول الأرضِ أيْباسا

ثم مضيا يتقاولان فى النجوم والرياح والموت والخيل والمنى والموازين ، بمثل هــذا النمط من الشعر الوارد على البديهة المعجلة عن أرهاف اللسان وتجويد مقاطع الكلام .

مع التوءم اليشكرى

قالوا وإنه لقى التوأم اليشكرى — وهو الحارث أبو شُرَيْح — فقال أجز ما أقولهُ إن كنتَ شاعرا ! ثم قال :

أحارِ ترى بُرَيقاً هَبَّ وَهْنا[1]

فقال التوءم : كنار الفُرْسِ تَستَعِر استعَارا

فقال امرؤ القيس : أرقتُ له ونام أبو شُرَيْح

فقال التوءم : إذا ما قلتُ قد هَدَأَ استطَارا

فقال امرؤ القيس : كأنَّ هزيزَه بوَرَاء غَيْب[2]

فقال التوءم : عِشَارٌ وُلَّهٌ لاقَتْ عِشَارا[3]

فقال امرؤ القيس : فلما أن علا كَنَفَيْ أُضَاخٍ[4]

فقال التوءم : وَهَت أعجازُ رَيِّقِهِ فَحَارا[5]

فقال امرؤ القيس : فلم يترك بذاتِ السِّرِّ ظَبْيا

فقال التوءم : ولم يترك بجَلْهَتِها حمارا[6]

فلما رأى امرؤ القيس أنه قد ماتنه ، آلى ألا ينازع الشعر أحداً بعده .

---

(١) الوهن والموهن : الساعة بعد ساعة ، ماضية من الليل. (٢) الهزيز : الصوت.

(٣) العشار : النوق ، الواحد عشراء كنفساء . الوله : جمع واله وهى التى فقدت ولدها.

(٤) أضاخ : موضع . (٥) الرّيق : أوّل المطر .

(٦) الجلهة : ناحية الوادى الذى يستقبلك .

منازعتـه لعلقمة التميمى

ويذكرون أيضا منازعته لعلقمة بن عبدة التميمى، وهو شاعر قوىُّ القافية فاخر الاختيار للكلام، وذكره ابن سَلَّام فى غير طبقة امرئ القيس قال « وله ثلاثٌ روائعُ جياد لا يفوقهنّ شعر » منها هذه القصيدة التى سنلمّ بطرَف منها، والثانية « طحا بك قلب فى الحسان طروب »، والأخرى « هل ما علمتَ وما استودِعْتَ مكتوم ».

وكان من حديثهما أن علقمة جاءه يوما، وعنده امرأته أم جندَب الطائية، فجعلا يتذاكران الشعر فقال امرؤ القيس: أنا أشعر منك! قال علقمة: بل أنا أشعر منك! فقال امرؤ القيس أقول وتقول، وتحاكما إلى أم جندب، فقال امرؤ القيس قصيدته التى أولها:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بى على أُمِّ جُنْدَبِ ... لِنقْضِ لُباناتِ الفؤادِ المُعَذَّب

ونحن ذاكرون من كلتا القصيدتين أبياتا، نقف منها عند موضع الحكومة بينهما، وهو ماتعرضا له من وصف الفرس، ثم نبين ما اتصل بنقد هـذه المرأة للشاعرين من خطأ أو صواب، وسترون أنهما اتفقا فى أكثر الأبيات اتفاقا فى لفظها كله أو أكثره.

قال امرؤ القيس يصف الفراق والناقة والفرس:

فَلِلّهِ عينا مَنْ رأى مِنْ تَفَرُّقٍ ... أَشَتَّ وَأَنْـأَى من فراقِ المُحَصَّب

فريقان منهم جَازِعٌ بطنَ نَخلة ... وآخرُ منهم قاطعٌ نَجْدَ كَبْكَب

وإنك لم يَفْخَر عليك كفاخِرٍ ... ضَعيفٍ ولم يغْلِبْك مِثْلُ مُغَلَّبِ (١)

وإنك لم تقطعُ لُبانةَ عاشق ... بمثل غُدُوٍّ أو رواحٍ مُؤَوِّبِ (٢)

بأَدْمَاء حُرْجُوج كأن قُتُودَها ... على أبْلقِ الكَشْحَيْنِ ليس بمُغْرِبِ (٣)

---

(١) تمثل بهذا البيت عثمان رضى الله عنه، وهو محصور فى الدار، من رسالة بعث بها إلى علىّ رضى الله عنه. (٢) اللبانة: الحاجة. الرواح: السير من آخر النهار. الغدوّ: من أوله. (٣) الأدماء: الناقة، والأدمة لون مشرب بسواد. الحرجوج: الشديدة النشيطة. القتود: أداة الرحل. الكشح: الخاصرة. المغرب: الأبيض الحالق.

يغرِّد بالأسحار فى كلِّ سُدْفَةٍ تَغَرُّدَ مَيّاحِ النَّدامى المُطَرِّب (١)

ثم يقول :

وقد أغتَدى والطير فى وُكُناتها وماءالندَى يجرى على كل مِذْنب (٢)

بمُنْجرِدٍ قَيْدِ الأوابدِ لاحَهُ طِرادُ الهوادِى كُلَّ شأْو مُغَرّب (٣)

له أيْطَلا ظبي وَساقَا نَعَامَةٍ وصَهْوَةُ عَيْرٍ قائمٍ فوْقَ مَرْقَب (٤)

وعينٌ كمرآة الصَّناعِ تُديرُها لِمَحْجِرها من النَّصيفِ المُنَقَّب (٥)

له أذنان تعرفُ العِتْقَ فيهما كسامعتىِ مَذْعورة وَسْطَ رَبْرَب (٦)

فَبَيْنا نِعاجٌ يَرْتَعين خَميــلَةً كمَشْيِ العذارى فى المُلاء المُهَدَّب (٧)

فلأياً بِلأْيٍ مَا حَمَلْنا غُلامَنا على ظهر مَحْبوكِ السَّرَاةِ مُحَنَّب (٨)

وَوَلَّى كشُؤبوب العَشِيِّ بوابلٍ ويَخْرُجْنَ من جَعْدٍ ثَراهُ مُنصَّب (٩)

---

(١) السدفة : قطعة من الليل . المياح : المتمايل من النشوة . الندامى : جمع ندمان ونديم ، وهم فتيان يجتمعون للشراب والحديث .

(٢) الوكنات : جمع وكنة ، وهى وكر الطائر . المذنب : مسيل الماء إلى الروض .

(٣) المنجرد : القصير الشعر . الأوابد : جمع آبدة وهى طريدة الوحشى لاحه : أهزله طراد : مطاردة : الهوادى : السوابق . الشأو : جرى مرة إلى الغاية . المغرب : البعيد .

(٤) الأيطل : الخاصرة . الصهوة : الظهر . العير : الحمار . المرقب : المكان المرتفع .

(٥) الصناع : المرأة المحسنة . المحجر : بفتح الميم ما دار بالعين وبدا من البرقع . النصيف : الخمار .

(٦) المذعورة : الظبية الخائفة . الربرب : قطيع الظباء والبقر .

(٧) النعاج : إناث بقر الوحش . الخميلة : رمل فيه شجر .

(٨) اللأى : البطء . المحبوك السراة : المجدول الظهر . المحنب : القوس .

(٩) الشؤبوب : الدفعة الشديدة من المطر ، الوابل : الشديد الغزير . الجعد : المتراكب بعضه فوق بعض . الثرى : التراب الندى . المنصب : القائم المغطى .

فللساق أُلْهوبٌ وللسَّوْط دِرَّةٌ ... وللزَّجْر منه وَقْعُ أهْوَجَ مِنْعَبِ (١)
فأدركَ لم يَجْهَدْ ولم يَثْنِ شَأْوَه ... يَمُرُّ كَخُذْرُوف الوليد المُثَقَّبِ (٢)
فعادى عِدَاءً بين ثور ونعجة ... وبين شَبُوبٍ كالقَضِيمَة قَرْهَبِ (٣)
وظلَّ لِثيرانِ الصَّرِيمِ غماغِمٌ ... يُداعِسُها بالسَّمْهَرِيِّ المُعَلَّبِ (٤)
فكابٍ على حُرِّ الجبين ومُتَّقٍ ... بِمَدْرِيَةٍ كأنها ذَلْقُ مِشْعَبِ (٥)
فقلت لفتيان كرام ألا انزلوا ... فعالُوا علينا فَضْلَ ثوْب مُطَنَّبِ
فلما دخلناه أضَفْنا ظهورنا ... إلى كل حَارِيٍّ جديدٍ مُشَطَّبِ (٦)
كأنَّ عيونَ الوحش حولَ خبائنا ... وأرْحُلِنا الجَزْعُ الذى لم يُثَقَّبِ (٧)

ثم قال علقمة قصيدته التى مطلعها :

ذهبتَ من الهِجْرانِ فى غير مذهب ... ولم يكُ حقا كُلُّ هذا التجنُّبِ

وفيها يقول معارضاً لامرئ القيس فى وصف الفراق والناقة والفرس أيضاً :

فإنك لم تقطعْ لُبانةَ عاشقٍ ... بمثل بُكورٍ أو رَوَاحٍ مؤوِّبِ
بمُجفرَةِ الجَنْبَيْنِ حَرْفٍ شِمِلَّةٍ ... كهَمِّكَ مِرْقَالٍ على الأيْنِ ذِعْلِبِ (٨)

---

(١) الألهوب : شدة جرى الفرس . الدرّة : جرى فى لين ، وأصله ما يدرّ من اللبن . الأهوج : الأحمق . المنعب : الذى يستعين بصوته .

(٢) الخذروف : الدوارة التى يلعب بها الصبيان .

(٣) العداء : الموالاة بين الشيئين . الشبوب : الثور أو الوعل . القضيمة : الصحيفة البيضاء . قرهب : ضخم .

(٤) الصريم : رمل متقطع . الغماغم : جمع غمغمة ، وهى أصوات الأبطال فى الحرب . المداعسة : الطعان . السمهرى : الرمح . المعلب : المعصوب بالعلباء ، وهى سير من الجلد تشدّ به العصى إذا خيف عليها الكسر .

(٥) الكابى : العاثر الساقط . المدرية : القرن . والذلق : الحدّ . المشعب : المخرز .

(٦) الحارى والحيرى : المنسوب إلى الحيرة ، وأراد به هنا السيف أو الرحل . المشطب : ما فيه الشطب ، وهى جمع شطبة بضمّ الشين وكسرها أى الطريقة .

(٧) الجزع : خرز فيه سواد وبياض . (٨) المجفرة : الواسعة . الحرف : الشديدة الشملة : النشيطة . مرقال : سريعة . الأين : التعب . الذعلب : الخفيفة السريعة .

إذا ماضربتُ الدُّفَّ أو صُلتُ صَوْلَةً ترقَّبُ منى غيرَ أدْنى ترقُّب
بعين كمرآةِ الصَّنَاعِ تُديرُها لِمَحْجِرِها من النَّصيفِ المنقَّب

ثم يقول :

وقد أغْتدى والطيرُ فى وُكُناتها وماءُ الندَى يَجْرى على كل مِذْنب
بمنجرد قيد الأوابد لاَحَه طِرَادُ الهَوادِى كلَّ شَأو مُغرِّب
كُمَيْتٍ كلَوْنِ الأُرجُوَان نشرتَه لِبَيْع الرداء فى الصِّوانِ المُكَعَّب
له حُرَّتان تعرِفُ العِتْق فيهما كسامِعَتَىْ مذعُورَةٍ وَسْطَ رَبْرَبَ
وَجوْفٌ هواءٌ تحت مَتْنٍ كأنه من الهَضْبة الخَلْقاء زُحلُوقُ مَلعبِ (١)

إلى أن قال :

إذا ما اقتَنَصْنا لم نُخاتِل بجُنَّة ولكنْ نُنادى من بعيدٍ ألا ارْكَب (٢)
أخا ثِقةٍ لا يلعن الحىُّ شخصه صَبوراً على العِلاَّتِ غيرَ مُسبَّب
رأينا شياهاً يرتعِين خميلة كمشى العَذَارى فى المُلاء المهدَّب
وأقبل يهوِى ثانياً من عِنَانه يمُرُّ كمَرِّ الرائح المتحَلِّب
فظل لثيرانِ الصريمِ غماغِمٌ يُداعِسُهن بالنَّضِىِّ المعَلَّب
فهاوٍ على حُرِّ الجبين ومُتَّقٍ بمَدرِيَةٍ كأنها ذَلْقُ مِشْعَب
فعادى عداء بين ثور ونعجةٍ وتَيْسٍ شَبُوبٍ كالهشيمَة قَرْهَب
فقلنا ألا قد كان صيدٌ لقانصٍ فَخَبُّوا علينا فَضْل بُردٍ مطَنَّب
كأن عيونَ الوحش حول خِبائنا وأرحُلِنا الجَزْعُ الذى لم يُثَقَّب

قالوا فلما فرغ علقمة من إنشاده ، قضت له أم جندُب على امرئ القيس ، قالت : فرس علقمة أجود من فرسك ، لأنك حركته بساقك وامتريته بسوطك وزجرته بصوتك ، وأدرك فرس علقمة ثانياً من عنانه . «أى هو لم يبلغ غاية حُضْره» نقد أم جندب

(١) الهضبة : الصخرة المرتفعة . الخلقاء : الملساء . (٢) المخاتلة : الأخذ فى خفية .

والذين يعرفون أن امرأ القيس كان مفركاً تكرهه النساء ، وأن هذه المرأة بعينها كانت تكرهه وكانت ضِلَعُها مع علقمة ، يدركون فى سهولة أنها جارت فى حكمها على امرئ القيس ، لأن الذى قصد من ذكر السوط والساق والزجر — وإن كان فيه شىء من الهُجنة — إنما هو التنبيه على مبلغ عنايته برياضة فرســه وتأديبه ، وإن عنده أفانينَ من الجرْى ، فيعطى راكبه من كلّ حالة ما يشبهها من العدو ، وقد ألمّ بهذا المعنى فى غير هذا الموضع فهو يقول :

على لاحقٍ يعطيكَ قبل سُؤاله أفانينَ جَرْى غيرَ كَزٍّ ولا وَان

على أنه مع ذلك قال من هــذه القصيدة بعد بيته الذى ذكر فيه الساق والزجر والسوط «فأدركَ لم يَجْهَد . . . البيت » وهو يدل على ما يدلّ عليه بيت علقمة من أنه أدرك طريدته ، وهو لايزال كما هو لم يتعب ولم يثن شأوه ، أى لم يُعِد الشــوط بل أدركه من أول حضر . وإن كان العلماء لايزالون يذكرون هــذه الحــكومة من غير تعليق ولا تعقب ، كأنهم يوافقون هــذه المرأة فى نقدها بادى الرأى ، ولــكنكم ترون عند التأمل وإنعام النظر ، أن فرس امرئ القيس يجزى بفرس صاحبــه فى الإدراك وسرعة اللحاق ، ويزيد أنه معلم مرتاض مفتن فى الجرى ، ومما يزيد فى ضعف هــذا النقد أن علقمة خلف امرأ القيس على أم جندب ، وبذلك سمى علقمة الفحل ، وهذا كما أسلفنا يدلّ على مبلغ ميلها له على صاحبه والله أعلم .

وممن ساق هــذه الحكاية أيضاً عبد الله بن المعتزّ وذكر هذه القصيدة فيما أنكره من شعر امرئ القيس :

ما أخذه الناس عليه

وبعض أهل العلم يعيب عليه قوله :

أغركِ مني أن حُبّكِ قاتلى وأنك مهما تأمرى القلبَ يفعل

ويقول إذا لم يغرها ذلك منه ، فأىّ شىء يغرها بعد ؟ وهذا زعم أوقع فيه تأويل البيت على أن الاستفهام فيه على وجهه ، وقد يكون الأمر على أنه نوع من الشكوى ، ساقه الشاعر على معنى التقرير والإثبات فى هـذه الصورة الدالة على غاية ما يصل إليه الصبّ المتهالك فى صبابته وعشقه .

وبعضهم يعيب عليه قوله :

كأنىَ لم أركبْ جواداً للذة ولم أتبطن كاعبا ذاتَ خَلخال

ولم أسبأ الزّق الروىّ ولم أقل لخيلىَ كُرى كَرة بعد إجْفال

ويقول كان عليه أن يضع شـطر بيته الأول مع الشطر الثانى من بيته الآخر ، وهذا أيضاً خطأ ، إذ يكون البيت الثانى « ولم أسبأ الزق الروى للذة » وعليه تكون هـذه الفاصلة فضلة لا غناء فيها ، لأن الخمر لا تشترى إلا لذلك ، وشىء آخر وهو أنه لما ذكر ركوب الخيل ، وهو لذة من لذات الفتيان وجمال لهم فضلا عما فيه من الدلالة على معنى الفتوة ومرح الشباب ، ناسب أن يذكر معه ما يدخل فيه من لذة الاستمتاع بالنساء ، ثم لما ذكر الخمر وهى داعية إلى ظهور القـدرة وذهاب الخوف واعتـداد الإنسان بالنفس ، ناسب أن يذكر مع ذلك القتال والكر والفر ، وهذه ناحية خفية قد تدق على بعض الأفهام ، على أن أبا الطيب المتنبى قد احتجّ لصحة هـذا الكلام فانه لما أنشـد سيف الدولة قوله من قصيدة « على قدر أهل العزم تأتى العزائم » :

وقفتَ وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جَفْنِ الردى وهونائم

تمرّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسم

اعترض عليه سيف الدولة أو بعض جلسائه بهذا الوجه بعينه ، فقال المتنبى « إن كنتُ أخطأتُ فى هــذا فقد أخطأ امرؤ القيس أيضاً فى قوله وذكر البيتين . » لا ! ولـكن العرب تضع الشىء مع غير نسيبه ظاهراً أحياناً ، ليكون ذلك أطرف له وأدعى لانتباه النفس إليه ، وشبيه بهذا قول الله تعالى « إنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى » إذ كان المناسب أن يجمع بين الجوع والظمأ و بين العُرْى والضَّحاء ، ولـكن الأمر جاء على خلاف ذلك لما قدمناه لك فتنبه .

وقد يكون لهم وجه فيما عابوه عليه من قوله فى صفة الفرس :

وأركَبُ فى الروع خَيْفانَةً   كسى وَجْهَهَا سَعَفٌ مُنتَشِر

يقول وأركب فى المخافات فرساً طويلة القوائم مخطفة البطن ، ينتشر شعر ناصيتها كالسعف على وجهها ، قال شارح ديوانه وهذا الوصف غير مستحسن لأن الشعر إذا غطى العين كان عيباً وهو الغَمَم ، والحسن منه أن تكون الناصية قصيرة مجتمعة .

ويعدون من صغر همته قوله

فتملأ بيتَنا أقِطا وسَمْنا   وحسبك من غِنًى شِبَعٌ ورِىّ

إذ لم يجعل همه من الغنى فى غير الشــبع والرىّ ، وكان الأصمعى لا يرويها لامرئ القيس ويقول إنها من المنحول ، وهى أشبه بشاعر سئول كالحُطيئة . قال صاحب الأغانى « ومن المنحول على امرئ القيس قصيدة أولها :

طرقَتْكَ هندٌ بعد طُول تجنُّب   وَهْناً ولم تك قبل ذلك تَطْرُق

وهى فى مدح السموءل حين استرهنه أدراعه ، قال ويظن أنها من وضع دارم بن عِقَال من ولد السموءل . »

وقد عاش امرؤ القيس بين القرنين الخامس والسادس من الميلاد ، ويُظَن

أنه مات قبيل البعثة بنحو قرن ، وكان يسمى حُندُجا « وهى فى الأصل الرملة الطيبة » ويسمى امرأ القيس أى رجل الشـدة ، وذا القُروح ، والملك الضِّلِّيل والذائد ، ويكنى أبا وهب . وقد مات ولم يعقب وله ديوان مطبوع شرحه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب والله أعلم .

٢ — النابغة الذبيانى

حياته

ستجدون هنا طرازاً آخر من حياة أهل البادية ، لم يسرف فيه لهو الفتيان ولا أكثرت من العبث بديباجته أحلام الشباب ، له اتصال قوىّ بهذه النزعة العالية التى امتزجت بحياة هذا الشاعر منذ صباه. ففى أخريات العصر الجاهلى كان النابغة يعيش كما عاش امرؤ القيس فى نجد ، وهى منازل قومه من ذبيان بين الحجاز وتيماء ؛ فرعى أيضاً تلك المسارح الفَيْنانة ، وتنسم ذلك الشميم العطر ، ولكنه ما كان فتى خليعاً ولا مستهترا ، وإنما كان مؤثراً لعادة الجد ، نازعا إلى غايات الشرف ، وقد اتصل أول دهره بقصور الحيرة ، وتقلب حيناً على هـذا العِطْف اللين من نعيم الحضارة ، وأنست نفسـه بهذه الحظوة الفائقة عند ملوك المناذرة ، وما كان له من غنى عن شعر فيه مديح وفيه شكر لهـذه الألطاف الملكية ، تعمل فيه الروية ويأتى عليه التهذيب ، حتى يصير أهلا لما يتضمنه من الثناء على الملوك ويومئذ امتدت إليه الأعناق ، والتقت على أبوابه السبل ، ونَفِس الناس عليه هـذه المنزلة التى أضافها من جديد إلى مجده التالد وشرفه الموروث ، فسعوا به إلى النعمان فأقصاه وأوعده ، فلحق بقومه ثم انتجع ملوك الشام من غَسَّان ، والرواة لا يتفقون على شىء فى هذا الإقصاء . فهم يقولون مرة انه وصف المتجرِّدة ، وبالغ فى تكشيفها من مواضع الستر فيها ، وأن أحد ندماء الملك وهو المنَخَّل اليشكرى — وكان قسيا وسيما متهما بالمتجردة — أغرى به الملكَ وحمله عليه . ويقولون أيضاً إنه كان لغيره من حاشية النعمان — وهو مرة بن سَعد

المنخل اليشكرى ومرة بن سعد والنابغة

القُرَيْعي ـ سيف لطيف الفِرند يقال له ذو الرِّيقة ، وصفه النابغة للنعمان حتى طلبه من مرة فدفعه إليه كارهاً ، وعلم أن الذى فعل به ذلك هو النابغة .

ومن الناس من يقول إن انتجاع النابغة لملوك الشام ومدحه إياهم مع ما كان بينهم و بين المناذرة من النفاسة والمحاسدة هو الذى غاظ النعمان وأغراه به .

ونحن نرجح أن حياة النابغة مع النعمان وشدة مداخلته له ، هى التى كادت له هـذه المكيدة ، وهى التى أطلعت رءوس الحقد الكامن من نفوس مناظريه على هذه الزلفى عند الملك ، وأنهم ربما كادوا له بكلّ هـذه الاسباب المروية التى جعلوها مرة وصفه للمتجردة ، وأخرى هجاءه للنعمان ، بأبيات مصطنعة جاء فيها قوله :

قبّحَ اللهُ ثم ثَنَّى بَلعْنٍ وارثَ الصائغ الجبانَ الجَهُولا

« يعرض للنعمان بأبى أمه وكان صائغاً فى الحيرة » وأنك لتستطيع أن تلمح الإشارة إلى هذه الدسائس ، فى غير موضع من شعره فى مثل قوله « لئن تَكُ قد بُلغْتَ عَنِّى خِيانةً . . . البيت » وقوله « ما قلتُ من سَيِّءٍ مما أُتِيتَ به . . البيت »

حياة النابغة عند ملوك غسان

وعلى كل حال فقد عاش النابغة حيناً آخر مقربا معروف المكان عند ملوك آل غسان ، وساعده على هذه الحظوة عندهم ما كان بينهم و بين آل المنذر كما قدمنا من المنافسة والخصومة . وقد تجاوزت منزلته هـذين الإقليمين من العراق والشام ، إلى قبائل العرب فى الحجاز ونجد ، فلم يكن سفيرهم لدى الملوك وشفيعهم عند النوائب والحقوق ، بل كان مع هـذا زعيما من زعمائهم يصدرهم و يوردهم ، وهم يطيعون و يسمعون لقوله .

وهكذا بلغ هذا الشاعر حظا من الحياة لم ينله شاعر قبله ولا بعده ، تتنافس فيه الملوك ، وتتملقه بالألطاف ، وتغريه وتستزيده بالتأنق فى الحباء ، وهو مع ذلك ينمى إلى ذوائب المجد فى عشـيرته ، وعز المنعة والعدد فى قومه .

شعره

أما شعره فهم يخصونه بالديباجة والرونق وقلة السقط ، ويقصدون من ذلك أنه متشابه من أطرافه فى جزالتـه وإشراق أسـلوبه ، والحجازيون كما أسلفنا يقدمونه من هذه الناحية على الشعراء ، ولعمر بن الخطاب رضى الله عنه ولغيره من العلماء رأى فى ذلك . ويذكرون من أسباب ما اتصل بشـعره من القوّة والجزالة ووضوح الأسلوب ، أنه قال الشعر وهو كبير ، ولم يمض به العمر حتى تبين أثر الهرم فى شـعره ، وتستطيع أن تعرف ذلك فى أول شـعر نسب إليه وهو قوله[1] :

المَرءُ يأمُلُ أن يَعيـــشَ وطولُ عيشٍ قديَضُرُّه
تَفنىَ بشاشَـــتُه ويبقَى بعدَ حُـــلو العيش مُرُّه
وتَخونُه الأَيَّامُ حتَّى لا يَرَى شـيئاً يَسُرُّه
كَمْ شامتٍ بى إن هلـكْـــتُ وقَائلٍ لله دَرُّه

إذ لاينبغى أن يكون مثل هـذا الكلام صادراً عن غـير التجربة الممتدة والحياة الطويلة ، ونقول من ناحية أخرى إن النابغة كان شاعراً مضريا محبِّراً ولم يكن مرتجلا ، وكان يحذو على شعر زهير وأوس بن حجر وغيرهم ممن سبقوه أو عاصروه ، وكانوا يقولون : إن أوساً كان شاعر مضر فى الجاهلية حتى ظهر النابغة وزهير فأخملاه . وأنت لا تزال تجد هذه الصفة المادية فى التشبيه والوصف ملازمة له ، إذ كانت طابعاً من طوابع الشعر القديم كله، لا يختلف فيها قول شاعر عن آخر ، فهى أيضاً لازمت امرأ القيس فى تشبيهاته ، وزهـــيراً فى مدائحه وحكمه ، وغاية الأمر أنك ـ مثلا ـ إذا وازنت بين امرئ القيس والنابغـــة ، فقد تجد للأول رشاقة تتصل بهذا النوع المعشق من سلاسة الأسـلوب ، وتجد للثانى قوّة وأسراً يسيران إلى هذه الصلصلة من فخامة الكلام وجزالته .

وقد كانت هذه الذكرى من حياة النابغة فى قصور النعمان ومناظر الحيرة ،

(١) ومن الناس من يروى هذه الأبيات للنابغة الجعدى .

تهيج في نفسه الشغف بمراجعة هذه الأيام، فجعل هذا الشوق ينحدر على لسانه حنيناً إلى النعمان وتلطفاً في التنصف، واحتيالا على جميل العذر حتى بلغ الغاية في هذا من بين شعراء الجاهلية، وأضاف إلى أبواب الشعر القديم فنا آخر يمتاز به، وهو صاحبه بل هو كما يقولون فارس حلبته، وصاحب عذرته، ذلك هو التنصل والاعتذار.

التنصل والاعتذار

وكذلك فعل الشعراء من هؤلاء الفحول، فلكل واحد منهم في بناء هذا الهيكل الأدبي أثر ظاهر، وموضع معروف، والحق أن اختراعات النابغة وما سبق إليه من المعاني العجيبة، كان وليداً لهذه الشكوى في « نعمانياته » التي ساقها في نحو بديع من لطيف العتب وجميل الاعتذار، وسترى أن الذي بأيدي الرواة من أشعاره، يتردد بين الاستعطاف والمدح لآل غسان، و بين الاعتذار والمديح للنعمان، وفي أغراض بدوية أخرى دعت إليها حياة قومه في نجد، وسنلم بشيء من هذه الأقسام على قدر ما يسمح المقام، ذلك ولم تكن هذه المنزلة الشعرية وحدها التي قلدته القضاء بين الشعراء في عكاظ، و إنما كانت هذه المنزلة وهذا الجاه العريض، وذلك النفوذ الكامل، عند آل المنذر في العراق والغساسنة في الشام، و بين سروات القبائل في نجد، وسترون شيئا من أوصاف شعره في قصيدته التي يعد مطلعها من جياد المطالع الجاهلية، وهي في مدح عمرو بن الحارث الجفني، وكان عنده أسرى من قومه فأطلقهم له بها قال.

إمارته للشعراء في عكاظ

مدحته للحارث الجفني

كِلِينى لِهمٍّ يا أُمَيْمةَ نَاصبِ ... وليلٍ أُقاسِيه بَطِيءِ الكَواكِبِ
تَطَاوَل حتّى قلتُ ليسَ بِمُنْقَضٍ ... وليس الذى يرعَى النجومَ بِآئِبِ
وصدْرٍ أَرَاحَ اللَّيلُ عازِبَ هَمِّه ... تَضاعَفَ فيه الحزنُ من كلِّ جانِبِ
عليَّ لِعَمرو نِعمةٌ بعدَ نِعمَةٍ ... لِوالده لَيْسَتْ بِذَاتِ عقَارِبِ
وَثِقْتُ له بالنَّصرِ إذْ قيل قَدْغزَتْ ... كَتَائِبُ من غَسَّانَ غيرُ أَشائِبِ
بنُو عمِّه دُنْيا وعمرُو بنُ عامِرٍ ... أولئك قومٌ بَأسهُمْ غيرُ كاذِبِ

إذا ماغزَوْا بالجيشِ حلّق فوْقهم ... عَصائبُ طيرٍ تهتَدِى بعصَائب
يُصانِعْنَهمْ حتى يغِرْنَ مُغارَهم ... من الضّارِيات بالدّماء الدّوارِب (١)
جَوانِحَ قد أيْقنَّ أنَّ قبيلَهُ ... إذا ما التَقَى الجمعان أوّلُ غالب
لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرَفْنَها ... إذاعُرِّض الخَطِّىُّ فوق الكَوَاثِب (٢)
علَى عارفاتٍ للطِّعان عوَابِس ... بهنَّ كُلُومٌ بين دامٍ وجَالِب (٣)
إذا استُنْزِلُوا عنهنَّ للطعن أرْقَلوا ... إلى الموت إرْقالَ الجمالِ المَصاعِب
فهُمْ يَتَساقَوْنَ المنيَّةَ بينَهُمْ ... بأيديهمُ بِيضٌ رِقاقُ المضارِب
يَطيرُ فُضَاضاً بينها كُلُّ قوْنَسٍ ... ويتبعُها منهم فَرَاشُ الحَواجِب (٤)
ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنّ سُيوفَهم ... بهن فُلولٌ من قِراعِ الكتائبِ
تُخُيِّرْنَ من أزمانِ يومِ حَلِيمَةٍ ... إلى اليوم قدجُرِّبْنَ كُلَّ التجارِبِ
تَقُدُّ السَّلوقِيَّ المُضاعَفَ نَسْجُه ... وتُوقِدُ بِالصُّفّاحِ نارَ الحُباحِب (٥)
بِضَربٍ يُزِيلُ الهامَ عن سَكَناتِهِ ... وطَعْنٍ كإيزَاغِ المَخاضِ الضّوارِب (٦)
لهم شِيمةٌ لم يُعْطِها اللهُ غيرَهم ... من الجود والأحْلامُ غيرُ عَوَازب
مَجلّتهم ذَاتُ الإلهِ ودِينُهم ... قَويمٌ فما يَرْجون غَيْرَ العَواقب

---

(١) الضاريات : المعودات . الدوارب : من الدربة ، وهى الجرأة فى الحرب .

(٢) الخطى : الرمح . الكواثب : جمع كاثبة، وهى منسج السرج أمام القربوس .

(٣) الكلوم : الجراح . الجالب : الذى قد يبس دمه .

(٤) الفضاض : ما يتفرّق من الشيء عند الكسر . القونس : أعلى البيضة . الفراش : عظام الحواجب ، أو كلّ عظم رقيق . (٥) السلوقى : الدرع منسوب إلى بلدة بالروم . الصفاح : عراض الحجارة . الحباحب : ذباب له شعاع بالليل .

(٦) الهام : الرءوس ، جمع هامة . السكنات : مواضع السكون والاستقرار . الإيزاغ : دفع الناقة ببولها . المخاض : النوق الحوامل . الضوارب : التى تضرب برجلها إذا أرادها الفحل .

رِقاقُ النعالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهم ... يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحانِ يومَ السَّباسِبِ (١)

تُحَيِّيهمُ بيضُ الولائدِ بينهمْ ... وأَكْسِيَةُ الإِضْرِيجِ فوقَ المشاجِبِ (٢)

يَصُونُون أجساداً قديماً نعيمُها ... بخالِصَةِ الأَرْدَانِ خُضْرِ المناكِبِ

ولا يَحسَبُون الخيرَ لا شرَّ بعدَه ... ولا يحسبُون الشرَّ ضربةَ لازِبِ (٣)

حَبَوْتُ بها غسّانَ إِذْ كنتُ لاحِقاً ... بقومى وإِذْ أعيَتْ عَلَيَّ مذاهبى

معلقته

وهذه قصيدة أخرى ، عدّها أبو زيد ـ صاحب الجمهرة ـ فى المعلقات :

عُوجُوا فحَيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدار ... ماذا تُحَيُّون من نُؤْيٍ وأحْجار

ويقول فيها :

فاستَعْجَمتْ دارُ نُعْمٍ ما تُكلِّمُنا ... والدّارُ لو كلّمَتْنا ذاتُ أخبارِ

وقد أَرانى ونُعماً لاهِيَين معا ... والدهرُ والعيشُ لم يَهْمُم بإِمْرار

---

(١) الحجزات : الأوساط ، ويراد بطيبها العفة . يوم السباسب : هو يوم السعانين أحد أعياد النصارى . (٢) الإضريج : الخزّ الأحمر . المشاجب : معالق الثياب فى البيوت .

ثياب العرب

اتخذ العرب ثيابهم من أوبار الابل وأشعارها ، ومن أصواف الغنم ومن الكتان والحرير اللذين كانا يجلبان من مصر والشام ، وكانت ثيابهم مختلفة فى تفصيلها وألوانها : فلهم «الرداء» يلقى على ظهورهم و«الإزار» يأتزرون به و«الشعار» يلى أجسادهم و«العباءات» يتلفعون بها و«الأقبيـــة» وهى الثياب ذات الجيوب و«الأردان» يظهرون بها . وكان أهل الحضر يفتنون فى كسوتهم ، فالكاهن لا يلبس المصبغ ، والعراف لايدع تذييل قيصه وسحب ردائه ، والحكم لا يفارق الوبر ، والشاعر إذا أراد الهجاء دهن أحد شقى رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلا واحدة ، وكان لحرائر النساء زىّ ، ولذوات الرايات زىّ ، واشتهر من ألوان ملابسهم البياض لملاءمته جوهم ، ولا يزال إلى الآن الغالب عليهم ، وقد حثت الشريعة على ارتدائه والتكفين فيه ، ويليه اللون الأصفر والمصرء وهو الأحمر المشرب ببياض ، وقد ورد فى أشعار العرب مايدل على اتخاذهم التصاوير والنقوش فيها فمن ذلك المرجل (فيه صورة رجل) والمرحل (فيــه صورة رحل) وهكذا المخيل والمسهم والمصلب والمضلع والمؤرنب . وكانوا يتوّجون رءوسهم بالعمامات والعصائب ، يرخون فضلها من خلفهم ، أو يطوقون بها أحيانا عوارضهم وذقونهم . (٣) اللازب واللازم واحد ، والأول أفصح .

أيامَ تُخْــبِرُنى نُعْمٌ وَأُخْبِرُها ... ماأَكْتمُ الناسَ من حَاجِى وأسْرارِى
لولا حَبَائلُ من نُعمٍ عَلِقْتُ بها ... لأَقْصَر القلبُ عنها أىَّ إقصار
فإنْ أفاقَ لقد طالَتْ عَمايَتُهُ ... والمرء يُخْلَقُ طَوْرًا بعدَ أطوار
نُبِّئْتُ نعماً على الهِجْران عاتبةً ... سَقيا ورَعيا لذاكَ العاتِب الزّارِى

ويقول فيها :

أَلمحةً من سَنا بَرقٍ رأى بَصرِى ... أم وَجهُ نُعمٍ بَدَا لى أم سَنَا نارِ

ثم يقول :

وَمَهْمهٍ نازِحٍ تَعوِى الذِّئابُ به ... نَأْى المياهِ عن الوُرّادِ مِقفار (١)
جاوزتُه بعَلَنْداةٍ مُناقِــــــلةٍ ... وَعْرَ الطريق على الأَحْزَانِ مِضْمار (٢)
تجْتابُ أرضاً إلى أرضٍ بذى زَجَلٍ ... ماضٍ على الهَوْل هادٍ غيرِ مِحْيار (٣)

وبعد أن مضى فى وصف الناقة وشبهها بالثور الوحشى ، عاد فوصف هذا بالخوف من القانص ، واستطرد من ذلك إلى ذكر الصيد ، ووصف جوارحه من الكلاب ، قال :

وصفه لكلاب الصيد

أهْوَى له قانِصٌ يسعَى بأكْلُبِهِ ... عارِى الأَشاجِعِ من قُنّاص أَنْمار (٤)
مُحالِفُ الصَّيد هَبّاشٌ له لَحَمٌ ... ما إنْ عليه ثيابٌ غيرُ أطْمارِ (٥)
يسعَى بغُضْفٍ بَراها فهْى طَاوِيةٌ ... طولُ ارتِحَالٍ بها منه وتَسْيَارِ (٦)
حتى إذا الثَّوْرُ بعد النَّفْرِ أمْكَنَه ... أشْلَى وأرسَل غُضْفا كلُّها ضار (٧)

(١) المهمة : المفازة البعيدة . (٢) العلنداة : الغليظة ، وهو صفة لناقته . الأحزان : جمع حزن ، وهو من الأرض ضد السهل. (٣) تجتاب : تقطع . الزجل : رفع الصوت . (٤) الأشاجع : أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف ، الواحد كأحد وأصبع . (٥) الهباش : كثير الكسوب الجموع . اللحم : الأكول للحم القرم ، الفعل كـكرم وعلم . (٦) الغضف : المسترخيات الآذان ، الواحد أغضف وغضفاء . (٧) النفر : السرعة والتباعد . أشلى : أغرى وأصله أن ترى الدابة المخلاة لتأتى إليك . الضارى : المتعود الافتراس .

فَكَرَّ مَحْمِيةً من أن يَفِرَّ كما كَرَّ المُحامي حِفاظًا خَشيةَ العَارِ

ثم خلص من هذا ، إلى النصح لقومه والتحذير لهم من النعمان ، والاعتداد بالخوف منه والانتفاء من العار من خشيته ، إذ يقول :

لقد نَهَيْتُ بنى ذُبْيانَ عن أُقُرٍ وعن تربُّعهمْ فى كلِّ أصْفَارِ[1]
فقُلتُ يا قوم إنَّ اللَّيثَ مُنقَبضٌ على بَراثِنِـــــه لِلْوَثْبَة الضَّارى

إلى أن يقول :

وعَـــيَّرتنى بنو ذُبيانَ خَشيتَه وهل علىَّ بأن أخشَاكَ من عَارِ !

فأنت ترى أنه جرى على ما صار من سنن الشعر قبله ، من تحية الأطلال ، واستخبار الرسوم ، والإلمام بالمرأة ، والإتيان بذلك النوع الطريف من تجاهل العارف فى قوله « ألمحة من سنا برق . . . البيت »

واقتضب إلى وصف الناقة والصيد وكلاب القانص فى أسلوب قوى وقافية متدفقة ، ثم انتهى إلى حيث علمت من النصح والتحذير ، أو إلى ذلك النوع من الحكومة فى قومه والسيادة عليهم ، وختم القصيدة بهذا البيت الظاهر البراعة فى توريط النعمان واختداعه بقوله « وهل علىَّ بأن أخشاك من عار ! »

وهذا مثل آخر من شعره ، ستجد فيه من أثر التنصل كثيراً من الأبيات المفردة ، وشيئاً من المعانى المخترعة التى تمثلها الشعراء من بعد ، وهى نعمانية أيضاً قال :

اعتذاره للنعمان

يا دارَ مَيَّةَ بالعلْياءِ فالسَّـــنَدِ أقْوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأمَدِ[2]
وَقَفْتُ فيها أُصَيْلاَنًا أُسَائِلُها عَيَّتْ جَوابًا وما بالرَّبْعِ من أحدِ[3]

---

(١) أقر بضمتين : واد واسع مملوء حمضا ومياها ، وكان النعمان يحميه . الأصفار : جمع صفر وهو الشهر . (٢) السند : ما يقابلك من الجبل وفوق السفح . أقوت : أقفرت وخلت . الأمد : الدهر . (٣) أصيلانا : تصغير أصلان وهو اسم من الأصيل ، وليس جمعا له كالتكلان والغفران . عيت : عجزت عن الجواب .

إلاَّ الأوارِيَّ لَأْيًا مَا أُبَيِّنُهَا . والنُّؤْىَ كالحَوْض بالمظلومةِ الجَلَدِ(١)

ثم ترك هذا ، وذهب يصف الناقة والصيد والكلاب ، كما فعل فى رائيته السابقة قال :

فَعَدِّ عما تَرى إذ لا ارْتِجاعَ له . وانْمِ القُتودَ على عَيْرانةٍ أُجُدِ(٢)
مَقذُوفةٍ بدَخِيسِ النَّحضِ بازِلُهـا . له صَرِيفٌ صَرِيفُ القَعْوِ بالمَسَدِ(٣)
كأنَّ رَحْلِي وقد زالَ النهارُ بنا . يومَ الجَليلِ على مُسْتأنِسٍ وَحَدِ(٤)
من وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٍّ أكارِعُه . طَاوِى المَصِيرِ كسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ(٥)

ثم خلص منه إلى النعمان إذ يقول :

فتلكَ تُبْلِغُنِي النُّعمانَ إن له . فضلاً على النَّاسِ فى الأَدْنَى وفى البُعُدِ
ولا أرى فَاعِلا فى النَّاس يُشْبِهُهُ . وما أُحَاشِى من الأَقوامِ مِنْ أَحَدِ
إلاَّ سُليمانَ إذ قالَ الإلهُ لهُ . قُمْ فى البَرِيَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَدِ(٦)

مديحه للنعمان .

حتى قال :

---

(١) الأوارىّ : جمع آرية وهى الآخية التى تشدّ بها الدابة ، وقال الخليل إنها المعلف . اللأى : الجهد والشـدة . النؤى : الحفيرة حول البيت والخيمة تمنع المطر والسيل . الجلد : الأرض التى يصعب حفرها . (٢) عد : انصرف واترك . انم : بألف موصلة ، ارفع واعل . القتود : جمع قتـد وهو خشب الرحل . العيرانة : الصلبة الحوافر ، شبهها بالعير فى ذلك . الأجـد : الموثقة الخلق . (٣) مقذوفة : مرمية . الدخيس : الكثير المكتنز . النحض : اللحم . الصريف : صوت احتكاك الأنياب . القعو : محور بكر البئر . المسـد : الحبل من الليف . أو القعو هو البكرة . والمسد : المحور الذى تدور عليه .

(٤) الجليل: موضع ينبت الثمام كغراب . المستأنس: الوحشى الذى زال توحشه ، أو الذى أحس إنسيا وهو المراد هنا . الوحد : بفتح الحاء وكسرها المنفرد ، يصف بذلك ثوراً وحشياً .

(٥) وجرة : موضع بين مكة والبصرة ليس به منزل ، مشهور بكثرة وحشه وفراهته . الموشى : المزين أو المنقط . الأكارع : القوائم جمع كراع كغراب ، أو مستدق الساق بمنزلة الوظيف من الفرس . المصير : كأمير المعى جمعه أمعرة ومصران . الفرد : المفرد من الغمد وبه أراد المداول . (٦) الحدّ : المنع . الفند : الكذب والباطل .

الواهبُ المائةَ المَعْكاءَ زيَّنها سَعْدانُ تُوضِحَ فى أوْبارها اللِّبَد(١)
والرّاكضاتِ ذيولَ الرَّيْطِ فنَّقها بَرْدُ الهواجِر كالغِزْلان بالجَرَد(٢)
والخيلُ تمْزَعُ غَرْبًا فى أعِنَّتها كالطَّيرِ تَنْجو من الشُّؤْبوب ذى البَرَد(٣)

ثم ذكر الحمام وحكم فتاة الحى فى عِدّته ، مشيراً إلى حديث لاندرى مبلغه من الصحة ، و بعد ذلك قال :

فلا لعمرُ الذى مسَّحتُ كعْبَته وماهُريق على الأنْصَابِ من جَسَد(٤)
والمؤمِنِ العائذاتِ الطَّيرَ تَمْسَحُها رُكْبانُ مكَّة بين الغَيْلِ والسَّعَد(٥)
ما قلتُ من سَيِّء مما أُتيتَ به إذاً فلا رَفعتْ سَوطى إلىّ يدى
إذاً فعاقبَنى ربِّى مُعاقبــةً قَرَّتْ بها عينُ من يَأتيك بالحَسَد
نُبِّئْتُ أن أبا قابوسَ أوْعَدَنى ولا قَرارَ على زَأرٍ من الأسد
مَهْلاً فِداءٌ لك الأقوامُ كُلُّهمُ وما أُثَمِّرُ من مَالٍ ومن وَلَد

حسن تنصله

ثم يقول :

فما الفُراتُ إذا هَبَّ الرياحُ له تَرْمِى أوَاذِيُّهُ العِبْرَيْن بالزَّبَد(٦)
يَظَلُّ من خوفه المَلَّاحُ مُعْتَصِماً بالخَيْزُرانة بعد الأَيْنِ والنَّجَد(٧)

---

(١) المعكاء : الغلاظ الشداد يوصف به الواحد والكثير . السعدان : نبات تسمن عليه الإبل . توضح : موضع ، وقيل كان مرعى لإبل الملوك .

(٢) الراكضات : ويروى الساحبات وهن الجوارى . الريط : جمع ريطة وهى الملاءة ، فنقها : نعمها . الهواجر : واحدها هاجرة وهى شدة الحر . الجرد : الأرض الفضاء .

(٣) تمزع : تمرّ مرّا سريعاً . الغرب : الجدّ والنشاط . الشؤبوب : المطر المتدافع الشديد . (٤) هريق : صبّ . الأنصاب : جمع نصب وهى الحجارة التى كانوا ينصبونها حول الكعبة ويذبحون لها . الجسد : الزعفران والدم وهو المراد هنا .

(٥) العائذات : اللاجئات أو الحديثات الولادة والطير بدل منها . الغيل : بفتح الغين الماء ، وبالكسر الغيضة أوالشجر الملتف . السعد : قال أبو عبيدة و الغيل والسعد أجمتان كانتا مناقع ما بين مكة ومنى . (٦) الأواذى : جمع آذى وهو الموج الشديد . العبرين : واحده عبر وهو الناحية . (٧) الخيزرانة : سكان السفينة . الأين : الأعياء . النجد : العرق والكرب .

يومًا بأجودَ منـــه سَيْبَ نافِلَةٍ ... ولا يَحُولُ عَطاءُ اليومِ دون غَدِ
هذا الثَّناءُ فإنْ تَسْمَعْ به حَسَناً ... فلم أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللَّعنَ بالصَّفَدِ[1]

ولا نستطيع أن نشرح هذا الكلام كلمة كلمة وبيتاً بيتاً ، وإنما نكلكم إلى ما قدمناه من قوانين النقد للفظ وللمعنى وللأسلوب ، فإنكم ستحسنون بما فى هذا الشعر فى جملته من اطراد النسق وقوة السياق وجزالة اللفظ ، ومن أبرع هذه المعانى وأعجبها قوله « ولا قرار على زأر من الأسد » ولن تجد فى وصف الخوف ، وما يركب النفوس من الدهش والذعر مثل هذا .

وقد يكون قوله « فلم أُعَرِّضْ أبيتَ اللعنَ بالصّفد » ومعناها خلوص النية فى المدح وانتفاؤه من أسباب الرغبة ، تصريحاً بليغاً بالحاجة إلى هـــذا الصفد والعطاء .

أما وصفه للمتجردة فيقول بعض الرواة إن النعمان هو الذى أراده عليه ، وكان يظن أنه لا يبعد فيه ولا يبلغ ، ومن الحق أن تكون الأبيات التى فيها ذكر للعورة مدسوسة على النابغة وهى ليست فى ديوانه ، ويؤخذ ذلك من تصريحه فى بعض اعتذاراته فى مثل قوله « ما قلت من سىء مما أتيت به » باعتبار أن هذا كان من أسباب غضبه عليه ، وكان الأصمعى لا يسندها ولكنه يحققها له وها هى ذه :

قصيدته فى المتجردة

أمِنَ آلِ مَيَّةَ رائحٌ أو مُغْتدى ... عَجْلانَ ذا زادٍ وغَيْرَ مُزَوَّدِ
أَفِدَ التَّرحُّلُ غـــيرَ أنَّ رِكابَنا ... لَمَّا تَزُلْ بِرِحالنا وَكأنْ قَدِ[2]
زَعم البَوارِحُ أنَّ رِحْلَتَنَا غدا ... وبذَاكَ تَنْعابُ الغرابِ الأَسْوَدِ[3]
لا مرْحباً بِغَدٍ ولا أهـــلاً به ... إنْ كان تَفْريقُ الأَحِبَّةِ فى غَدِ
فى إثْرِ غانِيَةٍ رَمَتْكَ بسهمِها ... فأصابَ قلبَكَ غيرَ أنْ لم تُقْصِدِ

---

(١) السيب والصـــفد : معناها العطاء . (٢) أفد : دنا وقرب . كأن قد : أى وكأن قد زالت . (٣) البوارح : ضدّ السوانح يتشاؤم بها .

وَمُفَصَّـــلٍ من لؤلؤٍ وزَبَرْجَد ... بالدُّرّ والياقوتِ زُيِّنَ نَحْرُها
كالغُصْنِ في غُلَوائه المُتأوِّد(١) ... صَفراء كالسِّيَراء أُكْمِلَ خَلْقُها
رَيَّا الرَّوادفِ بَضَّـــةُ المُتَجَرَّد ... مَخْطوطَةُ المَتْنَيْن غَـــيْرُ مُفاضَةٍ
كالشَّمس يومَ طُلوعِها بالأَسْعُد(٢) ... قامتْ تَراءى بين سَجْفَيْ كِلَّةٍ
بَهِـجٌ متى يَرَها يُهِلّ ويَسْجُد ... أو دُرَّةٍ صَـــــدَفيَّةٍ غَوّاصُها
بُنِيَتْ بآجُرٍّ يُشادُ بقَرْمَد(٣) ... أو دُمْيَـــةٍ من مَرْمَرٍ مرفوعَةٍ
فتَناوَلَتْـــــه واتَّقَتْنا باليَد(٤) ... سَقَطَ النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسْقاطَه
عَنَمٌ على أغصانِه لم يُعْقَد(٥) ... بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأَنَّ بَنانَه
نَظَرَ السَّقيمِ إلى وُجوهِ العُوَّد ... نظرَتْ إليك بحاجَةٍ لم تَقْضِها
بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُه بالإِثْمِد(٦) ... تَجْلُو بقادِمَتَيْ حَمامَةِ أَيْكَةٍ
جَفَّتْ أعاليه وَأَسْـــفَلُه نَدِ ... كالأُقْحُوانِ غَداةَ غِبِّ سَمائِه
عَبَدَ الإِلهَ صَرُورَةً مُتَعَبِّد(٧) ... لَوْ أَنَّها عَرَضَتْ لأَشْمَطَ راهِبٍ
ولَخالَهُ رَشَداً وَإِنْ لَمْ يَرْشُد ... لرنَا لرُؤيتِها وحُسْنِ حديثِها

زينة المرأة وجمالها ودلها

وأنتم ترون أيضاً أن هذه القصيدة من شعر النابغة الذي وصفناه لكم بما أسلفناه من أشعاره السابقة .

---

(١) السيراء : ثوب من حرير فيه خطوط . غلواء الغصن : امتداده وطوله . المتأود : المثنى من اللين والنعمة . (٢) السجف : بفتح أوله والكسر : الستر الرقيق المشقوق الوسط . الكلة : غشاء رقيق يتقى به البعوض . الأسعد : برج الحمل .

(٣) الدمية : المثال أو الصورة من العاج . المرمر : الناعم المرتج . يشاد : يطلى بالشيد وهو الجص . القرمد : الخزف المطبوخ .

(٤) النصيف : الخمار ، وهو غطاء الرأس والوجه .

(٥) العنم : ثمر دقيق مستطيل أحمر يشبه أطراف الأصابع .

(٦) الأيكة : الأراكة شجرة تتخذ منها المساويك . أسف : بالسين أى خلط ودهن . اللثات : جمع لثة وهى مغرز الأسنان فى الفم . الإثمد : حجر يكتحل به وهو بكسر الهمزة (وبفتحها اسم موضع) . (٧) رجل صرورة وصرورة : لم يحج أو لم يتزوج .

ومن مدائحه للنعمان واعتذاراته البليغة قصيدته التى مطلعها :

أَتانِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمتَنِي ... وتلكَ الَّتى أَهْتَمُّ منها وأَنْصَبُ

وقد كرر هذا البيت بعينه فى قصيدته التى أولها :

عَفا ذُو حِسًا من فَرْتَنَا فالفَوارِعُ ... فَجَنْبا أَرِيكٍ فالتِّلاعِ الدَّوافِعِ (١)

يقول :

أتانى أبيتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمتَنِى ... وتِلكَ التى تَسْتَكُّ منها المسَامعُ (٢)

ومن الأولى يقول فى المقايسة والإدلاء بالحجة والعذر القاطع

لئن كُنتَ قد بُلِّغْتَ عنِى خيانةً ... لَمُبْلِغُكَ الوَاشِى أَغَشُّ وأَكْذَبُ

وَلَكِنَّنِى كنتُ امرأً لِىَ جانِبٌ ... مِنَ الأرضِ فيه مُسْتَرَادٌ ومَذْهَبُ (٣)

مُلوكٌ وَإِخْوانٌ إِذَا ما أَتيتُهُمْ ... أُحَكَّمُ فِى أَمْوَالِهم وَأُقَرَّبُ

كَفِعْلِكَ فِى قَومٍ أَراكَ اصْطَنَعْتَهُمْ ... فَلَمْ تَرَهُمْ فِى شُكْرِ ذلِكَ أَذنَبُوا

فَلا تَتْرُكَنِّى بالوعيدِ كأَنَّنِى ... إلى النَّاسِ مَطْلِيٌّ به القارُ أَجْرَبُ

أَلم تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سُورَةً ... تَرَى كلَّ مَلْكٍ دونَها يتذَبْذَبُ

فَإِنَّكَ شَمْسٌ والملوكُ كَوَاكِبٌ ... إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكَبُ

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّهُ ... على شَعَثٍ أَىُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ

مدحه للنعمان واحتجاجه لنفسه

ومن الثانية يقول بعد بيته السابق :

فبِتُّ كَأَنِّى سَاوَرَتْنِى ضَئِيلَةٌ ... من الرُّقْشِ فى أَنْيَابِها السَّمُّ نَاقِعُ (٤)

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُها ... لِحَلْىِ النِّساءِ فى يديه قَعَاقِعُ (٥)

(١) عفا : تغير . حسا : كإلى موضع . فرتنا : اسم امرأة . الفوارع : أعلى الجبل أو مكان بعينه . جنبا أريك : موضع . التلاع : جمع تلعة ، وهى مسايل الماء .

(٢) تستك : تضيق وتصم . (٣) مستراد : إقبال وإدبار .

(٤) ساورتنى : نازلتنى . الضئيلة : الحية . الرقش : جمع رقشاء أى منقطة بسواد وبياض .

(٥) يسهد : يؤرق ويمنع النوم . ليل التمام : أطول ليالى الشتاء . السليم : اللديغ وسمى بذلك تفاؤلا ، وكانوا يرقونه بوضع الحلى فى يديه .

فَإِنْ كُنْتَ لاَذَا الضِّغْنِ عَنِّى مُنَكِّلاً ... ولا حَلِفِى عنـد البَرَاءَةِ نافِعُ
فَإِنَّكَ كالَّليْلِ الذى هُوَ مُدْرِكى ... وَإِن خِلتُ أَنَّ المُنْتأَى عَنْكَ واسِعُ
خَطاطِيفُ حُجْنٌ فى حِبالٍ مَتِينَةٍ ... تُمَدُّ بها أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوازِعُ(١)

معانيه المتنازعة وكلماته المأخوذة

ويعد من أعجبها وأعلاها ما اشتمل عليه قوله :

نُبِّئْتُ أن أبا قابوسَ أَوْعَدَنى ... ولا قرارَ على زأرٍ من الأسدِ

وقد تمثّل به الحجاج حين غضب عليه عبد الملك بن مَرْوانَ وأراد عزله ، ومنها قوله :

فلو كَفِّى اليمينُ بَغَتْكَ خَوناً ... لأَفْرَدْتُ اليمينَ من الشِّمال

وهو من أوائل النابغة ، أخذه المُثَقَّب العَبْدِىّ فقال من نونيته :

ولو أَنِّى تُخالِفُنى شِمالى ... بِنَصْرٍ لم تُصاحِبْها يَمينى

وقوله أيضاً :

فَحَمَّلْتَنى ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ ... كَذِى العُرِّ يُكوَى غيرُه وهُوَ راتِعُ

وهى من أدل الكلام على الحذق فى لطف التنصُّل بتوجيه النفس إلى تلك الحالة الغريبة المثّلة لهذا النوع من الظلم ، وقد أخذه الكُمَيْتُ إذ يقول :

ولا أَكْوِى الصِّحاحَ براتعات ... بِهِنَّ العُرُّ قبلى ما كُوِينا

وبيت النابغة أعلى ولفظه أجل ، وقوله :

واستبْقِ وُدَّكَ للصَّديقِ ولا تَكُنْ ... قَتَباً يَعَضُّ بغارِب مِلْحاحَا

أخذه ابن مَيّادَةَ فقال :

ما أن أَلِح على الإخوان أسأَلُهم ... كما يُلِحّ بِعَضِّ الغارِب القَتَبُ

أما قوله « فانك كالليل . . . البيت » فقد أشرنا فيما سبق إلى معناه ، واختصاصه بالنابغة ، وقد جعله من إحدى مفاخره الشعرية حين ردّ به على

---

(١) الحجن : المعوجة واحدها أحجن وحجناء . نوازع : جواذب .

حسان فى عكاظ ، إذ قال له : يابنى إنك لا تحسن أن تقول . وأنشده البيت استعظاما لمعناه أن تلده قرائح الشعراء . ومن أبياته التى لا نظير لها فى اللفظ والمعنى ، والتى تستغنى بشطر البيت فيها ، بل و بعض الشطر ، فيتجلى لك ما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة ، قوله :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلُمُّه   على شَعَثٍ أىُّ الرجال المُهذَّب

ومما سبق إليه قوله فى صفة فتور الطرف :

نظرَتْ إليكَ بحاجةٍ لم تَقْضِها   نظرَ السَّقيم إلى وُجوهِ العُوَّد

وقد تنازعه الشعراء بعده وأحسن فيه أبو نواس إذ يقول :

ضَعيفةُ كَرِّ الطَّرفِ تحسَبُ أنَّها   قريبةُ عَهدٍ بالإفاقةِ من سُقْم

ومما أخذ من قوله « لو أنها عرضت . . . البيتين »

أخذهما بأكثر ألفاظهما أحد شعراء ضَبَّة وهو رَبيعَةُ بن مَقْرُوم ، قال :

لو أنَّها عرَضَت لأشمطَ راهبٍ   فى رأس مَشْرِفَة الذُّرى يَتَبَتَّل

لرَنَا لبهجتها وحُسنِ حديثها   ولَهَمَّ من نامُوسِه يَتَنَزَّل

هذه بعض آثار النابغة على الشعر ، وذلك بعض ما بلغ من التأثير فى الشعراء ، وقد أشرنا فى أول الكلام على شعره ، إلى مقدار تأثره هو بالذين سبقوه وكانوا بمنزلة الأساتذة له .

إفراطه فى المبالغة

وقد يؤخذ عليه إفراطه فى المبالغة فى وصف العنق بالطول إذ يقول :

إذا ارْتَعَشَتْ خافَ الجبَانُ رِعاثَها   ومن يتعلَّق حيثُ عُلِّق يَفْرَق

وقوله من هذا الوجه أيضاً فى صفة السيوف :

تقُد السَّلوقىَّ المُضاعَفَ نسجُه   وتُوقِدُ بالصُّفَّاح نارَ الحُبَاحِب

فقد زعم أنها تقطع الدرع المضاعف والفارس والفرس ثم تغادرها إلى الحجارة فتقدح منها الشرر ، وسماجة اللفظ وكراهة الفصل فى قوله

« مِنَ الضارِيَاتِ بالدماءِ الدوارِب » و يُؤخذ عليه منّه على النعمان بمدحه إياه في قوله :

وكنتُ امرأً لا أمدحُ الدّهرَ سُوقةً فلستُ على خيرٍ أتاكَ بحاسِـــد

فتراه قد امتن عليه بمدحه إياه ، وجعله خيراً أتاه ، لا يحسده عليه ، وإنما يحسن الثناء إذا كان خالصاً من كدر المنّ .

ومما سبق إليه ولم يحسن تشبيهه ، الثور في بياضه والتماعه بالسيف المجرّد من الغمد ، في قوله :

موازنة بينه وبين الطرماح

من وحشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٍّ أكارِعُه طَاوي المَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ

وقالوا ولم تسمع كلمة الفرد إلا في هذا وقد أحسن فيه الطرماح إذ يقول :

يَبْدُو وتُضْمِره البلادُ كأنَّه سَيْفٌ على شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

وهـــذا أكمل في التشبيه لدلالته على الظهور والاختفاء ، المأخوذ من حركات هذا الثور الوحشي .

الاقـــواء في شعره

وكان في شـــعره الإقواء وهو اختلاف إعراب القافية كقوله في قصيدة المتجردة :

زعم البوارِحُ أن رِحلتَنا غداً وبذاكَ خبَّرنا الغرابُ الأسوَدُ

وقوله :

بِمُخضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بنانَه عَنَمٌ يكادُ من اللَّطافَةِ يُعْقَدُ

وقد هاب الناس أن يخبروه بهذا العيب فدسوا له قَينة حِجازية غنّته بهذه الأبيات وأطالت من قوافيها حتى فَطِن من نفسه لهـــذا العيب وأصلحه بما ذكرناه لكم . وكان يقول « دخلت يثرب وفي شعري بعض العاهة ، ثم خرجت منها وأنا أشعر الناس » .

وبعد فأنت تستطيع أن تعرف صدق ما شرحناه لك من وصف شعر النابغة من حيث الديباجة والاستواء ، وليس ذلك بعجيب فهو كما يقولون من « عبيد الشعر » الذين أنحوا عليه بالتهذيب ، طمعاً فى عصافير النعمان ورغبة فى حباء آل جفنة من ملوك غسان، ولذلك يقولون «إنه كان شريفا غض منه الشعر باتخاذه إياه أداة للكسب » وهو زِيَادُ بن مُعاوِيةَ ويلقّبُ بالنَّابغة قيل لنبوغه فى الشعر فجأةً وقيل لقوله « فقد نَبَغَتْ لنا منهم شُؤونَ » ويكْنى أبا أُمَامَةَ وهو من أشراف ذبيان إحدى قبائل قَيْس عَيْلانَ من مُضَر ، والله أعلم . نسبه فى ذبيان

٣ — زهير

كان طبيعياً أن تكون هـذه الجاهلية المتأخرة ، مظهرا لطلائع نهضة عامة تتناول الاجتماع واللغة والشعر ، بسبب العوامل الكثيرة التى اختلفت فى أزمان متعاقبة على ضروب هـذا الإصلاح ، ولا ريب أن زهيراً والذين معه كالنابغة والأعشى وغيرهم من شعراء هـذه الحلبة ، قد تأثروا بهذه الثقافة وتمثلوا تلك المذاهب ، وأتاحت لهم فرصـة التأخر فى العصر أن يتعقبوا على الأوائل ، وألا يكتفوا بالعفو من الخاطر دون إرهاف الفكر ، وإعمال الروية ، وطول الأناة ، والنظر فى تجويد هذه الصناعة ، ولم يكن لهم محيص عن الاتصال بآثار الأمم القديمة ، وشىء من ذلك غـير قليل كان تسرب منذ حين إلى الجزيرة العربية ، وكذا لم يكن لأحد منهم بد عن الرواية لشاعر ، والاحتذاء على طريقته . فزاد ذلك فى ثقافتهم وبلغ بهم إلى هذه الغاية من الإحسان والشهرة ، نشأته. تأثره بالنهضة الأخيرة

ويتحدث الرواة أن زهيراً كان راوية لأوس بن حجر ، وهو زوج أمه ، وكان يصطنع مذهبه فى تمثيل مظاهر البرية العربية فيما يتناول الشعر من التشبيه والوصف ، وإن كان ذلك فى الجملة شأن الشعر القديم كله ، لم يختص به شاعر دون سواه ، وكذلك كان يتأدب بأدب خاله أو خال أبيه بشامة بن الغدير وهو بشامة بن الغدير وزهير

من سادة غطفان ، وكان مقعداً كثير المال ، ولم يكن له ولد ، وكانت غطفان تعظمه وتستشيره ، وتعرف حزمه وحكمته ، وإلى ذلك ما كان يوصف به زهير من الغنى والعفاف والحلم ، ومن شأن هذه التربية الممزوجة بمثل تلك الأوصاف أن يتصل أثرها بمذهبه الشعرى وأن يكون جديراً — كما يصفه الرواة — بالبعد من السخف والتنزه عن الفضول .

أثر زهير في النهضة

وإذا لقد تأثر زهير بهذه النهضة ، ولكنه من جانبه أيضا قد أثر فيها ، فهم يذكرون أنه كان — كالنابغة — من « عبيد الشعر » ويضيفون إليه تلك القصائد المسماة بالحوليات ، وظاهر من هذا أنه كان إلى طبيعته الفنية ، صانعاً مصلحاً ، لا يعبأ بالحول كله يذهب وهو يحادث كلامه بالصقال ويعاوده بالتهذيب والإصلاح ، ليضع لنفسه من هذا النسق النقى فى صدر ذلك الأدب حلية ناصعة ، يزداد بها بهاء وخصبا ويكتسب رونقا وقبولا .

ومهما يكن من شىء فقد أضاف إلى معانى الجاهليين هذه الأمثال والحكم الشعرية ، التى اشتهر بها كما اشتهر النابغة مثلا بالاعتذار ، وابن العبد بوصف الإبل ، وابن كلثوم بالفخر ، وليس معنى ذلك أن أحدا من أولئك الفحول لم يقل الحكمة أو يضرب المثل ، وإنما هو كالذى نقول من أنه لم يشتهر أحد من هؤلاء بالإكثار من هذه المذاهب ، كما اشتهر زهير ، وإذاً كان زهير — من غير شك — عاملا آخر من عوامل هذه النهضة ، التى كانت فى ذلك الوقت تزداد نموا ونشاطاً واستعداداً صحيحاً ، لاستقبال عصر لغوى جديد هو عصر الإسلام . ولنعرض بعد لدراسة شىء من شعر زهير بمقدار ما يوشك أن يكون دليلا على صدق ما يثبته له الرواة من وصف خاص ، أو مذهب مشترك .

شعره

وهم يعدونه من شعراء الطبقة الأولى ، ويضعونه مع النابغة وامرئ القيس ، ويختلفون فيما بينهم فى تقديم أحد الثلاثة على الآخر ، ولهم فى ذلك آراء لا تكاد تنهض بحجة على دعوى ، لعدم ابتناء الموازنة فيها على جهة من النظر واحدة .

ويقول ابن سلام الجمحى « إن من يقدم زهيرا ، يحتج بأنه كان أحسنهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم للكثير من المعنى فى القليل من اللفظ ، وأشدهم مبالغة فى المدح ، وأكثرهم أمثالا فى شعره » ويروون عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقدمه يقول « لأنه كان لا يعاظل فى المنطق ، ولا يتتبع الغريب الحوشى ، ولا يقول إلا ما يعرف . ولم يمدح أحداً إلا بما فيه » ويتمثل ببيتيه الآتيين :

تقديم عمر له

إِذَا ابْتَدَرَتْ قَيْسُ بْنُ عَيْلَانَ غَايَةً مِن المجد من يَسْبِقْ إِلَيْهَا يُسَوَّدِ
سَبَقْتَ إِلَيْهَا كُلَّ طَلْقٍ مُبَرِّزٍ سَبُوقٍ إِلى الغَايَاتِ غيرِ مُزَنَّدِ

وقد رأيتم فيما سبق أن عمر قدم النابغة أيضاً لقوله « إلا سليمان إذ قال الإله له . . البيت » وقوله « حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . البيت » .

وتحدث الأحنف عند معاوية فقدمه أيضاً قال : لأنه ألقى عن المادحين فضول الكلام حيث يقول :

شهادة الأحنف عند معاوية له

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وأنتم ترون أن هـــذا التقديم والتأخير ، إنما كان فى الغالب متأثراً بميل خاص إلى ضرب بعينه من الكلام ؛ وإنما تقع الموازنة بين شاعرين موقعها من الصواب ، حين تضعهما معاً على ميزان التقدير والنقد ، فتلم بجملة شعرهما وتفصيله ، وتقص أثرهما فيما سلكا من غرض ، وما أصابا من صواب أو خطأ ، وما اخترعا من تشبيه أو ابتدعا من فكرة أو صوّرا من حكمة أو فضيلة ، على أنه بعـــد ذلك كله قد يكون أحدهما سابقاً مخترعا والآخر تاليا تابعا ، وبينهما فضل ما بين نظيريهما فى قول الشاعر :

ولكن بكت قبلى فهاج لى البكا بكاها فقلت الفضـــل للمتقدم

الأغراض الغالبة على شعره

وقد تقرأ ديوان زهـــير فيما صح له عن ثقات الرواة ، فقلما تراه أفاض فى غير المدح والوصف والحكمة والمثل ، وإن كان لا بدّ له ــ كما تقـدم ــ من بث

العذر وتقديم الوعيد والتعرض لما كان يكره من الهجاء أحيانا . ولا ينبغى أن يكون القول بأن زهيراً كان شديد المبالغة فى المدح محمولا على أنه كان يصنع صنيع المتأخرين من تعريض الممدوح للسخرية بالصفة الباطلة والمدح الكاذب فى وصفه ، بأنه أهول من الزمان وأعظم من السماء وأقدر من القدر المتاح ، وإنما هو القصد إلى الإكثار من المديح والاستيعاب لأوصاف الممدوحين ، ولو وقع له ما ينبغى ألا يكون من الأوصاف المبنية على الادعاء الباطل ، صرح بعدم إمكانه ، وصدر فى قوله ما يخفف موقعه ويلزم النفوس قبوله مثل قوله :

وَلَوْ أَنَّ حَمْداً يُخْلِدِ النَّاسَ أُخْلِدُوا ... وَلٰكِنَّ حَمْدَ المَرْءِ لَيْسَ بِمُخْلِدِ

وقوله :

لو كان يقعدُ فوق الشمس من كَرَم ... قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

اتصال شعره بالبادية

ويتصل شعره بمظاهر البادية اتصالا فيه تصوير لطبائع الأشياء ، قريب الانتزاع لطيف الموقع ، يكاد البيت والأبيات منه يعطيك صورة واضحة لما يتعاطاه من وصف طلل أو مرتع وحش ، أو ارتحال ظعينة أو ما ماثل ذلك .

وكان مخصوصاً بآل أبى حارثة المرى ، مداحا لهم وخاصة هرم بن سنان الجواد المشهور ، وأول ما عرف من مدحه له ولصاحبه الحارث بن عوف المرى ميميته المعلقة ، وكان الذى دعا زهيراً إلى مدحهما تلك المكرمة العظيمة التى قاما فيها باحتمال ديات القتلى من حَيَّىْ عبس وذبيان فى حروب داحس والغبراء ، وفيها يقول بعد المطلع :

ودَارٌ لَهَا بالرَّقْمَتَيْن كَأَنَّهَا ... مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ (١)

بِهَا العِينُ والآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثِمِ (٢)

---

(١) مراجيع : جمع مرجوع وهو الذى أعيد سواده مرة أخرى . نواشر : عروق باطن الذراع . (٢) العين : بقر الوحش . الآرام : جمع رئم وهو الظبى الخالص البياض . الأطلاء : جمع طلا وهو الولد من ذوات الظلف . المجثم : المربض .

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

أَثَافِيَّ سُفْعًا فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤْيًا كَجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ (١)

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا ... أَلَا أَنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

تشبيب القصيدة:

تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ ... تَحَمَّلْنَ بِالعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمِ

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ ... وِرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةِ الدَّمِ (٢)

وَفِيهِنَّ مَلْهًى لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ ... أَنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ المُتَوَسِّمِ

وهنا نقف وقفة قصيرة ، نشرح ما ألمّ به الشاعر من تلك الصور والمناظر الطبيعية ، فهو يقول « ولها بالرقمتين دار » أى بينهما ـ وإحدى الرقمتين بالمدينة والأخرى بالبصرة ـ (كأنها خطوط وشم فى جوانب معصم) يريد أن

تحليل هذه الأبيات

ما بقى من آثار الديار فى دقته وتواليه ، يشبه سطور الوشم التى كانت النساء يتزين بدقه على أيديهن ، وسترى أنه فى هذا قد اتبع طرفة فى قوله فى هذه الصفة بعينها (تلوحُ كباقِى الوشْمِ فى ظاهرِ اليد)

ثم انتقل إلى هذه الصورة اللطفية من قُطعان البقر وأسراب الظباء ، هذه تجىء وتلك تذهب ، وحولها بنوها يقمن يتبعنها من مجاثمهن ألا ترى أنك الآن تشاهد بخيالك من هذا البيت ، منظر قطعة من البادية عليها هذه الصورة الطبيعية ، كأنك تراها بعينك ويمكنك أن تنقلها إلى إطار التصوير بريشتك ! ثم يقول إنه وقف من بعد دهر غبر ، فبدا عليه مايبدو على المتردد المتفرس ، ثم أدركه مايدرك العارف المتحقق من ألم الذكرى والحنين إلى القطين ، وللحالين مخيلة واضحة تبدو على الوجوه وتعرف فى العيون .

---

(١) الأثافى : حجارة توضع القدر عليها . السفع : جمع أسفع وهو الأسود . المعرس : موضع المرجل . النؤى : حفيرة تحفر حول الخباء ، وقيل حاجز من تراب يرفع حوله لئلا يدخله الماء . الجذم : الأصل .

(٢) الأنماط : ضرب من الثياب يفرش على الهودج . مشاكهة : مشابهة .

ثم ذكر الأثافى وهى الحجارة التى تنصب عليها المراجل أو القدور ، والنؤى وهو الحفير حول الخيمة يمنع المطر ، وشبه ذلك بأصل الحوض الذى ربما ذهب أعلاه وبقى ذلك الأصل لم يتهدم .

ثم أراد أن يثير فى النفس حالة من الحزن يخونها الجلد على فراق الأحباب ، فعرض هذه الصورة الشائقة من تحمل الظعائن ، وتتبعهن فى منازلهن بالعين ، حتى يغبن عن الأبصار ، وما تودعه هذه الحالة من الحسرة فى النفوس . .

ثم ترك هذا الوجه من الكلام إلى غرضه من القصيدة قال :

سَعَى ساعِياً غَيْظِ بْنِ مُرَّةَ بَعْدَ مَا　　تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ العَشِيرَةِ بِالدَّمِ

مدح السيدين

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ　　رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ

يَمِيناً لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا　　عَلَى كُلِّ حَالٍ من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ (١)

ثم أخذ يصف ما فى طبائع الناس من العجز عن الكتمان ، ومحاولة الإخفاء لما تتطامن عليه النفوس وتعلنه فلتات الألسنة ولحظات العيون ، وخرج من ذلك إلى وصف الحرب ، فطرحها أمام النظر فى جملة صور ، فمرة جعلها سبعاً يضرى بالفريسة ، وأخرى جعلها كالرحى تعرك ثفالها ، وأنها تحمل ثم تلد ذرارىّ شؤم ، ثم شبهها بالقرى العراقية متهكما ، وأنها تكسبهم ما يكسب أهل هذه القرى من القفيز والدرهم ، ثم تناول حالة المصرّ على الجريمة المتردد فى الإقدام عليها والإحجام عنها ومحاولة إخفاء ما فى نفسه ، ثم عاد فجعل ورد الحرب تلك الغمار السائلة بالدماء والرماح وصدرها ذلك الكلأ الوبيل الوخيم قال :

إبلاغه فى وصف الحرب

فَلَا تَكْتُمُنَّ اللّهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ　　لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللّهُ يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ　　لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

---

(١) السحيل : الخيط المفرد ، وهو كناية عن الرخاء . المبرم : الذى يجمع بين مفتولين ، وهو كناية عن الشدة .

وصف الحرب

وَمَا الحَرْبُ إلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ ... وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ
مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً ... وَتَضْرَ إِذَا أَضْرَيْتُمُوهَا فَتَضْرَمِ
فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا ... وتَلْقَحْ كِشَافًا ثُم تُنْتِجْ فَتُتْئِمِ (١)
فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ ... كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ

ثم قال :

لَعَمْرِى لَنِعْمَ الحَىُّ جرَّ عَلَيْهِمُ ... بِمَا لاَ يُوَاتِيهِمْ حُصَيْنُ بنُ ضَمْضَمِ
وَكَانَ طَوَى كَشْحاً عَلَى مُسْتَكِنَّةٍ ... فَلَا هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يتجمْجمِ (٢)

وقال :

سَأَقْضِي حَاجَتِي ثُمَّ أَتَّقِي ... عَدُوِّى بِأَلْفٍ مِنْ وَرَائِي مُلْجَمِ
فَشَدَّ وَلَمْ تَفْزَعْ بُيُوتٌ كَثِيرَةٌ ... لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ
رَعَوْا ظِمْئَهُمْ حَتَّى إِذَا تَمَّ أَوْرَدُوا ... غِمَاراً تَسِيلُ بالرِّمَاحِ وَبِالدَّمِ
فَقَضَّوْا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا ... إِلَى كَلَإٍ مُسْتَوْبِلٍ مُتَوَخِّمِ

حكم زهير

ثم ذهب إلى ما اشتهر به من ضرب الأمثال ، و إرسال الحكم ، والتعريف بشيء من أحوال الاجتماع ، وآثار لأخلاق فى الحياة ، قال :

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمَانِينَ حَوْلاً لا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ
رَأَيْتُ المَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ
وأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ والأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ
وَمَنْ لم يُصَانِعْ فى أُمورٍ كَثِيرَةٍ ... يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ
ومَنْ يكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ ... عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْه وَيُذْمَمِ

---

(١) الثفال : جلدة توضع تحت الرحى . تلقح : يقال للناقة عند ما تقبل ماء الفحل . كشافا : سنتين متواليتين . تتئم : تلد توأمين . (٢) طوى كشحاً : أضمر . المستكنة : النية المستترة . يتجمجم : يتردد .

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ   يَفِرْهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

و بعض الناس يجعل فى أبياته الأخيرة ما ليس منها .

وهاتان قصيدتان له ، أول كل منها «صحا القلب عن سلمى» ومطلع الأولى :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهْ   وَعُرِّىَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُهْ

وفى هـــذه القصيدة وصف للصيد ، يعد فى الطبقة الأولى ممـا أثر عن الجاهليين ، ومنها مديح لِحِصْن بن حُذَيْفَة على طريقة زهير من التمثيل والتوضيح غاية فى الحسن والقوّة .

قال يصف النبات والمطر والفرس والصيد ، وما يتبع ذلك من المخاتلة والتأتّى فأبدع ما شاء :

وَغَيْثٍ مِنَ الْوَسْمِىِّ حُوٍّ تِلاعُهُ   أَجَابَتْ رَوَابِيهِ النِّجَاءَ هَوَاطِلُهْ(١)

هَبَطْتُ بِمَمْسُودِ النَّوَاشِرِ سَابِحٍ   مُمَرٍّ أَسِـــيلِ الْخَدِّ نَهْدٍ مَرَاكِلُهْ(٢)

تَمِيمٍ فَلَوْنَاه فَأُكْمِلَ صُـــنْعُهُ   فَتَمَّ وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهْ(٣)

ثم قال :

وصـــف الفــــرس والصيد

فَبَيْنَا نُبَغِّى الصَّيْدَ جَاءَ غُلامُنَا   يَدِبُّ وَيُخْفِى شَخْصَه وَيُضَائِلُهْ

فَقَالَ شِـــيَاهٌ رَاتِعَاتٌ بِقَفْرَةٍ   بِمُسْتَأْسِدِ الْقُرْيَانِ حُوٍّ مَسَائِلُهْ(٤)

(١) الغيث : المطر أو الكلأ الذى ينبت بمـائه . الوسمى : أول المطر . الحوّ : جمع حواء وهو وصف من الحوة وهى اســـوداد أطراف النبات من شدّة الخصب والنمـاء . التلاع : مسايل المـاء . الروابى : جمع رابيـــة المكان المرتفع . النجاء : جمع نجوة ، وهى أيضاً المكان المرتفع الذى تظنّ أنه نجاؤك وهى نعت الروابى . الهواطل : الســـحب يدوم ماؤها فى لين وانسكاب . (٢) الممسود : المفتول . النواشر : عصب الذراع ، جمع ناشرة . الممرّ : المحكم الوثيق الخلق . الأسـيل : السهل . المراكل : مواضع عقب الفارس من الفرس ، أراد أنه ضخم الجوف وهو من علامات عتق الفرس .

(٣) تميم : تامّ الخلق كامله . فلوناه : فطمناه ، وإذا فطم فهو فلوّ . الكاهل : مجتمع الكتفين فى أصل العنق . عزته يداه : فاتت سائر أعضائه .

(٤) الشيـاه : المراد بها هنا حمر الوحش . المستأسـد : ما طال من النبات وقوى . القريان : جمع قرى كغنى ، مسيل المـاء إلى الروض . المسائل : جمع مسيل ، فإن كان من سال فوزنه مفعل ، والقياس ألا يهمز الجمع ، وإن كان من مسل فوزنه فعيل والقياس همزه فى الجمع .

ثَلاثٌ كَأَقْوَاسِ السَّرَاءِ وَمِسْحَلٌ ... قَدِ اخْضَرَّ مِنْ لَسِّ الغَمِيرِ جَحَافِلُهْ(١)
وَقَدْ خَرَّمَ الطُّرَّادُ عَنْهُ جِحَاشَهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ نَفْسُهُ وَحَلاَئِلُهْ
فَقَالَ أَمِيرِى مَا تَرَى رَأْىَ مَا نَرَى ... أَنَخْتِلُهُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ نُصَاوِلُهْ(٢)
فَبِتْنَا عُرَاةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا ... يُزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ ونُزَاوِلُهْ
ونَضْرِبُهُ حَتَّى اطْمَأَنَّ قَذَالُهُ ... وَلَمْ يَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ وخَصَائِلُهْ(٣)
فَلأْيًا بِلَأْيٍ مَا حَمَلْنَا وَلِيدَنَا ... عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكٍ ظِماءٍ مَفَاصِلُهْ(٤)
وَقُلْتُ تَعَلَّمْ أَنَّ لِلصَّيْدِ غِرَّةً ... وَإِلاَّ تُضَيِّعْهَا فَإِنَّكَ قَاتِلُهْ

ثم انتقل من هــــذا ، إلى مدح حِصْن بن حُذَيفة بن بَدْر الفزارى كما قدمنا قال :

وَأَبْيَضَ فَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ ... عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تَغِبُّ فَوَاضِلُهْ
بَكَرْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ ... قُعُودًا لَدَيهِ بالصَّرِيمِ عَوَاذِلُه(٥)
يُفَدِّينَهُ طَوْراً وَطَوْراً يَلُمْنَهُ ... وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخَاتِلُهْ
فَأَقْصَرْنَ مِنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّءٍ ... عَزُومٍ عَلَى الأَمْرِ الَّذِى هُوَ فَاعِلُهْ(٦)
أَخِى ثِقَةٍ لاَ يُتْلِفُ الخَمْرُ مالَه ... وَلَـكِنَّهُ قَدْ يُهلِكُ المَـالَ نائِلُه
تَرَاهُ إِذَا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الذى أَنتَ سائِلُه

---

(١) السراء : شجر تتخذ منه القسى . المسحل : الحمار ، مأخوذ من السحيل وهو صوت الحمار . اللسّ : الأكل بمقدم الفم . الغمير : نبت أخضر غمره اليبيس . الجحافل : جمع جحفلة، وهى من الحمر كالشفة من الإنسان .

(٢) الأمير : الذى يؤامره ويستشيره . نختله : نخادعه . نصاوله . نجاهره .

(٣) القذال : العذار من رأس الفرس . الخصائل: جمع خصيلة، وهى كل لحمة فى عصبة .

(٤) المحبوك : الوثيق المحكم . الظماء : اليابسة . المفاصل: جمع مفصل ، وهو مجتمع كلّ عظمين . (٥) الصريم : الصبح أو القصر . (٦) المرزأ : المصاب بماله كثيراً .

المنـــاقب العربيـة فى مديح زهير

ثم التفت إلى خطاب الممدوح ، فعرض من أوصافه الأخرى صورة جامعة لمناقب الشرف ، من عمومه بالمعروف وحسن مدافعته للخصوم واستعلائه بالحلم و إصابته بالمنطق ، فى نسيج من جزالة العربية قلما تظفر بمثله ، قال :

وذِى نَسَبٍ نَاءٍ بَعِيـــدٍ وَصَلْتَه ... بِمَالٍ وَمَا يَدْرِى بِأَنَّكَ وَاصِلُه

وَذِى نِعْمَةٍ تَمَّمْتَها وَشَـكَرْتَهَا ... وَخَصْمٍ يَكَادُ يَغْلِبُ الحقَّ باطِلُه

دَفَعْتَ بِمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ صَائِبٍ ... إِذَا مَا أَضَلَّ الناطِقِينَ مَفَاصِلُه

وَذِى خَطَلٍ فى الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ ... مُصِيبٌ فَمَا يُلْمِمْ به فَهْوَ قَائِلُهْ

عَبَأْتَ لَهُ حِلْماً وَأَكْرَمْتَ غَيْرَهُ ... وَأَعْرَضْتَ عَنْهُ وَهْوَ بَادٍ مَقَاتِلُهْ

وهذه هى القصيدة الثانية :

صَحَا الْقَلْبُ عن سَلْمى وَقَدْ كَادَ لايَسْلو ... وأَقْفَرَ مِن سَلْمَى التَّعَانِيقُ فالثِّقْلُ(١)

وَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَلْمَى سِنِينَ ثَمَانِياً ... عَلَى صِيَرِ أَمْرٍ ما يَمُرُّ وما يَحْلُو(٢)

(وفى ديوانه أنها لسنان بن أبى حارثة المرى أبى هرم ممدوحه ، ولـكنكم سترون أنه ساقها فى مدح سيِّدَىْ غطفان اللذين مدحهما بمعلقته السابقة .)

و بعـد أن ذكر ما يلمّ بنفس المحب الصادق من اتصال الشـوق ومراجعة الذكريات و إن نأت عنه الأحباب ، عاد فقال فى مدح ذينك السيدين :

مديحه لقومه

إِذَا فَزِعُوا طَارُوا إِلَى مُسْتَغِيثِهِمْ ... طِوَالِ الرِّمَاحِ لاَضِعَافٌ وَلاَ نُكُلُ

بِخَيْلٍ عَلَيْهَا جِنَّـــةٌ عَبْقَرِيَّةٌ ... جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا

عَلَيْهَا أُسُودٌ ضَارِيَاتٌ لَبُوسُهُمْ ... سَوَابِـغُ بِيضٌ لاَ تُخَرِّقُهَا النَّبْل

إِذَا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ ... ضَرُوسٌ تُهِرُّ النَّاسَ أَنْيَابُهَا عُصْل(٣)

---

(١) التعانيق والثقل : موضعان. (٢) على صير أمر : منتهاه وغايته .

(٣) لقحت : اشتدت . العوان : الحرب التى قوتل فيها مرة قبل هـذه . تهرّ الناس : تصيرهم يكرهونها . العصل : الكالحة المعوجة .

قُضَاعِيَّـــةٌ أَوْ أُخْتُهَا مُضَرِيَّةٌ ... يُحَرَّقُ فِي حَافَاتِهَا الحَطَبُ الجَزْلُ
تَجِدْهُمْ عَلَى ما خَيَّلَتْهُمْ إِزَاءَهَا ... وَإِنْ أَفْسَدَ المَالَ الجَمَاعَاتُ والأَزْلُ(١)

إلى أن يقول :

فَرِحْتُ بِمَا خُبِّرتُ عَنْ سَيِّدَيْكُمُ ... وَكَانَا امْرَأَيْنِ كُلُّ أَمْرِهِمَا يَعْلُو
رَأَى اللهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ ... فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ البَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو
تَدَارَكْتُمَا الْأَحْلَافَ قَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا ... وَذُبْيَانَ قَدْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ

ثم يقول :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا القَوْلُ والفِعْلُ
على مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ ... وعِنْدَ المُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ والبَذْلُ
وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلفيتَ حَولَ بُيُوتِهِمْ ... مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الجَهْلُ
فَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وهل يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

فتراه هنا تناول وصفهم بالنجدة والإسراع إلى المستغيث بخيلهم ، وسوابقهم عند نشوب الحرب الضروس العَصْلاء الأنياب ، ثم ذكر ما هاجه إلى المديح لهما من تداركهما الأحلاف من ذبيان وعَبس بعد أن كاد يُثل عرشها وتزل بها القدم ، ثم عطف بهـــذا المدح الآخذ بأطراف الحسن ، وذكر الأندية والمجالس الشافية لطَيش الجهالة ، ومدح أغنيائهم وفقرائهم ، ويقول عبد الملك ابن مروان فى قوله « على مكثريهم . . . البيت » [ما ضر من مدح بهذا البيت ألا يكون يلي أمور الناس « يعنى الخلافة ! »] ثم ساق الدليل على دعواه من اتصال هـــذا الكرم بالفروع من الأصول بهذا المثل الذى ضربه من منابت النخل ووشيج الخَطِّى .

---

(١) المال : الإبل . الأزل : حبس الإبل وعدم إرسالها للرعى .

وهذه قصيدة أخرى فى مدح هرم بن سنان :

إنَّ الخَلِيطَ أَجَدَّ البَيْنَ فَانْفَرَقَا ... وعُلِّقَ القَلْبُ مِنْ أَسْمَاء ما عَلِقا
وفارقَتْكَ بِرَهْنٍ لاَ فَكَاكَ لهُ ... يومَ الوَدَاعِ فأمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقَا
قامَتْ تَرَاءَى بِذِي ضَالٍ لِتَحْزُنَنِي ... وَلاَ مَحالَةَ أَنْ يَشْتَاقَ مَنْ عَشِقَا

قطعة من غزل زهير

بِجِيدِ مُغْزِلَةٍ أدْماءَ خَاذِلَةٍ ... مِنَ الظِّبَاءِ تُرَاعِى شَادِناً خَرِقَا(١)
كَأَنَّ رِيقَتَها بَعدَ الكَرَى اغْتُبِقَتْ ... مِنْ طَيِّبِ الراحِ لَمَّا يَعْدُ أَنْ عَتَقَا

وخلص من تصويره الأسماء بهذه الظبية الأدماء ، وما إلى ذلك من طيب فمها وحلاوة ريقها إلى وصف الركاب ، ثم إلى ممدوحه هرم حيث قال :

قَدْ جَعَلَ المُبْتَغُونَ الخيرَ فى هَرِمٍ ... وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابه طُرُقا
إِنْ تَلْقَ يَوْمًا على عَلاَّتِهِ هَرِمًا ... تَلْقَ السَّماحَةَ مِنْهُ والنَّدَى خُلُقَا

إلى قوله :

لو نال حَيٌّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَكْرُمَةٍ ... أُفْقَ السَّماء لَنَالَتْ كَفُّهُ الأُفُقَا

وروى شارح ديوانه ، وهو الأعلم النحوى الشَّنْتَمرى المتوفى سنة ٤٧٦ ، هذه القصيدة عن أبى عمرو الشيبانى والمفضل الضبى ، وهى أيضاً من جياد مدائحه فى هرم بن سنان ومطلعها :

غَشِيتُ دِيَاراً بِالبَقِيعِ فَثَهْمَدِ ... دَوارِسَ قَدْ أَقْوَيْنَ من أُمِّ مَعْبَدِ

وقد أخذ بعد المطلع يصف ناقته ، متأثرا فى ذلك بمذهب طرفة ، وآخذاً بشىء من ألفاظه وعباراته ، ثم قال :

جُمَالِيَّةٍ لم يُبْقِ سَيْرِى ورِحْلَتِى ... عَلَى ظَهْرِهَا من نَيِّها غيرَ مَحْفِدِ(٢)

---

(١) مغزلة : ظبية ذات غزال . أدماء : بيضاء . الشادن : الذى اشتدّ وقوى على المشى .

(٢) الجمالية : المشبهة للجمل فى تمامها وعظم خلقها : النيّ : الشحم . المحفد : أصل السنام .

مَتَى مَا تُكَلِّفْهَا مَآبَةَ مَنْهَلٍ فَتُسْتَعْفَ أَوْ تُنْهَكْ إِلَيْهِ فَتَجْهَدِ(١)
تَرِدْهُ ولَمَّا يُخْرِجِ السَّوْطُ شَأْوَهَا مَرُوحًا جَنُوحَ اللَّيْلِ نَاجِيَةَ الغَدِ(٢)
كَهَمِّكَ إِنْ تَجْهَدْ تَجِدْهَا نَجِيحَةً صَبُوراً وَإِنْ تَسْتَرْخِ عَنْهَا تَزَيَّدِ

ثم يقول :

تُبادِرُ أَغْوَالَ المَشِيِّ وتَتَّقِي عُلالَةَ مَلْوِيٍّ مِنَ القِدِّ مُحْصَدِ(٣)
كَخَنْسَاءَ سَفْعَاءِ المَلَاطِمِ حُرَّةٍ مُسَافِرَةٍ مَزْءُودَةٍ أُمِّ فَرْقَدِ(٤)
غَدَتْ بِسِلاحٍ مِثْلُه يُتَّقَى بِهِ وَيُؤْمِنُ جَأْشَ الخَائِفِ المُتَوَحِّدِ
وسَامِعَتَيْنِ تَعْرِفُ العِتْقَ فِيهِمَا إِلى جِذْرِ مَدْلُوكِ الكُعُوبِ مُحَدَّدِ(٥)

حتى قال :

فَأَنْقَذَهَا مِنْ غَمْرَةِ المَوْتِ أَنَّهَا رَأَتْ أَنَّهَا إِنْ تَنْظُرِ النَّبْلَ تُقْصَدِ(٦)

ثم خلص إلى المديح لهرم إذ يقول :

إِلى هَرِمٍ تَهْجِيرُهَا وَوَشِيجُهَا تَرُوحُ من اللَّيْلِ التَمامِ وتَغْتَدِى(٧)
إِلى هَرِمٍ سَارَتْ ثَلَاثًا مِنَ اللِّوى فَنِعْمَ مَسِيرُ الوَاثِقِ المُتَعَمِّدِ
سَوَاءٌ عليهِ أَيَّ حِينٍ أَتَيْتَهُ أَسَاعَةَ نَحْسٍ تَتَّقِي أَمْ بِأَسْعُدِ

---

(١) تستعف : يؤخذ عفوها فى السير وهو من غير جهد .

(٢) الشأو : غاية الحضر أو آخر العفو من السير . (٣) الأغوال : جمع غول ، وهو مايغول الإنسان أى يهلكه . الملوى : السوط . القد : ماقد من الجلد . المحصد : الشديد الفتل .

(٤) الخنساء : البقرة القصيرة الأنف ، والخنس تطامن الأنف وقصره . السفعاء : السوداء فى حمرة . الملاطم : الخدود . المزءودة : الخائفة . الفرقد : ولد البقر .

(٥) السامعتان : الأذنان . الجذر : الأصل . مدلوك : أملس . الكعوب : عقد العصى ، يصف بذلك قرنها . (٦) قوله « فأنقذها من غمرة الموت أنها » أخذ هذا الشطر بتمامه أبو تمام فقال من قصيدته التى مطلعها : غدت تستجير الدمع خوف نوى غد :

وأنقذها من غمرة الموت أنه صدود فراق لا صدود تعمد

وهى من جياد سوائره .

(٧) الوشيج : السير السريع .

مديح هرم

أَلَيْسَ بِضَرَّابِ الكُمَاةِ بِسَيْفِهِ ... وَفَكَّاكِ أَغْلَالِ الأَسِيرِ المُقَيَّدِ
وَمِدْرَهِ حَرْبٍ حَمْيُهَا يُتَّقَى بِهِ ... شَدِيدِ الرِّجَامِ بِاللِّسَانِ وَبِاليَدِ
أَلَيْسَ بِفَيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ ... ثِمَالُ اليَتَامَى فِي السِّنِينَ مُحَمَّدِ
إِذَا ابْتَدَرَتْ قَيسُ بْنُ عَيْلَانَ غَايَةً ... مِنَ المَجْدِ مَنْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا يُسَوَّدِ
سَبَقْتَ إِلَيْهَا كُلَّ طَلْقٍ مُبَرِّزٍ ... سَبُوقٍ إِلَى الغَايَاتِ غَيْرِ مُجَلَّدِ

إلى قوله :

فَلَوْ كَانَ حَمْدٌ يُخْلِدُ النَّاسَ لَمْ تَمُتْ ... ولٰكِنَّ حَمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخْلِدِ

وهى والتى قبلها كما ترون من روح زهير ومذهبه فى اختيار الكلام وتوقى الفضول ، صادرة عن هذا الطبع المتدفق ، وعما أثر عن زهير من التنقيح والمعاودة والتزام التتبع من نفسه على نفسه .

ولمكان زهير من العفة ، لم يعْرِض لأعراض الناس ، إلا أنه كان يتوعد بالهجاء ، ويومئذ كان الناس يتقون الشعراء اتقاء شديداً ، وقد هجا قوما ثم ندم على ما فعل .

توعد زهير

ومن توعده قصيدته الكافية ، وكان الأصمعى يقول « ليس على الأرض كافية أجودَ منها ومن التى لأوس بن حجر» . وكان الحارث بن ورقاء من بنى الصيداء ، قد أخذ إبلا لزهير وأسر راعيه يَساراً ، فقال يعاتبه ثم يتوعده بالهجاء إن لم يرد عليه ما أخذ منه ، وأول القصيدة :

بَانَ الخَلِيطُ وَلَمْ يَأْوُوا لِمَنْ تَرَكُوا ... وَزَوَّدُوكَ اشْتِيَاقاً أَيَّةً سَلَكُوا(١)

ثم يقول :

يَا حَارِ لَا أُرْمَيَنْ مِنكُمْ بِدَاهِيَةٍ ... لَمْ يَلْقَهَا سُوقَةٌ قَبْلِى ولا مَلِكُ

(١) لم ياووا : لم يرحموا .

أَرْدُدْ يَسَاراً وَلاَ تعْنُفْ عَلَيْهِ وَلاَ تَمْعَكْ بِعِرْضِكَ إِنَّ الغَادِرَ المَعِكُ[1]

ثم يقول :

تَعلَّمَنْ ها ! لَعَمْرُ اللهِ ذَا قَسَماً فاقْدِرْ بِذَرْعِكَ وانْظُرْ أيْنَ تَنْسَلِكُ

لَيَأْتِيَنَّكَ مِنِّى مَنْطِقٌ قَذَعٌ بَاقٍ كما دَنَّسَ القُبْطِيَّةَ الوَدَكُ[2]

وفيها وصف الناقة والفرس ، وشبهها بالقطاة التى يطاردها كاسر من جوارح الطير ، وهى فى ذلك الوقت أسرع طيرانا وأشد هُوِيًّا ، ثم ذكر الماء والنبات ، وتخلص إلى ما ذكرناه من العتاب والوعيد .

هجاء زهير

وقصيدته فى الهجاء — وهى واحدة — قالها فى قوم غدروا برجل كان جاراً لهم ، وأخذوا ماله فى قصة مذكورة ، أولها :

عَفَا مِنْ آلِ فَاطِمةَ الجِوَاءُ فَيُمْنٌ فَالْقَوَادِمُ فَالْحِسَاءُ

وفيها ذلك التشبيه الحسن الذى ينسب اختراعه إلى زهير ، ويسميه البيانيون « التشبيه المجمل ثم المفصل » قال :

لقد طَالَبْتُهَا ولِكُلِّ شَىْءٍ وَإِنْ طَالَتْ لَجَاجَتُه انْتِهاء

تَنازَعَهَا المَهَا شَبَهاً ودُرُّ النُّحُو رِ وشَاكَهَتْ فيهَا الظِّبَاءُ

فَأَمَّا مَا فُوَيْقَ العِقْدِ مِنْها فَمِنْ أَدْمَاءَ مَرْتَعُهَا الخَلاَءُ[3]

وأَمَّا المُقْلَتَانِ فَمِنْ مَهَاةٍ ولِلدُّرِّ المَلاَحَةُ والصَّفَاءُ

ثم ذكر أصحابه وشرابهم وطربهم ووصفهم فأحسن صفتهم إذ يقول :

وَقَدْ أَغْدُو على ثُبَةٍ كِرَامٍ نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ[4]

---

(١) المعك : بكسر العين الشديد المطل . (٢) القذع : أقبح الشتم . القبطية : ثياب من كتان منسوبة إلى القبط . الودك : الدسم من اللحم والشحم .

(٣) الأدماء : الظبية البيضاء . الخلاء : الموضع الخالى .

(٤) الثبة : الجماعة من الناس .

لَهُمْ رَاحٌ وَرَاوُوقٌ ومِسْكٌ   تُعَلُّ بِهِ جُلُودُهُمُ وَمَاءُ
يَجُرُّونَ البُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ   حُمَيَّا الكَأْسِ فِيهِمْ وَالْغِنَاءُ
تَمَشَّى بين قَتْلَى قَدْ أُصِيبَتْ   نُفُوسُهُمُ وَلَمْ تُهْرَقْ دِمَاءُ

ثم هجا من هجاهم حيثُ يقول :

وَمَا أَدْرِى وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرِى   أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ
فإِمَّا أن يَقولَ بَنُو مَصَادٍ   إِلَيْكُمْ إِنَّنَا قَوْمٌ بَرَاءُ
وإِمَّا أَنْ يَقُولُوا قَدْ وَفَيْنَا   بِذِمَّتِنَا فَعَادَتُنَا الْوَفَاءُ
وإِمَّا أَنْ يَقُولُوا قَدْ أَبَيْنَا   فَشَرُّ مَوَاطِنِ الحَسَبِ الإِبَاءُ
وإِنَّ الحقَّ مقطَعُه ثَلَاثٌ   يَمِينٌ أَو نِفَارٌ أَو جَلَاءُ

إلى أن يقول :

فَمَهْلاً آلَ عَبْدِ اللهِ عَدُّوا   مَخَازِىَ لَا يُدَبُّ لَهَا الضَّرَاءُ(١)
أَرُونَا سُنَّةً لَا عَيْبَ فِيهَا   يُسَوَّى بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ
فَإِنْ تَدَعُوا السَّوَاءَ فَلَيْسَ بَيْنِى   وَبَيْنَكُمُ بَنِى حِصْنٍ بَقَاءُ
وَيَبْقَى بَيْنَنَا قَذَعٌ وَتُلْفَوْا   إِذَا قَوْمًا بِأَنْفُسِهِمْ أَسَاءُوا
وتُوقَدْ نَارُكُمْ شَرَرًا ويُرْفَعْ   لَكُمْ فِي كُلِّ مَجْمَعَةٍ لِوَاءُ

ما وضعه حماد الراوية فى شعر زهير

ومن حديث الرواة ، عن المفضل الضبي وحماد بن ميسرة الراوية ، عند أمير المؤمنين المهدى ، إقرار حماد بما وضع على زهير من قصيدته التى أولها :

دَعْ ذَا وَعَدِّ القَوْلَ فِى هَرِمٍ   خَيْرِ البُدَاةِ وسَيِّدِ الحَضَرِ
تَاللهِ قَدْ عَلِمَتْ سَرَاةُ بَنِى ذُبْيَا   نَ عَامَ الحَبْسِ وَالْأَصِرِ
أَنْ نِعْمَ مُعْتَرَكُ الجِيَاعِ إِذَا   خَبَّ السَّفِيرُ وَسَابِئُ الخَمْرِ

(١) لا يدبّ لها الضراء : لا يستر أمرها ولا يخفى ، والضراء ما تواريت به من شجر ونحوه ، ويقال دبّ الضراء إذا ستر أو أخفى أمره .

ولنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أَنْتَ إِذَا   دُعِيَتْ نَزَالِ وَلُجَّ فِي الذُّعْرِ

وهو ثلاثة الأبيات الآتية :

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحَجْرِ   أَقْوَيْنَ مُذْ حِجَجٍ ومُذْ دَهْرِ
لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا وغَيَّرَهَا   بَعْدِى سَوَافِي المُورِ والقَطْرِ
قَفْراً بِمُنْدَفِعِ النَّحَائِتِ مِنْ   ضَفْوَى أُولَاتِ الضَّالِ والسِّدْرِ

وينسب إليه قصيدة قالها فى النعمان بن المنذر حين طلبه كسرى وأراد الغدر به ، فهرب وضافته عبس ثم ارتحل عنهم وأثنى عليهم ، قالوا وهى لا تشبه كلام زهير وليست له و إنما هى لغيره وأولها فى ديوانه :

ألاليتَ شِعْرِى هل يرى الناسُ ماأرى   من الأمرِ أو يَبْدو لَهُمْ ما بَدَا لِيا

وفى ديوانه ثلاثة الأبيات الآتية :

إِنَّ الرَّزِيَّةَ لَا رَزِيَّةَ مِثْلُهَا   ما تَبْتَغِى غَطَفَانُ يَوْمَ أَضَلَّتِ
إِنَّ الرِّكَابَ لَتَبْتغِى ذَا مِرَّةٍ   بِجُنُوبِ نَخْلَ إذا الشُّهُورُ أَحَلَّتِ
ولَنِعْمَ حشْوُ الدِّرعِ أنت لنا إذا   نَهِلَتْ من العَلَقِ الرِّمَاحُ وعَلَّتِ

قيل انه رثى بها أبا حارثة أو غيره ، وفى طبقات الشعراء لابن سلام عن أبى عبيدة أنها ليست له و إنما هى لقُرَاد بن حَنَش من شعراء غطفان ، قال أبو عبيدة « وكان جيد الشعر قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدّعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ادعى هذه الأبيات اه » .

نسبه واتصال الشعر فى عقبه

وهو زهير بن أبى سلمى واسمه رَبيعة بن رِيَاح من مُزَينة ونشأ فى غَطَفَان ، قالوا ولم يتصل الشعر فى أهل بيت من العرب مثل ما اتصل فى بيت زهير ، كان أبوه شاعراً ، وابناه كَعْب و بُجَيْر شاعرين ، وابن ابنه المضرَّب شاعر ، وأخته الخنساء شاعرة أيضا ، وحفيده هو القائل ولعله يعنى مُصْعَب بن الزبير :

إنى لأصرف نفسى وهى صابِرَة   عن مُصْعَب ولقد بانَتْ لى الطُّرُقُ

رَعْوَى عليه كما أَرْعَى عَلَى هَرِمٍ جَدِّى زُهَيْرٍ وَفِينا ذَلِكَ الخُلُقُ
مدحُ المُلُوكِ وَسَعْىٌ فى مَسَرَّتِهِمْ ثم الغِنَى وَيَدُ المَمْدُوحِ تَنْطَلِقُ

ولا ينبغى أن يكون زهير — إلى حدّ ما — من المكتسبين بالشعر ، إذ لم يعرف إلا قليلا أنه اختصّ بغير آل أبى حارثة كما أسلفنا والله أعلم .

٤ — أعشى قيس

نشأته

قد لا يكون يسيراً أن يتصل بحث الأدب بالحياة الأولى ، التى يحتمل أن يكون نشأ فيها الأعشى كغيره من شعراء هذه الجاهلية المتأخرة ، وكل مايستطيع البحث أن يتخذه وسيلة لتصوير هذه النشأة ، أن يتكئ على ما أجمع الرواة عليه من أنه بدأ حياته بالرواية لخاله المُسَيَّب بن عَلَس ، وينبغى أن يكون غلاما حين بلغ أشده يلزم خاله ، فيحفظ شعره ويرويه ويذيعه ، وتكون هذه التربية الخاصة بعض ما أعان على نُضْجِ موهبته الفنية فى نفسه ، ويتصل بذلك اشتراكه فى شهود الملاحم الأدبية التى كانت يومئذ تنهض نهوضاً حثيثاً بالاجتماع العربى من سائر أقطاره فى الأسواق العامة والمواسم الجامعة ، وقد صارت آخر هذا العصر — كما قدمنا فى أكثر من موضع — مجالا للتمحيص والنقد ، وأداة قوية للإصلاح العام . وطبيعى أن يكون الأعشى — وهو شاعر — أكثر شىء مسايرة لهذه النهضة وإذكاء لسعيرها بما سير فى الآفاق من الشعر ، وبما نهض به من التجويد والصنع .

اتصاله بخاله المسيب

ويقول الرواة إنه أول من سأل بشعره ، وانتجع به أقاصى البلاد ، ويؤخذ من ذلك أنه كان فى نفسه عامل آخر يعتبر من أقوى دواعى الشعر وفواعله ، ذلك هو حبّ الكسب والرغبة فى تحصيل المال ، وستعلمون مما سنقصه من أخباره أنه كان منهوماً بكثير من الشهوات ، كالشراب والغناء والقمار والزنا ، وأن هذه الآفات .« وكذلك تفعل بالناس » هى التى أمرضت نفسه ، وطامنت من عزّته ،

فلم يكن يبالى من يمدح ولا من يسأل ، إذ كان همه كله مصروفاً إلى تحصيل المال ، لإرضاء هذه الشهوات من كلّ وجه وعلى أى حال .

شعره وشهادة الأدباء له

وينبغى ألا يكون الأعشى فى الجملة مقصرا عن طبقات الفحول الذين سبقوه أو عاصروه ، كامرئ القيس والنابغة وزهير وأشباههم ، وسترون أن بعض أهل العلم يقدمه حتى على هؤلاء ، ويحتج بكثرة طواله الجياد ، وتصرفه فى أكثر فنون الشعر من المدح والفخر والهجاء والوصف والغزل ، ويقول ابن سلام إن أبا جعفر المنصور أرسل إلى حمّاد الرواية رسولا يسأله عن أشعر الناس فقال : نعم ذاك الأعشى صنّاجُها ! وسئل مروان بن أبى حفصة وهو شاعر عباسى كان يتشبه بزهير فى تنقيح أشعاره فقال أشعر الناس الذى يقول :

قول مروان بن أبى حفصة فى الأعشى

كِلاَ أَبَوَيْكُمْ كانَ فَرْعَ دِعَامَةٍ وَلٰكِنَّهُمْ زادوا وأُصْبَحتَ نَاقِصَا

يعنى الأعشى . قال وكان أبو عمرو بن العلاء يقول « عليكم بشعر الأعشى فانى شبهتُه بالبازى يصيد ما بين الكُرْكِىّ إلى العَنْدَلِيب » وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده « أدبهم برواية شعر الأعشى ، فإنه — قاتله الله — ما أصلَبَ صخْرَه وأعذَبَ بحره . »

وكانوا يسمونه صنَّاجَةَ العرب ، لأنه كان يتغنى فى شعره ، وقيل لجهارته وحسن إنشاده وجلبة شعره ، قالوا حتى كأنك حين تسمعه تظن أن منشداً آخر ينشد شعره معه ، ويقولون إنه كان أشعر الناس إذا طرب ، ويقولون ذلك فى امرئ القيس إذا ركب ، وفى النابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب .

وستجدون أنه كان حقا صادق العاطفة حين يتجه مع هذه الطبيعة المترددة فى نفسه بين الشهوة والطمع ، وحين يتحدث عن الشراب واللهو مع من كانوا ينادمونه من خلعاء الفتيان ، وحين تهزه أرْيَحِيَّة كريم قد أجزل حِباءه أو وصله على إقلال وفاقة ، والصلة حينئذ كالغيث فى الأرض الجدبة واقعة موقعها بالغة أثرها ، وأنه كان يُقْذِع فى هجاء الأشراف ، ويكذب عليهم لا لتِرَة ولا ذنب سوى أنهم لم يوفقوا إلى بَلّ هذه اللهوات الصادية بجزيل العطاء .

ثم يمده الطمع إلى ما عندهم ، أو تدفعه الحاجة إلى حمامم ، فيعود فيمدحهم ويتوب إليهم ، وهو فى ذلك أدنى إلى العذر من أمثال أبى الطيب المتنبي الذى مدح كافوراً فرفعه على الناس ، ثم لما يئس مما كان يطمع فيه عنده رجع فذمه بما لم يسمع بمثله إقذاعاً وبذاذة ، ومهما يكن من شيء فلا بدّ من الإقرار للأعشى بأنه كان ممتازاً بغزارة الشعر ، وكثرة الطوال الجياد ، ومدائح الملوك ، ونعت الخمر ، وقد كان له معصر يستخرج فيه ما يهديه إليه الناس من أعنابهم ، وكان يختلف إلى نَصارى الحيرة وأساقِفة نَجْران ، ويقيم عندهم على الشراب والغناء ، ويتلقن بعض عقائدهم ، فلم يكن بدعا أن يجيد صفة الخمر ويتنوّق فى وصف سقاتها وشرابها . .

ما يمتاز به الأعشى

ولذهاب شعره فى الآفاق العربية ، ونفاقه عند الملوك والسوقة ، ولمقاماته فى عكاظ ، وما كان من تنويه قضاتها بأمره ، رهبه الناس رهبة شديدة ، ولم يغض منه التكسب بالمديح ، وصار لشعره من الجلالة والتأثير ما ليس لشعر غيره ، فكان يرفع الخامل المتروك ، ويطأطئ من كبرياء الأشراف ، وهو من هذه الناحية يعتبر عاملا قويا من عوامل نهضة الشعر فى هذا العصر .

هجاؤه رجلا من كلب

وقد أشرنا فيما سبق إلى قصته مع المحلَّق وشعره فيه ، ويذكرون أنه هجا رجلا من كلب بقوله :

بَنُو الشهرِ الحرام فَلَسْتَ مِنهُمْ وَلَسْتَ من الكرامِ بنِي عُبَيْد
وَلا مِنْ رَهْطِ جَبَّار بن قُرْطٍ ولا مِنْ رَهْطِ حارِثَةَ بنِ زَيْدِ

فقال الكلبي : لا أبا لك ! أنا أشرف من هؤلاء ! ولزمه هجاء الأعشى ، فعيره الناس به ، واتفق أن أغار الكلبي على أهل حيّ وفيهم الأعشى ، فأسره وهو لا يعرفه ، ثم أقبل حتى نزل بشُرَيح بن السموءل بحصنه الأبلق ، ومرّ شريح بالأسرى فناداه الأعشى بقوله :

حديثه مع شريح بن السموءل

شُرَيحُ لا تَتْرُكَنِّي بَعْدَ ما عَلِقَتْ حبالُكَ اليوم بَعْدَ القِدِّ أظفارِي

وهى قصيدة وسنذكرها بعد ، فاستنقذه شريح من أسره وسرحه قبل أن يعرفه أو يوقع به .

السبب فى هجائه لعلقمة

ويذكرون السبب فى هجائه لعلقمة بن عُلاثة ـ أحد أشراف بنى عامر بن صَعْصَعَة ـ أنه كان عائداً من بلاد اليمن بِحِباء الأسود العَنْسِى ، وكان فيما حباه به متاع وبز وطيب ، فنزل بعلقمة وقد خاف ذُؤبانَ العرب على ما معه ، فقال له أتجيرنى من العرب ؟ فقال بل من بنى الأحوص . فأخذ حباءه وتحول عنه ، فأتى عامر بن الطفيل ـ وهو ابن عمّ علقمة ومنازعه فى الشرف ـ فسأله ما سأل علقمة من الجوار ، فقال : نعم أجيرك من العرب ومن الجن والإنس والموت ! ! فقال : وكيف تجيرنى من الموت ؟ فقال له : إن متّ وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك بديتك ، فقال : الآن علمت أنك أجرتنى ! ثم مدحه وهجا علقمة بما كان يتوجع منه وهو قوله :

إجارة عامر له من الموت

تَبِيتُونَ فى المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكُم ... وَجَارَاتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصا

وكان يقول : لعنه الله ما أكذبه ! أنحن نفعل هذا بجيراننا ؟

قصده الرسول ثم رجوعه قبل لقائه

وقد بلغ به الحرص أن قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ظهر بمكة بمدحته الدالية ، ولم يكن ـ على ما يظن ـ صادق النية فيما قاله ، بدليل أن أشراف قريش اجتمعوا له فصرفوه عن وجهه ، قالوا إنه نزل بدار عُتْبَة بن ربيعة، فأتاه أبو جهل [وقيل أبو سفيان] فقال يا أبا بصير ! إنه ينهاك عن خلالٍ مالك عنهن من غنى ، فقال وماهنّ ؟ فذكر له القمار والربا والزنا والخمر ، فتلوّم قليلا ، ثم كرّ راجعاً بعد أن أخذ ما جمعته له قريش من المال ، فمات بعد قليل (بِمَنْفُوحَة) إحدى قرى اليمامة . وبها كان منزله .

ونحن الآن نعرض لشىء من شعره ، نفصل منه بعض ما يتسع له المقام ، من مدائحه وأوصافه وخاصة نعته للخمر ، لنبين كيف كان فى هذا إماما للأخطل ، وكيف أن الوصافين للخمر فى العصر العباسى وأستاذهم الحسن

ابن هانئ ، كانوا يتأثرون طريقته و يصطنعون مذهبه .

قال يمدح الأسود بن المنذر أخا النعمان لأمه ، وكانت من تَيم الرِّباب وهى قبائل من إلياس بن مضر ، وكان أخوه ولاه عليهم . و يقول غير أبي عبيدة إنه المنذر بن الأسود ، وكان عنده أسرى من بنى سعد بن ضبيعة ، فأتاه الأعشى فمدحه وسأله أن يطلقهم ففعل :

مَا بُكَاءُ الْـكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ وَسُؤَالِي وَمَا تَرُدُّ سُؤَالِي
دِمْنَةٌ قَفْرَةٌ تَعَاوَرَهَا الصَّيْــــفُ بِرِيحَيْنِ مِنْ صَبًا وَشَمَالِ
لاتَ هَنَّا ذِكْرَى جُبَيْرَةَ أَوْ مَنْ جاءَ مِنْها بِطائِفِ الأَهْوالِ

و بعد أن عذل نفسه لوقوفه — على كبرته — بالأطلال و بكائها وهى قفر قد اختلف عليها الرياح لا ترد السؤال ، وأنه لم يبق عنده مكان لذكرى جبيرة ، لما بينهما من البعد ، عاد كالمتأسى يذكر ما كان يتنعم به منها ، تعزيا بالذكرى لمعاودة ما فات من اللذات ، قال :

فَلَئِنْ شَطَّ بِي المزَارُ لقد أَغْـــدُوا قَلِيلَ الهُمُومِ ناعِمَ بالِ
إذْ هِيَ الهَمُّ والحَدِيثُ وإذ تَعْـــصِي إلىَّ الأميرَ ذَا الأقوَال
غزله ووصفه للخمر
ظَبْيَةٌ من ظِباء وَجْرَةَ أَدْمَا ءُ تَسَفُّ الـكَباثَ تحتَ الهَدَال(١)
وكأن السُّمُوطَ عَلَّقَهَا السِّلْــــكُ بعِطْفَىْ جَيْداءَ أُمِّ غزَال(٢)
وكأن الخمرَ العتيقَ من الإسْفَنْــــطِ ممزُوجَــةً بماء زُلاَل(٣)
باكَرَتْها الأغْرابُ فى سِنَةِ النو م فتجرِى خِلاَلَ شَوْكِ السَّيَال(٤)

---

(١) الـكباث : ثمر الأراك . الهدال : ما استرسل من أغصانه .

(٢) السموط : جمع سمط ، وهو العقد . علقها : عكفها .

(٣) الإسفنط : أجود الخمر وأغلاها . (٤) الأغراب : الأسنان . واحده غرب . السيال : نبات له شوك أبيض مستطيل .

فاذهبي ما إليكِ أدْرَكَنى الحِلْـــمُ عَدانى عن هَيْجِكُم أشْغَالى

ثم جعل هذا البيت الأخير بمثابة التخلص إلى ما هو أحق بالذكر مما هو فيه ، من الإفاضة فى أوصاف الممدوح ، ومهد لهذا الغرض بذكر الناقة التى أتعبها فى المسير إليه ولم يطل حتى قال :

لا تَشَكَّىْ إلىّ وانْتَجِعِى الأسْـــوَدَ أهلَ النَّدَى وأهلَ الفَعالِ
فرعُ نَبْعٍ يهتزُّ فى غُصُنِ المجـــد غزيرُ النَّدى شديدُ المِحال
عنده البرُّ والتُّقَى وَأَسَا الصَّدْ ع وحَمْلٌ لمعضِلات الثِّقَال
وصِلاتُ الأرْحامِ قد عَلِمَ النَّا سُ وفَكُّ الأسْرَى من الأغْلال
وهَوانُ النَّفْسِ الكريمةِ للذِّكْـــر إذا ما التقتْ صُدورُ العَوالى
أرْيَحِىٌّ صَلْتٌ يظَلُّ له القَوْ مُ رُكُوداً قِيامَهُمْ للهِلال
إنْ يُعاقِبْ يكُنْ غرامًا وإنْ يُعْـــطِ جَزِيلاً فإنَّهُ لا يُبَالى

مديحـــه للأسود

وبعد أن وصف أريحيته ، وذكر ما يهب للمنتجعين فى عطاياه من الإبل المطافيل والخيل الجياد ، والجوارى فى أكسية الإضريج والصحاف والمكاكيك ، أخذ يصفه كذلك بالنجدة واستحكام الأمر ، ويذكر جنده وعدته وقوة ولايته لرعيته وإخضاعه لها قال :

جنـــدُكَ التالِدُ العَتيقُ من السا دات أهلِ القِبَابِ والآكالِ[١]
غَيْرُ مِيلٍ ولا عَوَاوِيرَ فى الهَيْـــجَا ولا عُزَّلٍ ولا أكْفَالِ[٢]
ودُرُوعٍ من نسجِ داودَ فى الحر بِ وسُوقٍ يُحْمَلْنَ فوقَ الجمالِ[٣]
لم يُنَشَّرْنَ للصَّدِيقِ ولكِنْ لِقِتَالِ العَـــدُوِّ يَوْمَ القِتَالِ

(١) الآكال : قطائع كانت الملوك تطعمها الأشراف . (٢) الميل : جمع أميل ، وهو الجبان أوالذى يميل على سرجه . العواوير : مفرده عوّار كرمان، وهوالجبان أيضاً . العزّل: جمع أعزل ، وهو من لا سلاح معه : الأكفال : جمع كفل من لا يثبت على الخيـل ، أو من يتأخر فى الحرب تلمساً للفرار . (٣) الوسوق : جمع وسق ، وهو الحمل .

لامرئٍ يجعَلُ الأداةَ لرَيْبِ الدَّهْـــرِ لا مُسْـنَدٍ ولا زُمَّالِ(١)
كُلَّ عامٍ يقودُ خيلا إلى خَيْــلٍ دِفَاقًا غَدَاةَ غِبِّ الصِّيال(٢)

ثم ختمها بقوله :

لن تزالوا كذلكُم ثم لا زلـــتَ لَهُمْ خَالِدًا خُلُودَ الجبَال

هكذا رويت القصيدة فى شرح أبى العباس أحمد بن يحيى الملقب بثعلب النحوى ، المتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين ببغداد ، من رواية الأصمعى وأبى عبيدة وأبى عمرو وغيرهم ، وهى على هذا لم تخالف ما جرت عليه عادة الشعر فى المديح ، من الابتـــداء بذكر الديار ، والإلمام بالغزل والوصف ، والانتهاء إلى ذكر شمائل الممدوحين والتنويه بمفاخرهم وآثارهم ، ولكن فى غير هذا الشرح من الكتب ، كجمهرة أشـعار العرب وبعض المعلقات ، تضاف إليها أبيات طويلة ، ترونه فيها قد عـدل من المدح إلى الحديث عن نفسه ، وما يتصل بها من وصف الشراب والصيد والفرس والأصحاب ، وانتهى من ذلك كله بقوله :

ذَاكَ عَيْشٌ شَهِدْتُهُ ثم وَلَّى كُلُّ عيشٍ مَصِيرُه للزَّوَال

وقد أسلفنا لكم بعض هذه الأبيات فى الأبواب السابقة ، وقد تكون هذه من قصيدة أخرى ، لبس على الناس اتفاقها مع تلك فى العروض والقافية ، على أن الأعشى له مثل هذا الخلاف فى غير هذه أيضا . وعلى كل حال فهى مسوقة فى ذيل هذا الشرح وحدها مما روى الناس للأعشى مما ليس فى ديوانه ، وتعد مدحته هذه عند بعض العلماء من المعلقات ، وبعضهم يعد مكانها لاميته الأخرى « ودع هُرَيْرَةَ إنَّ الركْبَ مُرْتَحِل » وستأتى بعد ، وقد رأيتم فيما سقناه من

(١) المسند : الضعيف . الزمّال : الجبان .
(٢) الدفاق : كَكتاب وغراب السريعة . الصيال : الإقدام .

شعره مثلا من صلابة الكلام واستوائه ، ونسوق مثلا آخر وهو مديحه لقيس ابن معد يكرب الكِنْدى من قصيدته التى مطلعها :

رحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أَجْمَالَها ... غَضْبى عليكَ فما تقول بَدَا لَهَا

وفيها تناول حالة من حالات لذاته ، فى مبيته بهذه الروضة ، التى شبه زهرها وأنوارها بما تنشره التِّجَار من البُرُد والرحال ، ومخاتلة الغيور الحذر عن حبة قلبه ، قال :

مدحته لقيس بن معديكرب

ومَصاب غادِيةٍ كأنَّ تِجَارَها ... نَشرَتْ عليه بُرودَها ورحالَها[1]

قد بِتُّ رَائدَها وَشَاةَ مُحاذِرٍ ... حَذَراً يُقِلُّ بعيْنه إغْفَالَها

فَظَلِلْتُ أرعاها وظَلَّ يَحُوطُها ... حتى دَنَوْتُ إذا الظَّلامُ دَنَا لَها

فرَمَيْتُ غَفْلةَ عَينِه عن شاتِهِ ... فأصَبْتُ حَبَّةَ قلبِها وطِحَالَها[2]

حَفِظَ النَّهَارَ وباتَ عنْها غافِلاً ... فخَلَتْ لصاحِبِ لَذَّةٍ وخَلالَها

إحدى أولياته فى الخمر

وسبيئةٍ مما تُعَتِّقُ بَابِلٌ ... كدَمِ الذَّبيحِ سَلَبْتُها جِريَالَها[3]

وغريبَةٍ تأتِى الملوكَ حَكِيمةٍ ... قد قلتُها ليُقالَ من ذَا قَالَها

وبعد ذلك جعل يصف الناقة ، ويذكر حملها إياه إلى قيس ، كما فعل فى القصيدة الأولى ، ثم انتهى منها إلى المدح ، فذكر النيل وفاضل بينه وبين يد الممدوح فى العطاء ، وكثيرا ما يتردد ذكر النيل والفرات فى شعره ، قال :

ما النيلُ أصبحَ زاخراً فى مَدِّه ... جادَتْ له رِيحُ الصَّبَا فجَرَى لَها

زَبِدًا بِمِصرَ وكان يَسْقِى أهْلَها ... رَغَداً تُفَجِّرُه النَّبِيطُ خِلالَها

يومًا بأجْوَدَ نائلاً مِنْهُ إذَا ... نَفْسُ البَخيلِ تَجهَّمَتْ سُؤَّالَها

---

(١) مصاب غادية : مكان صوب الغادية ، وهى السحابة وشبه نوره وزهره ببرود التجار ورحالها . (٢) يقصد بالشاة المرأة .

(٣) السبيئة : الخمر . جريالها : حمرتها « يقول شربتها فظهرت حمرة لونها فى وجهى وأعطافى »

الواهبُ المـائةَ الهِجانَ وعبْدَها ... عُوذاً تُزَجِّى بينَها أطفالَها

ثم أطال فى ذكر مآثر الممدوح ومساعيه فى كندة حتى قال :

وإذا تجىء كتيبةٌ ملمومةٌ ... خرساءُ يخشى الدّارعونَ نِزالَها

كُنتَ المقدَّمَ غيرَ لابسِ جُنَّةٍ ... بالسيف تَضْرِبُ مُعْلِماً أبْطالَها

وعَلِمْتَ أن النفس تَلْقى حَتْفَهَا ... ما كان خالقُها المليكُ قَضَى لَها

وقد ترون أنه يكاد يخالف طريق الجاهليين بما قد يظهر منه من بعض الإسراف فى المدح ، مما يوشك أن يكون مبالغة غير معهودة فى الشعر فى هذا العصر .

مديحه لسلامة ذى فائش

وهذه مدحة أخرى لسلامة ذى فائش أحدِ ملوك اليمن ، وهى على هذا النمط من الطول والجودة وقوة الاطراد والتدفق ، وفى صدرها وصف للخمر سترون أن العباسيين الذين اشتهروا بها ، وخاصة أبا نواس ، قد اصطنعوا فى ذلك مذهب الأعشى وطريقته بعينها ، وهذا مطلع القصيدة :

أجدَّك لم تَغْتمضْ ليلةً ... فترقُدَها مع رُقَّادِها

قال بعد أبيات :

أتانِى يُؤامِرُنى فى الشَّمُولِ ليلاً فقلتُ لهُ غادِها

فَرُحْنا نُباكِرُ جِدَّ الصَّبُوحِ قبل النُّفوسِ وحَسَّادِها

حديثه فى ارتياد الخمارين ووصفه للسوم فى الخمر والساقى

فقُمنا ولما يَصحْ دِيكُنا ... إلى جَوْنةٍ عِنْدَ حَدَّادِها(١)

تَنَخَّلَها من بِكارِ القِطافِ أزيرِقُ آمِنُ أكْسادِها(٢)

فقُلنا لهُ هذهِ هاتِها ... بأدْماءَ فى حَبْلِ مُقْتادِها(٣)

---

(١) الجونة : الخمر أوالخابية التى توضع فيها . حدادها : صاحبها الذى يحد الناس عنها .

(٢) تنخلها : تخيرها . (٣) الأدماء : الناقة التى يباضها إلى سمرة .

فقال تزيدونَني تِسـعَةً وليْستْ بِعَدْلٍ لأنْدادِها
فقلتُ لِمَنْصَفِنا أعْطِه فلمَّا رَأى حِرْصَ شُهَّادِها[١]
أضاءَ مِظلَّتَهُ بالسراجِ واللَّيلُ غامِرُ جُدَّادِها[٢]
دراهِمُنا كلُّها جَيِّدٌ فلا تَحبِسنَّا بتَنْقَادِها
فقام فصبَّ لنا قَهْوَةً تُسكِّنُنَا بعد إرْعادِها
كُمَيْتاً تَكَشَّفُ عن حُمرةٍ إذا صرَّحَتْ بعدَ إزْبادِها
فجَال عَلينا بإبريقِهِ مُخضَّبَ كَفٍّ بِفِرْصَادِها[٣]
فباتتْ رِكَابٌ بأكوارِها لدَينا وخَيْلٌ بألبادِها

ثم ترك هذا القصص الجميل ، إلى ذكر البيداء ، والناقة المشبهة للأتان المطرَدة الخائفة ، وانتهى إلى ذكر الممدوح فقال :

تَوَءمٌ سَلامةَ ذِى فائشٍ هو اليومَ حُمَّ لميعادِها
وكم دونَ بيتك من صَفْصَفٍ وَدَكْداكِ رملٍ وأعْقَادِها[٤]
ويهْماءَ باللَّيل غَطْشَى الفَلَاةِ يُؤْنِسُنى صوتُ فَيَّادِها[٥]
فإنْ حِمْيَرٌ أصْلَحَتْ أمْرَها ومَلَّت تَسافهُ أولادِها
وُجِدْتَ إذا اصطلحوا خَيرهُمْ وزنْدك أثْقَبُ أزْنادِها

إلى قوله :

وقومُك إن يَضْمنوا جارةً يكونوا بموضعِ أنْضَادِها[٦]

---

(١) النصف : الخادم . (٢) المظلة : الخيمة . الليل غامر جدادها : شامل ومغطى . الجداد : الأهداب . (٣) الفرصاد : صبغ أحمر ويطلق على التوت الأحمر أيضاً .

(٤) الصفصف : المستوى من الأرض لاينبت شيئاً . الدكداك : أرض فيها غلظ . الأعقاد : جمع عقد بفتحتين ، ما انعقد وتراكم من الرمل .

(٥) اليهماء : الأرض لايهتدى فيها . غطشى : مظلمة سوداء . الفياد : ذكر البوم .

(٦) الأنضاد : من الجبال جنادل بعضها فوق بعض ، ومن القوم جماعتهم ، والغرض منها في البيت يكونون حماتها .

فلنْ يَطلبوا سِرَّها لِلغِنَى وإنْ يُسْلِموها لأزهادِها
أُناسٌ إذا شَهِدوا غارةً يكُونون ضِدًّا لأندادها

وله قصيدة أخرى مثل هذه فى العروض وتختلف عنها فى حرف القافية ، ساقها فى مدح قيس بن معديكرب ويزيد بن عبد المَدان من ملوك نَجْران وهى التى يقول فيها :

تداويه من الكأس بالكأس

وكأسٍ شَرِبتُ على لذَّةٍ وأُخرَى تَداويتُ مِنْها بِهاَ
لِكَىْ يَعلَمَ الناسُ أنى امرُؤٌ أتَيتُ المَسرَّةَ من بابها

وهذا المعنى بعينه هو الذى قاله أبو نواس فى مطلع خمرية له :

دَعْ عنكَ لومِى فإِنَّ اللومَ إغراءُ وَداوِنِى بِالَّتِى كانَتْ هِىَ الدَّاءُ

ثم قال :

وكعبةُ نجرانَ حتمٌ عليـكِ حتَّى تُناخِى بأبْوَابِها
نَزُورُ يزيدَ وعبدَ المسيـح وقَيْساً هُمُ خَيرُ أرْبابِها
إذا الحَبَراتُ تَلوّتْ بِهِم وجَرُّوا أسافِلَ هُدَّابِها
لهم مَشْرُباتٌ لها بَهجةٌ تَروقُ العيونَ بتَعْجابِها

وله مدائح كبيرة فى هَوْذَة بن على الحَنفى صاحب اليمامة ، وفى غيره من أمراء العرب ، ونحبّ أن نذكر لكم أبياتا من قصيدة له فى شَيبان بن شِهاب يهجوه مطلعها « ياجارتى ما كنتِ جارة» وإنما نريد بذلك أن نوقفكم على وزن حرقص ، لا يكثر فى ألسنة الشعراء لاستعصائه على القرائح ، واحتياجه إلى قدرة فطرية بارعة ، قال بعد المطلع :

تُرضيكَ من دَلٍّ ومن حُسنٍ مُخالطه غَرارَهْ[1]
بيضاءُ ضَحوتَها وصَفـراءُ العَشـيَّةِ كالعَرَارَه[2]

(١) الغرارة : الحداثة وقلة التجربة . (٢) العرارة : شجر له نور أصفر قدر شبر .

وسَبَتْكَ حين تَبَسَّمَتْ بين الأرِيكَةِ والسِّتاره

رقة التغزل في شعره

بِقوامها الحَسَنِ الذى جَمَعَ المدادَةَ والجهَارَه

وبِجيدِ مُغْزِلَةٍ إلى وَجهٍ تُزَيِّنُهُ النَّضاره

وَمَهًا يَرِفُّ غُروبُه يشْفِى المُتَيَّمَ ذَا الحَرارَه[1]

كَذُرَى مُنَوِّرِ أُقْحُوانٍ قد تَسامَقَ فى قَرارَه

وغدائرٍ سُودٍ على كَفَلٍ تُزَيِّنُهُ الوَثَارَه

وأرتك كَفًّا فى الخِضَابِ ومِعْصَمًا ملءَ السِّوارَهْ

وإذا تُنازِعُكَ الحديثَ ثَنَتْ وفى النفس أُزْوِرَارَهْ

وله قصائد أخرى طوال على هذا الروىّ فى المدح والهجاء ، وليس من شأننا هنا استقصاء كلّ ذلك ، ولا الإحاطة بكل من مدح الأعشى ولا كل من هجا ، وحسبنا ما ذكرنا من مدائحه وخمرياته ، ونذكر الآن بعض أهاجيه ، واستعطافه لشريح بن السموءل حين استنقذه من الكلبى ، ومدحته فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نختم ترجمته بذكر ما قال الرواة فى نقد كلامه من جيده ورديئه ، ونضيف إلى ذلك مانراه فى هذا النقد .

فمن أهاجيه لاميته المشهورة وهى فى يَزِيدَ بن مُسْهِرِ الشيبانى ، وكان أبو عبيدة يقول « لم تقَل جاهليةٌ على رويها أجود منها ، كما لم تُقَلْ إسلامية أجودمن قصيدة القَطَامِى التى مطلعها : إنا محيوك فاسلم أيها الطلل» قال الأعشى:

أحد مطالعه المذكورة

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وهل تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّها الرَّجُلُ

غرّاءُ فرْعاءُ مَصْقُولٌ عَوارِضُها تَمشى الهُوَيْنَى كما يمشى الوَجِى الوَحِلُ[2]

كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِها مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

---

(١) المها : جمع مهاة ، وهو هنا الأسنان . الرفيف : اللمعان . الغروب : الحدود أو أطراف الأسنان . (٢) الوجى : الذى يشتكى حافره .

صِفرُ الوِشاحِ وَمِلْءُ الدِّرْعِ بَهْكَنَةٌ　　إذا تَثَنَّتْ يَكادُ الخَصْرُ يَنْخَزِلُ (١)

إلى أن قال :

ما رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ　　خَضْراءُ جادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ (٢)
يُضاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِقٌ　　مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ (٣)
يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رائِحَةٍ　　وَلا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إذْ دَنا الأُصُلُ (٤)
عُلِّقْتُهَا عَرَضًا وَعُلِّقَتْ رَجُلًا　　غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَى ذَلِكَ الرَّجُلُ

وقد مضى يصف المطر والبرق ، وأجاد فى هذا وفى كل ما فى القصيدة من الأغراض ، وهو الذى أعجب أبا عبيدة وغيره ، أما الهجاء فهو غير فاحش ، وقد يكون أشبه بالعتاب والتوعد ، لأنه يتعرض فيه لرجل من قومه

قال فى المخالسة ، وهى من المعانى التى يكررها الأعشى فى هذا الموضع من قصائده :

مخالسته ووصفه للشراب والساقى

وقد أخالِسُ ربَّ البيت غَفْلَتَهُ　　وَقد يُحاذِرُ مِنِّى ثم ما يَئِلُ (٥)
وَقد أَقُودُ الصِّبا يَوْمًا فيتبعُنى　　وقد يُصاحِبُنى ذو الشِّرَّةِ الغَزِلُ
وقد غدوتُ إلى الحانوتِ يَتبعُنى　　شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ (٦)
فى فِتْيَةٍ كَسُيوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا　　أَنْ لَيْسَ يدفعُ عَنْ ذِى الحِيلَةِ الحِيَلُ
نازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحانِ مُتَّكِئًا　　وَقَهْوَةً مُزَّةً راوُوقُهَا خَضِلُ (٧)
يَسْعَى بِهَا ذو زُجاجاتٍ له نُطَفٌ　　مُقَلِّصٌ أَسْفَلَ السِّرْبالِ مُعْتَمِلُ (٨)

وبعد ما تناول هذا اللهو العجيب فى ذكر المخالسة والصبا ، وصحبة الماجن

(١) صفر الوشاح : ضامرة الكشح دقيقة الخصر ، ولكنها ملء القميص . البهكنة : الكبيرة الخلق ، وقيل الجارية الخفيفة الروح (٢) الحزن : المرتفع من الأرض .
(٣) يريد بكوكب هنا جماعة الزهر الذى يتفتح ويشرق عند شروق الشمس . المؤزر : المغطى . المكتهل : الكامل التام . (٤) الأصل : جمع أصيل ، الوقت من العصر إلى العشاء . (٥) يئل : ينجو . (٦) شاو : شواء . المشل والشلول والشلشل : الخفيف فى الحاجة ، السريع فى الخدمة ، وكذلك الشول .
(٧) الراووق : المصفاة . الخضل : المبتل . (٨) مقلص : مشمر .

الغزل والإخوان المسعفين ، وتنقلهم بالرياحين على الشراب ، ووصف اعتمال الساقى وجهده فى متابعتهم على الشراب ، وقد أجاده وصوره وشمر سرباله ، جعل يقرع يزيد ، ويذكره بهوان نفسه وضعفه عما يحاول من قرع صفاتهم ونحت أثلتهم ، قال .

تعريضه ليزيد الشيباني

أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شيبَانَ مَأْلُكَةً أَبَا ثُبَيْتٍ أَمَا تَنْفَكُّ تَأْتَكِلُ (١)
أَلَسْتَ مُنْتَهِيًا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنَا وَلَسْتَ ضَائِرَهَا مَا أَطَّتِ الْإِبِلُ (٢)
كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ

ثم ختمها بالافتخار بقومه ، وذكر بلاءهم يوم الحنو وهو يوم ذى قار المشهور ، وقال :

نَحْنُ الفَوارِسُ يَوْمَ الحِنْوِ ضَاحِيَةً جَنْبَى فُطَيْمَةَ لَا مِيلٌ ولا عُزُل
قَالُوا الطِّرَادَ فَقُلْنَا تِلكَ عَادَتُنا أو تَنْزِلُونَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُزُل

وقد ذكرنا سبب هجائه لعلقمة بن علاثة ، وله فيه جملة قصائد ، نذكر منها :

شاقك من قتلةَ أطلالُها بالشَّط فالوَتْرِ إلى حَاجِرِ

وقد أساء فيها إلى علقمة وكذب عليه وأفحش ، وفى صدرها غزل خير لنا أن نورده لكم لرقته وحسنه ، قال :

وصفه لقتلة

وقد أراها وسْط أترابها فى الحيِّ ذى البهجة والسَّامر
كدُمية صُـــوِّر محرابُها بمُذْهَب فى مَرْمَرٍ مَائرِ
أو بيْضةٍ فى الدِّعْصِ مكنُونةٍ أو دُرَّة شِيفَتْ لَدَى تاجر (٣)
يَشفى غليل النفسِ لاهٍ بها حَوْرَاء تَسبى مُقلةَ الناظر
عهدى بها فى الحيِّ قدسُرْبِلَتْ هيفاء مثلُ المُهرَةِ الضَّامِرِ

---

(١) المألكة : الرسالة . تأتكل : تحقد وتلتهب من الغيظ . (٢) الأثلة : الأصل . أطت : أنت تعبا . (٣) الدعص : المجتمع من الرمل . شيفت : جليت .

قد نَهَدَ الثَّدْىُ على نحرها ... فى مَشرق ذى صَبَحٍ نائر
لو أسندَتْ ميْتاً إلى صدرها ... عاشَ ولم يُنْقَل إلى قابر
حتى يقولَ الناسُ مما رَأَوْا ... يا عَجَبـــا للميِّتِ النَّاشر
دَعْها فقد أعذَرْتَ فى حُبِّها ... واذْكُرْ خَنا علقمَةَ الفاجر
علقمُ ما أنتَ إلى عامرٍ ... الناقِضِ الأوْتَارِ والوَاتِرِ

هجاؤه لعلقمة ابن علاثة

وعلى هذا النمط أطال وتعرض للحكومة بين عامر وعلقمة ، وهجاه أيضا بغير هذا ، ولـكنه عاد فمدحه وندم واعتذر إليه مما كان منه ، وكذلك كان يفعل ، ويضاف إليه قوله فى أوس بن لام الطائى ، من أبيات ليست فى ديوانه الذى شرحه ثعلب وفيها يقول :

سأمحُو بمدحٍ فيك إذْ أنا صادقٌ ... كِتابَ هِجَاء سارَ إذْ أنا كاذبُ

أما استعطافه لشريح ، فقد أشار فيه إلى أبيه السموءل ، وما كان من وفائه بودائع امرئ القيس ، ورضاه بقتل ولده رغبة عن معرة الغدر ، وإيثاراً لفضيلة الوفاء الذى جعله على الدهر مضرب المثل ، ولا يزال يقال «أوفى من السموءل» ثم قال :

حديثه مع شريح بن السموءل

شُريحُ لا تَترُكَنِّى بعد ما عَلِقَت ... حبالُكَ اليومَ بعد القِدِّ أظفَارى
كُنْ كالسموءَلِ إذْ طاف الهُمَامُ به ... فى جَحْفَلٍ كَسَواد اللَّيْل جرَّار
بالأبلق الفرْد منْ تيْماءَ منزِلُهُ ... حِصْنٌ حصين وجارٌ غيرُ غدَّار
إذ سامه خُطَّتى خَسْفٍ فقال له ... قل ما تشاء فإنى سامِـعٌ حَارِ
فقال ثُـكل وغَدْرٌ أنتَ بينَهما ... فاخْـــتر وما فيهما حظٌّ لمختار
فشكَّ غيرَ طويلٍ ثم قال لهُ ... أُقْتُل أسيرَكَ إنِّى مانعٌ جَارِىَ
وسوف يُعْقِبُنِيهِ إن ظَفِرتَ به ... رَبٌّ كريمٌ وبيضٌ ذاتُ أطهار
لا سِرُّهُنَّ لدينا ذائـعٌ أبداً ... وحافظاتٌ إذا اسْتُودِعْنَ أسرارى

وهى طويلة نكتفى بهذا منها ، وقد كان من أمره معه ما ذكرناه لكم آنفاً .

أما قصيدته التى مدح بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد سبق أنه لم يبلغه بها ، لما كان من اجتماع قريش له وصرفهم إياه عن وجهه ، بما أجزلوا له من الحباء ، وهى من الأدلة على ما كان لشعره من التأثير فى العرب ، وشدة توقيهم له وحذرهم منه ، ومطلعها : مدحته فى رسول الله

أَلم تَغْتَمِضْ عيناكَ ليلةَ أَرمَدا   وعَادَكَ ما عادَ السليمَ المسهَّدا

وفيها يقول :

وَمَا زلتُ أبغى المالَ مُذْ أنا يافعٌ   وليداً وكهْلا حين شِبتُ وأَمرَدا
فَإِنْ تَسْأَلِى عَنّى فيَارُبَّ سائِلٍ   حَفِيٍّ عن الأَعْشَى به حيثُ أَصْعَدا
ألا أَيُّهذَا السّائلى أين يَمَّمَت   فَإِنَّ لهَا فى أهل يَثْرِبَ مَوْعِدا

يعنى ناقته ، التى جعل يصفها بالمضاء وخفة التوجس ، والنشاط فى السير ، حتى قال :

فآليتُ لا أَرْثِى لها من كَلاَلَةٍ   ولا من حَفًى حتى تزورَ مُحَمَّداً
متى ما تُنَاخِى عندَ بَابِ ابنِ هاشِمٍ   تُراحِى وتَلْقَىْ من فَواضِله يَدا
نبىٌّ يرى ما لا ترونَ وذكرُه   أغار لعَمْرى فى البلادِ وأَنْجَدَا
له صَدَقَاتٌ ما تَغِبُّ ونَائِلٌ   وليْسَ عطاءُ اليوم مانِعَه غَدا
أَجِدَّكَ لم تسمع وَصاةَ محمد   نبىِّ الإله حين أَوْصَى وأَشْهَدا
إذا أنتَ لم ترحَلْ بزاد من التُّقَى   وَلاَقَيْتَ بَعد المَوْتِ من قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمتْ على ألا تَكُونَ كَمِثْلِهِ   فتُرْصِدَ للأَمْرِ الذى كان أَرْصَدَا

ثم ذكر أشياء من آثار الدعوة الدينية مما تأمر به أو تنهى عنه ، وكان الأعشى يعرف ما يعرف من ذلك عن أحبار اليهود ونصارى الحيرة والشام ، فى طوافه وتقلبه فى تلك البلاد .

نقد القدماء لشعره

روى الأصمعي (وهو أبو سَعيد عبد المَلِك بن قُرَيْب) قال : تناظر رَبَعى ومُضرى فى الأعشى والنابغة فقال المضرى للربعى : صاحبك أخنث الناس حين يقول :

محاورة ربعى ومضرى فى بيتى الأعشى والنابغة

قالت هريرةُ لما جئتُ زائرَها ويلى عليكَ وويلى منكَ يا رَجُلُ

فقال الربعى : أفعلى صاحبكم تعوّل ؟ وهو الذى يقول :

سقط النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَه فتناولَتْه وَاتَّقَتْنَا باليـــد

لا والله ما أحسن هذه الإشارة إلا مخنث ! !

وعندنا أن بيت النابغة ألطف فى هذا المعنى ، فإنه تناول إشارة وحركة يصحبها فى الغالب كلام من كلام النساء فى مثل هـذه الأحوال ، أما الأعشى فذكر « ويلا » وكلاما تفعله مواجن النساء ، وقد لا يتصل بهذا النوع المحبوب فى المرأة من الحياء والخفر ، ولا يزال دل الفعل وحركات الجوارح ، أعشق للمتغزلين حتى من خنث الكلام .

نقد عبد الملك له

وروى محمد بن يزيد المبرد . قال : أنشد عبد الملك بن مروان بيت الأعشى

أتانى يُؤَامِرُنى فى الشمول ليــلا فقلتُ له غَادِها

فقال عبد الملك : أساء ، ألا قال هاتها ! وهو نقد حسن إذ كان الليل بساط الشراب ومسرح السمر والتكشف .

ما نسب فيه الكذب إلى الأعشى

وروى المرزبانى فى « الموشح » عن بعض شيوخه قال : أدركت الناس وهم يزعمون أن أكذب بيت قالتـه العرب فى الجاهليـة قول أعشى بنى قيس ابن ثعلبة :

لو أسندَتْ مَيْتاً إلى صدرِها عاش ولم يُنْقَل إلى قَابِر

ولك أن تقول ليس فى هذا شىء ، لاحتمال أن يقع ذلك لأحد المفتونين بهواها ، كالذى كان يتفق لـكثير من عشاق العرب وخاصة العذريين ، فلقد كان الواحد منهم يلتبط بالأرض ، وتظن به الظنون وأنه قد مات ، فما هو

إلا أن ينادى باسم صاحبته أو تدعى له ، فتمسه أو تحمله بين يديها حتى يصحو ويفيق وكأن لم يكن به شيء على أن مثل هذه المبالغة قد يخف ويسوغ لمكان «لو» في صدر الكلام ، وهي التي سوغت ما ورد من مثل قوله تعالى : « قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ » .

تفضيل الشعبي له على الأخطل وإقرار الأخطل ذلك

وروى صاحب « الأغاني » قال: دخل الأخطل وهو يفوح خَمْراً وَطِيباً على عبد الملك بن مروان وعنده عامر الشعبي فلما رآه قال يا شعبي فعل الأخطل بأمهات الشعراء جميعا لا يكنى ! فقال له الشعبي بأيّ شيء.؟ قال حين يقول :

وتظل تَنْصُفُنا بها قَرَوِيَّةٌ إبريقُها بِرِقاعِهِ مَلْثُومُ(١)
فإذا تعاورَتِ الأَكُفُّ زُجاجَها نَفَحت فَشَم رياحَها المزْكُومُ

ثم قال هل سمعت بمثل هذا ياشعبي؟ قال إن أمنتك قلت لك، قال أنت آمن فقال له أشعر منك والله الذي يقول :

وأَدْكَنَ عاتِقٍ جَحِلٍ رِبَحْلٍ صَبَحْتُ براحه شَرْبا كِراما(٢)
من اللاتي حُمِلْنَ عَلَى المَطايا كَرِيحِ المِسْكِ تستَلُّ الزُّكاما

جعلها الأخطل لقوة ريحها يستطيع المزكوم أن يشم نفحتها ، وجعلها الأعشى تستل الزكام أصلا . فقال الأخطل ويحك من يقول هذا ؟ قال قلت الأعشى ، أعشى بني قيس بن ثعلبة فقال : قُدُّوس ! فعل والله الأعشى بأمهات الشعراء جميعا ولا يكنى أيضاً !

وذكر المرزباني أيضاً أشعاراً عدها من سقط الأعشى ورديئه — وكذلك هي — ومن ذلك قصيدته التي مطلعها :

لعمرُكَ ما طُولُ هذا الزَّمن على المرءِ إلا عَناءٌ مُعَن

جاء فيها :

---

(١) تنصفنا : تخدمنا . ملثوم : مغطى . (٢) الأدكن : المائل إلى السواد . العاتق : القديم . الربحل : العظيم والواسع العطاء .

وَلَم يَسْعَ فى الحرب سعْيَ امرئٍ ... إذا بِطْنَةٌ راجَعَتْــهُ سَكَن
عَلَيْهَا وَإنْ فَاتَهُ أَكْلَةٌ ... تَلَافَى لأخرى عَظِيمَ الْعُكَن
يرى هَمَّـــهُ أبداً خَصْرَهُ ... وهمُّك فى الْغَزْو لا فى السِّمن

قال ومثل هذا الشعر مما يُصدئُ الفهم ، والحق أن المرء إذا لم يفضُل الفضلاء ، فلا خير فيه ولا فضل له ، وفى هذه القصيدة مما استهجنه الممدوح بها نفسه ورده قوله :

وَنُبِّئْتُ قَيْساً ولم أَبْـــلُهُ ... وقد زعموا ساد أَهْلَ اليمن

فعابه بهذا الشك ، قيل فجعل مَكان « وقد زعموا » قوله « على نأيه » ولم يغنه ذلك ، وروى أن كُثَيِّراً أنشد عبد الملك بن مروان قوله فيه :

على ابن أبي العاصِي دِلَاصٌ حَصِينَةٌ ... أجَادَ المسَدِّى سَرْدَهَا وأذالها

عبد الملك وكثير والأعشى

فقال له عبد الملك : وصفتنى بالجبن ! هلا قلت كما قال الأعشى فى قيس ابن معديكرب :

وَإِذَا تكونُ كتيبَةٌ ملمومَةٌ ... خَرْساءُ يَخْشَى الدَّارِعُونَ نِزَالَهَا
كُنتَ المقدَّم غير لابِسِ جُنَّةٍ ... بالسيف تَضْرِبُ مُعْلِماً أَبْطَالَهَا

فقال وصفتك يا أمير المؤمنين بالحزم ووصف صاحبه بالخرق ! يريد بذلك أن يعيب على الأعشى ويحتج لنفسه ، وليس الأمر كما قال ، ذكَرَ أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٦ هجرية « صاحب الوساطة بين المتنبى وخصومه » ما يراه فى هـــذا المقام بعينه قال : إن مذاهب العرب المحمودة عندهم ، الممدوح بها شجعانهم ، التفضل عند اللقاء ، وترك التحصن فى الحرب ، وأنهم يرون الاستظهار بالْجُنَنِ ضربا من الجبن ، وكثرة الاحتفال والتأهب دليل على الوهن ، وأنشد البيتين السابقين للأعشى .

مذاهب العرب فى التأهب والتفضل عند الحرب

نقد يونس النحوى له

قالوا وإن مروان بن أبى حفصة ، أتى حلقة يونس بن حبيب النحوى المتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائة ، وعمره نحو مائة سنة ، فقال : أصلحك الله ، إنى أرى

أقواما يقولون الشعر ، لَأنْ يكشف أحدهم عن سوأته ليمشى فى الطريق أحسن به من أن يظهر مثل ذلك الشعر ! وقد قلت شعراً أعرضه عليك فإن كان جيدا أظهرته ، و إن كان رديئاً سترته ، وأنشده :

طرقَتْك زائرةً فحىِّ خَيالَها بيضاء تخلط بالجمال دَلاَلَها

قادتْ فؤادَك فاستقادَ وَمثلُها قادَ القلوبَ إلى الصِّبَا فَأَمَالَها

وفى هذه القصيدة يقول : يمدح أمير المؤمنين المهدى و يعرض بأعدائه :

هَلْ تَطْمِسُونَ من السماء نُجُومَهَا بأكُفِّكم أو تَسْتُرُونَ هِلاَلَها

أو تجْحَدون مقالَةً من ربكم جِبريلُ بلَّغها النبىَّ فقَالَها

شَهِدَتْ من الأنْفَالِ آخرُ آيَةٍ بتُراثِهِمْ فأردتُمُ إبْطَالَها

قالوا ، فقال له يونس : يا هذا ! اذهب فأظهر هذا الشعر ، فأنت والله أشعر فيه من الأعشى . يريد قصيدته « رحَلَتْ سميَّةُ غُدوةً أجمالَها » فقال له مروان : سؤتنى وسررتنى ! سررتنى لارتضائك الشعر ، وسؤتنى لتقديمك إياى على الأعشى وأنت تعلم مكانه ، فقال له إن الأعشى قال :

فرميْتُ غَفْلة عينِه عن شاتِه فأصبْتُ حبَّةَ قلبها وَطحَالَها

والطحال لايدخل فى شىء إلا أفسده ، وأنت لم تقل ذلك .

وهذه أيضا نقد عالم بمواقع الألفاظ ، فان كلمة الطحال هنا بشعة ساقطة ، وهى أشبه بمن يريد أن يعظمك و يحلف بك فيقول وحق يافوخِك (مكانَ رأسِك) قال صاحب الموشح « وهم يذكرون القلب والفؤاد والكبد عند ذكر الهوى والشوق والمحبة ، وما يجده المغرَم فى هذه الأعضاء من الحرارة والكرب ، ولم يجدوا الطحال استعمل فى هذه الحال إذ لا صنع له فيها ، ولا هو مما يكتسب حرارة ولا حركة فى حزن ولا عشق ، ولا بردا وسكونا فى فرح أو حزن ، فاستهجنوا ذكره » .

وعاب الأصمعى قول الأعشى :

ما عابه الأصمعي من شعره

تمشي إلى بَيْتها من بَيْتِ جارَتِها   مرّ السحابة لا ريْثٌ ولا عَجَل

فقال جعلها خراجة ولاجة ! هلا قال كما قال الآخر :

ويكرمها جاراتُها فيزُرْنها   وتَعتَلُّ عَنْ إتيانِهِنَّ فتُعذَرُ

وأظن أن هذا النقد لا يجرى إلى الغاية من الصواب ، فما لامرأة غنى عن أن تأتي يوما جاراتِها ، وإنما أراد الأعشى صفتَها في لين مشيها وحسنه .

الأعشى مع جهنام يهجوه فيفحمه بالكلام

ومن عجيب أمر الأعشى ، أنه على جلالته ورهبة الناس له ، أحد الذين غلبوا في الهجاء بالكلام ، وذلك أنه كان يهاجي عَمْرو بن عبد الله بن المنذر وهو جُهُنَّام ، وهو ابن عمه ، وكان عمرو يهجوه بأبيه قيس الذى يسمى قتيل الجوع ، ذكروا أنه دخل غاراً يستظل فيه من الحر ، فوقعت على فم الغار صخرة عظيمة فسدته فمات فيه جوعا ، قال له الأعشى يوماً :

فما أنت من أهل الحَجُون ولا الصَّفَا   ولا لكَ حقُّ الشُّربِ من ماء زَمْزَم

فقال له جُهُنَّام : لكنك يا أبا بَصير من أهله ! يعرض به أنه مثله في ذلك فان هجاه به فقد هجا نفسه معه ، ثم قال له :

وما بوّأ الرحمنُ بيتَك في العُلا   بأجياد شَرْقِيِّ الصَّفا والمحرَّم

فقال له جهنام : لكنك يا أبا بصير عريض المباءة بها ! يعرض به أيضا .

قال أبو عمرو بن العلاء : ومثله في ذلك الأخطل ، قال لشقيق بن ثور أو قاله لسوَيد بن منجوف :

الأخطل وشقيق بن ثور أو سويد ابن منجوف

وماجِذْعُ سوءٍ خرّق السوسُ جَوْفَه   لما حَمَّلَتْه وَائِلٌ بمُطيق

فقال له : يا أبا مالك ! أردت هجائى فمدحتنى! والله ما تحملنى ذهل أمرها ، وقد حملتنى أنت أمر وائل طرّا ! فغلبه .

فضالة بن شريك وابن الزبير

وفضالة بن شريك قال لعبد الله بن الزبير :

ومالى حين أقطَعُ ذاتَ عِرق   إلى ابن الكاهِليّةِ مِن مَعَادِ

فقال ابن الزبير : عيرنى بشر جداتى وهى خير عماته ! فغلبه .

والأعشى هو مَيْمُون بن قَيْس بن ثعلبة ينتهى نسبه إلى بكر بن وائل ويكنى أبا بَصير ، وإنما سمى الأعشى لسوء بَصره ، وقد عمى فى آخر عمره وأدرك الإسلام ولم يسلم ، والله أعلم . نسبه

٥ — لبيد بن ربيعة العامرى

نشأته يستطيع الباحثون أن يجدوا شعاعا من ضوء التاريخ ، يهتدون بسناه إلى صورة قريبة من الحق فى تقدير النشأة الخاصة التى درج هذا الشاعر فى خلالها ، وتأثرت مواهبه منذ صباه بآثارها ، فهو حدث قد تحرك ، ومآثر قومه وشهرة آبائه تملأ الآفاق فى نجد ، وما كان لشىء أن يصرفه عن الإصغاء لما يتحدث به الناس عنهم ، وما يذكرونه من مناقبهم ، وهذا أبوه «ربيعة» الذى كان يسمى ربيعة المُعتِّرين لجوده ونجدته ، وأولئك أعمامه «عامر مُلاعب الأسنَّة» والطُّفَيل فارس قُرْزُل[1] «ومعاوية معوِّذ الحكماء» بنو أم البنين ، إحدى المنجبات من نساء الجاهلية. وكانت أمه إحدى بنات جذيمة بن رواحة العبسى[2] .

---

(١) اسم فرس له ولحذيفة بن بدر .

(٢) ومن المنجبات : أمّ البنين فاطمة بنت الخرشب الأنمارية ، وتسمى أم الكملة ، ولدت الربيع وعمارة وقيسا وأنسا أبناء زياد العبسيين وقد سئلت عن بنيها ، أيهم أفضل ؟ فقالت « الربيع لا بل عمارة ، لا بل قيس ، لا بل أنس ، ثكلتهم إن كنت أدرى أيهم أفضل ا . هم كالحلقه المفرغة لايدرى أين طرفاها » ومنهن أيضا معاوية بنت عبد مناة بن عبد الله بن دارم ، أم حاجب ولقيط وعلقمة ، أبناء زرارة بن عدس التيمى ، وحاجب هو الذى وفد على كسرى فرهنه قوسه لضمانة السواد ووفى له بذلك ، وكانت مفخرة لتميم فى الجاهلية ؛ قال الشاعر يمدح بلاء الشيبانيين من بنى بكر يوم ذى قار ، ويقايس بين هاتين المنقبتين :

إذا افْتَخَرَتْ يوما تَميمٌ بقوسها   وزادت عَلَى مَا وَطَّدَت من مناقب

فأنتم بذى قار أمالت سُيُوفُكُمْ   عُرُوشَ الذين اسْتَرْهنوا قوْسَ حَاجِب

وكان بين العبسيين و بين بنى عامر بن صعصعة ــ رهط لبيد ــ عداوة آثارها أن خالد بن جعفر أحد سادتهم وقوادهم ، قتل زُهَير بن جذيمة أبا قَيْس بن زهير صاحب داحِس والغَبْراء ، وخلص قومه وسائر بطون هوازن من ذل الإتاوات التى كان يجبيها منهم بالعسف والقسر ، وكان العامريون يفدون كل سنة على قصور الحيرة عند النعمان بن المنذر ، وكان الربيع بن زياد مخصوصا به أثيراً عنده ، يستخلصه لنفسه و ينادمه ، فكان يسىء إليهم و ينقصهم و يؤخر إذنهم ، واتفق أنهم عادوا ليلة من عند الملك إلى رحالهم غضابا ، فقعدوا يأتمرون فيما بينهم ، ولبيد معهم فسألهم مابهم ، فلم يجيبوه استصغاراً لشأنه فحلف بإلههم لايحفظ لهم متاعا ولا يرعى لهم راحلة إن لم يخبروه بشأنهم ، فقال له عمه عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو زعيم الوفد ورئيسهم : خالك الربيع يسىء إلينا عند الملك ، فقال لهم: أتقدرون أن تجمعوا بينى و بينه ؟ قالوا : وما تصنع؟ قال : أزجره عنكم ، بقول ممضّ مؤلم ، لا يلتفت إليه الملك بعده أبداً ! قالوا : فإننا نَبلوك بشَتم هذه البَقْلة ، وقدامهم بقلةٌ دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لاصقة بالأرض ، تدعى التربة، فقال: هذه التَّربة التى لا تُؤْهِل داراً ، ولا تُذْكِى ناراً ، ولا تَسُرُّ جاراً ، عودها ضئيل ، وفرعها كليل ، وخيرها قليل ، نبتها خاشع ، وآكلها جائع ، والمقيم عليها ضائع ، أخبث البقول مَرعى ، وأقصرها فرعا ، فتَعْسًا لها وجَدْعا ! ألقَوا بى أخا عَبس ، أرده عنكم بتعْس ، وأتركه من أمره فى لَبْس . فلما أصبحوا حلقوا رأســـه وألبسوه حُلَّة ، وغدوا به معهم على باب الملك ، والدار والمجالس مملوءة بالوفود وجماعات الناس ، وكان أمرهم قد تقارب والربيع مع الملك يطاعمه فتقدم لبيــد ، فلما كان بحيث يســمعه الملك رجز بالربيع وتناوله بهجاء مُقْذِع ، فى مقطوعة[1] له مروية فصرف عنه وجه الملك، وأذن لبنى عامر فأكرم وفادتهم وقضى حوائجهم ، وكان هذا أول ماعرف من كفاية لبيد ونجابته .

الربيع بن زياد والعامريون عند النعمان

وصفه التربة

غلبته للربيع ابن زياد

---

(١) جاء فيها قوله :

مَهْلاً أَبَيْتَ اللَّعْنَ لاَ تَأْكُلْ مَعَهْ إنَّ اسْتَهُ من بَرَصٍ مُلَمَّعَه

وإنَّهُ يدخِلُ فيها إصْبَعَهْ يُدْخِلُها حَتَّى يُوَارِى أَشْجَعَه

* كأنما يطلبُ شيئاً أَوْدَعَه *

ويذكرون أن الحارث الأعرج الغسانى أحد ملوك الشام جعله على رأس مائة من جلداء الفتيان ، فاغتالوا بعض ملوك الحيرة من المناذرة ، وقد نجا لبيد فيمن بقى من تعقب التبع والجند ، ووقع بسبب ذلك يوم حليمة المضروب به المثل فى قولهم « مايومُ حَليمةَ بِسِر . »

فتك لبيد ببعض ملوك الحيرة

ومن رهط لبيد عُروة الرَّحّال مُجير لَطيمةِ النُّعمان ، وقد عرفتم شيئا من خبره فيما أسلفنا من أيام العرب عند ذكر حروب الفِجَار ، وابنُ عمه عامر بن الطفيل من أوسع فرسان العرب ذكراً وشهرة ، ذكر أبو الفرج الأصبهانى فى ترجمة عمرو بن معديكرب الزُّبَيدى صاحب الصَّمْصَامَة المشهور ، قال ؛ قال عمرو : لو سرت بظعينة وحدى على مياه معدّ كلّها ما خفت أن أغلب عليها مالم يلقنى حُرَّاها أو عبداها ! فأما الحران فعامر بن الطفيل وعُتَيْبة بن الحارث بن شِهاب ، وأما العبدان فأسودُ بنى عَبس « يعنى عَنْتَرَة » والسُّلَيْك بن السُّلَكَة ، وكلهم قد لقيت ، فأما عامر فسريع الطعْن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنترة فقليل الكَبْوة شديدُ الجلب ، وأما السُّلَيك فبعيد الغارة كالليث الضارى .

عروة الرحال وعامر بن الطفيل

عمرو بن معديكرب يصف فرسان العرب الأربعة

أولئك هم قوم لبيد ، وهم بنو جعفر بن كلاب الذين يقول فيهم طُفَيْل الغَنَوى أحد شعراء الجاهلية الوصّافين للخيل وبها كان يسمى :

مدح طفيل الغنوى لقوم لبيد

جزى اللهُ عنا جَعْفَراً حين أزلَقَت ... بنا نَعْلُنَا فى الواطئين فزلَّتِ
هُمُ خَلَطونا بالنفوسِ وألجئوا ... إلى حُجُرات أدفأتْ وأظلّتِ
أبَوْا أن يَمَلُّونا ولو أن أمّنا ... تُلاَقى الذى لاَقَوْه منَّا لَمَلَّتِ

وأنتم ترون ما فى هذا الشعر الكريم من جمال العاطفة ورقة التصوير وتقدير غاية الممدوحين فى كرم الإيواء وحسن الجوار .

وقد ورث لبيد من أبيه ربيعة خَلَّة الجود ، فنذر على نفسه فى الجاهلية ألا تَهُبّ الصَّبَا إلا نحر وأطعم ، وألزم نفسه ذلك حتى آخر دهره ، وسنذكر من تتمة ذلك خبراً يأتى بعد إن شاء الله .

ذلك شيء من حياة لبيد في الجاهلية ، بين ذوائب العرب في العريض الباذخ من العز والعدد والشرف ، ومنه تستطيعون أن تدركوا بسهولة كيف اتصلت تلك الشمائل العالية بنفسه ، حتى تحدث عنه الرواة أنه كان من الشعراء الأشراف الفُتَّاك الأجواد الشجعان المُعَمَّرِين .

وفادته على النبي صلى الله عليه وسلم وإسلامه

ذكر صاحب الأغاني عن ابن جَرِير الطَّبَري عمن روى عنهم قال : قدم وَفدُ بني عامر بن صَعْصَعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم عامرُ بن الطُّفَيل وأَرْبَدُ بن قَيْس ـ أخو لبيد لأمه ـ وحَيَّانُ بن سَلْمى بن مالك ، وهؤلاء الثلاثة هم رءوس القوم وشياطينهم ، فهَمَّ عامرٌ بالغدر برسول الله وقد قال له قومُه : يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم ، فقال: والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تَتَّبعَ العربُ عَقِبِي أفأتَّبِعُ أنا عَقِبَ هذا الفتى من قريش ؟ وكان قد تآمر مع أربد على قتله صلى الله عليه وسلم فجعل يُقَاوِله ويَشْغَله رَجَاءَ أن يعلُوَه أربدُ بسيفه، فيقول له: اجعل الأمر لى سنة ولك سنة ، أو يكون لى الوبر ولك المدر ، فلم يرضه رسول الله ، فقال : والله لأملأنها عليك خيلا جرداً ورجالا مرداً ، ولأربطن بكل نخلة فرساً ، وعاد ولم يسلم ، فأدركته دعوة رسول الله فمات فى الطريق ، أصابه الطاعون فلاذ ببيت امرأة من سلول وجعل يقول « أغدة كغدة البكر وموت فى بيت امرأة من سلول ؟ » وأما أربد فأصابته صاعقة فأحرقته ، وحزن لذلك أخوه لبيد ، ورثاه بمراث كثيرة سنذكر منها بعض ما يسع المقام .

تآمر عامر ابن الطفيل وأربد أخو لبيد على النبي

قالوا وإن بني عامر بعد ذلك أرسلوا لبيداً إلى رسول الله ، فأسلم وحسن إسلامه، وعاد إلى قومه يذكر لهم البعث والجنة والنار ، ويقرأ لهم القرآن، وأقام بالبادية على إسلامه ، حتى مصَّر عمرُ الكوفة فنزلها ، وبها أقام إلى أن مات فى صدر خلافة معاوية ، وعمره نحو مائة وثلاثين سنة رحمه الله .

إسلام لبيد

شعره

ستجدون لهذه النشأة الصالحة أعظم الأثر فيما اصطنعه لبيد لنفسه من مذهبه الشعرى الخاص ، فسترون أنه أبدا كان مولعا بنفسه يتحدث عن فُتُوَّتِه

وترفعه ، ويذكر فَتْكَه وفَضِيلَةَ نفسه فى الإيواء وقِرى الأَضْياف والتقدم بالإيثار لإخوان الصِّدق ، ويعود فيذكر أعظم مناقبه عند نفسه ، وعلى مبلغ تقديره من أنه كان يَفصِل الخُطَّةَ الصَّعبةَ ويكسِر شِرَّةَ الخَصم الأَلَدّ بين يدى الملك المُحَجَّب ، وعند احتفال المقام الجامع ، ثم يذكر ما يتصل بذلك من مفاخر آبائه وآثار قومه ، ويَعُدُّ أيامهم وجَحاجِحَ ساداتهم والمذكورين من فُرسانهم وفُتَّاكهم ، وجملة ما كان لهم من مناقب الشرف فى الجاهلية ، لا يتجاوز ذلك إلى مدح ملك ولا إلى هجاء سُوقَةٍ ، حتى لَقَلَّما كان يُعْنَى بذكر المرأة فى مطالع أشعاره ، كما كان يفعل الشعر فى ذلك العصر وأكثر ما كان يُلِمُّ فى باب الوصف بذكر راحلته ، يشبهها بالبقرة المَسْبُوعة ، أو بالأَتَان المُطَرَّدَة ، أو بالنعامة الخائفة ، بأسلوب يكاد يكون خاصا به ، يذكره على صورة الاستفهام كقوله :

مذاهب لبيد فى الشعر

أَفَتِلْكَ أم وحشيَّةٌ مسبوعَةٌ خُذِلَت وهادِيةُ الصِّوَارِ قِوَامُها

أو قوله :

أَفَذَاك أم صَعْلٌ كأن عِفَاءَه أَوْزَاعُ أَلْقَاء على أَغْصَانِ (١)

أو قوله :

أَذَلِك أم عِراقٌ شَتِيمٌ أَرَنَّ على نَحائِصَ كالْمَقَالِى (٢)

أو قوله :

---

(١) الصعل : الدقيق العنق من النعام . العفاء : الريش . الأوزاع : القطع . الألقاء : الأشياء الملقاة . (٢) العراق : الحمار ، أراد أنه يأتى من العراق . الشتيم : الكريه . الإرنان: الصياح. النحائص : جمع نحوص وهى الحائل أو التى لا ولد لها، هكذا ذكره الطوسى فى شرحه . المقالى : واحده مقلاء . قاله أيضاً بالمد ، والذى فى القاموس مقلى بالقصر ، وهو عود القلة وهى العصا التى تكون بأيدى الصبيان يلعبون بها .

أتنيكَ أم سَمْحَجٌ تخيَّرها عِلْجٌ تَسَرَّى نحائصًا شُسُباً(١)

وكل ذلك كما قدمنا معناه تشبيه الناقة بالبقرة أو الثور ، ثم العدول عن ذلك إلى تشبيهها بالأتان الوحشية ، أو النعامة المذعورة ، ثم لا يزال يذكر مُوَاقعة القُنَّاص لهـذه الثيران والحمرِ ، وإرسالَهم الغُضْفَ الدَّواجِنَ من جوارح الكلاب ذوات الأعْصام القافلة والقلائد اليابسة ، وأحيانا يصف ألوان الزهر ، ويذكر البرق والمطر على طريقة امرئ القيس ، ويقتبس من ألفاظه ، ويرسـل ذلك كله فى نسق من الغريب ، قوى العبارة فَخْمِ الألفاظ ، عليه مَسْحة من بأس البادية وخشونة الصحراء وفَيضٌ من فضائل هذه النفس العالية وتلك التربية الكريمة ، ولقد ذاقت نفسه الثُّكْل وهو صبىٌّ ضعيف الجَناح قليل الحيلة ، بأب تعظم بمثله المصيبة ويشتد فقدُه على العشيرة ، فوَهَنَت نفسه بعض الوهن ، وكان قومه أصحابَ غارات وفيهم بأس وتعرُّض للتِّرات ، فوقع فيهم القتل وألَحَّت عليهم المصائب فتتابعت أحزانه ، ومات أخوه أربد وكان به صَبًّا وعليه عَطُوفاً فأوَلعَه ذلك بتجويد النَّوح وفتَق له معانى المراثى ، ولذا يُعتَبر من الجاهليين المجيدين للرثاء ، وهو فى هذا الباب رقيق حواشى الكلام ، واضح متسهل لا يكاد يأتى بغريب ، وخلاصة ما نذكره من الرأى فيه أنه اقتصر على ضربين من فنون الشعر لم يتجاوزهما إلى شىء آخر ؛ وهما : الفخر والرثاء .

ثكله أباه وهو صغير

سهولة شعره فى الرثاء

وكان مع ذلك قليل التصرف ، متقيداً فى فخرياته بمعان محدودة ، يرددها فى أكثر قصائده ، حتى يسوغ لك أن تقول إن شعره فى الفخر كأنه قصيدة واحدة ، إذ لا يختلف كلامه فى هـذا الباب عن التصدير بذكر الناقة وتشبيهها فى نجائها وخفتها بالثور والبقرة والأتان والنعامة ، ثم يعطف على أصحابه ويفتخر بإنزاله لهم وجميل مبادرته إليهم ، ويعدّ بعد ذلك ما يعد من مفاخر نفسه وآبائه ، لا يعدل

---

(١) السمحج : الطويلة . التسرى : التخير . الشسب : الضامرة الواحد شاسب .

عنْ ذلك إلا بأن يضيف إلى هذه المعانى شيئاً من وصف الطبيعة ، وقلما يفعل ؛ وقد يكون فى الرثاء أحسن حالا وأ كثر اختراعا وأوسع تصرفا ، غير أنه لا يزال يكرّر ما هدى إليه من معانيه فى أ كثر مراثيه ، ولقد تقرأ شعره فى الفخر فيكاد يَمَسّك الضجر وتداخلك السآمة ، لقلة ما تفهم من غرابته ، وشدة ما تسمعه من خشونة اللفظ وقوّة العبارة ، وقد تشعر بالفتور حين تراه يقبل على آبائه وأعمامه وغيرهم من سادة قومه فيسردهم تِباعًا فى سلك من النظم أشبه بعدّ الحاسبين ، وليس فيه من جمال الشعر إلا فضل القافية والوزن كما فى قصيدته التى مطلعها :

أعاذلَ قُومى فاعْذُلى الآن أو ذَرِى   فلستُ وإن أقْصَرْتِ عنى بِمُقْصِرِ

فقد عدّ فى هذه القصيدة « وأبياتها ثمانية وثلاثون » أ كثرَ من ستة وعشرين اسماً لآبائه وغيرهم ، على أنه رزق نصيبا من الحظوة عند النحاة فيما استشهدوا به من شعره ، وعند الذين كانوا يُؤْثرون الدين والتقوى ، وذكرَ الخوف من الموت والقبر والآخرة وما يتصل بذلك من تهوين أمور الحياة والتحذير من السكون إليها ، وإن لم يكن لهذا كبير شأن فى نقد شعره ، ولا فى تقريظه بمدح أو ذمّ .

نقد القدماء لشعره

وإنه لمن تمام الفائدة أن نذكر شيئاً من آراء القدماء فيه ، عسى أن يكون منها ما يظاهرنا على مذهبنا فيه ، ثم نجتهد ألا نخلى كلاما من نقد على قدر ما يهدينا إليه الخاطر الكليل فنقول :

ذكره محمد بن سلام ؛ فعده فى الطبقة الثالثة وقرنه بالنابغة الجعْدى وأبى ذُؤيب الهُذَلى والشَّمّاخ بن ضِرَار ، قال : وكان لبيد بن ربيعة أبو عقيل فارساً شاعراً شجاعاً وكان عذبَ المنطق رقيقَ حواشى الكلام ، وكان مسلماً رجُلَ صدق ؛ وكان فى الجاهلية خيرَ شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ، ويَعُدُّ أيامهم ووقائعهم وفرسانهم .

وذكر محمد بن عِمْران المَرْزُبانى عن أبى حاتم عن الأصمعى قال : شعر لبيد

كأنه طَيْلَسان طَبَرِىٌّ ، «يعنى أنه جيد الصنعة» وليست له حلاوة ، قال أبو حاتم فقلت له : أفحل هو ؟ قال : ليس بفحل ، وقال مرة ، كان رجلا صالحاً ! فكأنه ينفي عنه جودة الشعر .

رأى أبى عمرو والأصمعى وابن سلام

وعن أبي عمرو بن العلاء قال : ما أحد أحب إلىّ شعراً من لبيد ، لذكره الله عزّ وجل ، ولإسلامه ولذكره الدين والخير ، ولكنه رحى بَزْر « يريد أنه خشن » قد لا يستحليه السمع .

وذكر أبو الفرج الأَصْبَهانى عن حَمَّاد الرَّاوية قال : نظر النابغةُ إلى لبيد مع أعمامه على باب النعمان فى الحيرة فسأل عنه فَنُسِبَ له فقال له : ياغلام ! إن عينيك لعينا شاعر أفتقرض من الشعر شيئاً ؟ قال نعم يا عمّ ! قال فأنشدنى . فأنشده « ألم تَرْبَع على الدِّمَن الخوالِي » وهى قصيدة سَلْمُ بذكر طرف منها فقال له زدنى . فأنشده « عَفَت الديارُ محلُّها فمُقامُها » وهى المعلقة فقال له النابغة : اذهب فأنت أشعر قيس كلها ، أو قال هوازن كلها ، وفى بعض الروايات قال له أنت أشعر العرب !

ولعلك لو تأملت ترى رأى الأصمعى وأبى عمرو بن العلاء لايبتعد كثيراً عما يذكره ابن سلام ، فهو يقول إنه كان مسلماً رجل صدق ، ويذكر أنه كان عذب المنطق ، ولعله نظر إلى شعره فى مراثيه ، وهما يقولان إنه شاعر ولا يريان له من الحلاوة ما يريانه لشاعر آخر — كالأعشى مثلا — فى مدائحه وغزله وخمرياته ، وهذه فى الغالب مواطن حلاوة الكلام ، أما المفاخر والمراثى وهما ما آثره لبيد على غيره من ضروب الشعر ، فقلما تظفر فيهما بموطن حلاوة ، لتعلق الكلام فيهما بالحقائق الواقعة والمآثر الصادقة ، ولكنهما فى الجملة يثبتان له جودة الشعر وقوّة أسر الكلام .

وأما إعجاب النابغة به فقد يضاف إلى أسبابه ما كان من غُلُومِيَّة لبيد وجماله

وشرف آبائه ، على أن معلقة لبيد معدودة ـ بإجماع الرواة ـ من الشعر الرفيع الدرجة ، فشهادة النابغة إذاً لا تزال ذاهبة فى طريقها إلى الصواب .

الفرزدق وسجدة الشعر

وذكر المُفَضَّل الضَّبِّي قال : قَدِم الفرزدق الكوفة فمر بمسجد بنى أُقَيْصِر وعليه رجل ينشد قول لبيد :

وجَلاَ السُّيولُ عن الطلول كأَنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أَقلامُها

فسجد الفرزدق ، فقيل له ما هذا يا أبا فراس ؟ فقال أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر ! وهم يعتبرون هذا التشبيه لبقايا الأطلال فى دقتها وتتابعها واستطالة أعلامها ، كأنها سطور فى كتاب من التشبيهات العالية الطبقة ، وقد أولع به الناس حتى المتأخرون من أئمة هذا الفن فى العصر العباسى ، وروى أبو الفرج أيضاً قال : جلس المعتصم يوماً للشرب فغناه بعض المغنين بقوله :

المعتصم والمغنى فى حضرته بشعر لبيد

و بنو العباس لا يأْتُون لاَ وعلى أَلْسُنِهِم خَفَّت نَعَم
زَيَّنَت أَحلامُهُم أَحسابَهُم وكذاك الحِلْمُ زَيْنٌ للكَرَم

فقال : ما أعرف هذا الشعر فلمن هو ؟ قيل للبيد ، فقال : وما للبيد و بنى العباس ؟ قال المغنى : إنما قال « و بنو الرَّيَّان لا يأتون لا » فاستحسن فعله ووصله ، وكان يُعْجَب بشعر لبيد فاستنشدهم قوله « بَلِينا وما تَبْلَى النُّجومُ الطَّوالِعُ » وهى مرثية له فى أخيه أَرْبَد من خير مراثيه ـ وسنذكر منها شيئاً ـ فأنشدوه إياها ، فجعل يبكى و يذكر المأمون ويترحَّم عليه ، ويقول هكذا كان رحمة الله عليه .

ويذكر رواةُ الحديث عن رسول الله قوله فى الصحيحين : أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد « ألا كُلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ » على بعض الروايات .

ولكن هذا ليس نقداً شعريا ، و إنما التقريظ هنا لهذه الحكمة الصادقة فى وقت تمسّ فيه حاجة الإسلام إلى إغراء الكافة بتوحيد الله ، والاعتقاد ببطلان ما سواه ، والعهد بالوثنية لا يزال غير بعيد ، بدليل أن أبا بكر

رضى الله عنه حين أنشده الشاعر هذا البيت قال له فى شطره الأول صدقت ! وفى شطره الثانى وهو قوله « وكل نعيم لا محالة زائل » قال له كذبت ! عند الله نعيم لا يزول ، أو قال نعيم الجنة لا يزول .

وأنتم ترون أن الشاعر لم يذهب إلى هذا ، ولم يفكر فى نعيم الجنة ولا فى عذاب النار ، وإنما أراد ما يراه الناس من أحوال الدنيا فى تغيرها وقلة ثباتها ، وأنه ليس لشأن من شئونها ولا حال من أحوالها ثبات ولا بقاء ، فهى مرة نعيم ومرة بؤس ، وكلاهما زائل متحول ، ومتغير متقلب .

و بعد فنحن ذاكرون طرفا من أشعاره فى الفخر ، ثم نعقب بشىء من مراثيه ، ثم نختم قولنا فيه ببعض آثاره فى الإسلام ، وما يحكى عنه فى جوده ، وما قاله لابنتيه ولابن أخيه عند احتضاره . وقد ظفرنا بمجموعتين فيهما شعر له ، إحداهما رواية أبى الحسن عَلِىّ بن عبد الله الطُّوسِى من رُوَاة القبائل وأشعار الفحول فى القرن الثالث الهجرى وفيها شرح مُوجَز وروايات لألفاظ الأبيات ، والأخرى مطبوعة أوروبية تختلف عن الأولى فى أكثر الأحيان ، فاقتطفنا من المجموعتين ما ظنناه جديراً بالاستشهاد على ما وصفنا به لبيداً ، وهو فى أرجح الظن خير ما أثبتناه له فى تقرير الحجة والاستئناس بالدليل ، قال من قصيدة بائية مطلعها :

أرَى النَّفْسَ لجَّت فى رجاء مُكَذَّب   وقد جَرَّبت لو تَقْتدى بالْمجَرَّب

تناول فيها نفسه فجعل يصفها بالتفضل على الإخوان ، وأنه يحسن مبادرتهم بما يشتهون من لحم طرى وشراب عتيق ، وأنه ضمين بما ينتقص منه ، ثم يذكر جميل مُواساته ، وحلاوة شمائله ، وسرعة فِكاكه للعانى ، وتجشمه سُرى الليل بأصحابه ، وهديه إياهم فى سُدْفَته ، و إجابته لدعوة المرهوب ، وطعنه الذى يرفع صوت النائحة المُسَلَّبَة ، قال :

لبيد في فتوته وإكرامه لإخوانه

وفِتْيَانِ صِدقٍ قد غدوتُ عليهم   بلا دَخِنٍ ولا رَجِيعٍ مُجَنَّبِ(١)
بِمُجْتَزَفٍ جَوْنٍ كأن خفاءه   قَرَا حبشى فى السَّرَوْمَطِ مُحْقَبِ(٢)
إذا أرْسَلَت كفُّ الوليد عِصَامَه   يَمُجُّ سُلافًا من رحيقٍ مُقَطَّبِ(٣)
فمهما يَغِضْ منــــه فإن ضَمانَه   على طيِّب الأرْدَان غيرِ مُسَبَّبِ
جميل الأُساَ فيما أتى الدَّهرُ دونَه   كريمُ الثَّنا حُلوُ الشمائل مُعجِبِ
من المُسْبلين الرَّيطَ لذٍّ كأنما   تشرَّب ضاحِى جلده لونَ مُذهَبِ
وعانٍ فككتُ الكَبْلَ عنه وسُدفةٍ   سَريْتُ وأصحابٍ هديتُ بكوكَبِ
ودعوةِ مرهوبٍ أجبْتُ وطعنةٍ   رفعتُ بها أصوَاتَ نَوْحٍ مُسَلَّبِ(٤)

ثم ترك هــذا، وأقبل يصف الغيث وجمال ألوان النبات، وما يتزين به الزهر من حمرة وصفرة وخضرة، وما تكسوه الشمس بإشراقها من البهجة وتمام الحسن، وأنه بكر إلى هذا الوادى الجميل، بفرس جعل يصفه، ويذكر ارتفاع لبانه، واطمئنان عِذاره، وخِفَّة جريه، وطاعته لراكبه، ومضى إلى ذكر الناقة ولم يطل، قال:

جمال الطبيعة فى شعر لبيد

وغيثٍ بِدَكْدَاكٍ يزين وِهَادَه   نباتٌ كَوَشْى العَبْقَرِى المُخَلَّبِ(٥)
بذى بَهجَةٍ كَنَّ المَقَانِبَ صَوْبُه   وزيَّنهُ ألوانُ نَوْرٍ مُشَرَّبِ(٦)
جَلاه طُلوعُ الشَّمس لمَّا هبطتُه   وأشْرَفْتُ من قُضْفَانِه فوق مَرْقَبِ(٧)

---

(١) الدخن: الشواء الذى أصابه الدخان. الرجيع: الشراب الفاسد.

(٢) المجتزف: الزقّ الذى يشترى جزافاً. الخفاء: ما يوضع فيــه الزق من جلد أو نحوه. القرا: الظهر. السرومط: الحبل. المحقب: المشدود خلف الراكب.

(٣) العصام: الرباط. المقطب: الممزوج، وإن قيل بالعين فهو المطيب.

(٤) المرهوب: الخائف. النوح: النساء النائحات. المسلب: اللابس السلاب، وهى ثياب الحداد. (٥) الدكداك: المستوى المرتفع من الأرض. الوهاد: المطمئنات جمعُ وهدة. المخلب: المخطط بألوان الصبغ. (٦) المقانب: جماعات الخيل.

(٧) القضفان: النشوز والمرتفعات.

بَسَرْتُ نداه لم تَسَرَّب وُحوشُه ... بغَربٍ كَجِذْعِ الهاجِرِىِّ المُشَذَّبِ(١)

بمطرِدٍ جَلسٍ عَلَتْه طَرِيقــــة ... لِسَمْكِ عِظَام عُرِّضَتْ لم تُنَصَّبِ(٢)

رفيع اللَّبان مطمئن عِذاره ... على خَدٍّ مَنْحُوضِ الغِرَارين صُلَّبِ(٣)

فلما تَغَشَّىَ كُلَّ ثَغْرٍ ظلامُـــه ... وأَلقَتْ يدًا فى كَافِرٍ مُسْىَ مَغْرِبِ(٤)

تجافَيْتُ عنـــه واتَّقَانى عِنَانُه ... بِشَدٍّ من التقريب عجلانَ مُلْهَبِ(٥)

ثم عاد إلى ذكر مفاخره ، فوصف وقوف الأقران له ومخاصمتهم إياه ، وأنهم من سَرَوَات الناس قد علاهم المســـكُ والدِّيباجُ ، يجلسون بالعشايا على أبواب الملوك فلا يزالون يَخُطُّونَ الأرض بقِسِيِّهِم يُعَدِّدون أيامَهم ومآثرهم ، وذلك هو شَيْنُهُم لِصِحَاح البِيد ، وهو من أعجب الاستعارات وألطفها ، وأنه أصدرهم بعد ذلك متفرقين ، وقسيهم مائلةٌ مسترخِيَةٌ كقرون الجماعة من البقر المُتْعَبَة ، قال :

وخصْمٍ قِيامٍ بالعَرَاء كأنَّهم ... قُرُومٌ غَيارى كُلُّ أزْهَرَ مُصْعَبِ(٦)

علاَ المسكُ والدِّيباجُ فوق نُحورِهم ... فَرَاشَ المَسِيحِ كالْجُمَان المُثَقَّبِ(٧)

---

(١) بسرت نداه : كنت أول من أتاه . الغرب : الحد ، وهو هنا الفرس . الهاجرى : المنسوب إلى هجر . المشذب : الذى أخذ عنه كربه وليفه ، وغرضه وصف فرسه بطول العنق . (٢) المطرد : المهتز . الجلس : المشرف أو الغليظ . الطريقة : المتن وما امتدّ منه . سمك العظام : ارتفاعها . لم تنصب : لم تستو ، بل هى عوج مقوسة وذلك أشدّ لها . (٣) اللبان : الصدر . المنحوض : القليل اللحم . الغرار : الجانب .

(٤) الكافر : الليل ، والضمير فى ألقت يعود على الشمس وهو كالمثل . مسى مغرب : وقت غروبها . (٥) تجافيت عنه : ارتفعت عن سرجه . الشدّ : الجرى . التقريب : فوق المشى . (٦) الخصم : الخصوم . القروم : الفحول . الأزهر : الأبيض .

(٧) فراش المسيح : نقط العرق . الجمان : اللؤلؤ .

ظهوره على خصومه بالحجة فى المجامع الحافلة

نَشِينُ صِحَاحَ البِيدِ كُلَّ عَشِيَّةٍ ... بِعُوجِ السَّرَاءِ عند باب مُحَجَّبِ (١)
شهدتُ فلم تَنْجَحْ كَوَاذِبُ قولِهِم ... لَدَيَّ ولم أحفِلْ ثَنَا كُلِّ مِشْغَبِ (٢)
وأصْدَرْتُهم شَتَّى كأن قِسِيَّهم ... قُرُونُ صِوَارٍ ساقطٍ مُتَلَغِّبِ (٣)
فإن يُسْهِلوا فالسهلُ حَظِّى وطُرْقَتى ... وإن يُحْزِنُوا أركَبْ بهم كُلَّ مَرْكَبِ

وقد ترون جمال هذا الشعر ، فى كلّ ما تناوله من وصف أو فخر ، وما اشتمل عليه من تشبيه بارع أو استعارة حسنة ، وهو على بعض ما فيه من الغريب ، يعد من خير ما أُثر عن الجاهليين ، وهذه جملة من قصيدة أخرى له ، مطلعها : « رَاحَ القَطِينُ بِهَجْرٍ بعد ما ابْتَكَرُوا » وفيها شىء من شكوى الزمان ، والتنويه بنفسه فى الصبر على أحداثه ، وأنه فى ذلك كالسيف الذكر ، الذى لا تغيره حوادث الدهر، ثم جعل يذكر شيئاً من مفاخره ، وقبل ذلك ألمّ بذكر المرأة ، لا على أنها تيَّمَتهُ وأصْبَت فؤادَه ، بل على أنها تُعَيِّره بالشيب والكبر ، وهو من المواضع القليلة التى أشار فيها إلى النساء فى كلامه ، ثم مضى فيها إلى وصف ناقته وسرعتها ، وشبهها بالأتان وبالثور وذكر الكلاب والصيادين ، على عادته وأغرب ما شاء ، قال بعد أبيات من المطلع :

وفى الحُدُوجِ عَرُوبٌ غيرُ فاحِشَةٍ ... رَيَّا الرَّوادِفِ يَعْشَى دونها البَصَرُ (٤)
كأنَّ فَاهَا إذا ما اللَّيلُ ألْبَسَها ... سَيَابَةٌ ما بها عيبٌ ولا أَثَرُ (٥)
قالتْ غَدَاةَ انْتَحَيْنا عند جَارَتِها ... أنْتَ الذى كُنتَ لولا الشَّيبُ والكِبَرُ (٦)

حديثه إلى المرأة

---

(١) نشين صحاح البيد : نؤثر فى الأرض المستوية بتخطيطنا بالقسى عليها . باب المحجب : الملك . (٢) مشغب : الصابر على الشغب . (٣) الصوار : القطيع من البقر ، المتلغب : المتعب . (٤) الحدوج : جمع حدج ، وهو مركب من مراكب النساء . العروب : العاشقة لبعلها . (٥) السيابة : البلحة .
(٦) قوله أنت الذى كنت أى كنت تعجبنى .

فقلتُ ليس بَياضُ الرَّأْسِ من كِبَرٍ ... لو تَعلمينَ وعندَ العالِمِ الخَبَرُ
لو كانَ غَيرِى سُلَيْمى الدَّهرَ غَيَّرَه ... وَقْعُ الحوادِثِ إلاَّ الصَّارِمُ الذَّكَرُ
إنى أُقاسِى خُطُوبًا ما يقُومُ لها ... إلا الكِرَامُ على أمثالِها الصُّبُرُ
ولا أَقولُ إذا ما أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... ياوَيحَ نَفسِى بما قد أَحْدَثَ القَدَرُ(١)
ولا أَضِلُّ بأَصْحابٍ هَدَيْتُهُم ... إذَا المُعَبَّدُ فى الظَّلماءِ يَنْتَشِرُ(٢)
وأَرْبَحُ التَّجْرِ إنْ عَزَّت فِضَالُهُم ... حتَّى يعُودَ سُلَيْمى حَوْلَه نَفَرُ(٣)
غَرْبُ المَصَبَّةِ محمودٌ مَصارِعُه ... لاَهِى النَّهارِ لِسَيرِ اللَّيلِ مُحتَقِرُ(٤)
يَروِى قَوامِحَ قبلَ الليلِ صَادِقَةً ... أَشْباهَ جِنٍّ عليها الرَّيْطُ والأُزُرُ(٥)
إن يُتْلِفوا يُخْلِفوا فى كل مَنقَصَةٍ ... ما أَتْلَفوا لِابْتِغَاءِ الحمدِ أو عَقَرُوا(٦)
نُعطِى حُقوقًا على الأَحسَابِ ضَامِنَةً ... حتىَ يُنَوِّرَ فى قُرْيَانِه الزَّهَرُ(٧)

افتخاره بالشجاعة والبذل

ثم خرج من هذا إلى وصف الناقة كما قدمناه ، ولا تزال هذه الأبيات على نَمَط من جزالة الكلام كسابقتها ، وليست دونها فى إشراق الديباجة وجمال الوقع على السمع ، وهكذا أكثر شعره فى فخرياته قوىٌّ مُكْتَنَفٌ بالغريب ، إلا فى بعض قصائد عدَّدفيها آباءه ومن فقد من حُمَاة قومه ، وليس فيها شيء من جمال كما أشرنا إلى ذلك من قريب ، وقبل أن نُغَادِر هذا الباب إلى ذكر مراثيه ، ينبغى أن نريكم شيئاً من أوصافه الأخرى التى ذكرنا أنه تأثر فيها بامرئ القيس خاصة ، وهى وصفه للربيع والغيث والبرق وما يشبه ذلك ، قال من قصيدته التى

---

(١) الأزمة : الشدة . (٢) المعبد : الطريق المذلل .

(٣) الفضال : جمع فضلة بقية الخمر فى الدنّ ، والهاء فى حوله يعود على زقها .

(٤) الغرب : الكثير . المصبة : العطاء ، وقوله محمود مصارعه : معناه أنه إذا شرب وصرعه الشراب أعطى ولم يبخل . (٥) القامح : الشارب أو التارك للشرب . والمعنى أنه يسق الفتيات اللاتى يصدفن عن الشرب ، ووصفهنّ بالنعمة وبما عليهنّ من الريط والأُزر .

(٦) يقصد بذلك نفسه وأصحابه . (٧) نطعم الناس أيام القحط حتى يخصبوا . القريان : مجارى المياه ، والواحد قرى كغنى .

مطلعها « أَلَمْ تُلْمِمْ على الدِّمَنِ الْخَوَالِى » بعد ما أطال فى وصف ناقته على النمط الذى أثبتنا له غير مرة ، ثم انتهى من ذلك بذكر قومه ، والنصح لهم والتعريض بما صاروا إليه من بعض الظلم قال :

أَصَاحِ ترى بُرَيْقاً هبَّ وَهْناً ... كمصباح الشَّعيلة فى الْذُّبَالِ

أَرِقْتُ له وَأَنْجَدَ بعد هَدْءٍ ... وأصحابى على شُعَبِ الرِّحال

يُضِيءُ رَبَابُه فى الْمُزْن حُبْشاً ... قياماً بالحِرَاب وَبِالْأَلَالِ[1]

وَأَصْبَحَ رَاسِيا بِرِضَامِ دَهْرٍ ... وَسَالَ به الْخَمَائِلُ فى الرِّمالِ[2]

وَحَطَّ وُحُوشَ صَاحَةَ من ذُرَاها ... كَأَنَّ وُعُولَها رُمُكُ الجِمَالِ[3]

عَلَى الْأَعْرَاضِ أَيْمَنُ جَانِبيه ... وَأَيْسَرُه على كَوْرَى أُثَالِ[4]

أَقولُ وَصَوْبُهُ منى بَعِيــدٌ ... يَحُطُّ الشَّثَّ من قُلَلِ الجبَالِ[5]

سقى قَوْمِى بَنِى مَجْدٍ وَأَسْقَى ... نُمَيْراً وَالْقَبَائِلَ من هِلَالِ[6]

رَعَوْه مَرْبَعاً وتَصَــيَّفُوه ... بلا وَبَإٍ سُمَىَّ وَلَا وَبَالِ

هُمُو قومى وقَدْ أَنْــكَرْتُ منهم ... شَمَائِلَ بُدِّلُوها من شِمَالِ

يُغَارُ على الْبَرِىءِ بغير جُرْمٍ ... وَيُفْضَحُ ذو الْأَمَانَةِ وَالْفَعَالِ

وصفه للسحاب والمطر والبرق

ونكتفى بهذا القدر من فخرياته ، ونقول فى مراثيه وهى كثيرة ، نقتصر منها على نتف من العينيتين وهما فى أربد أخيه ، ومن اللامية وهى فى النعمان بن المنذر ملك العرب ، وستجدون قوله فى هــذا الرثاء واضحاً سهلا ، لا يحتاج

---

(١) يريد أن التماع البرق وسط السحاب الأسود يشبه الحبشان الواقفين بالحراب . الألال : جمع ألة ، وهى آلة الحرب أيضاً . (٢) الرضام : جمع رضمة ، وهى صخور بعضها فوق بعض . دهر : جبل . الخمائل : منابت الشجر والعشب . (٣) صاحة : مكان . الرمك : السود ، الواحد أرمك . (٤) الأعراض : القرى واحده عرض . أثال : جبل وكوراه جبلان قريبان منه . (٥) الشث : شجر . القلل : الأعالى .

(٦) مجد : اسم امرأة .

إلى تعليق ولا شرح ، أما معلقته فقد أسلفنا منها أبياتا وذكرنا لنا فيها رأيا فى الكلام على المعلقات قال :

رثاؤه لأخيه أربد

بَلِينَا وما تَبْلَى النُّجُوم الطَّوالِعُ ... وتبقَى الدِّيارُ بعدَنا والمصَانِعُ
وقد كنتُ فى أكنافِ جارِ مَضِنَّةٍ ... ففارَقَنى جَارٌ بِأَرْبَدَ نَافِعُ
فلا جَزِعٌ إن فرَّق الدَّهرُ بيننا ... وكُلُّ فتًى يوماً بِه الدَّهرُ فاجِعُ
وما النَّاسُ إلا كالدِّيارِ وأهْلُها ... بها يومَ حَلُّوها وغَدْوًا بَلَاقِعُ
وما المرْءُ إلا كالشِّهاب وضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَمادًا بعدَ إذْ هو سَاطِعُ
وما المَالُ وَالأهْلُونَ إلاَّ وَدَائِعُ ... وَلاَ بُدَّ يَوْمًا أن تُرَدَّ الوَدَائِعُ

إلى أن يقول :

أليسَ ورَائِى إن تَرَاخَت مَنِيَّتِى ... لُزومُ العصى تُحْنَى عليها الأَصَابِعُ
أُخَبِّرُ أخبارَ القرون التى مضَت ... أَدِبُّ كأنِّى كُلَّمَا قمت رَاكِعُ
لعَمرُكَ ماتَدرِى الضَّوارِبُ بالحَصَى ... ولازَاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صَانِعُ

وهذه قصيدته الأخرى وهى مروية فى المجموعة المطبوعة فى أوربا قال

أَيا مَيَّ قُومِى فى المَآتِم وانْدُبِى ... فتًى كان ممن يَبْتَنِى المجدَ أَرْوَعا
وقُولى ألاَ لا يُبْعِدِ اللهُ أَرْبَدًا ... وهُدِّى به صَدْعَ الفؤاد المُفَجَّعَا
عَميدُ أُنَاسٍ قد أتى الدَّهرُ دونَهُ ... وَخَطُّوا له يومًا من الأرض مَضْجعا
لَعَمْرُ أبيكِ الخَيْرِ يا ابْنَةَ أَرْبَدٍ ... لقد شَفَّنى حُزنٌ أصابَ فأَوْجَعَا

إلى أن يقول :

فَتًى عَارِفٌ للحق لايُنْكِرُ القِرَى ... تَرى رِفْدَه للضَّيْفِ مَلْآنَ مُتْرَعَا
لحا اللهُ هذا الدَّهرَ إنِّى رأيتُهُ ... بَصِيراً بما ساءَ ابنَ آدَمَ مُولَعا

وتلك قصيدته اللامية وهى فى المجموعة الأوربية أكثر من خمسين بيتاً ، وفى الخزانة وغيرها مختصرة إلى نحو ثلاثة عشر بيتاً وها هى ذه :

رثاؤه للنعمان

ألاَ تَسْألان المَرْءَ ماذا يُحاوِل ... أنَحْبٌ فيُقْضَى أم ضَلالٌ وَباطِلُ
حبائِلُه مبثُوثَةٌ فى سبيـــلهِ ... ويَفْنى إذا ما أخطأَتْه الحَبائِلُ
إذا المرءُ أسْرَى ليلةً خَالَ أنَّه ... قضَى عمَلاً والمرءُ ما عَاشَ عَامِلُ

إلى أن يقول :

أرَى الناسَ لايدْرُونَ ماقدْرُ أمرِهِمْ ... بلى كلُّ ذِى رَأْى إلى اللهِ وَائِلُ
ألا كلُّ شىءٍ ما خَلاَ اللهَ بَاطِلٌ ... وكلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحالَةَ زَائِلُ
وَكلُّ أُنَاسٍ سوف تدخُلُ بينهم ... دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ منها الْأَنامِلُ
وَكلُّ امرِئٍ يوماً سَيَعْلَمُ سَعْيَه ... إذا كُشِفَتْ عند الْإِلهِ الحَصَائِلُ
لِيَبْكِ عَلَى النُّعْمَانِ شَرْبٌ وَقَيْنَةٌ ... وَمُخْتَبطَاتٌ كالسَّعَالِى أَرَامِلُ
فأمْسَى كَأَحْلاَم النِّيَام نَعِيمُهُمْ ... وَأَىُّ نعـــيمٍ خِلْتَهُ لاَ يُزَايِلُ

نسب لبيد

ثم نذكر ما وعدنا به من بعض أخبار لبيد فى الإسلام ؛ ونسبه أبو الفرج وابن ســـلام ، فاتفقا على أنه ابن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب من بنى عامر بن صعصعة ، ينتهى نسبه إلى قيس عيلان من مضر ؛ وذكر البغدادى أنه ابن ربيعة بن عامر بن مالك ، وهو يرجح أنه مات بالكوفة فى خلافة عثمان ، ولم يدرك معاوية .

وقال البغدادى وغيره : كتب عمر بن الخطاب إلى عامله المغيرة بن شعبة بالكوفة ، أن استنشد من عندك من شعراء مصرك ما قالوه فى الإسلام ، فأرسل إلى الْأَغْلَب العِجْلى أن أنشدنى فقال :

لبيد والأغلب العجلى فى خلافة عمر

أَرَجَزاً تُرِيدُ أمْ قَصِيدا ... لقد طَلَبْتَ هَيِّنا مَوْجُودا

وفى بعض الكتب بتقديم أحد الشطرين مكان الآخر ، ثم أرسل إلى لبيد أنْ أنشدنى فقال ، إن شئت ما عفى عنه ؟ « يعنى الجاهلية » قال : لا ! ما قلت فى الإسلام ، فانطلق إلى بيته فكتب سورة البقرة فى صحيفة ، ثم أتى

بها فقال: أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر ، فكتب بذلك المغيرة إلى عمر فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة ، فكتب الأغلب إلى عمر : يا أمير المؤمنين ! تنقص عطائي أن أطعتك ؟ فرد عليه خمسمائة وأقرّ لبيداً على عطائه . فلما كان زمن معاوية رضى الله عنه ، وأراد أن يجعل عطايا الناس ألفين قال له هذان الفودان « يعني بهما الألفين » فما هذه العلاوة ؟ « يقصد بها الخمسمائة » ، فقال لبيد : أموت ويبقى لك الفودان والعلاوة ، وإنما أنا هامة اليوم أو غد ! فرقّ له وترك عطاءه على حاله ، فمات بعد ذلك بيسير ولم يقبضها .

القول في صنيع عمر بلبيد

وينبغي أن ننظر هنا نظرة في صنيع عمر رضى الله عنه ، وما يصحّ أن يحمل عليه فعله مع الأغلب ، وقد تعلمون مقامات عمر في نقد الشعر والمفاضلة بين الشعراء ، وأنه كان من أشد الناس بصراً به ومعرفة بأوابده ، وكان يحث الناس عليه ويأمرهم بروايته ، وأثر عنه في تحبيب الرياضات المادية والمعنوية إلى النفوس قوله « علموا أولادكم السباحة ، ومروهم فليثبوا على ظهور الخيل ، ورووهم الشعر تعذب ألسنتهم » لما كان يعرف من فضيلته في ترقيق المشاعر ، والحضّ على مكارم الأخلاق ، ومجالس عمر وآثاره في هذا الوجه خير مثل لتشجيع الخلفاء للأدب ورواية الشعر ، وإذاً تكون معاقبته للأغلب على أنه صدع بأمره وأطاعه قد جاءت من وجه آخر ، كان عمر عليه أشد حرصاً ! وبه أكثر وجداً ، ذاك هو إغراء الناس بالقرآن ، وحملهم على تفهم أسراره واستظهار آياته ، إذ كان سراج التشريع وجامع أحكام الإسلام ، فكان صنيع عمر مظاهرة واضحة لما تقدم به لبيد ، لكيلا يكون القائم بالأمر والخليفة المتبع ، أقلّ حفاظاً على دعامة الدين ممن استرعوه أمرهم واتخذوه إماماً لهم .

وذكر أبو الفرج والبغدادي وغيرهما عن محمد بن يزيد المبرد وغيره ، قال :

نذر لبيد في الجاهلية ووالي الكوفة

كان لبيد شريفاً في الجاهلية والإسلام ، وكان قد نذر ألاّ تهبّ الصَّبا إلا نحر وأطعم ، وأنها هبت يوما وهو بالكوفة مُقْتِر مُملق ، فعلم بذلك الوليد بن

عُقْبَة بن أبى مُعَيْط ، وكان أميراً عليها لعثمان ، فخطب الناس فقال : إنكم قد عرفتم نذر أبى عَقِيل وما وَكَّده على نفسه ، فأَعِينُوا أخاكم ، ثم نزل فبعث إليه بمائة ناقة و بعث الناس إليه فقضى نذره وكتب إليه الوليد :

رسالة الوليد ابن عقبة إلى لبيد

أَرَى الجَزَّارَ يَشْحَذُ شَفْرَتَيْهِ   إذا هَبَّت رِيَاحُ أَبِى عَقِيلِ
أَغَرُّ الْوَجْـهِ أَبْيَضُ عامِرِىٌّ   طويلُ الْبَاعِ كالسَّيْفِ الصَّقِيلِ
وَفَى ابْنُ الجَعْفَرِىِّ بِحَلْفَتَيْه   عَلَى الْعِلاَّتِ والمَالِ الْقَلِيلِ
بِنَحْرِ الـكُومِ إذ سَحَبَت عليه   ذُيُولُ صَباً تجَاوَبُ بالأَصِيلِ

فقال لبيد لأبنته : أجيبيه ، فقد رأيتنى وما أعْيَا بجواب شاعر ، فقالت :

ردّ ابنة لبيد على هذه الرسالة

إذا هبَّت رياحُ أبى عقيلٍ   دَعَوْنا عند هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا
أَشَمَّ الأَنف أَصْيَدَ عَبْشَمِيًّا   أَعَانَ على مُرُوءَتِه لَبِيـدَا
بأَمْثَالِ الهِضَاب كأَنَّ رَكْباً   عليها من بنى حَامٍ قُعُودَا
أَبا وَهْبٍ جَزَاكَ اللهُ خَـيْراً   نحَرْنَاهَا وَأَطْعَمْنَا الثَّرِيدَا
فَعُدْ إِنَّ الـكرِيمَ له مَعَادٌ   وَظَنِّى بابْنِ أَرْوَى أَنْ يَعُودَا

فقال لها أبوها : أحسنت لولا أنك استزدته ، فقالت : يا أبت ! إن الملوك لا يُسْتَحْيَا من مسألتهم ، فقال لها : وأنت فى هذه أشعر !

ما يتمثل به من شعره وما يستشهد به النحاة

كانت السيدة عائشة تتمثل بقول لبيد :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فى أَكْنَافِهِمْ   وَبَقِيتُ فى خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

وتقول : رحم الله لبيداً كيف لو أدرك زماننا هذا ؟ ونحن نقول كما قال غيرنا رحم الله أمّ المؤمنين فكيف لو أدركت زماننا هـذا ؟ ومما يتمثل به منه أيضا ، قوله من قصيدة له طويلة مطلعها « إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَل » :

واكْذِبِ النَّفسَ إِذَا حَدَّثْتَهَا   إِنَّ صدقَ النَّفسِ يُزْرِى بالأَمَل

وكثيراً مَا يُتَمَثَّلُ بقوله « ألاَ كلُّ شىء مَا خَلاَ ٱللّهَ باطِلُ . . . البيت »
وَ يُتَمَثَّلُ أيضاً ببيت له سائر وهو قوله :

ما عاتَبَ الحرَّ الـكريمَ كَنَفْسِهِ والمرء يُصْلِحُه القَرِينُ الصَّالِـحُ

قالوا ولم يقل غير هذا البيت فى الإسلام ، أو قوله :

الحمدُ لِلّهِ إذْ لم يأْتِنى أجَلى حتىا كْتَسَيْتُ من الإسلام سِرْبَالا

ولذا عدّه العلماء جاهليا و إن عاش فى الإسلام ، و يستشهد النحو يون بقوله :

وما المرْء إلا كالشِّهابِ وضَوْئِه يَحُورُ رَماداً بعدَ إذْ هو ساطِعُ

على أن « حار » من الأفعال الناقصة التى تستعمل بمعنى صار ، و بقوله :

فأرْسَـــلَها العِرَاكَ ولم يَذُدْها ولم يُشْفِق على نَغَص الدِّخالِ

على مجىء الحال جامدة مؤولة بالمشتق أى معتركة ، و بقوله :

رأيتُ التُّقى والجودَ خيرَ تجارةٍ رَباحًا إذا ما المرء أصْبَح ثاقِلاَ

على استعمال « رأيت » بمعنى علمت الناصبة للمفعولين ، و بقوله :

حتى تَهَجَّر فى الرَّواح وهاجَه طَلَبَ المُعَقِّبِ حَقَّه المَظْلُومُ

على أن «المظلوم» بالرفع صفة المعقب ، باعتبار محله لأنه مضاف إلى طالب من إضافة المصدر إلى فاعله ، وفى الخِزَانة كلام طويل فى تأويل هذا البيت و إعرابه ، فمن أراده فليرجع إليه هناك ، كذلك يستشهدون بقوله :

فإن لم تَجِدْ من دُونِ عدنَانَ والدا ودُونَ مَعَدٍّ فَلْتَزَعْكَ العوَاذِلُ

على أن «دون» بالنصب عطف على محل الجار والمجرور أعنى قوله « من دون عدنان » وكذلك أورده سيبويه قال : وكأنه قال فان لم تجد دون عدنان والدا ودون معدّ .

ومما تعسف فيه النحاة روايتهم البيت الآتى ببناء الفعل فى صدره المجهول وهو قوله :

لِيُبْكِ يَزِيدَ ضَارِعٌ لخصُومَةٍ ومُخْتَبِطٌ مما تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

ويتكلفون على هذا جعل « ضارع » فاعلا لفعل محذوف أى يبكيه مع أن البيت يُروى بفتح ياء يبك ونصب يزيد ، وعلى ذلك فلا شاهد ولا حذف ، وبعضهم يوجه هـذه الرواية بما ورد فى القرآن من قراءة بعضهم الآية « يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ » ببناء يسبح للمجهول ، وحينئذ تكون رجال فاعلا بفعل محذوف ، أى يسبحه على نحو ما فى البيت على أن صاحب الخزانة يروى هذا البيت لِنَهْشَل بن حَرِّى ، من أبيات يرثى بها يزيد ابن نهشل . منها :

لعَمْرِى لئن أمسى يزيدُ بنُ نَهْشَلٍ حَشَا جَدَثٍ تَسْفِى عليه الرَّوَائِحُ

لقد كانَ مِمَّنْ يَبْسُطُ الكَفَّ بالنَّدَى إذا ضَنَّ بالخير الأكُفُّ الشَّحائحُ

وهى فى ديوان لبيد ، وقد نسبها ابن هشام والنحاس له أيضاً ، وحكى الزمخشرى أنها لِمُزَرِّد أخى الشَّمَّاخ ، وحكى غيره أنها لغيره ، وصوَّب صاحب الخزانة أنها لنهشل بن حرى ولم يذكر السبب فى هذا التصويب .

وقوله :

لَوْ كانَ غَيْرِى سُلَيْمَى الدَّهرَ غَيَّرَه وَقْعُ الحَوَادِثِ إلاَّ الصَّارِمُ الذَّكَرُ

أورده فى [المغنى] شاهداً على أن « إلا » تكون بمعنى غير فيوصف بها وبتاليها شبه جمع المنكر ، قال فإن «الصارم» صفة لغيرى ، و «سليمى» منادى ، و «الدهر» متعلق بمحذوف خبر كان .

وقوله :

ألاَ تَسْألانِ المرْءَ ماذا يُحَاوِلُ أَنَحْبٌ فَيُقْضَى أم ضَلالٌ وبَاطِلُ

أورده فى [المغنى] أيضاً شاهداً على أن «ما» اسم استفهام مبتدأ غير مركبة مع ذا ، وهى اسم موصول خبر ، بدليل رفع البدل وهو نَحْب ، ولو كانت « ذا »

مركبة مع « ما » لوجب أن تكون فى محل نصب بالفعل بعدها ، وكان يجب إذًا أن ينصب البدل وهو « نَحْبٌ » .

ما أثر عنه عند وفاته

ويروى أنه لما حضرته الوفاة قال لابن أخيه ، ولم يكن له ولد ذكر : يا بنىّ ! إذَا قَضَى أبوك فأَقْبِلْه القِبلةَ ، وسَجِّه بثوبه ، ولا تُصْرِخَنّ عليه صَارِخَةً ، وانظر جَفْنَتَىّ اللتين كنت أصنعهما ، فاصْنَعْهما ثم احْمِلْهُما إلى المسجد فإذا سَلَّم الإمامُ فقدِّمهما إليهم ، فإذا طَعِمُوا فقل لهم فَلْيَحْضُروا جنازةَ أخيهم ، ثم أنشد قوله :

وصية لبيد لابن أخيه قبل موته

وإذا دَفَنْتَ أباكَ فاجْـــعَلْ فوقَه خَشَبًا وطِينَا
وسَـــقائِفًا صُمًّا رَوَاسِيـــها يُسَدِّدْنَ الغُضونَا
لِيَقِينَ حُرَّ الوجهِ سَفْسا فَ التُّرابِ ولن يَقِينَا

وهى أبيات من قصيدة له طويلة منها

أَبُنَىَّ لو أبصرتَ أعْما مِى بَنِى أُمِّ البنينـــا
وأبِى الّذى كانَ الأَرا مِلُ فى الشِّتاء له قَطِينَا
ما إنْ رأيتُ ولا سَمِعْـــتُ بمثلِهِمْ فى العالَمينَا
فَبقِيتُ بعدَهُمُ وكُنْـــتُ بطول صُحْبَتِهم ضَنِينَا
دَعْنى وما مَلَكتْ يَمِينِى إن شدَدْتُ بها الشُّئُونَا
وافعلْ بِمَالكَ ما بَدَا لكَ مُسْتعانًا أو مُعِينَا

وفى هذه الأبيات غناء لإسحق بن ابراهيم الموصلى ، وكذلك التى قبلها فيها غناء لغيره ، وفيها أيضا أنه يعتبر ممن رثى نفسه قبل موته ، وقال لابنتيه وهو مُحتَضَر أيضًا :

رثاؤه لنفسه

تَمَنَّى ابنَتَاىَ أن يَعيشَ أَبُوهما وهلْ أنا إلاَّ من رَبيعَةَ أو مُضَر

فَإِنْ حانَ يوما أن يَموتَ أبوكُمَا ... فلا تَخْمِشاَ وجْهاً ولا تَحْلقا شَعَرْ
وقُولاَ هُو المرْءُ الذى لاَ حَليفَه ... أضَاعَ ولاخَانَ الصَّديقَ ولا غَدَرْ
إلى الحَوْل ثم اسْمُ السَّلام عليْكما ... وَمنْ يَبْكِ حَولاً كاملاً فقَدِ اعْتذَرْ

فكانت ابنتاه تَلْبسان ثيابَهما فى كلِّ يوم، ثم تأتيان مجلسَ بنى جعفر بن كلاب فتَرْثيانه ولا تَنْدُبان، فأقامتا على ذلك حولا ثم انصرفتا.

وكان لبيد رضى الله عنه صحابيا، وهو وابن عمه علقمة بن علاثة من المؤلفة قلوبهم، والله أعلم.

٦ – طرفة

لعلنا حين نؤلف بين الأحاديث القليلة للرواة عن طَرَفة، وبين ما صحّ له عند ثقاتهم من الشعر، نستطيع أن نقترب من تحصيل الصورة الواضحة لحياته القصيرة، التى قضاها فى منازل قومه من بكر ببادية العراق وبغيرها من بقاع الجزيرة، حتى مات أو قتل على اختلاف الرواة فى تحقيق الصواب من الأمرين بما سنأتى فيما يلى على تفصيله. ولسنا نشك فيما اتصل بحياة طرفة حين تحرك من تجنيه على قومه، وتضييعه لما فى يده، وإمعانه فى الإسراف على نفسه، حتى نبا به المنزل، وتحامته العشيرة، واضطر أن ينتقل بين الأحياء مطردا إلى بلاد اليمن، وتجاوزها إلى النجاشى فى الحبشة، ثم عاد بعد حين إلى قومه واتصل بعد ذلك بقصور الحيرة، وتأثر – بالضرورة – بمشاهد تلك البلاد، وبما فى هذه الحاضرة العربية من آثار المدنيات القديمة، وامتزجت وثنيته بشىء من أدب الديانات المختلفة الطائفة يومئذ بأنحاء الجزيرة.

لأن ذلك بالإضافة إلى تبكير نبوغه وقوة فطرته، يفسر لنا ما صيره أهلا لإنشاء هذه الثمرات الأدبية، التى صَعِدت به إلى مراتب الفحول فى مَطْلَع صِباه. ونحن نعتقد على قلة ما عند الرواة من الخبر عن حياته، أننا سنظفر بما نصفه

حين نتفقده بين تلك القصائد والأشعار القليلة ، التى لا تخلو أن يكون تحدث فيها عن نفسه ، وأعلن بها مذهبه ، وأفضى بغير واحدة من خصائصه المفردة وصفاته المشتركة .

أخته الخرنق وخاله المتلمس وعبد عمرو ابن عمه

ويذكر الرواة معه دائما أخته الخرنق الشاعرة ، وخاله المتلمس ، وابن عمه عبد عمرو ، من بطانة عمرو بن المنذر الثالث ملك الحيرة وهو المعروف بابن هند ، لما بينه وبينهم من قرابة ولما لهم من تاريخه من صلة ، ويقولون إنه كان صغيرا يلعب مع الصبيان وسمع المتلمس[1] أو شاعراً آخر، هو المسيَّبُ بن عَلَس ، ينشد شعرا له فى صفة الجمل فى مجلس من بنى ثعلبة ، فعابه طرفة بما اتخذه قومه مثلا ، وبدا لهم حينئذ أول ما عرف من تمامه وإقدامه .

انتقاده لخاله فى بيته

منادمته لعمرو بن هند

قالوا وإنه وفد مع خاله المُتَلَمِّس إلى عمرو بن هند ، فأقاما عنده زمانا ينادمانه ويخرجان معه إلى الصيد ، وكان ابن عمه عبد عمرو مغاضباً له ، فوشى به إلى الملك بما سنذكره من هجائه له ، فسيره مع المتلمس إلى عامله بالبحرين وكتب مع كلٍّ واحد منهما صحيفة[2] يأخذان بها حباء الملك ، ولما فصلا من الحيرة

---

(١) المتلمس هو جرير بن عبد المسيح ، شاعر بكرى مقل ، وهو أخو وردة أم طرفة ، وكان ما أنشده مما عابه طرفة قوله :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم
كميت كناز اللحم أو حميرية مواشكة تنفى الحصى بملثم

والصيعرية سمة للإناث من الإبل خاصة ، فقال له طرفة « قد استنوق الجمل ! » وذهبت مثلا للتخليط ، أو للقوىّ يصير إلى الضعف والذلة .

(٢) وبصحيفة المتلمس يضرب المثل لما يتشاءم به من الكتب ، ومن قوله حين ألقاها فى الماء :

رميتُ بها فى الثِّنى من جَنب كافر كذلك أَقْنُو كلَّ قِطٍّ مُضَلَّل
رضيتُ لها بالماء لما رأيتُها يجُولُ بها التَّيار فى كلِّ جَدْوَل

وينسب إليه البيتان :

ارتاب المتلمس فى أمر الملك ، لما تقدم من هجائه إياه ، وأشفق أن يكون أمر فيهما بشرّ ، فأقرأ صحيفته غلاما من نصارى الحيرة ، وعلم بما تحمله من المكروه له ، فألقاها فى الماء وهرب إلى الشام .

صحيفة المتلمس

وأما طرفة ، فأكبر أن يجترئ عليه الملك ، لرهطه وحسبه ولمكان قومه من المنعة فى نجد — وكانوا من أنجب الأحياء وأعدّها وأكثرها فرسانا فى العرب — فشخص إلى البحرين ، وهناك لقى حتفه لهذا السبب المتقدم ، أو لغيرة لحقت الملك منه على أخته ، أومات حتف أنفه وهو ابن عشرين سنة أو خمس وعشرين على الأرجح ، بدليل ما فى ديوان أخته الخرنق[1] من رواية أبى عمرو بن العلاء ، ولم تتعرض الكتب التى تناولت حديث طرفة إلى أكثر من ذكر السبب فى موته ، ونقد قليل لبعض معانيه ، أو التنبيه على منزلته من شعراء عصره ، ولم يشر واحد منها إلى تاريخ ميلاده ، ولا إلى تحديد السنة التى قتل فيها ، ولا إلى شيء ذى قيمة عن حقيقة حياته ووصف شعره .

اغتيال أمير البحرين لطرفة بأمر الملك

وقد ترجم له البغدادى فى [الخزانة] بما لا يتجاوز هذا القدر من التحقيق والاختصار ، وذكره الامام ابن قُتَيْبة ، وابن سَلَّام الجُمَحى فى كتابيهما [الشعر والشعراء ، وكتاب الطبقات] وذكره أيضاً مؤلف سُورِىٌّ نَشَر كتابه « روْضَةَ الأَدب فى طبقات شعراء العرب » فى بيروت فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقال إنه مات قبل الإسلام بنحو سبعين سنة ، و بين أيدينا الآن

البغدادى وترجمة طرفة

ابن قتيبة وابن سلام واسكندر ابكاريوس

ولا يُقيمُ على ضَيْمٍ يُرادُ به ... إلا الأَذَلَّانِ عَيْرُ الحىِّ والوَتِدُ
هذا على الخَسْف مَرْبُوط بِرُمَّته ... وَذَا يُشَجُّ فلا يَرْثِى له أَحدُ

(١) وكانت تحت بشر بن مرثد من سادات بكر وهى القائلة ترثى طرفة :

عددنا له خَمْساً وعشرين حِجَّةً ... فلما توفاها استوى سيِّدًا ضَخْما
فُجِعْنا به لما رَجَوْنا إيابَه ... على خير حَال لا وَلِيدًا ولا قَحْما

وينسب البيان لطرفة فى ديوانه وهو خطأ .

شرح ديوان طرفة للإمام يَعْقُوب بن السِّكِّيت من أئمة القرن الثالث الهجرى توفى سنة ٢٤٣ ، مأخوذ بالتصوير الشمسى عن نسخة بدار الكتب ، مخطوطة من قلم الإمام الشنقيطى الكبير ومجموعة تسمى [العقد الثمين] تشتمل على شعر ستة من شعراء الجاهلية ، وهم امرؤ القيس والنابغة وعنترة وطرفَة وعَلقَمة الفحل وزهير ، وهى مذيلة بتعليقات لطيفة فيما صحّ من هذه الأشعار لقائليها ، وفيما صنعه الرواة عليهم ، وقد جاء فى آخرها أن جامعها والذى عنى بترتيبها هو الفقير إليه تعالى « وِلْيَم بن الوَرْد البُرُوسى » من كبار علماء الألمان فى نهاية القرن التاسع عشر ، وشرح آخر للأَعْلَم الشَّنْتَمرى ، ومعه ترجمة فرنسية بقلم عالم مستعرب ألمانى - على الراجح - يسمى « مَكْس سِلِغْسُون » كتب رسالة عن حياة طرفة ، تقدم بها إلى جامعة باريس ، ونال لقبا علميا فى التاريخ واللغات سنة ١٨٩٢ ، وقد اتخذ شعرَ طرفة وحده أساساً لبحثه ، واستطاع بهذه الطريقة - على ما فى بعض استنباطه من الخطأ - أن يهتدى إلى كثير مما أغفله المؤرخون من حياة طرفة ، ومن ظريف ما يزعمه فى دينه أنه لم يكن وثنيا ولا يهوديا ولا نصرانيا ، وإنما هو يؤمن بالعقائد الشعبية ، وله إله أو آلهة أخرى لا يحبون إلا الأحياء ، أو لا تتعلق إرادتهم بالأموات ، بناء عن ما تأمله فى كلام طرفة ، من قلة اعتداده بالآخرة ، وضعف ثقته بالجزاء على العمل فى غير هذه الحياة الفانية ، وأنه لم يكن يدعو إلهه لأحد من عدوه أو من شيعته ، إلا بما يقع للناس فى هذه العاجلة من ضرّ أو نفع ، وما كان يستنزل الرحمة لأرواحهم بعد الممات .

الأعلم الشنتمرى وولـيم بن الورد البروسى جامع الدواوين الستة

رسالة فى حياة طرفة لمكس سلغسون

وأرّخه صاحب « شعراء النصرانية » بما لا يختلف عما فى المراجع السابقة ، وعده من شعراء النصارى ، كما عدّ غيره من الجاهليين ، ولم يبن دعواه فى نصرانيته على أىّ دليل ، وذكره كتاب « الوسيط » على طريقته من الإحاطة والإدماج ، وتعرض له كتاب « الأدب الجاهلى » على نمطه الحديث ، فى البحث الأدبى بما يشبه بعض ما تناولته به الترجمة الفرنسية من التحليل والنقد .

طرفة وصاحب شعراء النصرانية

الوسيط وكتاب فى الأدب الجاهلى

ذلك — على أكبر الظن — كلّ ماعند الناس من أخبار طرفة . وهو يمثل لنا حياة بدوية ، مترددة بين اليأس والحزن ، وبين الشباب والأمل متأثرة إلى حدّ غير بعيد بما يجعلها أرقى من حياة أهل البادية الذين لم يَرِيموا الصحراء ولم يَتَقَلَّبوا فى البلاد .

شعره

وستشعر حين تمتحن شعره بما يصفونه به من العُجْب والجُرْأة ، ومن الصلة الظاهرة بالضَّخْم من الحَسَب فى قومه ، وستشعر مع هذه الأوصاف أيضاً بحياة شابّة قويّة ، يُطيل صاحبُها الحديثَ عن نفسه ، ويسرف فى ذكر شهواته ، وتقدير أمانيه ، ويذكر اغترابه وحزنه ، وتعثر له أحيانا بالبيت والأبيات يتعرض بها لما فى الطبائع من قلة الوفاء ، والعجز عن تحصين الأسرار ، والنفاسة بين القرابات المُؤْذنة بضروب من سوء المكافأة ومَضَاضة الظلم ، ويذكر الحب ، وقد يستخفه الشباب إلى قلة الاكتراث بِدَلِّ المحبوب وتَجَنّيه ، حتى ليصيرُ إلى مُطَارحته وَصْلاً بوصل وهِجْرانا بِهِجْران ، وهو معنى ما يوصف به من العُجْب ، على غير المعهود من العُشاق الذين يستعذِبون فى الحب شديد العذاب ، ويتنصلون عمن يحبون من الذنوب .

زهير وطرفة فى وصفهما للحرب

وكذلك يذكر الحرب ، ولكنه لا يزال يُلِمُّ بنفسه ، ويصف بلاء قومه ، ولا يكاد ينهض إلى صَنيع زهير حين أوشك أن يَتجرّد من نفسه ووقف يتحدث إلى قومه عن الحرب ، وهى أكثر شىء من أحوال الاجتماع البدوى وقوعا ، وأهْوَلُه خَطرا فيما تُهلك من أنْفُس ونَشَب ، وبما تُوَرِّث من شَنَآنٍ وضِغْن ، فى نَسَق من التصوير بالغ إلى الغاية من جمال المعرض ولطيف التمثيل ، بل أنت ترى طرفة مُفْرِطا فى الذّهاب مع خواطره إلى مَحَابِّ العيش ونَزَوَات الشباب ، إلى ما يشبه أن يكون مَجَانَة واستِهْتاراً ، إلا ما استقام له من أبياته السائرة ، التى نفَثَها عن خاطر ثاقِب وفطرة عجيبة ، وما زالت على الزمان غَضّةً يتمثل الناس بها ، ولا يقضون العجب من استحسانهم لها .

نبل طرفة وصباه

وسوف تعرف أنه كان مع استئثاره لِلَذّات نفسه ، طَمُوحَ العين إلى عَليّات الأمور ، فتراه مع الشُّذَّاذ والحِشْوة فى حوانيت الخمّارين ، ثم إذا هو يَثِبُ فيكون فى حَلْقة الملأ من الأشراف وبين السَّرَوَات من عِلْية القوم ، ويذكر فى أمانيه الشراب والمرأة ، ولا ينسى نصيبه من المجد بإسراعه إلى المُضاف ، وصبره على المكروه ، بما يدل على احتفاله بموقع المعونة عنده ، ومنزلة الفضيلة من نفسه .

ويتصل شعره بالبادية ، فيصف ما فيها من نبات ووحش وطير ، ويذكر الأمطار والبحار والسفن ، وقد تعلق بناقته فأمضى بها الهمّ عند احتضاره ، ثم تناول جوارحها وأخلاقها وضروب سيرها بما لم يدع لقائل معه متعلقاً ، وعد بذلك من أوصف الجاهليين للإبل .

وصف الإبل

مجد القبيلة

ثم ينتهى شعره إلى مجد القبيلة ، بما عهدته البادية من المفاخر العربية ، التى لا تبتعد عن تمثيل وقار المجلس وحماية الجار وقرى الضيف والغَنَاء فى الحرب .

وستقرأ شعره فتحسّ بجلبة قوية من أسر اللفظ وفخامة الأسلوب ، وقوة القافية ، وقد يَتوعَّر عليك حين يمضى به الوصف لناقته ، فلا تجد لك حينئذ غنى عن الاستعانة بغريب اللغة لتفهمَه ، فتعلم إلى أى حدّ يتصل هذا الكلام بالحياة البدوية ، وكيف يمثلها أصدق تمثيل ، وقد تشعر له حين يتحدث عن اغترابه وحزنه وبعض غزله ، برقة وسهولة ، تلمحها — على الأخص — فى قصيدة غَزَلية له ذاهبَةٍ من السلاسة إلى الغاية ، سنعرض لدراستها ، وستقول فى نفسك إنها ليست له ، وأولى أن تكون من صنعة العصور المتأخرة ، ونحن نحيلك على ما قدمنا غير مرة ، من اختلاف مقامات الكلام ، وما يتبع ذلك من اختلاف الأساليب ، ومن صحة اجتماع القوة والضعف للشاعر الواحد فى الحالين المختلفين ، إذ ليس من يذكر مَشَافر الناقة وأخفافَ البعير ، كمن يَترقّق فى الحديث والشكوى إلى المرأة ، ويدعوه الغزل إلى اجتلاب اللفظ السّمح والنّغمة الكريمة .

رقة الكلام فى الغزل

ونجد له مديحاً قليلا ، لا يعرف حين يحاول منه بلاغا خيراً للممدوح من سقيا الديار بصوب الربيع ؛ وله هجاء ، وفى شعره آلام يبثها فى شكواه مما أصابه من قومه وما لقيه أثناء سياحاته وهو طريد منفى ، يفرغه فى لفظ قريب وأسلوب سهل ، وذلك أيضاً شعر طرفة ، أو إن شئت قلت إنه طرفة متمثلا فى شعره ، وسترى عند اعتراضنا لنقده ودراسته ما تطمئن به إلى ما أسلفناك من الرأى فيه إن شاء الله .

منزلته من الشعراء

ولا يتفق الرواة على شيء فى طبقته من الشعراء أيضاً ، وقد جعله ابن سلام فى الطبقة الرابعة مع عَبِيد بن الأبْرص وعَلْقَمة الفحل وعَدِيّ بن زَيْد ، قال : وهم أربعة رَهْطٍ فُحُول موضعهم مع الأوائل وإنما أخَلَّ بهم قِلَّةُ شعرهم بأيدى الرُّواة ، وأما طرَفَة فأشعر الناس واحدةً وهى قوله :

رأى ابن سلام فى طرفة

لِخَوْلَةَ أطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ وَقَفْتُ بها أبْكى وأُبْكى إلَى الغَدِ[1]

هكذا ذكره ابن سلام ، وهى رواية فى مطلع المعلقة ، والمشهور غيرها كما سيأتى ، قال : ويليها أخرى مثلها وهى :

أصَحَوْتَ اليومَ أمْ شَاقَتْكَ هِرْ ومن الحُبِّ جُنونٌ مُسْتَعِرْ[2]

وَمِنْ بَعْدُ له قصائدُ حِسان .

رأى ابن قتيبة

وذكره ابن قُتَيبة فى كتابه «الشعر والشعراء» قال : وهو أجودهم طويلة ، وله بعدها شعر حسن ، وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلا القليل ، ثم ساق ما قدمناه فى ترجمة لبيد عن أبى عبيدة من رأيه فى طرفة ، وقد سماه مرة الغلام القتيل ، وأخرى بابن العشرين ، وهو يجعله ثانى الشعراء بعد امرئ القيس . وذكر أيضاً عن أبى عبيدة قال : طرفة أجودهم واحدة ، وأجده

(١) برقة : مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى .

(٢) هر : اسم امرأة . مستعر : ملتهب .

لا يلحق بالبحور — يعنى امرأ القيس والنابغة وزهير — ولكنه يوضع مع أصحابه ، الحارث بن حِلِّزَةَ وعمرو بن كلثوم وسُوَيد بن أبى كاهل .

جرير والفرزدق والأخطل يقدمونه

وفى شرح ديوانه لابن السكيت ، رأى لجرير يقدمه به على الناس ، وفى الأغانى فى الجزء الخامس ، وفى العشرين كلام للفرزدق . وللأخطل بهذا المعنى ، وذكره المرزبانى فى « الموشح » ولم يرتبه فى طبقة ، غير أنه جعله فى الكتاب بعد الأعشى ، وحكى شيئاً من شعره يعاب بعضه ويستحسن الآخر ولم يزد ، وجعله البغدادى ثانى الشعراء بعد امرئ القيس ، قال : ومرتبته ثانى مرتبة ، ولهذا ثنى بمعلقته .

الثنية بمعلقته وتعليق البغدادى

ونحن نميل إلى الأخذ برأى ابن سلام على الأقل فيما يختص بطرفة ، فإن جودة شعره ترفعه حقا إلى درجة الفحول ، ويؤخره عنهم قلة ما تركه من الشعر ، وأما أصحابه — غير علقمة — فليس لهم على مبلغ ظننا حظ يذكر من جودة الكلام ، فلا موضع لهم مع الأوائل ، ثم نبدأ الآن بشرح ما يتسع له المقام من أشعاره مستفتحين بالمعلقة .

دراسة المعلقة

وكذلك يختلف الرواة فى السبب الذى حمل طرفة على قولها ، فمنهم من يقول — وهو الأقرب إلى الصواب — إنه كان لطرفة ولأخيه مَعْبَد إبل يرعيانها يوما ويوما ، فأَغَبَّها طرفة فى المرعى فلاَمَه أخوه على فعله ، قال : أرأيت إذا ذهبت إبلنا أكُنْتَ تردها بشعرك ؟

السبب فى نظم المعلقة

ومنهم من يذكر سبباً غير هذا ، ولكنهم لم يختلفوا فى أن هذه القصيدة لطرفة ، ومن شعر طرفة لا غير ، وأنها نظمت بعد عودته من منفاه إلى قومه ، وقبل اتصاله بالحاشية الملكية بالحيرة .

رأى المترجم فى ذلك وفى الأبيات المتعلقة بخولة وأنها من وضع جامع الديوان

ويرى مترجم ديوانه أنها لم توضع مرة واحدة ، لما يجده من تنوع أغراضها ، وقلة الحرص على المجانسة بين مقاطعها ، ويزعم أن الأبيات المتعلقة بخولة من المطلع إلى وصف الناقة ليست منها ، وقد تكون من وضع جامع القصيدة ، ولعل هذه الريبة نشأت عنده من اعتقاده بأن القصيدة إنما قيلت لاسترداد الإبل

الضائعة ، فلا محلّ فى رأيه حينئذ لذكر خولة ولا غيرها ، والمقام مقام جِدٍّ تنصرف فيه النفس عن مثل هذا اللهو والغزل ، ونسى أن الشعر القديم كله يفسح فى صدره مكاناً للمرأة ، يقف لها الشاعر فيستلهم من وحيها ، ويستعين بإعجابها على ما امتلأت به آفاق البادية من المآثر العربية ، وهى عنده بمنزلة آلهة الشعر عند الأمم القديمة ، ولدورها فى تاريخ الاجتماع البدوى مكان لا يُجْهل ، وهى لا تقل فى شغله بها واهتمامه بتقدم الحديث إليها عما يُثَمِّرُ من مال وما يدخر من قِنْيةٍ أو متاع .

رأيه فى وصف الناقة

ويرى أيضاً تأخير الأبيات المتعلقة بوصف الناقة وما يليها إلى ما بعد قوله منها :

عَلَى غيرِ شَىْء قلتُهُ غيرَ أَنَّنِي نَشَدْتُ فلم أُغْفِلْ حَمُولَةَ مَعْبَدِ

لاعتقاده بأن من ههنا يدخل الشاعر فى الغرض من نظم هذه القصيدة ، ولكنه يقع فيما حَذِرَه بهذا الترتيب ، إذ لا يجد علاقة بينها وهى نحو سبعين بيتاً تجاوزت الناقة إلى ذكر شبابه ولهوه وأمانيه وبين هذا البيت السابق ، ولأنه يلزم على هذا أن يكون كلّ شعر قاله طرفة فى الإبل حتى فى غير هذه القصيدة متأخراً فى الوجود عن هذا البيت ، وأن يكون الكلام فى الإبل المأخوذة لا فى ناقة واحدة كادت بإبلاغ طرفة فى وصفها ، تعدّ حيوانا خرافيا كأنه غير موجود ، ويقول إن قوله :

إذَا مِتُّ فَأَبْكِينِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّى عَلَىَّ الجَيْبَ يا أَبْنَةَ مَعْبَدِ

وبعض الأبيات التالية قالها وهو فى سجن البحرين قبل موته بقليل ، وليس ذلك بشىء ، لأن الإنسان كثيراً ما يدعوه الاعتداد بمنزلته إلى مثل هذا الكلام ، استعظامًا منه لنفسه وإشفاقا من خلو مكانه فى قومه بعد موته ، تباهيا بما يكون له من كفاية أو جِدَةٍ ، وإن كان يفرق من الموت ولا يعلم متى يموت ، وكذلك ينكر أن يكون :

لعمرُكَ إنَّ المَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى ... لَكالطِّوَلِ المُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ[1]

لطرفة أو على الأقل من هذه القصيدة ، لعدم مناسبته فى رأيه للموضع الذى ظهر فيه منها .

خطؤه فى نقده

وقد ترون عند التأمل فى هذا النقد ، أنه فى الجملة غير صواب ، وأنه ناشىء فى الواقع من أمرين :

بناء القصيدة العربية

أحدهما ما هو معروف عن نظم القصيدة الجاهلية فى حالة البديهة المعجلة ، من قلة العناية ببنائها على تأليف ، يتصل فيه أول الكلام بآخره ، بحيث لو تأخر البيت أو أسقط من مكانه يختل الكلام ويظهر النقص ، لأن الوقت ما كان يتفسح للشاعر ، حين تزدحم الخواطر المختلفة فى نفسه ، فيرسلها كما هى مرتجلة غير مرتبة ، وإن كانت عند تمحيص الكلام وتدقيق النظر متناسبة

التجانس بين أغـــراض القصيدة

متجانسة لالتقائها فى مرأى العين على بساط البادية ، وما الطلل والمرأة والناقة والمهاة والخيل والليل والوحش والمطر فى نظر البدوى ، إلا حبات متناثرة يصح أن يجمعها خاطره وتنتظمها عقود شعره ، على أن القصيدة العربية حين يَصْنَعُهَا الشاعر صناعة ، ويأتيها بفضل الأناة والروية ، ويتعقبها بالتنقيح والمعاودة ، وحين تشتمل على قصة أو تصف حالا واقعة ، سترى لها طبعا ونسيجا موصولا فى تلازم أجزائها واطراد أسلوبها ، وكذلك هى حين تشتمل أغراضا مختلفة ، تتحدث على الأقل عن الوحدة فى هذه الأغراض ، بمعنى أنك لاتستطيع أن تنزع شيئاً من وصف الناقة مثلا فتضمه مع أبيات أخرى فى وصف المطر أو

وحـــدة القصيدة فى رأى المحدثين

الليل أو نحو ذلك . ولكن المُحْدَثين من النقاد الذين يقلدون المستشرقين من غير كبير نظر ، يُسْرِفون فى ذم الشعر العربى ، لإخلاله — فى زعمهم — بما يسمونه تقليدا « بوحدة القصيدة » وكأنهم يتوهّمون أن الشعر العربى يجب

(١) الطول : الحبل يطوّل للدابة لترعى فيه .

أن يكون قَصَصًا يونانيا ، يتصل بحكاية الخرافات ، ويعْمِد قائله أبدا إلى إلقاء خواطره المتصلة فى سلسلة متتابعة من الألفاظ ، ولئن كان هذا فى رأيهم كالا لُغَويا فقد أصاب الشعرُ بعضَه وما بلغه كُلّه فى الجاهلية .

أما الثانى فهو ما يعترف به هـذا العالم المنصف ، عند ما تناول الأئمة الأقدمين من علماء العرب فى بحثه ، من أنهم – يعنى المستشرقين – لن يستطيعوا أن يبلغوا الآن ولا فى المستقبل إلى ما بلغه أولئك العلماء ، وأنهم ينقصهم على الأقل الشعور اللغوى أو ذوق الأدب العربى ، ومكانه من هذه الأبحاث مكانه ، ولذا كان إنكاره البيت السابق غير مقارب للصواب ، لما ترونه من قوّة الارتباط الأدبى بينه وبين ما قبله وهو قوله :

الذوق اللغوى عند علماء العرب والافرنج

أَرَى الْعَيْشَ كَنْزاً نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ الْأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ

إذ هو يقرر أن الدهر يقص حواشى الأشياء ، وينقص أيام الحياة ، فهى لا محالة صائرة إلى الذهاب والفناء فينبغى لمن تطول أعمارهم ألا يغتروا بأنهم قد يفلتون من هـذا الحساب ، وإنما يؤخرون ليوم معلوم ، مهما أبطأ الأجل عليهم أو طاولت الأيام لهم ، وهو معنى البيت المذكور ، وترونه مستقرا فى موضعه ومتصلا بسابقه ، فلندع هذا إلى دراسة القصيدة كما هى فى شرح ابن السِّكِّيت والأَعْلَم الشَّنْتَمْرِى وَجَمْهَرَة أبى زَيْد والعِقْد الثَّمِين لِوِلْيَم الْفَرْت المذكور .

قال طرفة :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِى الْوَشْمِ فى ظَاهِرِ الْيَدِ
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ
كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدْوَةً خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ
عَدَوْلِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْراً وَيَهْتَدِى

يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا ... كما قَسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلُ بِاليَدِ

غزل المعلقة

وَفِى الحَىِّ أَحْوَى يَنْفُضُ المَرْدَ شَادِنٌ ... مُظَاهِرُ سِمْطَىْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ

خَذُولٌ تُرَاعِى رَبْرَبًا بِخَمِيلَةٍ ... تَنَاوَلُ أَطْرَافَ البَرِيرِ وَتَرْتَدِى

وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوِّرًا ... تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ له نَدِى

سَقَتْهُ إِيَاةُ الشَّمْسِ إِلاَّ لِثَاتِهِ ... أُسِفَّ وَلَمْ تَكْدِمْ عليه بِإِثْمِدِ

وَوَجْهٍ كَأَنَّ الشَّمْسَ أَلْقَتْ رِدَاءَهَا ... عَلَيْهِ نَقِىِّ اللَّوْنِ لم يَتَخَدَّدِ

ولا نعرف خَوْلَةَ هـــذه ، ما خَطْبُهَا ولا بنتُ من هى ، غير أنها امرأة من كلب ، ويبعد أن تكون غير المالكية المذكورة بعد ، ويقولون إنها من بنى مالك بن حنيفة بن قيس بن ثعلبة ، ويكون كل ما فى الأمر أنها من رهط طرفة ، وسترونه يذكر نساء كثيرة فى أشعاره الأخرى ، منهن هِرٌّ وَمَاوِيَّةُ وَهِنْد وَسَـــلْمَى ، ولا نعرف أهُنَّ خولة أيضاً سماها بهذه الأسماء أم هُنَّ صواحبها أم نساء أُخَر أحبَّهُن طرفة ؟؟ ويصح أن تكون ســـيرته ممهدة لاسترجاح هذا الرأى .

تحليل هذه الأبيات

وقد تناول البيت الأطلال ـ وهى جمع طلل ـ لما شخص من آثار الديار ولوحها ظهورها دقيقة متتابعة كالوشم ، وهو الدق بالنؤر أو الإثمد على ظاهر اليد ، وبرقة ثَهْمَد موضع فى ديارهم ، ثم وقف وحبس أصحابه مطيهم عليه ، يؤســـونه ويدعونه إلى الصبر والجلد ، ويصح أن ينصب وقوفا جمع واقف على الحال من فاعل يقولون ، أو أن ينتصب على المصدر ، وقد مرّ هذا البيت بعينه فى ترجمة امرئ القيس وشرح معلقته ، ثم أشار إلى ظعنها وشبه مركبها على الناقة وهو الحِدْج حين يبدو للنظر وسط الصحراء فى تعاليه ولين ســير الراحلة به ، بخلايا السفين أى العظام منها وهى تنحدر فى مجارى المياه إلى الأودية ، وهو معنى النواصف جمع ناصفة ، وهى فى هذا الموضع المسمى بدَدٍ ، ثم حقق هذا التشبيه بقوله : إنها من السفن المصنوعة فى « عَدَوْلَى »

قرية بالبحرين أو من سفين ابن يامن وهو ملاّح بهجر ، وهى تارة تغلب قائدها وتجور عن الطريق وأخرى يهتدى بها إلى قصده ، وذلك لصلاحيتها للسير فى الجور والقصد .

وحباب الماء زبده وأمواجه ، وقد يكون الحباب ما يظهر من الفقاقيع على سطح الماء ، والحَيْزُوم المُقَدَّم والصدر ، والفِيَال والفُايلة لعبة لهم يخبأ شيء فى التراب ويقسمه أحدهم بيده ثم يطلب الخبء فى أىّ قسم هو ، وصورة التشبيه واضحة ، وبعد أن تناولها فى رحلتها عاد يصفها فى مُقامِها ، فشبهها بالظبى الأحْوَى ، والحُوَّة لون إلى السواد ماهو ، ويقول شارح ديوانه فى الأحوى ماله خُطَّتان من سواد و بياض . والمَرْد ثمر الأراك البالغ ، والشادن الذى تحرك وقوى ، والمُظَاهر اللابس ثوبا فوق ثوب . والسِّمط الخيط من اللؤلؤ أو نظم فى سلكين ، وهو يُشَبِّه المرأة بالظبى فى طول العنق وطَىِّ الكَشْح وحسن العينين ، و يجرد التشبيه بقوله « مظاهر سمطى لؤلؤ وز برجد » فاللفظ على الظبى والمعنى على المرأة ثم قال خَذُول ، وهو نعت للأُنثى ، وفى البيت السابق ذكر الظبى على طريق التشبيه ، لأنه إذا شبهها بالظبى فقد شبهها أيضاً بالظبية ، والخذول التاركة لصواحبها ، وتراعيها تراقبها أو ترعى معها وهى فى هذه الحالة تكون منفردة لطيفة التلفت ، ظاهرة المحاسن ، بخلاف ما إذا كانت فى غِمَار صواحبها ، فانه لا يتبين ذلك منها ، والخَمِيلَة أرض سهلة ذات شجر ، والبَرِير ثَمرُ الأراك الذى لم يُدرك ، وترتدى أى يكون ما يتهَدَّل عليها من الأغصان بمنزلة الرداء ، والمعنى على وصف الظبية بالنَّعْمَة والعتق لرعيها فى هذا المكان الخصيب

قال ، وتبسم عن أَلْمَى أى ثغر أسمر اللِّثَاتِ [(١)] وهى مغارز الأسنان فى الفم كأن فيه أقحوانا ظهر نَوره ، وأضمر الخبر لظهوره ، وهو حسن اللون ناعمه

(١) والفعل منه لَمِى كفرح ، ويقال للمرأة إذا كانت رطبة المكان لثياء ، ونساء العرب يتسابين بذلك ويقال لعكسها الرّشوف ، وهنّ يحمدن ذلك من أنفسهنّ واللثة كعدة . وتجمع على لثات ولثين .

لنباته فى كثيب من نَقَى الرمل ، فى أسفله الندى من المـاء والرى ، يشبه بياض الأسنان بنور الأقاحى الندية ، وإياةُ الشمس شعاعها وضوؤها ، أُسِفَّ ذرّ على لثاته الإثمد ، وهو حجر أسود يكتحل بمفتوته ، يقول إنها سمراء اللثات صافية بياض الأسنان محددتها ، إذ لم تعض بها شيئاً صلباً فهى باقية على حدّتها ودقة أطرافها ، وقد لطف وأجاد فى قوله « ووجه كأن الشمس . . . البيت » وهو ظاهر المعنى جميل الخيال ، ومعنى لم يتخدد أى لم يسترخ ولم يتثنّ فهى فى رَيْعَانها وَفَتاء سنها .

وترك خولة وما تناوله من أوصافها فجأة ، إلى ذكر الناقة وقد فرغنا ممـا فيه عند قولنا فى مقدمة القصيدة قال :

وَإِنِّى لَأُمْضِى الهمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ   بِعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِى
أَمُونٍ كَأَلْوَاحِ الْإِرَانِ نَسَأْتُهَا   عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ   وصف الناقة
تُبَارِى عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ   وَظِيفاً وَظِيفاً فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ
تَرَبَّعَتِ الْقُفَّيْنِ فِى الشَّوْلِ تَرْتَعِى   حَدَائِقَ مَوْلِىِّ الأَسِرَّةِ أَغْيَدِ
تُرِيعُ إِلَى صَوْتِ الْمُهِيبِ وَتَتَّقِى   بِذِى خُصَلٍ رَوْعَاتِ أَكْلَفَ مُلْبِدِ
كَأَنَّ جَنَاحَىْ مَضْرَحِىٍّ تَكَنَّفَا   حِفَافَيْهِ شُكَّا فِى العَسِيبِ بِمِسْرَدِ
لَهَا فَخِذَانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فِيهِمَا   كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ

ثم مضى يصف ظهرها ومرافقها ورأسها وعينيها ووجهها وأذنيها وقلبها ، إلى البيت الأربعين ، حيث يقول بعده :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتًى خِلْتُ أَنَّنِى   عُنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

وعاد إلى ذكر الناقة ، ثم تركها ، وجعل يذكر نفســـه ويعدّ خلاله ، ويتحدث عن كرمه وشبابه وأمانيه ، قال :

ولستُ بحلاَّلِ التِّــلاعِ مَخافةً ... وَلٰــكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ ... فُتْيَانيَّتُهُ

وَإِنْ تَبغِنِى فِى حَلْقَةِ الْقَوْمِ تَلْقَنِى ... وَإِنْ تَلْتَمِسْنِى فِى الحَوَانِيتِ تَصْطَدِ ... وكرمه ونداماه

مَتَى تَأْتِنِى أُصْبِحْكَ كَأْساً رَوِيَّةً ... وَإِنْ كُنْتَ عَنْهَا ذَا غِنًى فاغْنَ وازْدَدِ

وَإِنْ يَلْتَقِ الحَىُّ الجَمِيعُ تُلاقِنِى ... إِلَى ذِرْوَةِ الْبَيْتِ الشَّرِيفِ الْمُصَمَّدِ

نَدَامَاىَ بِيضٌ كَالنُّجُومِ وَقَيْنَةٌ ... تَرُوحُ عَلَيْنَا بَيْنَ بُرْدٍ ومُجْسَدِ

رَحِيبٌ قِطَابُ الجَيْبِ مِنْهَا رَفِيقَةٌ ... بِجَسِّ النَّدَامَى بَضَّةُ الْمُتَجَرَّدِ

إِذَا نَحْنُ قُلْنَا أَسْمِعِينَا انْبَرَتْ لَنَا ... عَلَى رِسْلِهَا مَطْرُوفَةً لَمْ تَشَدَّدِ

يقول إنه يتسلَّى عن همومه بالرِّحلة على هذه الناقة الضامرة المرْقال ، أى التى تُنْغِض رأسها فى السير من سرعتها ونشاطها ، أو أنه ينفذ ما يعزم عليه ، أو يُهم به من الأمور بمعونة هذه الناقة التى تساعده على كلّ حال من الرواح والغدوّ ، ثم وصفها بأنها مأمونة العثار ، عظيمة ، مشرفة كأنها التابوت الذى يُعِدّونه لدفن سادتهم وكبرائهم ، وأنه نَسَأَها ـ أىْ دفعها ـ على طريق مُذَلَّل ، به من آثار السير خطوط كثيرة ، تشبه ظهر البُرْجُد « وهو الكساء المخطط » ثم أضاف إلى نشاطها وحدتها ، أنها تبارى ـ أى تنافس وتسابق ـ إبلا كريمة ناجية سريعة ، فتتبع وظيفَ رجلها بوظيف يدها ، فوق طريق ممهد « والوظيف مكان القيد من رجل البعير ، أو هو من الرُّسغ إلى الركبة » وذكر أنها تربعت القُفَّيْن أى رعتهما فى الربيع ، والقف ما يرتفع من الأرض ، ولا يبلغ أن يكون جبلا ، وهو أحسن نبتاً من غيره . والشَّول الإبل التى مضى على نتاجها أشهر ، والحدائق الرياض وكلّ شجر ملتف ، والمَوْلِىُّ المطور بالْوَلِىِّ وهو المطر بعد المطر ، أو الأول الوَسْمِى والثانى الْوَلِى ، والأسِرَّة طرائق النبات ، والأغْيَد المتثنى من النَّعمة .

تحليل الأبيات

ثم وصفها بالأدب فى أنها تستجيب لصوت الداعى ، وهو المُهِيب إذا دعاها ،

وتحمى نفسها من مقاربة الفحل ، وهو الأكْلَف الذى تَلَبّد ذنبه من كثرة بوله ، بذى خُصَل أى بذنب ذى شعر كثير ، وشبهه بجناحى المَضْرحى وهو العظيم من النسور ، والحِفَاف الجانب ، والعَسِيب عظم الذنب ، والمِسْرد المِخْرَز .

ثم أخذ يصف أعضاءها فقال ، لها فخذان مكتنزان قد كمل لحمهما ، والنَّحض اللحم ، والمنيف القصر المشرف ، أراد أن فخذيها مرتفعان مشرفان كبابى القصر العظيم .

ثم ذهب إلى تقرير اعترافه ، وعكوفه على اللذات ، وتضييعه لما عنده وأفراد عشيرته له ، قال :

وصفه للذاته

وَمَا زَالَ تَشْرَابِى الخُمُورَ وَلَذَّتِى ... وبَيْعِى وَإِنْفَاقِى طَرِيفِى ومُتْلَدِى

إلى أَنْ تحَامَتْنِى العَشِيرَةُ كُلُّهَا ... وَأُفْرِدْتُ إفرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ

و بعد ذلك انتهى إلى توطين نفسه على المُعَاقرة ، والأخذ بما يمكنه من اللذات ، وقال إن نفى قومه له لم يناكره مع طبقات الناس من الفقراء والأغنياء ، بل بقى بعد ذلك معروف المكان ، غير مجهول حيث يقول :

رأيتُ بَنِى غَبْرَاءَ لا يُنْكِرُونَنِى ... وَلاَ أَهْلُ هَذَاكَ الطِّرَافِ المُمَدَّدِ

أَلاَ أَيُّهذَا الزَّاجِرِى أَحْضُرَ الْوَغَى ... وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخلِدِى

فَإِنْ كُنْتَ لاتَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِى ... فَذَرْنِى أُبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِى

وهذا الكلام يصدر عن المتشائمين ، الذين لايهتمون بما فى أعقاب الأمور ، وإنما لهم ما بين أيديهم ، وقد شرح هذا المعنى وأوضح عن غرضه منه فى أبياته الآتية :

فلَوَلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الفَتَى ... وَجَدِّكَ لم أحْفِلْ مَتَى قامَ عُوَّدِى[1]

(١) وطرفة من أوّل من قدر أمانيه فى الحياة ، وقد سبقه إلى ذلك امرؤ القيس ، وجعلها أربعا غير أنه استثناها مما ودعه من صباه ، وقد سبق ذلك فى ترجمته . وفى كتاب

فِمنْهُنَّ سَبْقُ العَاذِلَاتِ بشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى تُعْلَ بِالْمَاءِ تُزْبِدِ
وَكَرِّى إِذَا نَادَى الْمُضافُ مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الغَضَا نَبَّهْتَهُ الْمُتَوَرِّدِ
وتقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنِ مُعْجِبٌ ... بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِبَاءِ الْمُعَمَّدِ

ثم أشار إلى يأسه ، ورغبته فى استعجال لذاته قبل مفارقة هذه الحياة التى لا يثق بنعيم وشراب فى غيرها ، وهو قوله :

فذَرْنى أُرَوِّى هَامَتِى فِى حَيَاتِهَا ... مَخَافَةَ شُرْبٍ فى المماتِ مُصَرَّدِ

وجعل يحاول العزاء لنفسه ، على ما هو فيه من الحياة المضطربة النَّهِمة فى اكتساب الشهوات البدنية ، بما هو عند نفسه صادق النظر فيه ، ولطيف الاستنتاج له ، من استواء الشحيح والمفسد بعد الموت ، الذى لا يفرق فى أخذه بين الكريم والفاحش المتشدد قال :

صدق نظره وانتفاعه بعظات الحياة

أَرَى قَبْرَ فَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ ... كَقَبْرِ غَوِىٍّ فِي البَطَالَةِ مُفْسِدِ
تَرَى جُثْوَتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا ... صَفَائِحُ صُمٌّ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَدِ
أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِى ... عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ
أَرَى العَيْشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ ... وَمَا تَنْقُصُ الأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ
لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى ... لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ بِاليَدِ

ابن قتيبة لعبد الله ابن نهيك بن إساف الأنصارى ، قوله ، وهو مأخوذ من كلام طرفة :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام رامس
فمنهن سبق العاذلات بشربة ... كأن أخاها مطلع الشمس ناعس
ومنهن تجريد الكواعب كالدّمى ... إذا ابتزّ عن أكفالهنّ الملابس
ومنهنّ تقريط الجواد عنانه ... إذا استبق الشخص الخفى الفوارس

ومما سبق إليه طرفة وأخذ منه ، قوله «يشق حباب الماء . . . البيت» أخذه لبيدا ، فقال يصف ثوراً :

تشقّ خمائل الدهنا يداه ... كما لعب المقامر بالفيال

وذهب بعد هذا يذكر ما كان من ابن عمه مالك معه ، من سوء مكافأته إياه وحسده له ، وإيذائه بالتقريع واللوم من غير ذنب ، مع أنه ممن يدعون للجُلَّى وهى الأمور العظيمة ؛ فيكون من حماتها ويقف نفسه لأعدائه ، ويدافعهم عنه ، ويوردهم حياض الموت إذا قذفوا عرضه ، وذكر أن ذلك كله ليس بنافعه عنده ، قال :

شكواه من ظلم ذوى قرباه مع دفاعه عنهم

فَمَالِي أُرَانِي وَابْنَ عَمِّيَ مَالِكًا ... مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّي وَيَبْعُدِ
يَلُومُ وَمَا أَدْرِي عَلَامَ يَلُومُنِي ... كَمَا لَامَنِي فِي الحَيِّ قُرْطُ بْنُ مَعْبَدِ
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ قُلْتُهُ غَيْرَ أَنَّنِي ... نَشَدْتُ فَلَمْ أُغْفِلْ حَمُولَةَ مَعْبَدِ
وَقَرَّبْتُ بِالْقُرْبَى وَجَدِّكَ إِنَّنِي ... مَتَى يَكُ عَهْدٌ لِلنَّكِيثَةِ أَشْهَدِ
وَإِنْ أُدْعَ لِلْجُلَّى أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا ... وَإِنْ تَأْتِكَ الأَعْدَاءُ بِالجَهْدِ أَجْهَدِ
وَإِنْ يَقْذِفُوا بِالْقَذْعِ عِرْضَكَ أَسْقِهِمْ ... بِشُرْبِ حِيَاضِ المَوْتِ قَبْلَ التَّهَدُّدِ

والنكيثة آخر الجهد إلى قوله :

فَلَوْ كانَ مَوْلَايَ امْرَأً هُوَ غَيْرُهُ ... لَفَرَّجَ كَرْبِي أَوْ لَأَنْظَرَنِي غَدِي
ولٰكِنَّ مَوْلَايَ امْرُؤٌ هُوَ خَانِقِي ... عَلَى الشُّكْرِ وَالتَّسْآلِ أَوْ أَنَا مُفْتَدِ
وَظُلْمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً ... عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ
فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ ... وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بْنَ مَرْثَدِ
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَادَنِي ... بَنُونَ كِرَامٌ سَادَةٌ لِمُسَوَّدِ

ثم أشار إلى أنه ، وإن لم يكن كهؤلاء ، ولكنه يعرف سبب حسدهم له ونفاستهم عليه ، وهو شوكته وقوته عليهم ، ويهون على نفسه ما يلقاه من تنقصهم له فيما يقول :

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ ... خَشَاشٌ كَرَأْسِ الْحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

وَآلَيْتُ لاَ يَنفَكُّ كَشْحِى بِطَانَةً لِعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ
أَخِى ثِقَةٍ لاَ يَنْثَنِى عَنْ ضَرِيبَةٍ إِذَا قِيلَ مَهْلاً قَالَ حَاجِزُهُ قَدِ
حُسَامٌ إِذَا مَا قُمْتُ مُنْتَصِراً بِهِ كَفَى الْعَوْدَ مِنْهُ الْبَدْءُ لَيْسَ بِمِعْضَدِ
إِذَا ابْتَدَرَ الْقَوْمُ السِّلاَحَ وَجَدْتَنِى مَنِيعاً إِذَا بُلَّتْ بِقَائِمِهِ يَدِى

غنــاؤه واعتــداده ببسالتـــه وتهـــديده لأعدائه

ثم اقتضب إلى ذكر ما يصنعه بإبل الحى ، عند إقبال الضيوف ، من ضربه إياها واستلال الآماء لحوارها ، وسعيهن عليهم بقطع الأسنمة السمينة ، وهو معنى ما فى البيت من قوله « ويُسعى علينا بالسَّديف المُسَرْهَد . »

ثم بدأ يعتزّ بنفسه ويتعزى عنها بما يذكر من مناقبه ، ويستنزف ابنة عمه دموعها عليه بعد موته لأنه أحقّ من تبكى عليه ، قال :

إِذَا مِتُّ فَابْكِينِى بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّى عَلَىَّ الْجَيْبَ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ
وَلاَ تَجْعَلِينِى كَامْرِئٍ لَيْسَ هَمُّهُ كَهَمِّى وَلاَ يُغْنِى غَنَائِى وَمَشْهَدِى
بَطِىءٍ عَنِ الْجُلَّى سَرِيعٍ إِلَى الخَنَا ذَلِيلٍ بِأَجْمَاعِ الرِّجَالِ مُلَهَّدِ
فَلَوْ كُنْتُ وَغْلاً فى الرِّجَالِ لَضَرَّنِى عَدَاوَةُ ذِى الْأَصْحَابِ وَالمتَوَحِّدِ
وَلٰكِنْ نَفَى عَنِّى الرِّجَالَ جَرَاءَتِى وَصَبْرِى وَإِقْدَامِى عَلَيْهِمْ وَمَحْتِدِى
لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِى عَلَىَّ بِغُمَّةٍ نَهَارِى وَلاَ لَيْلِى عَلَىَّ بِسَرْمَدِ

استبكاؤه لابنة عمه

الملهد المدفوع بأجماع الرجال ، ومفردها جمع بضم الجيم ومعناه قبض الرجل أصابعه للضرب ، وختم مطافه بهذه الأفراد السائرة من معانيه يقول :

أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ النُّفُوسِ وَلاَ أَرَى بَعِيدًا غَداً مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدِ
سَتُبْدِى لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

أمثاله السائرة

وهذه طويلة طرفة ، ولا أظن أحداً يتردد فى الشعور بما اشتملت عليه من قوة الكلام ، وصدق العاطفة ، والدلالة على ما عند قائلها من فورة الشباب ، وقلة

المبالاة ، والميل مع الشهوات ، وشدّة الاعتداد بالنفس ، والظهور أحياناً إلى جانب المناقب العربية ، من شرف الأصل وشجاعة القلب ، وإكرام الضيفان ، عدا ما تجاوز فيه الشاعر من الغريب فى وصف ناقته ، وتقصيره فى أبيات أخرى قليلة من القصيدة ، مثل قوله « فلو كان مولاى امرأ . . . البيتين » فإن فيه فضلا يستغنى الكلام عنه ، وما أحقّ طرفة بطول التجربة ، وامتداد العمر وشدة الرجحان حين يقول « ستبدى لك الأيام . . . البيت » وهو معنى طائف بالوجود على ممر الأيام ، ولا يزال بهىّ اللفظ جديداً على كثرة التمثل والتكرار .

وأما رب طرفة الذى لو شاء جعله كقيس بن خالد ـ وهو ذو الجدين من عظماء سادة الشيبانيين ـ أو كعمر بن مَرْثَد ـ وهو ابن عم طرفة ـ فهو أيضاً رب العرب ، ولا ينبغى أن يكون وَثَناً من أوثانهم كانوا يعرفون أنه حجر لا يقدر على شىء ، ويزعمون أن عَمْرو بن مَرْثَدٍ حين سمع قوله هذا ، دعاه فقال : له أما الولد فالله يعطيكه ! وهذا أيضاً يحقق معنى الألوهية لرب طرفة ، قال : وأما المال فلا تبرح حتى تكون من أوسطنا فيه ! وأمر سبعة من أبنائه وثلاثة من بنى أبنائه أن يعطوه عشراً عشراً من الإبل .

قصيدته الرائية

ثم نذكر شيئاً من قصيدته الرائيـــة ، وإن كان ما قدمناه كافياً فى الاستدلال على ما أسلفناكم من الرأى فى قوّة كلامه ، وجزالة أسلوبه ، ويحتمل أن يكون قالها بعـــد عودته إلى قومه أيضاً ، لأنها فى الجملة حديث عن مآثرهم ، وتنويه بافتخاره بهم ، وهى فى رأى مترجم الديوان القصيدة السابعة لطرفة :

أَصَحَوْتَ الْيَوْمَ أَمْ شاقَتْكَ هِرْ ‎ ‎ ‎ وَمِنَ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ
لاَ يَكُنْ حُبُّكِ دَاءً قَاتِلاً ‎ ‎ ‎ لَيْسَ ذَا مِنْكِ مَاوِيَّ بِحُرْ
كَيْفَ أَرْجُو حُبَّهَا مِنْ بَعْدِ مَا ‎ ‎ ‎ عَلِقَ الْقَلْبُ بِنَصْبٍ مُسْتَسِرْ

ثم قال وأكثرها من هذا النمط الذى لا نستطيع أن نصفه إلا بأنه كلام

قوى غريب فى بعض الأحيان قليل الحلاوة ضعيف الروعة :

جَازَتِ البِيدَ إِلَى أَرْحُلِنَا ... آخِرَ اللَّيْلِ بِيَعْفُورٍ خَدِرْ(١)

ثُمَّ زَارَتْنِي وَصَحْبِي هُجَّعٌ ... فى خَلِيطٍ بَيْنَ بُرْدٍ وَنَمِرْ(٢)

تَشبيبها

تَخْلِسُ الطَّرْفَ بِعَيْنَىْ بُرْغُزٍ ... وَبِخَدَّىْ رَشَـإٍ آدَمَ غِرْ(٣)

وَلَهَا كَشْحَا مَهَاةٍ مُطْفِلٍ ... تَقْتَرِى بِالرَّمْلِ أَفْنَانَ الزَّهَرْ(٤)

وهكذا مضى يصف تنعمها وحسن شعرها وجمال شبابها ، وتوجعها من النظر إليه ، وأنها باردة فى الصيف سخنة فى الشتاء ، رخيمة الصوت ، عذبة الريق ، وأنها إذا تاسُنه يلسُنها ، وهو بيته الذى يقول فيه :

وإذا تَلْسُنُنِى أَلْسُنُهَا ... إننى لَسْتُ بِمَوْهُونٍ فَقِرْ

أى إذا افتخرت عليه لايذل لها ، بل يفاخرها أيضا ، لأنه ليس بضعيف ولا دَنِیٍّ ، وذلك ما أشرنا إليه فى التعريف به من قلة حذقه بصفات العشاق ، الذين يذلون لعزة المعشوقين ، ولذا يعيبه الرواة بقولهم « ما كان طرفة يحسن أن يتعشق » ويذكرون البيت .

وخرج من هذا إلى ذكر ما اقتحمه من البلاد ، وما أصابه فى عامه من الخطوب ، وألمّ بقومه فجعل يذكرهم ويعد آثارهم ، ولا ينسى نفسه من بينهم ، وأطال فى ذلك ، قال :

سياحته وما لاقاه فى أسفاره

وَبِلَادٍ زَعِـلٍ ظِلْمَانُهَا ... كَالْمَخَاضِ الجُرْبِ فِى الْيَوْمِ الخَدِرْ

قَدْ تَبَطَّنْتُ وتحتى جَسْرَةٌ ... تَتَّقِى الْأَرْضَ بِمَلْثُومٍ مَعِرْ

ذَاكَ عَصْرٌ وعَدَانِى أَنَّنِى ... نَابَنِى العَامَ خُطُوبٌ غَيْرُ سِرْ

---

(١) اليعفور : ظبى تعلوه حمرة ، الخدر : الفاتر العظام . (٢) البرد : ثوب وشى ، النمر : جمع نمرة وهى ضرب من الثياب . (٣) البرغز : ولد الناقة ، الآدم : الأسمر الأبيض البطن . (٤) تقترى : تتبع أفنان الزهر فترعاها .

مِنْ أُمورٍ حَــدثَتْ أَمْثَالُهَــا ... تَبْتَرِى عُودَ القَوِىِّ المسْتَمِرْ
وتَشَــكَّى النَّفْسُ مَا صَابَ بِهَا ... فَاصْبِرِى إِنَّكِ مِنْ قَوْمٍ صُبُرْ
إن تُصَادِفْ مُنْفِساً لاَ تُلْفِنَا ... فُرُحَ الْخَيْرِ وَلاَ نَــكْبُو لِغُمُرْ
أُسْــدُ غَابٍ فَإِذَا مَا فَزِعُوا ... غَيْرَ أَنْــكَاسٍ وَلاَ هُوجٍ هُذُرْ
وَلِيَ الْأَصْلُ الَّذِى فِى مِثْــلِهِ ... يُصلِحُ الآبِرُ زَرْعَ الْمُؤْتَبِرْ
طَيِّبُ البَاءَةِ سَهْلٌ وَلَهُمْ ... سُبُلٌ إِنْ شِئْتُ فِى وَحْشٍ وَعِرْ

وقد أخذ قوله « و بلاد . . . البيتين » عَدِىُّ بن زيد ولَبيد ، فقال عدى :

وبِلَادٍ زَعِــــــلٍ ظِلْمَانُها ... كرِجَالِ الحبش تَمشِى بالعَمَدْ
قد تبطَّنْتُ وَتَحْتِي جَسْرَةٌ ... عِبْرُ أَسْــفَارٍ كَمِخْرَاقٍ وَحَدْ

وقال لبيد :

وَبلادٍ زَعِــــــلٍ ظِلْمَانُها ... كَحَزِيق الحَبَشِيِّين الزُّجَلْ
قد تبطَّنْتُ وتحتى جَسْرة ... حَرَجٌ فى مِرْفَقَيْها كالفتل

وليس لهذا المعنى فى نظرنا كبير شأن ، حتى يأخذه شاعر من شاعر ، أو يسبق به قائل على آخر ، سوى أنه قطعة من الطبيعة البدوية الموحشة وكفى .

تحليل الأبيات السابقة

يقول : وقد طوفت بهذه البلاد النشيطة النعام ، الذى يشبه فى كثرته واجتماعه أولئك الإبل الجرباء ، فى اليوم الشديد البرد ، الذى يخدر فيه الناس ، وتحتى ناقة طويلة أو جريئة ، تلثم الأرض بمناسمها أو أخفافها . المَعِرَة أى العارية من الشعر ، وهـذا زمان قد سلف ، ويمنعنى الآن من هذا الطواف ما أصابنى من الخطوب العظيمة المشهورة ، التى تتابعت علىّ ، ولعله يشير إلى ماأصاب قومه وما أصابه منهم ، ويحاول ذكرى ما كان منهم له حين نفوه ، وما تتابع عليه من كثرة مُعَاودتهم لما كان يسوؤه ، ثم ينتهى إلى تقرير نفسه بالذنب ، واعترافه بمـا كان فيه من الغى الذى يحسبه رشداً ، قال :

وَهُمُ مَا هُمُو إِذَا مَا لَبِسُوا ... نَسْجَ دَاوُدَ لِبَأْسٍ مُحْتَضَرْ
ثُمَّ زَادُوا أَنَّهُمْ فِي قَوْمِهِمْ ... غُفُرٌ ذَنْبَهُمُ غَيْرُ فُخُرْ
لَا تَعِزُّ الخَمْرُ إِنْ طَافُوا بِهَا ... بِسِبَاءِ الشَّوْلِ وَالْكُومِ البُكُرْ
فَإِذَا مَا شَرِبُوهَا وَانْتَشَوْا ... وَهَبُوا كُلَّ أَمُونٍ وَطِمِرْ
ثُمَّ رَاحُوا عَبَقُ المِسْكِ بِهِمْ ... يُلْحِفُونَ الأَرْضَ هُدَّابَ الأُزُرْ

قال الإمام أبو محمد بن قتيبة ، وقال غيره فى قوله « فاذا ما شربوها وانْتَشَوا . . . البيت » من غير نظر إلى قصد الشاعر جعلهم يهبون من الآفة التى تدخل على عقولهم . وأَصَحُّ من هذا قول عنترة :

موازنة بين طرفة وعنترة وزهير وحسان فى معنى مشترك بينهم

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ ... مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عَنْ نَدًى ... وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي

لولا أنه أتى بالمعنى فى بيتين ورجحوا عنهما قول زهير :

أَخِي ثِقَةٍ لا تُتْلِفُ الخَمْرُ مالَهُ ... وَلٰكِنَّهُ قد يُتْلِفُ المَالَ نَائِلُه

وأخذ حسان بن ثابت بيت طرفة فقصر عنه ، فقال :

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكاً ... وَأُسْداً مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ

فوصفهم بالشجاعة بعد ما يأخذ الشراب من تمييزهم ، وهذا معنى ناقص .

ثم نعود إلى ما بقى من القصيدة ، قال :

نَحْنُ فى المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى ... لَا تَرَى الآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرْ

ثم قال :

نُمْسِكُ الخَيْلَ عَلَى مَكْرُوهِهَا ... حِينَ لَا يُمْسِكُهَا إِلَّا الصُّبُرْ
حِينَ نَادَى الحَيُّ لَمَّا فَزِعُوا ... وَدَعَا الدَّاعِي وَقَدْ لَجَّ الذُّعُرْ

حتى قال :

وَلَقَدْ كُنْتُ عَلَيْكُمْ عَاتِباً فَعَقَبْتُمْ بِذَنُوبٍ غَيْرِ مُرْ
كُنْتُ فِيكُمْ كَالْمُغَطَّى رَأْسَهُ فَانْجَلَى الْيَوْمَ قِنَاعِي وَخُمُرْ
سَادِرًا أَحْسَبُ غَيِّي رَشَداً فَتَنَاهَيْتُ وَقَدْ صَابَتْ بِقُرْ

يقول إنهم يَعُمُّون بالدعوة إلى الطعام فى وقت البرد والشتاء ، والآدب: هو الداعى إلى المأدبة ، لا ينتقر أى لا يخصّ بالدعوة ناساً دون آخرين ، والأبيات بعدها ظاهرة ، وأما قوله « فعقبتم بذنوب . . البيت » فمعناه عطفتم بعطاء لا مَنَّ فيه ولا مِطَال فيكون مرًّا ، وقوله « فتناهيت وقد صابت بقر » فمعناه تركت ما كنت فيه من الغيّ وانتهيت إلى ما ينبغى لمثلى ، وقوله « صابت بقر » مثل للشىء إذا بلغ موضعاً يحسن أن يستقرّ فيه .

ولطرفة بعد هذين ، قصيدتان يصف بإحداهما نفسه وقومه فى حروبهم وسِلمهم ، أوّلها :

إِنِّى مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا أَزِمَ الشِّتَاءُ وَدُوخِلَتْ حُجَرُهْ

يقول منها :

وإِذَا الْمُغِيرَةُ لِلْهِيَاجِ غَدَتْ بِسُعَارِ مَوْتٍ سَاقِطٍ أُزُرُهْ
وَلَّوْا وأَعْطَوْنَا الَّذِى سُئِلُوا مِنْ بَعْدِ مَوْتٍ ظَاهِرٍ ذُعُرُهْ
إِنَّا لَنَكْسُوهُمْ وَإِنْ كَرِهُوا ضَرْبًا يَطِيرُ خِلاَلَهُ شَرَرُهْ
وَالْمَجْـــدَ نُنْمِيه وَنُتْلِدُه وَالحَمْدُ فِى الأَكْفَاءِ نَدَّخِرُهْ
نَعفُو كَمَا تَعفُو الجِيَادُ عَلَى الْـــعِلاَّتِ وَالْمَخْذُولُ لاَ نَذَرُهْ

تعرضه لتاريخ قومه وذكرى البسوس

وأخرى يذكر فيها شيئاً من تاريخ قومه فى حرب البسوس ، من أمر الصلح بينهم وبين تغلب ، وكان ملك الحيرة أوفد قائدا من قوّاده يسمى الغَلاّق ليقوم بأمر الصلح ، ويظهر أنه كانت ضِلَعُه مع تَغلب على بكر ، فإن القوم تهادَنوا زُمَيْناً على ضِغْن وتوقُّعٍ لأن تثِبَ إحداهما على الأخرى ، ويفهم من

هذا أن طرفة أدرك زمان الهدنة بعد البسوس ، ومعقول أنه لم يدرك يوما منها كما سيأتى ، وأول القصيدة :

أَشَجَاكَ الرَّبْعُ أَمْ قِدَمُه   أَمْ رَمَادٌ دَارِسٌ حُمَمُه

وفيها يُشير إلى ذلك بقوله :

فَسَعَى الغَلَّاقُ بَيْنَهُمُ   سَعْىَ خَبٍّ كَاذِبٍ شِيَمُهْ
أَخَذَ الأَزْلَامَ مُقْتَسِمًا   فَأَتَى أَغْوَاهُمُ زَلَمُهْ

وله قصيدة أخرى ، قريبة فى نَسجها وتصويرها من المعلقة ، تناول فى صدرها وصف حالة من حالات الْجَهْد فى البادية ، حين يتقطع جَهَام الغيم فى السماء ، وتشتد الرياح ، ويفرُّ قَرِيع الشَّول إلى الحى لِلدِّفْء وتمتد قِطَع الجليد على رءوس الدور وَمَبارك الإبل ، وأنهم على تلك الحالة يَأْوِى إليهم الطارق فيجد القِرَى والمَأْوى ، وتناول فى عَجُزِها حالةً أخرى مثلها ، حين تقوم الغارة وتهرب العذارى متتابعة كقطيع البقر ، وأنهم حينئذ يَحْمون حماهم ويُغْنُون فى الحرب غَنَاءهم ، قال :

وصفه لحالة من الجدب والشدة عند العرب

وَإِنَّا إِذَا مَا الْغَيْمُ أَمْسَى كَأَنَّهُ   سَمَاحِيقُ ثَرْبٍ وَهْىَ حَمْرَاءُ حَرْجَفُ(١)
وَجَاءَتْ بِصُرَّادٍ كَأَنَّ صَقِيعَهُ   خِلَالَ الْبُيُوتِ وَالْمَبَارِكِ كُرْسُفُ(٢)
وَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ يَرْقُصُ قَبْلَهَا   إِلَى الدِّفْءِ وَالراعى لَهَا مُتَحَرِّفُ(٣)
يَرُدُّ العِشَارَ الْمُنْقِيَاتِ شَظِيُّهَا   إِلَى الْحَىِّ حَتَّى يُمْرِعَ الْمُتَصَيِّفُ(٤)

---

(١) السماحيق : واحدها سمحاق وهو الرقيق من الغيم . الثرب : دهن كرش الشاة وهو على التشبيه . الحرجف : الريح الباردة الشديدة . (٢) الصراد : كرمان ، غيم رقيق لا ماء فيه . الكرسف : القطن . (٣) قريع الشول : فحل الابل ، وهى جمع شائلة وهى ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر ، والشائل الناقة التى تطلب الفحل فهى تشول بذنبها أى ترفعه . المتحرف : الذى يمشى فى شق ، أو المتدلف . (٤) العشار : جمع عشراء وهى الناقة الحامل ، أو هى كالنفساء المنقيات : ذوات النقى ، وهو مخ العظام أو الشحم . الشظية . القوس ، وعظم الساق ، وكل فلقة من شىء .

تَبِيتُ إِماءُ الحَيِّ تَطْهَى قُدُورَنَا وَيَأْوِى إِلَيْنَا الأَشْعَثُ المُتَجَرِّفُ(١)
وَنَحْنُ إِذَا مَا الخَيْلُ زَايَلَ بَيْنَهَا مِنَ الطَّعْنِ نَشَّاجٌ مُخِلٌّ ومُزْعِفُ(٢)
وَجَالَتْ عَذَارَى الحَيِّ شَتَّى كَأَنَّهَا تَوَالِي صِوَارٍ والأَسِنَّةُ تُرْعَفُ(٣)
وَلَمْ يَحْمِ فَرْجَ الحَيِّ إِلاَّ ابْنُ حُرَّةٍ وَعَمَّ الدُّعَاءُ المُرْهَقُ المُتَلَهِّفُ
فَفِئْنَا غَدَاةَ الغِبِّ كُلَّ نَقِيذَةٍ ومِنَّا الكَمِيُّ الصَّابِرُ المُتَعَرِّفُ(٤)
وَكَارِهَةٍ قَدْ طَلَّقَتْهَا رِمَاحُنَا وَأَنْقَذْنَهَا وَالعَيْنُ بِالمَاءِ تَذْرِفُ
تَرُدُّ النَّحِيبَ فِى حَيَازِيمِ غُصَّةٍ عَلَى بَطَلٍ غَادَرْنَهُ وَهْوَ مُزْعَفُ(٥)

وله شعر يعتب به على قومه ، وهو أول ما قال من الشعر فى زعم أكثر الرواة ، وذلك أن أباه مات وهو صغير ، فأبى أعمامه أن يقسموا ماله ومنعوا أمه حقها منه ، وسترون فيه من المعانى ما قد يكون بعيداً على غلام صغير قليل التجربة ، إلا إذا كان كطرفة ، فيما يوصف به من قوة الفطرة وسلامة النظر ، قال :

أول شعر قاله وفيه عتاب لقومه

مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةَ فِيكُمُ صَغُرَ البَنُونَ وَرَهْطُ وَرْدَةَ غُيَّبُ
قَدْ يَبْعَثُ الأَمْرَ العَظِيمَ صَغِيرُهُ حَتَّى تَظَلَّ لَهُ الدِّمَاءُ تَصَبَّبُ
والظُّلْمُ فَرَّقَ بَيْنَ حَيَّيْ وَائِلٍ بَكْرٌ تُسَاقِيهَا المَنَايَا تَغْلِبُ
قَدْ يُورِدُ الظُّلْمُ المُبَيَّنُ آجِناً مِلْحًا يُخَالَطُ بِالذُّعَافِ ويُقْشَبُ

ثم ذكر أن الإثم داء لا يرجى شفاؤه ، والبرّ شفاء لا هلاك معه ، وأن الصدق يألفه اللبيب ، والكذب من أخلاق الدنىء الأخيب ، حتى قال :

أَدُّوا الحُقُوقَ تَفِرْ لَكُمْ أَعْرَاضُكُمْ إِنَّ الكَرِيمَ إِذَا يُحَرَّدُ يَغْضَبُ

---

(١) المتجرف : المعدم . (٢) النشاج : المصوت . المخل : المنهزل . المزعف : القاتل . (٣) الصوار : جماعة البقر . (٤) النقيذة : المستردة .
(٥) الحيازيم : جمع حيزوم ، وهو الصدر . المزعف : الهالك من الخوف .

يريد أنه إذا ظلم وهاجه الشر ، لا يخيم ولا يجبن ، بل يغضب ويَنْتَقِم وهو بالضرورة يقصد نفسه ، وينكر مترجم ديوانه بيتاً من هذه القصيدة ، وهو قوله :

وَلَقَدْ بَدَا لِي أَنَّهُ سَيَغُولُنِي مَا غَالَ عَادًا وَالقُرُونَ فَأَشْعَبُوا

أى تفرّقوا وانصدعوا ، ولا مانع مما قاله لظهور قلق البيت فى موضعه ، ولتعذر التوفيق بينه و بين ما سبقه من جهة ، ولبعد احتمال صدوره من طرفة على حاله وسنه من جهة أخرى ، ويحتمل أن يكون آخر ما قاله الأبيات الآتية ، لدلالتها على ما صار إليه بعد الأمر بقتله ، من خذلان قومه ، وغدر أخلائه ، وهى قوله :

آخر ما قاله من الشعر قبل موته

أَسْلَمَنِي قَوْمِى وَلَمْ يَغْضَبُوا لِسَوْءَةٍ حَلَّتْ بِهِمْ فَادِحَهْ
كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَلْتُهُ لاَ تَرَكَ اللهُ لَهُ وَاضِحَهْ
كُلُّهُمُ أَرْوَغُ مِنْ ثَعْلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَهْ

وما أصدق طرفة فيما ذمّ به الناس ، وخاصة الأصحاب فيما لا يزال فيهم طبعاً ، ولهم عادة ، من قلة الوفاء وصفة الدهاء والرياء .

ولم يعرف له مديح لأحد غير نفسه وقومه ، إلا خمسة أبيات مدح بها قَتَادَة ابن سَلَمة الْحَنَفِى صاحب اليمامة ، وكان قومه أتوه فى سَنة ، فأعطاهم وأكرم رِفْدَهم ، وقد بدأها طرفة بأبيات لا تتفق مع الغرض منها ، ولذا أنكرها مترجم الديوان ، ورجح أنها قد تكون تتمة لقصيدة أخرى من هجائه فى ابن عمه . ونحن نقول ربما كان هذا التعريض منه بابن عمه ، إذا قرن بمديح غيره أبلغ فى غيظ صدره ، وأشفى للقائل فيما يريد من النكاية به ، ولتظهر فضيلة الشيء عند اقترانه بضده ، كما يقول المعرى :

والشيْءُ لا يَكْثُر مُدَّاحُه إلاَّ إِذَا قِيسَ إلى ضِدِّهِ

قال طرفة :

إِنَّ امْرَأً سَرِفَ الْفُؤَادِ يَرَى عَسَلاً بِمَاءِ سَحَابَةٍ شَتْمِى (١)
وَأَنَا امْرُؤٌ أَكْوِى مِنَ الْقَصَرِ الْـبَادِى وَأَغْشَى الدُّهْمَ بِالدُّهْمِ (٢)
وَأُصِيبُ شَاكِلَةَ الرَّمِيَّةِ إِنْ صَدَّتْ بِصَفْحَتِهَا عَنِ السَّهْمِ (٣)
وأُجِرُّ ذَا الْكَفَلِ الْقَنَاةَ عَلَى أَنْسَائِهِ فَيَظَلُّ يَسْتَدْمِى (٤)
وَتَصُدُّ عَنْكَ مَخِيلَةَ الرَّجُلِ الْـعِرِّيضِ مُوضِحَةٌ عَنِ الْعَظْمِ (٥)
بِحُسَامِ سَيْفِكَ أَوْ لِسَانِكَ وَالْـكَلِمُ الْأَصِيلُ كَأَرْغَبِ الْكَلْمِ (٦)

مدحه لقتادة

أَبْلِغْ قَتَادَةَ غَيْرَ سَائِلِهِ مِنْهُ الثَّوَابَ وَعَاجِلَ الشُّكْمِ (٧)
أَنِّى حَمِدْتُكَ لِلْعَشِيرَةِ إِذْ جَاءَتْ إِلَيْكَ مُرِقَّةَ الْعَظْمِ
أَلْقَوْا إِلَيْكَ بِكُلِّ أَرْمَلَةٍ شَعْثَاءَ تَحْمِلُ مِنْقَعَ الْبُرْمِ (٨)
فَفَتَحْتَ بَابَكَ لِلْمَكَارِمِ حِيـنَ تَوَاصَتِ الْأَبْوَابُ بِالْأَزْمِ (٩)
فَسَقَى بِلَادَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِى

بعض أهاجيه

أما هجاؤه لعمرو بن هند، وهو — على أكثر الأقوال — ما أوغرَ عليه الملك حتى قتله، فقد رواه الأعلم فى ثمانية أبيات، أولها :

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلْكِ عَمْرٍو رَغُوثاً حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخُورُ

---

(١) السرف : المخطئ الغافل . (٢) القصر : داء يأخذ فى قصرة العنق يمنع صاحبه من الالتفات وأراد به الكبر . الدهم : الجيش وهو الجماعة من الناس .

(٣) الشاكلة : طفطفة الخاصرة ، أو هى ما بين عظم الورك إلى القصيرى وهى من أنفذ المقاتل . (٤) أجرّه الرمح : تركه فيه يجرّه ، وهو أشدّ عليه وأوجع له . ذا الكفل : المتنعم ، ويعرض بعبد عمر . الأنساء : جمع نسأ ، عرق يستبطن الفخذ .

(٥) العريض : المعترض لما لا يعنيه . (٦) الأرغب : الأوسع . الكلم الثانية بمعنى الجرح . (٧) الشكم : الثواب والجزاء على الشيء .

(٨) البرم : جمع برمة ، كانوا يقمعون فيها أنكاث الأخبية ، فإذا أقمن حكنها .

(٩) الأزم : الأطباق وأغلاق الأبواب .

يريد بقرة حلوبا خيراً منه ، وبقية الأبيات على هذا النمط ، وليست من الشعر بحيث تستحق الذكر ، ورواها ابن السكيت قصيدة طويلة الأبيات ، ومن غريب الأمر أنه ذكر فيها الصحيفة التى حملها طرفة إلى البحرين وبها قتل ، وهذا معناه أن كتابة الصحيفة سابقة على هذا الهجاء الذى ترتب عليه الأمر بقتله ، وهو ما وشى به ابن عمه إلى الملك ، وهذا تناقض ظاهر يرجح الصنعة فى تلك التكملة على ما فى ذلك من الغفلة وقلة المهارة .

وبهذه المناسبة ، نقول إن القصيدة التى أولها :

سَائِلُو عَنَّا ٱلَّذِى يَعْرِفُنَا ... بِقُوَانَا يَوْمَ تَحْلَاقِ اللِّمَمْ

مشكوك أيضاً فى صحة نسبتها إلى طرفة ، فالأصمعى ينكرها ويقول إنه أدرك قائلها ، وأبو عبيدة والمُفَضَّل يثبتانها له ، ويقال إنه حضر هذا اليوم وأغنى فيه ، ويحققون مع هذا أن سعد بن مالك حضره ، وهو القائل من قصيدة يُعَرِّض فيها بالحارث بن عُبَاد وخذلانه لقومه :

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِها ... فَأَنَا ٱبْنُ قَيْسٍ لاَ بَرَاحْ

وأن ذلك كان سبباً فى اشتراك الحارث فى الحرب ، وانتصار البكريين فى هذا اليوم ، وأنه قال له : أترانى صددت عن نيرانها ؟ فقال : لا ، ولكن لا مَخْبَأَ لِعِطْرٍ بعدَ عَرُوسٍ ! فذهبت مثلا .

وسعد هذا بينه وبين طرفة أبوان ، فلا يعقل إذاً أن يكون طرفة واقعَ حَرْبًا فى هذا اليوم ، ونظن أنه لم يكن ولد بعد ، أو كان صغيراً لا يقدر على حرب ، وهذا ما يؤيد قول أبى سعيد الأصمعى ، إلا أن يكون طرفة تناولها فى شعره ، كما يذكر المتأخر القصة الماضية من تاريخ قومه ، على ما يسمع من شيوخهم وعجائزهم .

ثم نعود إلى ذكر أهاجيه فى ابن عمه ، فمنها :

فيَا عَجَبًا من عبدِ عَمْرٍو وَبَغْيِه ... لقد رَامَ ظُلْمِى عَبْدُ عَمْرٍو فَأَنْعَمَا

ولا خَيْرَ فيهِ غيرَ أنَّ له غِنًى ... وأنَّ له كَشْحاً إذا قامَ أهْضَمَا
يَظَلُّ نِساءُ الحَيِّ يَعْكُفْنَ حَوْلَهُ ... يَقُلْنَ عَسِيبٌ من سَرَارَةِ مَلْهَمَا

ورواها الأعْلَم ستة أبيات ، وفى شرح ابن السِّكِّيت أكثر من ذلك .

قالوا : وكان من أحسن الناس جسما ، وكذلك كان قابوس أخو عمرو بن هند ، حتى لكان يسمى قَيْنَةَ العُرْسِ ، وأخت طرفة تتهم عبد عمرو هذا بأفحش مما أشار إليه طرفة ، ومنها :

لِهِنْدٍ بِحِزَّانِ الشُّرَيْفِ طُلولُ ... تَلُوحُ وأَدْنَى عَهْدِهِنَّ مُحِيلُ(١)
وبالسَّفحِ آياتٌ كأنَّ رسُومَها ... يَمَانٍ وَشَّتْهُ رَيْدَةٌ وسَحُول(٢)
أَرَبَّتْ بها نَآّجَةٌ تَزْدَهِي الحَصَى ... وأَسْحَمُ وَكَّافُ العَشِيِّ هَطُول(٣)

وينكر المترجم منها قوله :

بِمَا قد أرَى الحيَّ الجميعَ بِغَبْطَةٍ ... إذا الحَيُّ حَيٌّ والحُلولُ حُلولُ

وهو نقد حسن ، قال :

هجاؤه لابن عمه

أَلا أبْلغَا عَبْدَ الضَّلالِ رسالةً ... وقد يُبْلِغُ الأنْباءَ عنكَ رَسُولُ
دَبَبْتَ بسرِّى بعد ما قد عَلِمتَه ... وَأَنْتَ بأَسْرَارِ الكِرَام نَسُولُ
وكَيْفَ تَضِلُّ القَصْدَ وَالحَقُّ واضِحٌ ... ولِلْحَقِّ بَيْنَ الصَّالِحِينَ سَبِيلُ

إلى قوله :

وَأَعْلَمُ علماً ليسَ بالظَّنِّ أنَّهُ ... إذَا ذَلَّ مَوْلَى المَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلُ
وَأَنَّ لِسَانَ المَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ
وَإِنَّ امْرَأً لَمْ يَعْفُ يَوْمًا فُكَاهَةً ... لِمَنْ لم يُرِدْ سُوءًا بِهَا لَجَهُولُ

---

(١) حزان : جمع حزيز ، وهو الغليظ المنقاد من الأرض . الشريف بالتصغير : واد بنجد . المحيل : ما أتى عليه حول . (٢) وشته : طرزته . ريدة وسحول : بفتح أولهما قريتان فى بلاد اليمن . (٣) أربت : أقامت . نآّجة : يريد الريح ، وهو من نأج كنئم بمعنى تحرك . الأسحم : السحاب .

ويظهر أن هذا الكلام قيل فى الوقت الذى اضْطَغَنَ فيه الملك على طرفة وَهَمَّ بالغدر به ولـكنه كان لا يزال يُدَارِيه حتى يتمـكن من الإيقاع به وأظنّ أننا فى غنى عن التنويه بدرجة هذا الشعر من صحة اللفظ وسلاسة الأسـلوب وهاهنا قصيدتان يُثْبِتُ الرواةُ إحداها ويثبت بعضهم الأخرى ويظنّ المترجم أن هذه مصنوعة ، وهى قصة من عشق طرفة مفرغة حقا فى لفظ عذب وأسلوب بالغ من الرقة مبلغه ؛ وفى رأينا أن القصيدة الأولى ليست دونها فى ذلك مع أنها موضع اتفاق من الرواة لطرفة . ولعلّ هذا الإنكار من المترجم جرى فيه على فكرة سخيفة جعلت بعض الناقدين يظن أن كُلّ شعر جَافٍ غليظ من شأنه أن يكون جاهليا وأن كلّ كلام ليّن سهل ينبغى أن يكون من عمل المتأخرين وعندنا ما يزيل هذه الشبهة ويمنع من هذا التحكم الغريب ، وهواتفاق القصيدتين غالباً فى الأسلوب وما قدمناه لكم فى صدر هـذه الترجمة من اختلاف مقامات الكلام الداعيـة إلى اختلافه من حيث الجزالة والقوّة واللين والسهولة . وتلك هى القصيدة الأولى وقد قالهـا حين اغترب عن قومه :

اغـترابه وشكواه

قِفِى وَدِّعِينا اليومَ يا ابْنَةَ مَالِكِ ... وعُوجِى علَيْنا من صُدورِ جِمَالِكِ

قِفِى لا يَكُنْ هذا تَعِلَّةَ وَصْلِنا ... لِبَيْنٍ وَلا ذَا حَظُّنا من نَوَالِكِ

أُخبِّرْكِ أنَّ الحىَّ فرَّقَ بَيْنَهم ... نَوًى غَرْبَةٌ ضَرَّارَةٌ لى كَذٰلِكِ(١)

ولاَ غَرْوَ إلاَّ جَارَتِى وسُؤَالُهـا ... ألاَ هَلْ لنا أَهْلٌ سُئِلْتِ كَذٰلِكِ(٢)

---

(١) نوى غربة : بفتح الغين ، أى فرقة بعيدة . (٢) ولا غرو : لا عجب ، وابن قتيبة يعدّ البيت من جيد كلام طرفة ، وقوله سئلت كذلك : شقّ عليه سـؤالها إياه بقولها : ألك أهل ؟ فدعا عليها أن تغترب فيسألها الناس كما سألتـه ، وهو عدا جودته دليل على ما فى شعر الجاهليين من قلة الكلفة وجريه على العادة بين الناس من ردهم الدعاء على أصحابه ويشـعر مع ذلك بمـا فى نفس قائله من الشغل والألم . قال ابن قتيبة ومن ظريف الدعاء قول النابغة فى الإشفاق من موجدة النعمان عليه والحرص على نفى الريبة عن نفسه :

أَغَيْرَكَ مَعْقِلاً أَبغِى وَحِصْنًا ... فَأَعْيَتْنِى المعاقِلُ والحُصونُ

تُعَيِّرُ سَيْرِى فى البلادِ ورِحْلتِى ... ألاَ رُبَّ دارٍ لى سِوَى حُرِّ دَارِكِ

وليسَ امْرُؤٌ أفْنَى الشَّبابَ مُجاوِراً ... سِوَى حَيِّه إلاَّ كآخَرَ هَالِكِ

ألا ربَّ يومٍ لو سَقِمْتُ لعَادَنِى ... نِساءٌ كِرامٌ من حُيَىٍّ ومَالِكِ

ظَلِلْتُ بذى الأَرْطَى فُوَيْقَ مُثقَّبٍ ... ببيئَةِ سُوءٍ هالِكاً أو كهَالِكِ(١)

تَرُدُّ علىَّ الريحُ ثَوْبِى قاعداً ... إلَى صَدَفِىٍّ كالْحَنِيَّة بَارِكِ(٢)

رَأيتُ سُعوداً من شُعوبٍ كَثيرَةٍ ... فلم تَرَ عينى مثلَ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ

أبَرَّ وَأَوْفَى ذِمَّـــةً يَعْقِدُونَهَا ... وَخَيْرًا إذَا سَاوَى الْذُّرَى بِالْحَوَارِكِ

وَأَنْمَى إلى مَجْدٍ تَلِيدٍ وَسَوْرَةٍ ... تَكُونُ تُرَاثًا عندَ حَىٍّ لِهَالِكِ

و بعد ذلك بيت يبعد أن يتصل بالقصيدة و يظهر أنه مضاف ، وهو قوله :

أَبِى أَنْزَلَ الجَبَّارَ عَامِلُ رُمْحِهِ ... عَنِ السَّرجِ حَتَّى خَرَّ بين السَّنَابِكِ

أما القصيدة الغزلية فهى ممارواه ابن السِّكِّيت عن غير الأصمعى فى رواية أَبِى عَمْرو إسحاق بن مراد الشيبانى من علماء الناس بأخبار العرب وأشعارها توفى، سنة ست ومائتين فى خلافة المأمون ، وهى :

أَتَعْرِفُ رسمَ الْدَّار قَفْرًا مَنَازِلُه ... كجفنِ اليمانِى زَخْرَفَ الْوَشْىَ مَاثِلُه

دِيَارٌ لِسَلْمَى إذْ تَصِيدُكَ بِالْمُنَى ... وَإِذْ حَبْلُ سَلْمَى مِنْكَ دَانٍ تُوَاصِلُه

وَإِذْ هِىَ مِثْلُ الرِّيمِ صِيدَ غَزَالُهَا ... لَهَا نَظَرٌ سَاجٍ إِلَيْكَ تُوَاغِلُه

غَنِينَا وَمَا نَخْشَى التَّفَرُّقَ حِقْبَةً ... كِلاَنَا غَرِيرٌ نَاعِمُ الْعَيْشِ بَاجِلُه

وجِئْتُك عارِيًا خَلَقاً ثِيَابِى ... علَى خَوفٍ تُظَنُّ بِىَ الظُّنُونُ

وهــذا أيضاً على جماله الشعْرى ما يقوله الناس بعضهم لبعض حين يحب أحدهم أن يؤكد لصاحبه مودة أو يلقى عن نفسه تهمة .

(١) الأرطى : شجر يدبغ به . مثقب : موضع . (٢) الصدفى : البعير منسوب إلى صدف قرية باليمن . الحنية : القوس شبهه بها لضموره .

لَيَالِيَ أَقْتَادُ الصِّبَا وَيَقُودُنِي ... يَجُولُ بِنَا رَيْعَانُهُ وَيُحَاوِلُه

ثم قال :

عشقه وذكره للوصال والفراق

وَكَمْ دُونَ سَلْمى مِنْ عَدُوٍّ وَبَلْدَةٍ ... يَحَارُ بِها الْهَادِي الْخَفِيفُ ذَلاَذِلُه

يَظَلُّ بها عَيْرُ الْفَلاَةِ كَأَنَّهُ ... رَقِيبٌ يُخَافِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُه

وَمَا خِلْتُ سَلْمَى قَبْلَها ذَاتَ رِحْلَةٍ ... إِذَا قَسْوَرِيُّ اللَّيْلِ جِيبَتْ سَرَابِلُه

وَقَدْ ذَهَبَتْ سَلْمَى بِعَقْلِكَ كُلِّهِ ... فَهَلْ غَيْرُ صَيْدٍ أَحْرَزَتْه حَبَائِلُه

قصة المرقش مع أسماء صاحبته

كَمَا أَحْرَزَتْ أَسْمَاء قَلْبَ مُرَقَّشٍ ... بِحُبٍّ كَلَمْعِ الْبَرْقِ لاَحَتْ مَخَايِلُه

وَأَنْكَحَ أَسْمَاءَ الْمُرَادِيَّ يَبْتَغِي ... بِذَلِكَ عَوْفٌ أَنْ تُصَابَ مَقَاتِلُه

فَلَمَّا رَأَى أَلاَّ قَرَارَ يُقِرُّهُ ... وَأَنَّ هَوَى أَسْمَاءَ لاَ بُدَّ قَاتِلُه

تَرَحَّلَ عَنْ أَرْضِ الْعِرَاقِ مُرَقَّشٌ ... عَلَى طَرَبٍ تَهْوِي سِرَاعًا رَوَاحِلُه

إِلَى السَّرْوِ أَرْضٌ سَاقَه نَحْوَها الهَوَى ... ولم يَدْرِ أَنَّ الموتَ بالسَّرْوِ غَائِلُه

فيَالَكَ من ذِي حَاجَةٍ حِيلَ دُونَها ... وَمَا كُلُّ مَا يَهْوَى امْرُؤٌ هو نَائِلُه

لعَمْرِي لَمَوْتٌ لا عُقُوبَةَ بعدَه ... لِذِي البَثِّ أَشْفَى مِنْ هَوًى لا يُزَايِلُه

فوَجْدِي بسلمى مِثْلُ وَجْدِ مُرَقَّشٍ ... بأسماء إذ لا تَسْتَفِيقُ عَوَاذِلُه

قضى نَحْبَهُ وَجْداً عليها مُرَقَّشٌ ... وعُلِّقْتُ من سلمى خَيَالاً أُمَاطِلُه

ذلك ، ولطرفة بعض مقطوعات أخرى بعضها مطعون فيه والآخر ليس بشيء ، وهو عَمْرُو بنُ العَبْد بن سُفْيَان بن سَعْد بن مَالِك بن ضُبَيْعَةَ بن قَيْس ابن ثَعْلَبة بن عُكَابَةَ بن صَعْب بن عَلِيّ بن بَكْر بن وَائِل ، وطَرَفة بالتحريك لقبه وهي واحدة الطرفاء ضرب من الشجر ، والعرب تسمى أبناءها بذلك وبأسماء الحيوان وخاصة ما يستكره منها كأسد وحنظلة ، ويسمون عبيدهم بما يستحب كرباح وأيمن ونحوها ، قالوا لأنهم يسمون أبناءهم لعدوهم وعبيدهم لأنفسهم ونقل المترجم عن « كوسان دبرسفال » مؤرخ فرنسي وضع كتابا فى

ما كانت العرب تسمى به أبناءها وعبيدها

تاريخ العرب بين سنتى ١٨٤٧ — ١٨٤٩ أن عمرو بن هند صعد إلى عرش الحيرة سنة ٥٦٢ ميلادية ، وأن طرفة قتل فى ابتداء حكمه ، واستظهر أنه مات سنة ٥٦٣ ، وإذن يكون ولد سنة ٥٣٨ ميلادية ، والله أعلم .

٧ — عبيد بن الأبرص

جمع ديوانه وضبطه

يرجع الفضل فى إنقاذ التاريخ الأدبى لعَبيدٍ إلى جمعية « جِبْ » ، وهى جمعية أنشأتْها فى إحدى المدن الكبرى بانجلترا سيدةٌ انجليزية تخليداً لذكرى ولدها « جِبْ » المُتوَفَّى فى أوائل هذا القرن ، وكان فى حياته مشغولا بالبحث فى أدب العرب وغيرهم من الأمم الشرقية ، وقد طبعت الجمعية هذا الديوان فى ليدن إحدى مدن الدانمرك سنة ١٩١٣ بعد ما لاقت فى جمعه وتصحيحه من العنت والمشقة ما تعرِفُه حين تَقِفُ على الأصول الخطِّية الرديئة التى نقل عنها كثير من هذه الترجمة ، وفى صدره بحث مختصَرٌ عن حياة عبيد وشعره لواضعه الكاتب « شارلس ليل » أحد أعضاء الجمعية المذكورة أشار فيه إلى أهمّ المصادر التى اعتمد عليها فى بحثه ككتاب الأغانى لأبى الفرج الأصْبَهانى ، والشعر والشعراء لابن قُتَيْبَة ، ومختارات هِبَةِ الله بن الشَّجَرِى ، ومراجع أخرى أجنبية لجماعة من علماء المشرقيات ، وقد استعان فى وصف ديار بنى أسد رهط عَبيد وما تناوله من تاريخهم الاجتماعى بآراء كثير من مُؤَرِّخى الأجانب وَرَحَّالتِهم الذين جابوا هذه الأصْقَاع ، ونشروا شيئاً من مباحثهم عنها فى مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية بين سنتى ١٩٠٨ — ١٩١٠ ، ولا ريب أن هذا المجهود الموفق يعتبر معونة علمية خليقة بالذكر ستَمُدُّنا بغير قليل فيما نحاول من هذه الترجمة إن شاء الله .

حياته وأخباره

ويؤخذ مما قرأناه من أحاديث الرُّواة ومما كتب المترجم عنه أنه كان

معاصرا لِحُجْرٍ الكِنْدِى الذى ملك إلى سنة ٤٩٧ م فى بنى أسد وأحلافهم من القبائل العربية الأخرى ، وكانت منازلهم جنوب تَيْماءَ إلى الشرق من طريق الحَاجِّ بين مَعَان والمدينة ، وفى الجنوب والغرب من جبلى طى المعروفين بأَجَاءُ وسَلْمَى ، وأنه قتل قبل سنة ٥٥٤ م ، وهى السنة التى قتل فيها أو مات قاتِلُه المنذرُ اللَّخْمى على أقرب الروايات إلى الصواب ، وإذاً تكون حياته محصورةً بين منتصف القرنين الخامس والسادس الميلاديين رغم ما يزعم الرواة من تعميره ، وفى الجزء التاسع عشر من الأغانى ذكر أبو الفرج عن رُوَاتِه قال كان من حديث عَبِيد بن الأَبْرَص أنه كان رجلا محتاجا ولم يكن له مال فأقبل ذاتَ يوم ومعه أُخْتُه مَاوِيَّةُ فى غُنَيْمَةٍ له يُورِدُها فمنعه رجل من بنى مالك بن ثعلبة وَجَبَهَهُ ، فانطلق حزيناً مهموما للذى صنع به المالكى حتى أتى شجرات فاستظل تحتهنّ ونام هو وأخته ، فزعموا أن المالكى نظر إليه وأخته إلى جانبه فقال :

ذاكَ عَبِيدٌ قد أصابَ مَيَّا ... يا ليتــه أَلْقَحَها صَبِيَّا

فسمعه عَبِيد فرفع يديه ثم ابتهل فقال : اللهم إن كان فلان ظلمنى ورمانى بالبهتان فأَدِلْنِى منه وانْصُرنى عليه ووضع رأسه فنام ، ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر ، فذكر أنه أتاه آتٍ فى منامه بكبة من شعر فألقاها فى فيه فانتبه وهو يرتجز بالمالكى ثم استمرّ بعد ذلك فى الشعر . وكان شاعر بنى أسد غير مدافع (رؤيا عبيد فى النوم) ونحن نستبعد صدق هذه الرواية من قبل أن هــذا الوحى الغريب كان جديراً بالذكر وهو لم يرد مطلقاً فى شىء من شعر عبيد ، ولأن الشعر فى هذا العصر لم يكن متعذراً على الناس إلى حدّ يحمل الرواة إلى اختراع مثل هذه المحاولة . وقد لاحظ المترجم من ناحية أخرى على صدر هــذا الخبر بأن عليه مسحة الأساطير لما فيه من المخالفة الظاهرة لمذهب عبيد فى الفخر بنفسه وكثرة ذكره لأيام فتوّته ، وأنه كان مفضالا كثير البذل للمال قال وربما كان إقلاله ناشئاً من

إسرافه وكرمه . ومعروف أنه عقب ثورة الأسديين بحُجْر أبى امرئ القيس وقَتْلِه كان عَبيدٌ أحد رؤساء الوفد الذين ذهبوا إليه لاستكفافه عن الحرب والمفاوضة معه فى قبول ما عرضوه عليه من الصلح ، وما ينبغى لمثل هذه السفارة الخطيرة الشأن أن تكون من عمل العامة ولا ممن لا يقدرون على مغارم الحروب واحتمال ديات الملوك .

ومن المحقق أنه كان لعبيد فى تاريخ قومه مقام لا يجهل ، فقد اشترك فى قيادة زُحُوفِهم فى غاراتهم المختلفة بينهم و بين كثير من القبائل العربية فى داخل الجزيرة ومع بعض ملوك الشام من الغسانيين فى حروبهم الخارجية .

ويرجِّحُ كثير من أهل النقل أن قاتله هو المُنْذِرُ الثَّالث الذى ملك على العرب فى العراق إلى سنة ٥٥٤ م كما قدمت ، وذلك أنه كان يتخذ من بطانته رجلين من بنى أسدٍ يُنَادِمَانِه ويكونان معه وهما خالد بن المضلل وعمرو بن مسعود فأغضباه فى بعض الأمر فقتلهما وأقام على قبريهما عمودين يُسَمَّيَان الغَرِيَّيْن (ذكر ياقُوتُ فى الجزء السادس من مُعْجَمه أن مَعْنَ بن زَائِدَةَ الشَّيْبَانِىَّ أحد الأمراء العباسيين رآهما بظاهر الكُوفَةِ) ثم جعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما عندهما، وَسَمَّى أحدَهما يوم نِعْمَةٍ ، أوَّلُ من يلقاه فيه يَحْبُوه و ينادمه ، والآخر يوم بؤس يذبح فيه أول من يطالعه و ينضح هذين القبرين بدمه ، قالوا فبينما هو يسير فى يوم بؤسه أشرف له عبيد بن الأبرص ، فقال له : هلا كان الذبح لغيرك يا عبيد ؟ فقال : « أَتَتْكَ بِحَائِنٍ رِجْلاهُ » ، والحائن من الْحَيْن وهو الهلاك فأرسلها مثلا ، فقال له المنذر : أَوْ أَجَلٌ بَلَغَ إِنَاه ، ثم قال له : أنشدنى فإن شعرك يعجبنى ، فقال : « حَالَ الجَرِيضُ دُونَ القَرِيض » ، والجريض ذهاب الريق من الخوف ، وهو مثل أيضاً ، فقال له رجل من حاشية الملك : ما أشد جزعك من الموت ، فقال : « لا يَرْحَلُ رَحْلَكَ مَنْ لَيْسَ مَعَكَ » فقال له المنذر أنشدنى من قولك : « أَقْفَر من أهله مَلْحُوبُ » فقال عبيد :

حديث عبيد مع المنذر فى يوم بؤسه

أَقْفَرَ من أَهـلِهِ عَبيدُ فالْيَوْمَ لا يُبْدِى ولا يُعِيدُ

ولم يزل يأبى أن يجيب الملك إلى شىء حتى أمر به فقتل ، و بعض الرواة يضيف إليه شعراً أنشده الملك وهو قوله :

مَهْلاً أبيْتَ اللعنَ مَهْـــلاً إنَّ فيما قُلْتَ آمَه[1]

فى كل وادٍ بين يَثْـــرِبَ فالقُصُورِ إلى اليَمامه

تَطْرِيبُ عَانٍ أو دُعَا ءِ مُحَرِّقٍ أو صَوتُ هامَه[2]

إلى قوله :

مَهْما تركْتَ تَرَكْتَ عَفْـــوًا أو أَخَذْتَ فلا مَلاَمَه

أَنْتَ المَلِيكُ عليهِمُ وهُمُ العَبِيدُ إلى القِيامَهْ

والظاهر أنه موضوع من عمل أعداء بنى أسد لأنه مع منافاته لحال عبيد مع الملك فى إبائه وما تمثل به مما لا يغلب صدوره عن مثله وهو على موقف يُقاد فيه إلى الموت لايصلح لمصانعة الملك ولا غيره ، و بذلك تعرف قلة التمحيص فى حديث الرواة عن لقائه لحاتم الطائى مع بشر بن أبى خازم الأسدى فى طريقهم إلى النعمان بن المنذر ، وأبعد من ذلك فى الوهم وأشبه بخرافات الأساطير قصة الشجاع وهو الأفعى العظيمة .

أسطورة الافعى وعبيد

زعموا أنه خرج فى ركب من بنى أسد ، فلما كانوا فى بعض الطريق اعترضتهم أفعى لم يقدروا معها من أمرهم على شىء ، فجاء عبيد بفضلة من ماء كانت معه فصبها فى فمها حتى رويت واطمأنت فانسابت فى الرمل وخلت لهم الطريق ، وأنهم نزلوا عنـــد الليل منزلا فندّت رواحلهم ، وأقبل عبيد ينشـد راحلته ، فاذا هو بنجيب مَرْحُولٍ وهاتف يصيح به أن أركبه حتى يبلغك المحل ، ثم خَلِّه فقال له عبيد . أنشدك الله يا هذا من أنت ؟ فأنشده :

---

(١) الآمة : الحصب والعيب ، وهو المراد . (٢) الهامة : رأس كلّ شىء وطائر من طيور الليل والصدى وسيد القوم .

أنا الشُّجَاع الَّذِى أَلْفَيْتَه ظَمِئاً في قَفْرَةٍ بين دَكْدَاكٍ وأَعْقَادِ
فَجُدْتَ بالماء لما ضَنَّ حَامِلُه وزِدْتَ فيه ولم تَبْخَل بِأَنْكَادِ
الخَيْرُ يَبقى وإن طَالَ الزَّمانُ به والشَّرأَخْبَثُ ماأَوْعَيْتَ مِن زَادِ

وهى أبيات فى شعر مروىّ لعبيد . قال الأصبهانى : وهذا الخبر مصنوع يتبين فيه التوليد ، ويظهر أن هذه الرواية نسجت حول عبيد من بيت فى هذه القصيدة غالباً هو قوله :

فإن لَقِيتَ بِوَادٍ حَيَّةً ذَكَرا فَامْض ودَعْنى أُمَارِسْ حَيَّةَ الوَادِى

وذلك أكثر ما عند الناس من تاريخ عبيد .

شعره

أما شعره فستراه قولا سهلا صافى اللفظ سمح الأُسلوب فى انسجام وجزالة يدلان على قوة الطبع واطف المذهب أكثر فيه من النَّوح على الشباب وباح بما جرت عادة الناس بكتمانه عن النساء من التواء العود وبياض الفَوْدَيْن ، وشكا منهنّ الإعراض بعد التنويل ، والجفاء بعد الِمقَة ، وجعل يستعرض لهن سوالف أيامه ، وهو يرتع فى مَيْعَة العمر بين القِيَان والإخوان تأتِّياً للعزاء والتماساً للرضى بما استضافه من مكروه الشيب والكبر .

بكاؤه على الشباب

وتراه من ناحية أخرى صورة من صور البادية عارية الأدِيم مقفرة المناهل إلا فى قليل من أغوارها المَكْسُوَّة بشىء من الزَّهرَ والماء يصف نفسه فيه باعْتِسَاف الليل ، واقتحام الأخطار ، وهو على ظهر وَجْناء ناجية ، أو فى صَهْوَة جواد سابح يطيل الافتخار بآثار القبيلة ويذكر انتصاراتها على الأعداء ، ويتحدث دائما بثورة قومه بنى أسد وخروجهم على حُجْر أبى امرئ القيس وقتله . ويذكر امرأ القيس ويعرض بخذلانه لأبيه وعجزه عن الأخذ بثأره ويعارضه فى بعض قوافيه ويشير إلى رحلته إلى بلاد الروم للاستعانة بقيصر ثم يعود إلى نفسه فيذكر بلاءه وأيامه وبذله لإخوانه ويُلِمّ بالشراب والغناء ولهو

ذكره لديار قومه

الحياة ، وأينما ذهبت به مفارق الكلام لا ينسى ديار قومه و يمضى فى هــذه الناحية حتى لا يدع ماء ولا جبلا ولا ثَنِيّة ولا دَارَةً من داراتهم إلا ذكر أسماءها وعرف مواقعها وشعره من هــــذه الجهة شعر تاريخى يتناول الاجتماع البدوى بما يشبه صنيع المؤرّخين فى حياة الأمم ، وقد علق من وصف الطبيعة بذكر العاصفة والأمطار والسحاب ، فأجاد ما شاء فى أكثر من موضع على مذهب واحد متكرر يجعله أحقّ بما نسب إليــــه منها ممن يشركه الرواة معه كأَوْس بن حَجَر ، و بخاصة فى الحائية المشهورة .

المعانى الاجتماعية فى شعره

وفى شعره دلالة ظاهرة على طول التجربة والانتفاع بحوادث الأيام وصدق النظر فى عواقب الأمور اكتسبها من الاختبار المتكرر على مرور الأيام فى حياته الطويلة تلمحها فى مواضع من شعره ، وفى قصيدة له دالية تراه فيها حكيما مُعَلِّما يضع للناس قواعد المعاشرة ، و يصف لهم الأمانة ويريهم مقابح الغدر ، و ينصح لهم فى طرق الاختيار للأصحاب ، ثم يذكر الموت ويتحدث عن إرْصَاده للنفوس و يعظ نفسه بما تقلب بين يديه من صروف الدهر، وهذه هى المعانى الشعرية التى تتفقدها فى شعر عبيد ، فتراه يذكرها فى أكثر قصائده قلما تختلف فيها قصيدة عن أخرى بأكثر من الوزن والقافية حتى ليمكنك أن تقول إن شعره من هــذه الجهة كأنه قصيدة واحدة ، وتعثر له أحيانا بالمعنى المبتكر والخيال البديع ، وسوف نأتى على أمثلة من ذلك عند شرحنا له إن شاء الله .

ونشير هنا إلى بعض ما لخصناه من رأى المترجم وآراء الباحثين من علماء المستشرقين فى شعر العصر الوثنى ، وفى شعر عبيد من حيث نسبته لقائله ، ومن جهة دقة البحث فى الاستدلال الأدبى .

يقول المترجم إن شعر العصر الوثنى نقل من طريق الرواية ، وكذلك الأدب الهندى القديم نقل بعــــد العصر الذى قيل فيه بزمن طويل قال ولا يخلو كل ما ينقل بهذه الطريقة مما يدخله من الغريب غير أنه لا يصحّ أن يتهم الشعر

القديم حين يشتمل على مفاخر القبيلة لأن ذلك كان بمثابة الميراث المتناقل يحتفظ به الأبناء عن الآباء ويتوكئون عليه فى عصبيتهم وتاريخهم ، ويرى أن المعلقات السبع وهى خير ما روى من أشعار هذا العهد الوثنى نتيجة مترجمة عن شخصيات شعرية مختلفة ، ويعتبر من الخيال الغريب إلى أبعد حدّ أن تكون هى أو الجزء الأعظم منها وضع على أصحابه فى عصور متأخرة ، ويقول «بروكلمان» فى كتابه معجم المراجع :

استدلال المترجم على صدق الشعر القديم

«ومع ماترى من تفرّق القبائل العربية يظهر أنه كان لهم نوع من الوحدة فى الديانة والعادات تجمعهم كأمة واحدة ، ويؤيد ذلك لغة الشعر التى كانت واحدة عند المسيحيين فى الحيرة وعند العرب الرعاة فى الجبال جنوب مكة وبحق» يقول (نولدكه) إنه لا يستطيع أن يجعل هذا التساوى اللغوى ناشئاً من تحرير الرواة له وعن افتراض لغة مصطنعة للشعر .

الوحدة فى الأمة العربية

ويرى المترجم أن فى ذكر الشعراء الإسلاميين كجرير وطبقته لأولئك القدماء دليلا آخر على صحة أشعارهم ، ويقرّر أنه من غير المعقول أن تكون هذه الطبقة الإسلامية هى مبدأ الشعر العربى الصحيح وأنهم نسجوه فى تلك الأوزان والقوافى ، وفى هذه المعانى والأغراض على غير مثال سابق ، ويكون من التحكم البعيد أن يتهم الشعر القديم وحده ، ولا يتهم الشعر الإسلامى مع أن طريق النقل عن الطبقتين واحدة وهى الرواية ، وأن هذه الآثار الأدبية من وثنية وإسلامية دوّنت كلها تقريباً فى وقت واحد .

إنكاره اتخاذ الشعراء الاسلاميين مبدأ للشعر العربى الصحيح

ويقول إن العلماء من المسلمين نظروا إلى الشعر القديم بمثل العناية التى كانوا ينظرون بها إلى القرآن والحديث لأنهم كانوا يعتبرون هذه الثلاثة أهمّ المراجع التى اعتمدوا عليها عند نهوضهم لتدوين اللغة وجمعها .

ويذكر من الأدلة الخاصة بشعر عَبيد أنه يشتمل على تاريخ مؤيد بشواهد ثابتة كذكره لمقتل حُجْر الكندى وحديثه عن أيام الفجار وغيره مما وقع بين

بنى أسد وغيرهم من قبائل العرب قال وأدق من ذلك فى الاستدلال على صحة هذا الشعر التزام الشاعر لذكر كلمات بعينها يكررها فى أكثر قصائده نحواً من أربعين كلمة منها كلمة : (خِرْص) و (عُقَاب) و (عَوْمُ السَّفِين) و (دَاوِيَّة) و (ليلة رَجَبِيَّة) و (حَرْق البوَارِق) و (أهل القِبَاب) و (أهل الجُرْد) وأشار أيضاً إلى استعماله ضمير الغائبة على لغة بنى أسد بالكسر و إشكان الياء حين يقول « وَهِى مِنِّى على بَالِ » وتلك بلا ريب أمارة قوية تدل على هذا المذهب فى تصحيح الكلام لأن الألفاظ كغيرها من أجناس الأشياء تختلف مقاديرها فى اعتبار القائلين من قبل الخفة والثقل ويزيد حَظُّها أو ينقص فى الاستعمال تبعاً لتأثرها بشهوات الأدباء من المحبة أو الاستكراه ، وكما يطيب لك أن تَشمّ لونا من الزهر وتستحسن جنساً خاصا من الجمال كذلك يخفّ على لسانك لفظ دون لفظ وتلهج بعبارة خاصة فلا تزال تضعها فى كلامك وتلتمس كلّ سبيل لأخذها فى أسلوبك وتكون نميمة على أدبك ودليلا عليك .

التزام عبيد لذكر كلمات بأعيانها فى شعره دليل مادى على صدقه

و يعتبر عَبيد من شعراء الطبقة الرابعة كعَدِىّ بن زَيد ، وعَلْقَمة الفَحل ، وطَرَفَة بن العَبْد ، وقد ذكره ابن سَلَّام الجُمَحِى قال : وهو شاعر قديم الذكر عظيم الشهرة وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله : « أقفر من أهله ملحوب » والإمام ابن قُتَيْبَة يعدها فى المعلقات وصاحب الْجَمْهَرَة يذكرها أول المجمهرات السبع ، ويظهر أن الامام ابن سلام لم يدرك الوقت الذى جمعت فيه أشعار عبيد أو لم يبلغه على الأقل وأنه بنى رأيه فى شعره على هذه القصيدة البالغة من رداءة النظم الشعرى إلى ما لا مثيل له فى كلام العرب كما سيأتى :

منزلته

وقد روى شعره : أبو عَمْرو الشَّيْبَانى ، والإمام أبو عُبيدَة ، وعبدُ المَلِك بن قُرَيْب الأصمعى ، وعَلِىّ بن المُغِيرَة المعروف بالأثرم ، وخالد بن كلثوم . ويرجع أكثر الفضل فى استحياء معظم آثاره إلى محمد بن كُنَاسَــــة أحد رواة الكوفيين ، وكان ينزل فى محلة بنى أسد آخر العهد الأموى وصدراً من الدولة

رواة شعر عبيد

العباسية وفى الأصول الخطية شروح قصيرة و بعض تعليقات لم يذكر معها اسم جامعها ولا شارحها ونشرع الآن فى شرح ما يسعنا من شعره تقريراً لما تناولناه من أوصافه ومذاهبه الشعرية ، وأوله فى ديوانه قصيدته المعدودة من المجمهرات ويغلب على أكثر أبياتها أنها من مخلع البسيط أو مجزوءه ، وهى :

أَقْفَرَ من أهله مَلْحُوب   فَالْقُطَبِيَّاتُ فَالذَّنُوبُ
فَرَاكِسٌ فَثُعَيْلِبَاتٌ   فَذَاتُ فِرْقَيْنِ فَالْقَلِيبُ
فَعَرْدَةٌ فَقَفَا حِبِرٍّ   لَيْسَ بِهَا مِنْهُمُ عَرِيبُ

ملحوب والقطبيات والذنوب وراكس وثعيلبات وذات فرقين والقليب وعردة وحبرّ كلها مواضع فى ديار بنى أسد ، وعدّة أبيات القصيدة خمسة وأربعون بيتاً لا يخلو بيت منها من حذف فى تفاعيله أو زيادة على وزن البحر المذكور قد جعل نظمها كما ترى ردىء النغمة مكروهاً على السمع ، و بعد أن وصف هذه الأماكن بالعفاء والدروس أشار إلى حروبهم وما أصابهم من ريب الدهر و بكاهم بعين سَرُوب الدّمع جعل دموعها كأنما تتدفق من جَدْوَل فى واد ، وانتقل إلى التأسّى بتحوّل النعم وذهاب الوارثين بالأموال ، قال :

إن تَكُ حالَتْ وحُوِّلَ أَهْلُها   فلا بَدِىءٌ ولاَ عَجِيبُ
فكُلُّ ذِى نِعْمَةٍ مَخْلُوسٌ   وكُلُّ ذى أَمَلٍ مَكْذُوبُ
وكلُّ ذِى إبِلٍ مَوْرُوثٌ   وكُلُّ ذى سَلَبٍ مَسْلُوبُ
وكُل ذى غَيْبَة يَئُوبُ   وغَائِبُ المَوْتِ لا يَئُوبُ
قد يُوصَل النَّازِحُ النَّائِى وقَد   يُقْطَعُ ذى السُّهْمَة القَرِيبُ
من يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوه   وسَائِلُ اللهِ لا يَخِيبُ
والمرْء ماعَاش فى تَكْذِيبٍ   طُولُ الحَيَاةِ لَهُ تَعْذِيبُ
أَفْلِحْ بما شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بالضَّعْفِ وقَد يُخْدَعُ الأَرِيبُ

لا يَعِظُ النَّاسُ من لم يَعِظِ الدَّ   هْرُ ولا يَنفَعُ التَّلْبِيبُ

ثم استطرد بعد هذا إلى ذكر ماء آجن وصف سبيله بالخوف والجدب وتناول ما يكون على أرجائه من ريش الحمام وذَرْق الطير وأنه قطع هذه السبيل على ظهر ناقة شبهها فى سرعتها بالحمر الوحشية وانتقل منها إلى فرس نهدة جعلها كالعقاب التى وصفها بقوّة الهوىّ ولطف الترقب للفريسة ، ولعل الذى جعل الامام ابن قتيبة يعدها فى المعلقات ويجعلها صاحب الجمهرة فى المجمهرات مع خلوّها من حلاوة القريض وروعة الشعر ، والجرس الغنائى هو هذه المعانى التى تشبه تصورات العصور الإسلامية فى شرحها لكثير من الحقائق الاجتماعية والخلقية الثابتة .

وهذه قصيدة أخرى يذكر فيها قتل حُجْر الكندى ، ويصف الخيل والفرسان والسلاح ويسخر من امرئ القيس فى ذهابه إلى قيصر ، وهى فى أسلوب سائغ سهل مع تدفق وجزالة قال بعد مطلعها :

تعييره لامرئ القيس

يَا ذَا المُخَوِّفُنا بِمَقْتَلِ شَيْخِهِ   حُجْرٍ تَمَنِّى صَاحِبِ الأَحْلَامِ
لا تَبْكِنَا سَفَهاً ولا سَادَاتِنا   واجْعَلْ بُكَاءَكَ لِابْنِ أُمِّ قَطَامِ
حُجْرٍ غَدَاةَ تَعَاوَرَتْهُ رِمَاحُنا   بِالقَاعِ بين صَفَاصِفٍ وإِكَامِ (١)
حتَّى خَطَرْنَ به وهُنَّ شَوارِعٌ   مِن بَيْنِ مُقْتَصِدٍ وآخَرَ دَامِ
وَالخَيْلُ عَاكِفَةٌ عليه كَأَنَّها   سُحُقُ النَّخِيلِ نَأَتْ عن الجُرَّامِ (٢)
مُتَبَارِيَاتٍ فى الأَعِنَّةِ قُطَّباً   يَحْمِلْنَ كُلَّ مُنَازِلٍ قَمْقَامِ
سَلَفاً لِأَرْعَنَ مَا يَخِفُّ ضَبَابُه   مُتَقَنِّسٍ بَادِى الحَدِيدِ لُهَامِ (٣)

(١) الصفاصف والإكام : جمع صفصف ، وهى الأرض البلقع الخالية . والإكام : واحده أكة ، وهى المرتفع لايبلغ أن يكون جبلا . (٢) السحق : الطوال ، الواحدة سحوق. الجرّام : الذين يجرمون النخل أى يقطمونه . (٣) الأرعن : الجيش. المتقنس اللابس القونس ، وهى البيضة . اللهام : الكثير العدد .

فيه الحَدِيدُ وفيه كُلُّ مَصُونَةٍ نَبْعٍ وكُلُّ مُثَقَّفٍ وحُسامِ

ثم قال :

أَزَعَمْتَ أَنَّك سوف تَأْتِي قَيْصَرًا فَلَتَهْلِكَنَّ إذاً وأَنْتَ شَآمِي

تَأْبَى على النَّاسِ القَادَةَ كُلِّهِم حتّى تَقُودَهُمُ بِغَيْرِ زِمَامِ

وقال أيضاً من قصيدة مطلعها :

يا دَارَ هِنْدٍ عَفَاهَا كُلُّ هَطَّال بِالْجَوِّ مِثْلَ سَحِيقِ الْيَمْنَةِ البَالِي

و بعد أن وصف ناقته ولم يُطِل جعل يفخر بنفسه ويذكر اللهو والشراب والمرأة ، ثم يعود إلى النَّوح على فارط العمر وذاهب الشباب ، وفيها أيضاً تناول عتق الخمر ومدح صاحبها (على غير العادة) بالإفضال وَأَلْعَبَ صاحبته وأَلْعَبَتْه . قال : .

وصف الخمر والبكاء على ذاهب الشباب

وَكَبْشِ مَلْمُومَةٍ بَادٍ نَوَاجِذُهُ شَهْبَاءَ ذَاتِ سَرَابِيلٍ وَأَبْطَالِ

أَوْجَرْتُ جُفْرَتَه خُرصاً فمالَ به كما انْثَنَى مُخْضَدٌ من ناعِمِ الضَّالِ[1]

وَقَهْوَةٍ كَرُضَابِ المِسْكِ طالَ بها في دَنِّها كَرُّ حَوْلٍ بعد أَحوَالِ

باكَرْتُهاقبلَ مايبْدُو الصَّباحُ لنا في بَيْتِ مُنْهمِرِ الكفَّين مِفْضَالِ

وعَبْلَةٍ كمَهَاةِ الجَوِّ ناعِمَةٍ كأَنَّ رِيقَتَها شِيبَتْ بِسَلْسَالِ[2]

قد بِتُّ أُلْعِبُها وَهْناً وَتُلْعِبُني ثم انصرَفْتُ وَهِي مِنِّي على بَالِ

بَانَ الشَّبابُ فَآلَى لا يُلِمُّ بِنا واحْتَلَّ بي من مَشِيبٍ أيُّ مِحْلاَلِ

والشيبُ شَيْنٌ لمن يَحتَلُّ سَاحَتَهُ لِلّهِ دَرُّ سوادِ اللِّمَّةِ البَالِي

وقد أسلفنا في شرح خصائصه إيثاره لذكر العواصف والأمطار ومَرْى الريح السحاب وتحلبه كما يَمْرِي العَسِيفُ وهو الراعي عِشَاره أي نياقه الحافلة الضروع

(١) أوجرت : ملأت . الجفرة : الخاصرة . المخضد : المقطوع .

(٢) مهاة الجوّ : الشمس .

ثم يذكر ضياء البرق من خلاله وضيق ذرعه بالماء وانحلال عَزَاليه وهى مَصَابُ الماء منه واحدتها عزلاء وهذه كما تجدها فى القصيدة الآتية من شعره فى هذا المعنى حيث يقول :

وصفه للبرق والسحاب والمطر والعواصف

سقى الرَّبابَ مُجَلْجَلُ الأَكْنَافِ لَمَّاحٌ بُرُوقُهُ(١)
جَوْنٌ تُكَفْكِفُهُ الصَّبَا وَهْنًا وَتَمْرِيهِ خَرِيقُهُ(٢)
مَرْىَ العَسِيفِ عِشَارَهُ حَتَّى إِذَا دَرَّتْ عُرُوقُهُ(٣)
وَدَنَا يُضِىءُ رَبَابُهُ غَابًا يُضَرِّمُهُ حَرِيقُهُ
حَتَّى إِذَا مَا ذَرْعُهُ بِالمَاءِ ضَاقَ فَمَا يُطِيقُهُ
هبَّتْ له من خَلْفِهِ رِيحٌ يمانيةٌ تَسُوقُهُ
حَلَّتْ عَزَالِيَهُ الجَنُوبُ فَثَجَّ وَاهِيَةً خُرُوقُهُ

وصف عبيد لخليقة المرأة فى حب الشباب والمال

وفى القصيدة الآتية تناول أخلاق النساء وحلّل خلائقهن فى اقبالهن على المال والشباب وصدوفهن عن الصديق إذا قلّ ماله وحين يدب فيه الهرم والشيب وهو على الأقل من أوائل الشعراء الذين كشفوا هذه المعانى ، واشتهروا بها إن لم يكن هو أوّل من قالها ، وستراها تشبه قول علقمة فى إحدى قوافيه الفاخرة حين يقول :

فَإِنْ تَسْأَلُونى بالنِّساءِ فَإِنَّنِى خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّساءِ طَبِيبُ
إذا شَابَ رَأْسُ المرْءِ أَو قَلَّ مالُه فلَيس لهُ فى وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

وقول امرئ القيس :

أَرَاهُنَّ لا يُحْبِبْنَ من قَلَّ مالُه ولا من رَأَيْنَ الشَّيْبَ فِيهِ وَقَوَّسَا

---

(١) المجلجل : المصوّت . (٢) الجون : الأسود والأبيض ضدّ . تكفكفه : تردده . تمريه : أى تنزل منه الماء . الخريق : الريح الشديدة الهبوب .

(٣) العسيف : العبد . العشار : اللقاح أتى عليها عشرة أشهر من حملها أو هى الحافلة الضروع باللبن .

قال عبيد من قصيدته التى مطلعها : لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدَّفِينِ بِبَالِي

دَارُ حَيٍّ أَصَابَهُم سَالِفُ الدَّهْـــرِ فَأَضْحَتْ دِيَارُهُمْ كَالخِلَالِ
مُقْفِرَاتٍ إِلَّا رَمَادًا غَبِيًّا وبَقَايَا مِنْ دِمْنَـةِ الأَطْلَالِ (١)
بُدِّلَتْ مِنْهُمُ الدِّيَارُ نَعَامًا خَاضِبَاتٍ يُزْجِينَ خَيْطَ الرِّئَالِ (٢)
وظِبَاءً كَأَنَّهُنَّ أَبَارِيقُ لُجَيْـــنٍ تَحْنُو عَلَى الأَطْفَالِ
تِلْكَ عِرْسِي تَرُوم قِدْمًا زِيَالِي أَلِبَيْنٍ تُرِيدُ أم لِدَلَالِ
إِنْ يَكُن طِبُّكِ الدَّلَالَ فَلَوْ فِي سَالِفِ الدَّهرِ واللَّيَالِي الخَوَالِي
ذَاكَ إِذْ أَنتِ كَالمَهَاةِ وإِذْ آ تِيكِ نَشْوانَ مُرْخِيًا أَذْيَالِي
فاتْرُكِي مَطَّ حَاجِبَيْكِ وعِيشِي مَعَـــنَا بِالرَّجَاءِ والتَّأْمَالِ
أو يَكُنْ طِبُّكِ الفِرَاقَ فَإِنَّ الْـــبَيْنَ أن تَعْطِفِي صُدُورَ الجِمَالِ
زعمتْ أَنَّنِي كَبِرتُ وأَنِّي قَلَّ مالي وضَنَّ عَنِّي المَوَالِي
وَصَحَا بَاطِلِي وأَصْبَحْتُ كَهْلًا لا يُوَاتِي أَمْثَالَهَا أَمْثَالِي
أَنْ رَأَتْنِي تَغَيَّرَ اللَّوْنُ مِنِّي وعلا الشَّيْبُ مَفْرِقِي وقَذَالِي (٣)
فَبِمَا أَدْخُل الخِبَاءَ على مَهْـــضُومَةِ الكَشْحِ طَفْلَةٍ كَالغَزَالِ
فتعَاطَيْتُ جِيــدَها ثم مَالَتْ مَيَلَانَ الكَثِيبِ بين الرِّمَالِ
دَرَّ دَرُّ الشَّبَابِ والشَّعَرِ الْـــأَسْوَدِ والضَّامِزَاتِ تحتَ الرِّحَالِ (٤)

---

(١) الرماد الغبىّ : الذى لا يبين شيئا من الآثار وهو وصف ظريف .

(٢) الخاضبات : يريد ذكران النعام ، وهى جمع خاضب. وهو الظليم اغتلم فاحمرت ساقاه أو أكل الربيع فاحمر ظنبوباه . أو اخضرا أو اصفرا خاصّ بالذكر لا يعرض للأنثى كما فى القاموس ، والظنبوب: حرف الساق من قُدُم، أو عظمه أو حرف عظمه . الخيط وبكسر الخاء الجماعة الرئال : جمع رأل ، وهو ولد النعامة .

(٣) القذال : جماع مؤخر الرأس ومعقد العذار من الفرس خلف الناصية .

(٤) الضامزات : جمع ضامز ، وهو البعير يمسك جرته فى فمه .

وهذه أخرى ترى بها شيئاً من أدب الاجتماع يصل بعده إلى ذكر تجاوزه المهمه المقفر على ناقة مذكرة وهو يتبطن آنسة كعابا رُودَ الشباب تُدْفئه فى الشتاء وتبرده فى الصيف ، ثم شبه حلاوة ريقها بمزاج الأُتْرُجِّ والتفاح وضوء سُنتها فى الظلام بنور المصباح ثم انتهى إلى البكاء على إخوانه وعلى نفسه ، والبيت الأخير من القصيدة يشبه قول المعرى :

خففِّ الْوَطْءَ ما أَظُنُّ أدِيمَ الْـــأَرضِ إلاَّ من هذه الأَجْسَادِ

قال بعد المطلع :

حَلَفْتُ باللهِ إنَّ اللهَ ذُو نِعَمٍ لمن يَشاء وذو عَفْوٍ وتَصْفَاحِ
ماالطَّرفُمنِّىإلى مالَستُأمْلِكُه مِمَّا بَدالى بِباغِى اللَّحْظِ طَمَّاحِ

ثم يقول :

ومَهْمَهٍ مُقْفِرِ الأَعلاَمِ مُنْجَرِدٍ نَائِى الْمَنَاهِل جَدْبِ القَاعِ مِنْزَاحِ
جَاوزْتُه بِعَلَنْدَاةٍ مُــذَكَّرةٍ كالعَيْرِ مَوَّارَة الضَّبْعَيْنِ مِمْرَاحِ (١)
وقد تَبَطَّنْتُ مثلَ الرِّيم آنِسَةً رُودَ الشَّبَابِ كَعَابًا ذاتَ أَوْضاحِ (٢)
تُدْفِى الضجيعَ إذا يَشْتُو وتُخْصِرُه فى الصَّيفِحينَ يَطِيبُالبَردُ لِلصَّاحِ
كأَنَّ رِيقَ ثَنَايَاها إذَا ابْتَسَمَتْ مِزَاجُ شُهْدٍ بِأُتْرُجٍّ وتُفَّاحِ
كأَنَّ سُنَّتَها فى كُلِّ دَاجِيَةٍ حِينَ الظَّلاَمُ بَهِيمٌ ضَوْءُ مِصْبَاحِ

إلى أن قال :

كَمْ مِنْ فَتًى مِثْلِ غُصْنِ البَانِفى كَرَمٍ مَحْضِ الضَّرِيبَةِ صَلْتِ الخَدِّوَضَّاحِ (٣)
فارَقْتُهُ غيرَ قَالٍ لِى ولَسْتُ لَهُ بالْقَالِ أَصْبَحَ فى مَلْحُودَةٍ نَاحِ

---

(١) العلنداة : الغليظة الشديدة من الإبل . المور : الجرى . الضبع : العضد كلها أو وسطها . (٢) الرود : بالضم والفتح ويهمز وسطه الحسنة الشباب والكعاب : الناهدة الثديين . (٣) المحض : الخالص من كلّ شىء . الضريبة : الطريقة والخلق . الصلت : الواضح .

هلْ نَحنُ إلاَّ كأَجْسَادٍ نَمُرُّ بها تحتَ التُّرَابِ وَأَرْوَاحٌ كَأَرْوَاحِ

وينكر المترجم على عَبِيد وعلى غيره من شعراء العهد الوثنى أن يقع فى خواطرهم ما يقع فى خواطر الشعوب المتدينة من مثل ما فى هذه القصيدة ، ويرى أن أمثال هذا الشعر ينبغى أن يكون من عمل العصور الإسلامية ولكنه نسى أن فى هذه الجزيرة وراثات دينية باقية لأربعة من أنبياء العرب قبل الإسلام وأنها فوق ذلك قد اتصلت بديانات أخرى كالنصرانية واليهودية فى بقاع مختلفة منها . وترى الشعر القديم كله قلما يخلو من هذه المعانى ومن الدعاء إلى الله والاعتداد بربوبيته حتى وهم يسجدون للأوثان المنصوبة ، وهو ماحكاه القرآن عنهم حين يقول : (ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) ، ولو كان هذا الرأى صوابا لأفسد على الناس أكثر الشعر القديم لاشتماله فى الغالب على هذه المعانى ولكنه كما ترون بعيد عن التمحيص .

وهذه قصيدة له يعارض بها امرأ القيس فى هجائه لقومه وتسميتهم عبيد العصا فى قصيدة له مرت فى ترجمته يقول من العروض والقافية :

معارضته لامرئ القيس

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ مَجْدِنَا إِنَّكَ عَنْ مَسْعَاتِنَا جَاهِلُ
إِنْ كُنْتَ لم تَأْتِكَ أَيَّامُنَا فَاسْأَلْ تُنَبَّأْ أَيُّهَا السَّائِلُ
سائِلْ بِنَا حُجْرًا وأَجْنَادَه يومَ تَوَلَّى جمعُه الحَافِلُ
يَوْمَ أَتَى سَعْدٌ على مَأْقِطٍ وحَاولَتْ من خَلفِه كَاهِلُ (١)
فَأَوْرَدُوا سِرْبًا لَهُ ذُبَّلاً كأَنَّهُنَّ اللَّهَبُ الشَّاعِلُ (٢)
وعامرًا أنْ كَيْفَ يَعْلُوهُمُ إذا الْتَقَيْنَا المُرْهَفُ النَّاهِلُ
وجَمْعَ غَسَّانَ لَقِينَاهُمُ بجَحْفَلٍ قَسْطَلُه ذَائِلُ (٣)

---

(١) المأقط كمنزل : موضع القتال أو المضيق فى الحرب . (٢) السرب : هنا جماعة الخيل . الذبل : كركع جمع ذابل وهو الضامر . (٣) القسطل والقسطال : الغبار .

قَوْمِي بَنُو دُودَانَ أَهْلُ الحِجَى يومًا إذَا أُلْقِحَتِ الْحَائِلُ(١)
كم فِيهِمُ من سَيِّدٍ أَيِّدٍ ذِي نَفَحاتٍ قَائِلٌ فَاعِلُ
مَنْ قولُه قَوْلٌ ومَنْ فِعْلُه فعلٌ ومَنْ نَائِلُه نَائِلُ
القَائِلُ القَوْلَ الّذى مِثْلُه يَنْبُتُ منه البَلَدُ المَاحِلُ
لا يَحْرِمُ السَّائلَ إِذْ جاءَهُ ولا يُعَفِّي سَيْبَه العَاذِلُ
والطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ يومَ الْوَغَى يَذْهَلُ مِنها البَطَلُ البَاسِلُ

وهذه قصيدة له حائية يصف بها الرياح والمطر والسحاب ، والرواة يقولون إنه كان من أوصف الجاهليين لهذه الطبيعة الخاصة . وهو يكرر هذه المعانى بعينها فى غير موضع من كلامه كما قدمنا ، ولذا نحن نرجح أنه صاحب هذه القصيدة لا أوس بن حجر وإن كانت فى ديوانه و بعض الرواة ينسبها له وأولها فى ديوان أوس :

« وَدِّعْ لِمَيسَ وَدَاعَ الصَّارِمِ اللاَّحِي » وفى ديوان عبيد :

هَبَّتْ تلُومُ وليْسَت ساعَةَ اللاَّحِي هَلاَّ انْتَظَرْتِ بِهذا اللّوم إصْبَاحِي

يقول منها :

يا مَنْ لِبَرْقٍ أَبِيتُ اللَّيلَ أَرْقُبُهُ من عَارِضٍ كبَياضِ الصُّبْحِ لَمَّاحِ
دَانٍ مُسِفٍّ فُوَيْقَ الأَرضِ هَيْدَبُهُ يَكَادُ يَدْفَعُه مَنْ قَامَ بالرَّاحِ(٢)
فمن بِنَجْوَتِه كَمَن بِمَحْفِله والمُسْتَكِنُّ كمن يَمْشِي بِقِرْوَاحِ(٣)
كأَنَّ رَيِّقَه لَمَّا عَلاَ شَطِباً أَقْرَابُ أَبْلَقَ يَنْفِي الْخَيْلَ رَمَّاحِ(٤)

---

(١) ألقحت الحائل : معناه حملت الأنثى من الابل بعد امتناع من الحمل ، وهو كناية عن الشدة أو تناهيها . (٢) المسفّ : الشديد الدنوّ من الأرض . الهيدب : ما تدلى من السحاب . (٣) النجوة : المكان المرتفع . المحفل : مستقرّ الماء . القرواح : الأرض المستوية . (٤) الأقراب : الأرفاغ ، وهى أصول الأفخاذ واحدها قرب بالفتح والضم وهو أيضاً الخاصرة .

قافية أخرى في وصف العاصفة والبرق والمطر والسحاب

فَالْتَجَّ أعلاهُ ثمَّ ارْتَجَّ أسْفَلُه ... وضَاقَ ذَرْعًا بحَمْلِ المَاءِ مُنْصَاحِ (١)

كأنَّما بَيْنَ أعلاهُ وأسْفَلِه ... رَيْطٌ مُنَشَّرَةٌ أو ضَوْءُ مِصْبَاحِ

كأنَّ فيه عِشَاراً جِلّةً شُرُفًا ... بيضاً لَهَامِيمَ قدهَمَّتْ بإرْشَاحِ (٢)

بُحًّا حَنَاجِرُها هُدْلاً مَشَافِرُها ... تُسِيمُ أوْلَادَهَا في قَرْقَرٍ ضَاحِ (٣)

هبَّتْ جَنُوبٌ بأُولاه ومَالَ به ... أعْجَازُ مُزْنٍ يَسُحُّ المَاءَ دَلَّاحِ

فَأصْبَحَ الرَّوْضُ وَالْقِيعَانُ مُتْرَعَةً ... من بين مُرْتَفِقٍ فيه وَمُنْطَاحِ (٤)

وله من قصيدة من الرمل يذكر فيها انتجاعهم للحَارث الأعْرَج الغَسَّانِي وقتلهم عَدِيًّا ابن أخته وأشار فى آخرها إلى ميراثه عن آبائه من المجد والمنعة ويستشهد ببعض أبياتها العروضيون على أجزاء هــذا البحر النادر وهو الرمل يقول :

يَا خَلِيلَيَّ ارْبَعَا وَاسْتَخْبِرَا الْـ ... ـمَنْزِلَ الدَّارِسَ من أهل الحِلَالِ

مِثْلَ سَحْقِ الْبُرْدِ عَفَّى بَعْدَهَا الْـ ... ـقَطْرُ مَغْنَاهُ وَتَأوِيبُ الشَّمَالِ

وبعد ذلك يقول :

انتجاعه للحارث الغساني

نحن قُدْنَا من أهَاضِيبِ المَلَا الْـ ... ـخَيْلَ فى الأرْسَانِ أمْثَالَ السَّعَالِي

شُزَّبًا يَغْشَيْنَ مِنْ مَجْهُولَةِ الْـ ... ـأرْضِ وَعْثًا مِنْ سُهُولٍ وَجِبَالِ

فَانْتَجَعْنَا الحَارِثَ الأعْرَجَ فى ... جَحْفَلٍ كاللَّيْلِ خَطَّارِ العَوَالِ

يوم غَادَرْنَا عَدِيًّا بالقَنَا الذْ ... ذُبَّلِ السُّمْرِ صَرِيعاً فى المَجَالِ

ثم يقول :

---

(١) التجّ : صوت . ارتجّ : ترجج . المنصاح : السائل المتدفق .

(٢) العشار : جمع عشراء كنفساء ، وهى ما أتى عليها عشرة أشهر من حملها . الجلة : المسانّ من الإبل . الشرف : الكبيرة ، والواحدة شارف . اللهاميم : الغزار اللبن . الإرشاح : يقال رشحت الناقة إذ اشتدّ فصيلها وقوى . (٣) تسيم : ترعى . القرقر : الأرض السهلة . الضاحى : البارز . (٤) المرتفق : المحتبس بشىء يرتفق به . المنطاح : السائل الذى لايمنعه شىء .

ولنا دارٌ وَرِثْنَا عِزَّها الـ ... أَقْدَمَ الْقُدْمُوسَ عَنْ عَمٍّ وَخَالِ
منزل دَمَّنَــــهُ آبَاؤُنَا الـ ... ـمُورِثُونَا المجدَ فى أُولَى اللَّيَالِ

وهذه داليته التى أشرنا من قبل إلى ما ضمنها من المعانى الاجتماعية بما يدل على طول تجربته ، وتراها تشبه فى قافيتها ورويّها وأكثر معانيها قصيدة أخرى لعَدِىّ بن زيد التى منها :

عَنِ الْمَرْءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِى

وفيها بعض أبيات بنصها من قصيدة عبيد ويحتمل أنهما لهما معا أو أخذ المتأخر عن المتقدم ، وذلك كالبيت الآتى :

إِذَا أَنْتَ حَمَّلْتَ الخَئُونَ أَمَانَةً ... فَإِنَّكَ قد أَسْنَدْتَهَا شَرَّ مُسْنَدِ

ومطلع قصيدة عبيد :

لمن دِمْنَة أَقْوَتْ بِحَرَّةِ ضَرْغَدِ ... تَلُوحُ كَعُنْوَانِ الْـكِتَابِ المُجَدَّدِ

وهو كمطلع قصيدة طرفة وإن اختلفا فى تشبيه الدمنة هـذا يجعلها كعنوان الكتاب ، والآخر يجعلها كباقى الوشم فى ظاهر اليد ، وهو يقول بعد تشبيهها :

نصائحه الاجتماعية

إِذَا كُنْتَ لم تَعْبَأْ بِرَأْيٍ وَلمْ تُطِـعْ ... نَصِيحًا وَلاَ تُصْغِى إلى قَوْلِ مُرْشِدِ
وَلاَ تَتَّقِى ذَمَّ الْعَشِــيرَةِ كُلِّهَا ... وَتَدْفَعُ عَنْهَا بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ
وَتَصْفَحُ عَنْ ذِى جَهْلِهَا وَتَحُوطُهَا ... وَتَقْمَعُ عنها نَخْوَةَ الْمُتَهَدِّدِ
وَتَنْزِلُ مِنْهَا بِالْمَكَانِ الَّذِى بِهِ ... يُرَى الْفَضْلُ فى الدُّنْيَا على الْمُتَحَمِّدِ
فَلَسْتَ وَإِنْ عَلَّلْتَ نَفْسَكَ بِالْمُنَى ... بِذِى سُؤْدَدٍ بَادٍ ولا كَرب سَيِّدِ
لَعَمْرُكَ مَا يَخْشَى الخَلِيطُ تَفَحُّشِى ... عليه ولا أَنْأَى على الْمُتَوَدِّدِ
ولا أَبْتَغِى وُدَّ امْرِئٍ قبلَ خُبْرِه ... وما أَنَا عن وَصْلِ الصَّدِيقِ بِأَصْيَدِ
وإنى لَأُطْفِى الحَرْبَ بعدَ شُبُوبِهَا ... وقد أُوقِدَتْ لِلْغَىِّ فى كُلِّ مَوْقِدِ

وإنّى لَذُو رَأْيٍ يُعَاشُ بِفَضْلِه　　وما أَنا من عِلْمِ الأُمُور بِمُبْتَدِى
إذا أَنْتَ حَمَّلْتَ الخَئُونَ أَمَانَةً　　فإنَّك قَدْ أَسْنَدْتَهَا شَرَّ مُسْنَدِ
ولِلْمَرْءِ أَيَّامٌ تُعَدُّ وقد رَعَتْ　　حِبَالُ المَنَايَا لِلْفَتَى كُلَّ مَرْصَدِ
فمن لم يَمُتْ فى اليوم لاَ بُدَّ أَنَّهُ　　سَيَعْلَقُه حَبْلُ المَنِيَّةِ فى غَدِ

وله غير هــــذا قصائد ومقطوعات من بيت ومن بيتين ، ومما لا يبلغ أن يكون قصيدة اقتطعها المترجم من كتب الشواهد وغيرها ، ونحسب أن فى هذه الأمثلة التى ذكرناها من شعره كفاية، ويحسن قبل أن نختم هذه الترجمة أن نشير إلى بعض معانيـه وأبياته المتنازعة ، والتى يظن أن غـيره أخذها منه وإن كنا نسلم بامكان اتفاق الخواطر فى توارد الشاعرين على المعنى أو البيت الواحد حتى بأكثر ألفاظه فمن ذلك قول عبيد :

ترى المَرْءَ يَصْبُو لِلحَيَاةِ وطُولِهَا　　وفى طُولِ عَيْشِ المرْءِ أَبْرَحُ تَعْذِيبِ

وهو معنى قول النَّمِر بن تَوْلَب :

يَوَدُّ الفَتَى طُولَ السَّلاَمَةِ جَاهِدًا　　فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلاَمَةِ يَفْعَلُ

وقول الآخر :

أَرَى بَصَرِى قد رَابَنِى بعْدَ صِحَّةٍ　　وحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وتَسْلَمَا

وقوله :

إذا تَخَمَّطَ جبَّارٌ ثَنَوْه إلَى　　ما يَشْتَهُونَ ولا يُثْنَوْنَ إن خَمَطُوا

وقوله :

المعانى المخترعة والمشتركة فى شعره

نَأْبَى على النَّاس المَقَادَةَ كُلِّهم　　حتَّى نَقُودَهُمُ بغَيْرِ زِمَامِ

فى معناه قول السَّمَوْءَلِ :

ونُنْكِرُ إنْ شِئْنَا على النَّاس قَوْلَهُمْ　　ولا يُنْكِرُون القَوْلَ حينَ نَقُولُ

وقول الفَرَزْدَق :

تَرَى النَّاسَ ماسِرْنا يَسيرُونَ خَلْفَنا و إنْ نحنُ أوْمَأْنا إلى النَّاسِ وَقَفُوا

و إن كان بيت السموءل أروع الثلاثة وأجلها ، و بيت عبيد أشدها وأقواها ، ومن ذلك قوله :

والنَّاسُ يَلْحَوْنَ الأَميرَ إذا غَوَى خَطْبَ الصَّوابِ ولا يُلاَمُ المُرْشِدُ

هو ما أخذه القَطَامِيُّ حين يقول :

والنَّاسُ من يَلْقَ خيراً قائِلُونَ له ما يَشْتَهِي ولِأُمِّ المُخْطِيء الهَبَلُ

ويقول فى وصف المرأة بالحرّ فى الشتاء ، و بترطب الجسد فى الصيف ، واعتبار ذلك من محاسنها :

تُدْفِي الضَّجيعَ إذا يَشْتُو وتُخْصِرُه فى الصَّيْفِ حين يَطِيبُ البردُ للصَّاحِي

أخذه الأَعْشَى إذ يقول :

وتَبْرُدُ بَرْدَ رِداءِ العَرُو سِ رَقْرَقْتَ بِالصَّيْفِ فيه العَبِيرَا

وتَسْخَنُ ليلةً لا يَسْتَطِيعُ نُبَاحًا بها الكلْبُ إلاَّ هَرِيرَا

وأتى به فى بيتين ولم يزد على ما صنع عبيد . وله :

زعم البَوارِحُ أنَّ رِحْلَتَنا غَدًا وبذاكَ خَبَّرَنَا الغُدَافُ الأَسْوَدُ

وهو أيضا للنابغة فى قصيدة المتجردة ، وإن كان شطره الأخير يختلف فى بعض الألفاظ وفى حركة الروىّ كما هو معلوم وله من داليته الأخرى :

وَتَبْسِمُ عن عَذْبِ اللِّثَاتِ كأنَّهُ أقَاحِي الرُّبَى أَضْحَى وظَاهِرُهُ نَدِى

وهو قول طرفة : (وتبسم عن ألمى كان منورا) البيت ، و يقول :

إننا إنَّما خُلِقْنَا رُءوساً مَنْ يُسَوِّى الرُّءوس بالأَذْنَابِ ؟

لا نَقِي بالأَحْساب مَالاً وَلَكِنْ نَجْعَلُ المَالَ جُنَّةَ الأَحْسَابِ

والبيت الأول فى معنى قول الحُطَيْئَة :

قومٌ هُمُ الأَنْفُ وَالأَذْنَابُ غَيْرُهُمُ ومن يُسَوِّى بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا

ويظهر أن الذى أعان الحطيئة على بيته هو لقب جَعْفَر أنف الناقة لا بيت عَبيد هذا .

وله يصف طول العنق ويكنى عن ذلك بانكسار القُرْط قبل أن يلاقى لَبَّة صاحبته إذا زل عن مكانه ، وهو من المبالغة المفرطة :

نَاطوا الرِّعَاثَ بِهَوِىّ لو يَزِلُّ به   لا نْدَقَّ دُونَ تَلَاقِى اللَّبَّةِ القُرُط

ويشبهه قول النابغة ، ويغلب أنه مأخوذ منه :

إذا ارْتَعَثَتْ خافَ الجَبَانُ رِعَاثَها   ومن يَتَعَلَّقْ حيثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ

ومما يتمثل به من أبياته قوله :

لا أعْرِفَنَّكَ بعدَ الموتِ تَنْدُبُنى   وفِى حَيَاتِى ما زَوَّدْتَنى زَادِ

وقوله أيضاً :

الخَيْرُ يَبقى وإنْ طَالَ الزَّمانُ به   والشَّرُّ أخْبَثُ ما أَوْعَيْتَ من زَادِ

وقوله :

لا يَعظِ النَّاسُ مَنْ لم يَعِظِ الدَّ   هــرُ ولا يَنْفَعُ التَّلْبِيبُ

وقوله منها :

أَفْلِحْ بمـا شِئْتَ قد يُفْلَح   بالضَّــعف وقَد يُخْدَعُ الْأَرِيبُ

وقوله أيضاً :

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ   وَسَائِلُ اللهِ لاَ يَخِيبُ

ومن لطيف تشبيهاته قوله فى صفة السحاب حين يُسِفُّ هيدبه فويق الأرض حتى ليكاد من قام يدفعه بيده قالوا وهو أحسن ما قيل فى معناه :

دَانٍ مُسِفٍّ فُوَيْقَ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ   يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ

وقوله فى التطير لقوم من جَدِيلَةِ طَى كانت بينهم وقعة حين خرجوا لحربهم وقد وصف فى بيته هذا غرابا ساقطا على بقية شـــجرة بالية ، والرياح

تأخذه من جوانبه حتى جعله متنكبا لإبطها ، وهى استعارة حسنة حيث يقول :

وَأَبُو الْفِرَاخِ عَلَى خَشَاشِ هَشِيمَةٍ مُتَنَكِّبًا إِبْطَ الشَّمَائِلِ يَنْعَبُ

ومنها يقول فى وصف أعالى بيضات الجيش يشبهها بنار تتاهب على مكان مرتفع :

شُمٌّ كَأَنَّ سنا الْقَوَانِسِ فَوْقَهُمْ نَارٌ عَلَى شَرَفِ الْيَفَاعِ تَلَهَّبُ

و يشبه راية الجيش وهى العقاب حين ترتفع على سنان الرمح و يحركها الهواء بطائر يتقلب فى الجو حين يقول :

بِمُعَضِّلٍ لَجِبٍ كَأَنَّ عُقَابَهُ فى رَأْسِ خِرْصٍ طَائِرٌ يَتَقَلَّبُ

وقوله فى وصف عظام المرأة باللين :

خَوْدٌ مُبَتَّلَةَ الْعِظَامِ كَأَنَّهَا بَرْدِيَّةٌ نَبَتَتْ خِلَالَ غُرُوسِ

وهو فى هذا المعنى أصل لقول كُثَيِّر :

أَلاَ إِنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْزُرَانَةٍ إِذَا غَمَزُوهَا بِالْأَكُفِّ تَلِينُ

على ما فيه من الهجنة لذكر العصا ، ويقول بشار :

وَدَعْجَاءَ الْمَحَاجِرِ من مَعَدٍّ كَأَنَّ حَدِيثَهَا قِطَعُ الْجُمَانِ
إِذَا قَامَتْ لِمِشْيَتِهَا تَثَنَّتْ كَأَنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْزُرَانِ

ذلك وهو عَبِيدُ بْن الأَبْرَص بنِ جُشَمَ بنِ عَامِرٍ من سَعْدِ بْنِ ثَعْلَبة من بنى أسد أحد بطون مُضَرَ بن نِزَار .

٨ — أوس بن حجر

نشـــأته وتاريخه

لم يرد لهذا الشاعر على شهرته ذكر فى طبقات ابن سَلَّام ، ولعله فيما سقط من النسخ المطبوعة فى صدر الكتاب ، وقد أغفله ابنُ النَّدِيم صاحب الفِهْرِسْت ، وليس لشـــعره أثر فى أكثر المختارات المشهورة : كالمُفَضَّلِيّات وجَمْهَرَةِ أشعار العرب ، ولا فى مُختَارَاتِ الأَصْمَعِى ، وهِبَةِ اللهِ بنِ الشَّجَرِى ، وأشعار الحماسة ، ولا يزيد ما ذكر له فى حماسة البُحْتُرِى على خمسة أبيات . وفى مُنْتَهَى الطَّلب لابن مَيْمُون وهو مُحَمَّد بنُ المُبارك فى أواخر القرن السادس الهجرى ثمان قصائد مما اختاره المؤلف فى هذه المجموعة التى تحتوى على ألف قصيدة لشعراء الجاهلية إلى أكثر الطبقة الإســلامية وشرح ديوانه للامام ابن السِّكِّيت لا يوجد بأكمله الآن . وقد عُنِى العالم المستشرق « رودلف جير » بجمع أخباره وتتبع شعره وتناول بحثه أكثر من خمسين مصدراً عربيا من كتب اللغة والتاريخ والأدب والشواهد بينها لسان العرب وكتاب الأغانى والشعر والشعراء لابن قتيبة ومنتهى الطلب عدا مراجع أخرى أجنبية وطبع ديوانه أو ما بقى من شعره كما يقول المترجم فى مدينة فينا النمسية سنة ١٨٩٢ وأهدى منه نسخة واحدة إلى دار الكتب الملكية وهى أهم مصدر جامع لأشـعار أوس وأكثر أخباره ، ونعتقد أننا حين نضيف ما نستخلصه من هذه الترجمة إلى ما عندنا من الكتب العربية وما نتفقده من أوصافه فى شعره سنصل إلى تقريب الصورة الصحيحة لنشأته وحياته بقدر المستطاع .

تنقـله فى أحياء العرب واتصـاله بأحد ملوك الحيرة

ويؤخذ من جملة ذلك أنه كان يعيش فى حياة مضطربة متنقلة بين أحياء الجزيرة من البحرين إلى اليمامة ثم إلى الحجاز ونجد وأنه استقر طويلا بالعراق فى حاشـية الأمراء اللخميين ، واتصل بعمرو بن هند الذى ملك فى الحيرة بعد مقْتَل أبيه المنذر سنة ٥٥٤ كما سبق فى ترجمة عبيد . ويومئذ كان يحرضه على

الانتقام لأبيه ويغريه بشنّ الغارات على بعض القبائل المعادية له ، وينبغى أن يكون فى ذلك الوقت رجلا يصلح للرأى ، ويصح أن يصير فى بطانة الملوك .

ويرجح مترجم ديوانه اعتماداً على هذه الصلة أن تكون ولادته فى الغالب سنة ٥٣٠ م ، وقد نقل عن كتاب روضة الأدب لِلْأَبْقَرْيُوسِى ، وعن غيره من المؤلفين أنه مات سنة ٦٢٠ م بعد أن بلغ تسعين سنة وأدرك أوائل الإسلام .

اشتراكه مع قومه وغيرهم فى الحروب

ويظهر أنه اشترك مع اللخميين فى حروبهم مع ملوك الشام وغيرهم من قبائل العرب ، وحارب أيضاً مع قومه يوم القاع وغيره بينهم وبين بكر وتغلب وبقية أعراب نجد والحجاز ، وإن لم يكن له فى هذه الأيام بلاء يذكر على كثرة ذكره لاتخاذ السلاح ، وشهرته بوصف آلات الحرب ، وستعرفون أنه كان يؤسر ، وكان يفرّ ، وحاول أن يحتجّ لصحة رأيه فى الفرار ، وهــذا يوضح ما عرف من مذاهب العرب المحمودة فى الحرب من مدحهم للتفضل عند اللقاء ، وترك التحصن بالدروع ، ويرون فى كثرة الاحتفال والتأهب دليلا على الوهن كما قدمنا فى نقد كلمة الأعشى : (رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً أَجْمَالَهَا) .

ديانة أوس فى نظـــر المترجم

ويضطرب رأى المترجم فى ديانة أوس ، فيزعم أن اتصاله بنصارى الحيرة التى دخل ملوكها فى المسيحية أوائل القرن السادس المسيحى كان له أثره فى خواطره الأدبية تلمحه فى كلامه حين يشرح شيئاً من أدب الاجتماع أو يذكر الفضيلة ، ويقسم بالآلهة ويقول : إن الله منهن أكبر وهى أفكار تحمل فيما يقول طوابع المسيحية . وإن كان لا يدعى أنه اعتنقها كما يقول صاحب شــعراء النصرانية . ويعود فيظن أن يكون ذلك ناشئاً من عادة الشـــعراء فى تقليد المذاهب الأدبية المألوفة ، وإن لم يكن لذلك أحيانا صلة بشـــعور الشاعر . ويختلط عليه الأمر حين يرى فى أدب أوس ما يناقض الروح المشهور من تسامح المسيحية فى حبه للانتقام وافتخاره بالأخذ بالثأر وفرحه بالحياة الطليقة ومضيه فى الهجاء للأعداء وامتداحه للوفاء والإباء وذكره للكرم وغيره من

المناقب التى يتمادح بها دائمـا شعراء العصر القديم . قال وأولئك الذين ثبت بالفعل اتباعهم للنصرانيـة لا يتحرفون أيضاً عن المباهاة بتلك المفاخر القديمـة ، و إذاً لاينبغى اتخاذ هــذه الحالة وحدها دليلا على شىء من وثنية الشاعر أو مسيحيته ما لم يقم على ذلك دليل آخر من نقل صحيح أو تاريخ ثابت ولا ندرى ما يحمل كثيراً من المؤرخين على مثل هذه الحيرة وكان خيرا لهم أن يعترفوا ببقاء بعض الوراثات الدينية القديمة لأنبياء العرب قبل الاسلام كما نبهنا إلى ذلك فى غير هذا المكان .

اتهام المترجم لحديث الرواة عن الصلة بين أوس وبين ممدوحه فضالة

ويتهم المترجم حديث الرواة عن اتصال أوس بأحد أمراء العرب فَضَالَة ابن كَلَدَةَ الأسدى وإن كان يسلم بصدق هذه الصلة ، ويحتمل أن تكون هذه الريبة نشأت عنده من صورة الرسالة التى حملتها حَلِيمَةُ بنت فَضَالَةَ إلى أبيها حين رأته صريعاً وناقته تجول حوله كما يتبين من القصة الآتية .

قال شارح ديوانه الإمام يَعْقُوبُ بن السِّكِّيت : كان من خبر أوس بن حجر أنه خرج فى سفر ، فلما كان بين شَرْجٍ ونَاظِرَةَ من ديار بنى أَسَد جالت به ناقته وهو فى ظلام فصرعته فاندقت فخذاه و بات فى مكانه لايقدر على شىء من أمره وغدا جوارى الحى يَجْنِينَ الكَمْأَةَ وغيرها من نبات الأرض والناس فى ربيع فبَصُرْنَ به فخِفْنَهُ وفَرَرْنَ منه ، وأقبلت حليمة بنت فَضَالة وهى أصغرُهُنَّ سنا فسألها عن نسبها ، فانتسبت له ، فتناول حجراً من الأرض وقال لها : اذهبى فقولى لأبيك ابن هذا يُقْرِئك السلام ، فانطلقت إلى أبيها فأخبرته فقال لها : يا بنية لقد جئت أباك بمدح طويل أو بهجاء طويل ثم ارتحل بأهله حتى أتاه فضرب عليه قبته ولم يزل يقوم بأمره حتى استقل فكان ذلك سبب ما سنشرحه فى شعر أوس من المديح والرثاء اللذين هما من خير ما يؤثر من أدبه . والقصة على هــذه الصورة ليست موضعاً للتهمة لأنها لا تحمل أمرا غريباً يمتنع فى

العقل أو فى العادة حتى يضعها المترجم إلى جانب ما يسمونه من أخبار العرب بالأساطير[١] .

شعره

ستروں شعره قوى الديباجة فصيح اللفظ فى روعة وغرابة حين ينزع بالقول إلى مذهبه فى الوصف فيتناول السلاح ، ويذكر الرمح والسيف والدرع ويمعن فى صفة القوس فيبدأ بها نبتة لينة وحين تصير عوداً لَدْناً ويريك حرصه عليها ومايَتَجَشَّمُه فى طلبها ، وحين يَبْضَعُها من فرعها ، ويحاول إعدادها ، ويمدح غَنَاءَهَا ورنينها حين يَزِلُّ السهم عنها ، وكذلك يفعل حين يتخلص من الناقة إلى صفة العَيْر الوحشى ويمضى مع هذين إلى ما لا مطمع بعده لقائل حتى جعلوه من أَوْصف الناس للسلاح وللحمر والقِسِىّ بوجه خاص ، وستقف حين تتأمل كلامه فى هذا المذهب على مقدار ما يتكافه من المئونة فى تأليف هذه الصورة البارعة .

معانيه الشعرية ومذهبه الخاص به

وتراه يمدح فيأتى فى مثل هذه الديباجة بما ينبغى أن يتخلق به الأمير العربى من السَّماح والنَّجْدة والبلوغ بالظن إلى منزلة اليقين من كمال الفطنة وثقوب النظر وهو من خير ما يكون إذْ يَرْثِى فَضَالَة بن كَلَدة صاحبه ومُؤْوِيه لا يدع شيئاً من مناقب الشرف إلا عدّه له وآثره به ، ويعتبر مطلع إحدى مراثيه له ، وهو قوله : (أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِى جَزَعَا) مما لم يُسْبَق إلى مثله ولم يُلْحَق فيه لتناهيه فى الدلالة على عظم المصيبة ، واستشعار اليأس بالدعوة إلى إجمال الجزع

---

(١) وفى هذه الحادثة يقول أوس :

خُذِلْتُ على لَيْلةٍ ساهِرَهْ   بِصَحْراء شَرْجٍ إلى نَاظِرَهْ
تُزَادُ لَيَالِىَّ فى طُولِها   فليسَتْ بِطَلْقٍ ولا ساكِرَه
كأنَّ أَطَاوِل شَوْكِ السَّيالِ   تُشَكُّ بِها مَضْجَعِى شَاجِرَه
أَنُوءُ بِرِجْلٍ بها دَهْيُهَا   وأَعْيَتْ بها أُخْتُها الغَابِرَه

وقلة المبالاة بما يواقعه بعد ذلك من المكروه وهو تعبير مخترع وإن كان معناه طبيعيا يقع فى النفس حين تُفْدَح بما لا قِبَلَ لها به وتفجع فيما لا خَلَف منه .

وفى شعره هجاء مصرح فى بعض المواضع عن العورة على غير المألوف فى الشعر القديم من العفاف عن ذكر السوءات ، وقد يفقد بذلك شيئاً من جودة الكلام وجمال الشعر .

وفيه غزل لا يزيد عن ذكر المرأة فى مطالع الكلام يجعلنا لا نميل كثيراً إلى التسليم بما يصنعه له الرواة من شدة كَلَفِه بالنساء والتَّطلُّب لإيقاعهن بالتَّمليق والإغراء ، ويقول مترجم ديوانه إن ذلك قد يكون من أثر الاتباع للقدماء ويخطئ (برون) المؤلف الفرنسى فى كتابه : (نساء العرب) إذ يقول : إنه لم يكن لشعره غرض مطلقاً سوى الحبّ والمرأة ، واللهو بالحديث والشكوى إليها والاحتيال لتصيدها . قال : ونظرة واحدة إلى أشعاره ترينا ما فى العالِم من ضعف التحقيق ، ويشتمل شعره عدا ما ذكرنا على شيء من مكارم الأخلاق يصف بها نفسه أو يعرضها فى صورة النصيحة لقومه ويضع نفسه من قِبَل أنه شاعر يملك عِرْفاناً غيرَ طبيعى موْضِعَ المُقَرِّر لكمال الأدب اللائق بالإنسان فى الحياة .

نسبه — يختلف الرواة فى نسبه ويضطربون فى أخباره وتصحيح شعره ، فابن قتيبة يقول : إنه أوس بن حجر بفتحتين ابن عتَّاب ، وغيره يقول : عباب بالباء ، وينقل السيوطى أنه ابن معبد ، وينتهى نسبه على كلّ حال إلى تميم إحدى القبائل العظيمة من مضر ، ويقول أبو عَمْرو بنُ العَلاَء : كان أَوْسٌ شاعر مضر فى الجاهلية حتى أسقطه النَّابِغَةُ وزُهَيْر فهو شاعر تميم غيرَ مُدَافَع ، وفى الأغانى عن أبى عُبَيْدَةَ : أنه من شعراء الطبقة الثالثة وقرن به الحُطَيْئَة والنَّابِغَة الجَعْدِى ، وفى رواية أخرى عن ابن الكلبى عدّ معه لَبِيدًا والشَّمَّاخَ بن ضِرَار ، والذى يشبه الصواب أنه كعَدِىّ بن زَيْد وعَبِيد بنِ الأَبْرَص يعتبر من شعراء

رأى العلماء فى منزلته الأدبية

القبائل الفحول ، وكلهم يصفونه بأنه كان أستاذاً لكثير من الشعراء كالحطيئة والشماخ والأسْوَد بن يَعْفُر وزهير وولده كَعْب ، وقد تبع الشماخُ طريقته فى صفة القسى ، واختص زهير بالرواية له والأخذ بمذهبه وإن كان قد فاقه وأَخْمَله كما سبق، وتلك إشارة صريحة لتقرير المشاهدة المتكررة تمثلها فيما تراه أحيانا من فضيلة الولد على أبيه وفَوْقِ التلميذ على أستاذه .

اضطراب الرواة فى إسناد شعره واشتراكه مع اربعة عشر شاعر فيما نسب إليه

ويظهر أيضاً أن تحصيل شعره فى الزمن السابق لم يكن ميسوراً لكثير من الحفَّاظِ ، وإن صحّ أنه جمع فى عصر متقدم ، ولذلك اضطربوا فيما نسب إليه اضطرابا تعرفه من اشتراكه مع نحو أربعة عشر شاعراً فيما نسب إليهم من الشعر فمن ذلك بيته فى قصيدته التى مطلعها : (هلْ عاجِلٌ من مَتاعِ الحَيِّ مَنْظُور) وهو قوله :

أم هَلْ كَبيرٌ بَكى لم يَقْضِ عَبْرَتَه   إثْرَ الأَحِبَّة يومَ البَيْن مَعذُورُ

موجود بعينه فى قصيدة عَلقَمَةَ : (هل مَا عَلِمْتَ وما اسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ) ولا يختلفان إلا فى القافية كما هو ظاهر ، والحائية المروية لعَبيدِ بن الأبرَصِ فى السحاب والعاصفة والمطر تنسب أيضاً إلى أوس كما سيأتى ، ويشترك مع طَرَفَة فى قصيدة :

أَبَنِي لُبَيْنَى لَسْتُمُ بِيَدٍ   إلاَّ يَدٌ لَيْسَتْ لها عَضُدُ

وفى ديوانه أبيات تنسب للنابغة ، وهى التى منها قوله :

ولستُ بخَابِئٍ أبداً طَعَامًا   حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طعَامُ

وفى رائيته التى قدمنا مطلعها بيت منسوب لعنترة ، وهو قوله :

تَناهَقُون إذا اخْضَرَّتْ نِعالُكُمُ   وفى الحَفِيظَةِ أَبْرَامٌ مَضاجِيرُ(١)

---

(١) يريد بقوله : اخضرّت نعالكم ما يصيرون فيه من الخصب والدعة . الأبرام : جمع برم وهو اللئيم . مضاجير : الواحد مضجار ، وهو الشديد الضجر لضعفه وجبنه .

وقصيدة بتمامها تنسب إليه وهى لكعب بن زهير ، أولها قوله :

رَحَلْتُ إلى قومى لِأَدْعُوَ جُلَّهُم إلى أمرِ حَزْمٍ أَحْكَمَتْهُ الجَوامِعُ

ولزهير :

إذا أنتَ لَمْ تُعْرِضْ عن الجهلِ والخَنَا أصَبْتَ حَلِيماً أو أَصَابَكَ جَاهِلُ

وصاحب تاج العروس ينسب قوله : (أَيَّتُهَا النَّفسُ أَجْمِلِي جَزَعَا) إلى بِشْر ابن أبى خَازِم وليس بصحيح ، ولأَبى الأَسْوَدِ الدُّؤَلى :

شَنِئْتَ من الإِخْوَانِ مَنْ لَسْتُ زَائِلاً أُدَامِلُه دَمْلَ السِّقَاءِ الْمُرَزَّقِ(١)

ولامرئ القيس :

تَضَمَّنَهَا وَهْمٌ رَكُوبٌ كأَنَّه إذا ضَمَّ جَنْبَيْهِ المَخَارِمُ رَزْدَقُ(٢)

ولِلنَّمِرِ بن تَوْلَب :

ولو أَنَّ مِن حَتْفِهِ نَاجِياً لَكَانَ هو الصَّدَعَ الْأَعْصَمَا(٣)

بِإِسْبِيلَ أَلْقَتْ بِهِ أُمُّه إلى رَأْسِ ذِى حُبُكٍ أَيْهَمَا(٤)

ولِلطِّرِمَّاح قوله :

تَخُورُ بالأَيْدِى إذا اسْتَعْجَلَتْ عَدْوًا على خِفَّةِ أَجْسَامِهَا(٥)

خُوَارَ غِزْلانٍ لِوَى هَيْثَمٍ تَذَكَّرَتْ فِيقَةَ أَرْآمِهَا(٦)

---

(١) الشنأ بفتحين : البغض والكراهة . الدمل : المداواة .

(٢) يصف ناقة اشتمل عليها طريق واضح وهو الوهم ، وقوله ركوب : معناه مذلل مطروق . المخارم : واحدها مخرم ، وهو منقطع أنف الجبل . الرزدق : الصف من الناس والسطر من النخيل وهو معرّب ، يشير إلى أن هذا الطريق بين الجبال كأنه سطر ممدود .

(٣) الصدع : الوعل . الأعصم : الذى فى يديه بياض .

(٤) أسبيل : غير مصروف أرض أو موضع . الحبك : الطرائق ، الواحد حباك بوزن كتاب . الأيهم : المبهم . (٥) تخور : تصوت أو تسرع .

(٦) الفيقة : بقية اللبن فى الضرع ، والبيتان فى صفة القوس .

وبذلك يتبين صواب ما أوردناه فى صدر هذه الترجمة من ذهاب كثير من أخباره عن الرواة .

وقبل أن نأخذ فى نقد شعره وشرح ما وصفناه من مذاهبه المختلفة نشير فى اختصار إلى بعض الآراء الحديثة فى أدبه وعلاقته بشعراء عصره .

رأى بعض علماء العصر فى أدب أوس وتعرضه لتخطئة القدماء

يقول بعض الباحثين : إن أوساً امتاز عن شعراء الجاهلية بقوة اتصال خياله بحسه حتى لكأنه كان يتخيل بسمعه وبصره ويده ، وأنه اخترع أو على الأقل أكثر من هذه التشبيهات المادية أو الصور المحسوسة من مناظر البادية فى شعره ويبنى على هذه الدعوى أنه استطاع أن يستخرج مدرسة بيانية من الأدب الجاهلى فى شعر أوس بناء على إكثاره من هذه التشبيهات الحسية ، ويعد ذلك تجديداً أدبيا هادماً لرأى القدماء فى أن هذه المدرسة البيانية أسسها الشعراء العباسيون من مُسْلِم بن الوَلِيد وتلاميذه إلى أَبِى الطَّيِّب المُتَنَبِّى ، وقد كنا نرغب أن يَعِفَّ هذا البحث عن الإلحاح فى هدم القديم بمثل هذه المغالطات التى لا يَحْلَى منها الأدب بِطَائِلٍ ، لأنكم سترون فيما تعرضه من شعر أوس أنه لم يكثر من هذه التشبيهات المادية إلا فى وصفه للعير والقَانِص من فائية له طويلة وحين يصف السلاح والقوس فى لاميته المشهورة ، وما وراء ذلك من رثائه أو مديحه وأهاجيه قلما تَظْفَرَ منه إلا بالشىء القليل من هذه التشبيهات المذكورة ، وتراك حين تتفقد الأدب القديم كله وحين تقرأ منه أبواب الوصف خاصة لا تجد لغير أوس من الشعراء سوى هذه الطبيعة المادية يصفونها ويصوّرون مناظرها بل وفى غير الأوصاف أيضاً لا يكاد بيت واحد من شعر هذا العصر يتجرد من صورة حسية من طريق الحقيقة ومن طريق المجاز والتشبيه وأينما دارت بهم أساليب الكلام، والنقاد من العرب ومن غيرهم متفقون على أن أظهر ميزة للأدب الجاهلى هى هذه النقوش المادية التى لا تزال تطبعه بما فيه من البهاء والرونق ، وفى وصف طرفة لناقته وحدها من معلقته تشبيهات حسية ظاهرة الأداة تقارب

أكثر ما لأوس فى قصيدتيه المذكورتين ، فمن التحكم الظاهر إيثار شاعر بهذه الميزة على غيره من الشعراء فى أمر سواء بينهم . أما ما ترتب على هذه المغالطة من دعوى التغيير أو الهدم لرأى القدماء فهو أيضاً كلام قليل الحظ من التوفيق ، إذ المدرسة البيانية بمعنى ما تحمله هذه الصفة من الدلالة على أساليب التشبيه والمجاز لم يقل أحد من القدماء إنها من عمل الشعراء العباسيين ولا أن مؤسسها مسلم بن الوليد وتلاميذه ، وكلّ ما عند القدماء أن الشعر تأثر فى العصر العباسى بمعان حضرية جديدة تطرّف الشعراء بالإكثار من وصفها وعرضها فى صور شتى من الاستعارة والتشبيه كوصف الأبنية ومجالس الشراب ، وذكر السقاة والندمان وأوصاف القيان ، وآلات الغناء وسائر ما تجدد لديهم من آثار الحضارات العلمية والصناعات المختلفة ، وأنهم وَلِعُوا بتوليد أنواع كثيرة من المحسنات الكلامية التى سماها العلماء بعد بفن البديع ، وهم فى النهاية يضيفون إلى مسلم وأتباعه تكوين هذه المدرسة البديعية لا البيانية كما يزعم هذا الرأى مع تسليمهم بأن شيئاً من هذه الأنواع وجد أيضاً فى العصور السابقة فى القرآن والشعر وحتى فى الأدب الجاهلى، وإن كان المقصود من المدرسة البيانية فى هذا المذهب ما يصح أن يتناول فنون البلاغة أو يتناول البيان والبديع على الأقل فليس فيما اتخذه الباحث من كلام أوس ما يساعد على تحقيق هذا الاستنباط الجديد لأن التشبيهات المادية وغير المادية كثرت أو قلت لا تخرج عن أن تكون مبحثاً لهذا الفن البيانى بمعناه الاصطلاحى عند العلماء وإذاً لا وجه لهذه المحاولة الأخرى على ما يظهر سوى مجرد الرغبة فى الحملة على القديم .

ظهور التحامل فى الموازنة بين امرئ القيس وأوس

ويتصل بهذا الرأى بحث آخر فى الموازنة بين شعر امرئ القيس فى البرق والسحاب والغيث ، وبين الحائية المشتركة بين أوس وعبيد بن الأبرص ، وقد قدمنا أنها أشبه بعبيد ، وأن لها أمثالا فى شعره ومن مذهبه الخاص به ، وليس لها نظير فى شعر أوس ولا هى مما يتصل بمذهبه الذى برع فيه ، وهو عندهم

صاحب سلاح وحروب جعلت فى هذا البحث دليلا جديداً على إكثار أوس من التصوير الحسى فى شعره ، واقتصر فى هذه الموازنة على خمسة أبيات فقط من شعر امرئ القيس تعمد أو أغفل ما وراءها من الصور الحسية الكاملة التمثيل وقابلها من الحائية بعشرة أبيات ، ونحن نعرض القطعتين ونحصى ما فيهما من التشبيهات ونزن ما اشتملتا عليه من المعانى .

يقول امرؤ القيس من المعلقة :

أَصَاحِ تَرَى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ كَلَمْعِ اليَدَيْنِ فى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضِيءُ سناه أو مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أمالَ السَّلِيطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ
قَعَدْتُ وَأَصْحَابِى له بين ضَارِجٍ وبين العُذَيْبِ بَعْدَ مَا مُتَأَمَّلِ
فأضحى يَسُحُّ الماءَ حَولَ كُتَيْفَةٍ يَكُبُّ على الأذقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ
وتَيْماءَ لم يَتْرُكْ بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ولا أُطُماً إلاَّ مَشِيداً بِجَنْدَلِ
على قَطَنٍ بالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ وأَيْسَرُه على السِّتارِ فَيَذْبُلِ
فأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الغَبِيطِ بَعَاعَه نُزُولَ اليَمَانِى ذى العِيَابِ المُحَمَّلِ
كأَنَّ ذُرَى رَأْسِ المُجَيْمِرِ حَوْلَه من السَّيلِ والغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ
كأن ثَبِيرًا فى عَرَانِينِ وَبْلِهِ كَبِيرُ أُنَاسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ
كأَنَّ مَكَاكِيَّ الجِوَاءِ غُدَيَّةً صُبِحْنَ سُلَافاً من رَحِيقٍ مُفَلْفَلِ
كأنَّ السِّبَاعَ فيه غَرْقَى عَشِيَّةً بِأَرجَائِهِ القُصْوَى أَنَابِيشُ عُنْصُلِ

وقال أوس :

يَا مَنْ لِبَرقٍ أَبِيتُ اللَّيلَ أَرْقُبُهُ فى عَارِضٍ كَبِيَاضِ الصُّبحِ لَمَّاحِ
دَانٍ مُسِفٍّ فُوَيْقَ الأرضِ هَيْدَبُه يَكَاد يَدْفَعُه من قَامَ بِالرَّاحِ
كأنما بين أعْلاَه وأَسْفَلِهِ رَيْطٌ مُنَشَّرَةٌ أو ضَوْءُ مِصْبَاحِ
يَنْفِى الحَصَا عن جَدِيدِ الأرضِ مُبْتَرِكاً كأنه فَاحِصٌ أو لَاعِبٌ دَاحِ

كأن رَيِّقهُ لَمَّا عَلاَ شَطِباً أَقْرَابُ أَبْلَقَ يَنْفِي الخَيْلَ رَمَّاحِ
كَأَنَّ فِيهِ عِشَاراً جِلَّةً شُرُفًا شُعْثاً لَهَامِيمَ قد هَمَّت بِإِرْشَاحِ
بُحًّا حَنَاجِرُها هُدْلاً مَشَافِرُها تُسِيمُ أولادَها فى قَرْقَرٍ ضَاحِى
هبَّتْ جَنُوبٌ بأُولاَه ومَالَ به أَعجازُ مُزْنٍ يَسُحُّ الماء دَلاَّحِ
فأصْبَحَ الرَّوْضُ والقِيعَانُ مُتْرَعَةً من بين مُرْتَفِقٍ منها ومُنْطَاحِ

فترى أن امرأ القيس ذكر ستة من التشبيهات الحسية الظاهرة الأداة بالكاف تارة وكأنّ تارة أخرى ، وكذلك فعل أوسٌ ولم يزد ، وما وراء ذلك فى القصيدتين صور مادية أخرى سنشرحها لك ، فقد تناول امرؤ القيس البرق فوصف وميضه وهو حركته والتماعه ، وشبهه فى سرعة خطفه بحركة اليدين وهو فى خلال السحاب المكلل الذى يبدو بطيئاً ثقيل المرّ كأنه يحبو لشدة حَفْله بالماء ، ثم شبه ظهوره وضوءه بمصابيح الراهب يُميل الزَّيت على الفتيل فيندَلِعُ اللهَبُ بقوّة ثم يعود فيخبو ، وأنه قعد له فى أصحابه يتأملونه بين العذيب وضارج ، فإذا هو يتدفق بالماء حول كُتَيْفَةَ ، وأتى بهذه الاستعارة الفاخرة اللفظ البارعة الصورة فى صنيع السيل بعظام الأشجار من اقتلاعها من أصولها وطرحها على أعاليها ، وأنه لم يترك بتيماء جذع نخلة إلا قصفه ، ولا بيتاً إلا أتى بنيانه من قواعده ، إلا ما كان مشيداً بالجندل من الصخر ، ثم مدّ مسافة انسكابه ، فجعل أيمن صوبه على قَطَن وأيسره على الستار ويذبل ، وهى أماكن متنائية ، وأنزل أثقال السحاب من الماء بصحراء الغبيط فأَنِقَ نباتها ، وزهت ألوان نَوْرِها بما يشبه ما فى تلك العِيَاب اليمانية من البُرُود والمتاع وأطَافَ بذُرَى جبل المُجَيْمِرِ ، فإذا السيل يدور حولها بما احتمله من الغُثَّاء كما تدور فَلْكَة المغزل ، ثم نظر إلى مكان ثبير وجثومه على ظهر الصحراء ، والسيل يأخذه من نواحيه ، ويرسم فى جوانبه مدارج انحداره، كذلك الشيخ المُلَفَّف فى بِجَادِهِ المُخَطَّط تمثيلا لما يتراآه النظر لدى امتداده من عمل السَّيْلِ فى رءوس البيوت

تحليل قصيدة امرئ القيس

وجوانب الجبال ، وانتهى بالإشارة إلى إقلاعه وهدوء انسجامه بما وصفه من خروج الطيور لاجتلاء ذلك الصفو الخالص من الطبيعة مما تشعر به الأحياء كلها بعد المطر كأنه غَسُول لما بين السماء والأرض تتحرَّك بعده الحياة جميعاً فيطيب الهواء ، ويتفتح الزَّهْرُ ، وتَشْخَصُ الأبصار إلى معالم الوجود تَعْجَبُ لها كيف صارت ضاحكة مُخْضَلّة بعد بكاء السماء . هنالك ترى هذه الطيور وهى المكاكى تتصايح فى الفضاء وتتخالع فى الطيران ، ولا يزال طائر منها يقع على طائر ، أو يهوى كالذى يسقط على الأرض ثم يعود فى هذه النَّشْوة فيستقل على الهواء ، وتصنع السُّلاف من الرَّحيق صَنِيعَهاَ به ، فيرسل إلى نواحى الجوّ من أَغَاريده الحُلْوة ، ما يَقْرِى النُّفُوسَ متاعاً ، والآذانَ سماعاً ، ذلك الخيال المتباعد فى السموّ عن أذهان الشعراء ، وتلك الصورة التى يعيا بتَهْوِيلها الحُذَّاق من المثالين يجلوها الشاعر مثل قلادة الحسناء فى نَسَق من الكلمات الآخذة بحاجتها من العذوبة والظَّرْف ، ولم يكفه أن تكون الغداةُ وهى أول شَبَاب النَّهار كما هى فى جمال لفظها ومعناها حتى ألبسها ملاحةً جديدة بهذا التصغير الواقع فى موقعه وجاء معها بالصَّبوح والسُّلاف والرَّحيق ، وجعل قافية البيت بمنزلة الطِّراز إلى ما فى معناها من كمال لذة السلاف ، وهو شبيه بما تناوله القرآن من وصف رحيق الجنة حين يقول : (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً) ، ثم أتى فى ختام كلامه بالدليل الحسى على تطبيق السيل واستبحار المطر باستعلائه فوق آجام السباع حتى غرقت فى لجته ، وَطَفَتْ رُءوسها فى بعيد أرجائه ، وقد بدا من شعورها الثَّائرة ما هو كرءوس ذلك النبات البرى ، وهى أيضاً صورة حسية فى مكانها من الجودة وجمال الخيال ، وندع الآن هذا التمثيل الكامل لِأَبْهَرِ مناظر الطبيعة لِنَعُودَ إلى أوس ، فتراه يذكر البرق وضياؤه يملأ الأفق من خلال العارض ، ويتدارك التشبيه بقوله لَمَّاح للدلالة على خَطْفه وسرعة انقطاع ضيائه ، ثم يصف هَيْدَب السحاب المتدلى منه دانياً فُوَيْقَ

تحليل قصيدة أوس

الأرض مبالغاً فى الإسْفَاف والمقاربة حتى يكاد من قام على قدميه يدفعه بيديه ، وهى صورة بديعة نادرة على قوّة نظمها ، وجمال عبارتها ، ويصف ما ينبسط من سَنَا البرق على جوانب السحاب بألوان تلك الثياب المُنَشَّرَة أو بما يَسْطَع من ضياء المصباح ، ويتناول انسكاب الماء منه فيجعله فى إثارة الحصى عن جديد الأرض ، وشدة ثقُوبه لسطحها كالفاحص الذى يثير الأرض لبناء أفاحيص القَطَا أو كالذى يلعب بالأداحى ويذكر رَيِّقَه حين علا شَطِبًا ، فيجعله كَخَاصِرَة الحِصَان الأبلق تعدو خلفه الخيل وهو يَرْمَحُهَا برجليه تمثيلا لما يتلاحق ، وينفصل من كِسَفِ السحاب ثم يعود مكانه فيركب ما قبله ، ويجعله ثانية فى تتابع رُكَامِهِ ، وَتَعَاظُم أَجْرَامِهِ كالإبل الشُّعْثِ اللَّهَامِيم فى فِصَالها القوية ، ويمضى معها فينشرها على تلك الأرض الضاحية ، ويتخذ من حناجرها ذلك الصوت الأجش ، ومن هُدْل مشافرها تلك القطع السود المتدلية من أهداب السحاب ، ثم يرجع إلى مساقطه فيهيئ المدخل إليها بسوق الجنوب لأولاه ، وسقوط أعجازه بالماء الغزير المنهمر حتى أصبحت الرياض غَدِقَة وَالقِيعَان مُتْرَعَةً . ما احتبس فيه الماء وما سال منه سواء ، فَتَرَى بعد هذا أن الشاعرين اشتركا فى صفة البرق والمطر والسحاب ، وزاد أوس معناه فى بيته الثانى وهو أبرع صورة وأعلاها ، وكذلك تشبيه البرق بأقراب الأبلق وما جاء بعده من حناجر الإبل ومشافرها فى بيته السادس . وصنيع الجنوب بأولاه فى آخر كلامه ، فتلك أربعة معان لم يتناولها بذاتها شعر امرئ القيس ، ولكنك تراه أتى مكانها بصورة مجلسه

الموازنة بين القصيدتين

فى أصحابه يتأملون ما يَبْهَر النظر من رُوَاء الطبيعة ويرون انقلاع الدَّوْح وسُقُوطِها على أذْقَانِها وما عَمِل السيل بجذوع النخل ، وأبنية البيوت ، ويصف إلقاء السحاب بَعَاعَه بصحراء الغبيط فيما ظهر من ألوان النبات المشابهة فى حمرتها وصفرتها واخضرارها لهذه الأبْرَاد والحِبَر اليمانية ويعرض صورتين من مناظر الجبال . رأيت كيف كانتا فى موقعهما مكملتين لتمثيل هذا الأفق

من سائر جهاته ، ثم يترفع عن معانى العامة بما يصفه من جمال الطبيعة حين تكون الطيور نَشْوى بصَبُوح السُّلاف ، وتلك الصورة الأخرى منْ غرق السباع فى إرجاء السيل ، فهذه سبعة معان لم يتناولها كلام أوس ، وهى تعطيك صورة ناصعة كاملة التكوين للبرق والمطر والسحاب على الجبال والصحراء ، والشجر والنخيل والسباع والإنسان ، وقد ترون بعد هذا أن أوساً كان حقًّا دقيق التصوير ، قوىّ الانفعال فى وصف السحاب والبرق ، ولكنّ أمرأ القيس كان أدقّ منه وأبلغ فى إحاطة تصويره بهذا الأفق الطبيعى من جميع أقطاره ، فهو من قِبَل أساس الدعوى وهى الإكثار من الصور الحسية ، ومن قِبَل سبقه إلى هذه المعانى أستاذ أوس وغيره كما يقول القدماء ، ولكى تعلموا أن الاعتماد على التصوير المادى فى هذا العصر كان سبيل غير الشعراء من عامة العرب ، نذكر لكم القصة الآتية .

ذكر صاحب الأغانى عن شيوخه قال : خرج أعرابى مكفوف مع ابنة عم له فى غنم لهما وبيناهما يرعيانها :

قال الشيخ : إنى أجد رِيحَ النَّسِيم قد دنا فارْفَعِي رأسَك فانْظُرِى ، فقالت كأَنَّها « تعنى السماء » : رَبْرَبُ مِعْزَى هَزْلَى . فقال أُرْعَىْ وأُحْذَرِى ، وبعد ساعة قال : إنى أجد ريح النسيم فارفعى رأسك وانظرى ، قالت : كَأَنَّهَا بِغَالٌ دُهْمٌ تَجُرُّ جِلاَلَهَا ، فقال : أُرْعَىْ وَأُحْذَرِى . ثم قال : إنى أجد ريح النسيم فانظرى ، فقالت : كَأَنَّهَا بَطْنُ حمار أَصْحَر ، فقال لها : أُرْعَى وَأُحْذَرِى ، ثم قال : إنى أجد ريح النَّسِيم ، فانظرى فقالت : راعية تصف السماء والسحاب

دَانٍ مُسِفٍّ فُوَيْقَ الأَرْضِ هَيْدَبُهُ ... يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بالرَّاحِ

فقال الشيخ : انْجِى لا أَبا لَكِ ! فما انْقَضَى كلامُه حتى هطلت السماء ، فقد رأيتم كيف صورت راعيةُ الغنم أوائل هَوَادِي السحاب فى صِغَر قِطَعها وتواليها

وألوانها بجماعة المِعْزَى الهَزْلَى ، ثم عادت فجعلتها فى سوادها وتعاظم قطعها كالبغال الدُّهْم التى تجرّ جِلاَلها ، ثم رأته بعد حين فى اختلاط غبرته بحمرة خفية مع قليل بياض كبطن الحمار الأصحر ، ثم انتهت إلى ذكر إسْفَافِه وتدانيه كما فعل أوس ، ولعلكم بعد ذلك لا تجدون كلفة فى تقدير ما ينطوى عليه ذلك البحث فى جملته من المغالطة ، فلنتركه الآن إلى شعر أوس وشرح ما أثبتناه من مذاهبه الأدبية مبتدئين بشعره فى الوصف . يقول من قصيده فائية طويلة مطلعها :

تَنَكَّرَ بَعْدِى من أُمَيْمَةَ صَائِفُ ... فَبِرْكٌ فأَعْلَى تَوْلَبٍ فالْمَخَالِفُ(١)

وبعد ما عدد ما تنكر من معاهدها الأخرى أشار ولم يطل إلى حالة من لذات صباه مع ظعائن اللهو المساعفات المودة إذ يقول :

القصيدة الفائية

وقَدْ أَنْتَحِى لِلجَهْل يومًا وتَنْتَحِى ... ظَعَائِنُ لَهْوٍ وُدُّهُنَّ مُسَاعِفُ(٢)

نَوَاعِمُ مَا يَضْحَكْنَ إلاَّ تَبَسُّماً ... إلى اللّهو قد مالتْ بهنَّ السَّوالِفُ(٣)

ثم عاوده الحلم بعد الجهل ، وثابت نفسه إلى النظر الصادق من تصرم الحياة ولحوق الفناء للنفوس مهما تحرّست بالأبواب واعتصمت بالحصون فقال :

ولو كُنتُ فى رَيْمانَ تَحْرُسُ بابَهُ ... أَرَاجِيلُ أَحْبُوشٍ وأَغْضَفُ آلِفُ(٤)

إذًا لأَتَتْنِى حيثُ كنتُ مَنِيَّتِى ... يَخُبُّ بها حَادٍ لإِثْرِىَ قَائِفُ(٥)

فَإِنْ يَهْوَ أَقْوَامٌ رَدَاىَ فَإِنَّنِى ... يَقِينِى الْإِلٰهُ مَا وَقَى وَأُصَادِفُ

(١) صائف وبرك وتولب والمخالف : كلها أما كن لصاحبته أميمة .

(٢) الظعائن : جمع ظعينة ، وهى المرأة فى الهودج . (٣) السوالف : جمع سالفة ، وهى جانب العنق . (٤) ريمان ، فى المعجم للبكرى : هو حصن منيع له باب واحد ، وفى غيره من كتب اللغة أنه موضع . الأراجيل : الجماعة من الرجال . الأحبوش : الناس من القبائل المختلفة . الأغضف : الآلف . يريد به الكلب الملازم للباب . الغضف بفتحتين : استرخاء الأذنين . (٥) الخبب : الإسراع . القائف : المتبع للأثر .

وبعد ذلك مضى إلى الناقة فجعل يصفها على مثل طريقة طرفة . من أول قوله :

وَأَدْمَاءَ مثلِ الْفَحْلِ يومًا عَرَضْتُهَا ... لِرَحْلِي وَفِيهَا جُرْأَةٌ وَتَقَاذُفُ

حتى بلغ إلى تشبيهها بالعَيْر الوحشى وبدأ يصف هذا العير . وتناول معه القانص . وتأنّق فيها ما شاء . قال :

كَأَنِّي كَسَوْتُ الرَّحْلَ جَأْبًا مُكَدَّمًا ... له بِجُنُوبِ الشَّيِّطَيْنِ مَسَاوِفُ(١)

يُصَرِّفُ حَقْبَاءَ الْعَجِيزَةِ سَمْحَجًا ... بها نَدَبٌ من زَرِّه وَمَنَاسِفُ(٢)

وَحَلَّأَهَا حَتَّى إِذَا هِيَ أَحْنَقَتْ ... وَأَشْرَفَ فوقَ الحالبَيْنِ الشَّرَاسِفُ

فَأَضْحَى بِقَارَاتِ السِّتَارِ كَأَنه ... رَبِيئَةُ جَيْشٍ فهو ظَمْآنُ خَائِفُ

يَقُولُ له الرَّاءُونَ هَاذَاكَ رَاكِبٌ ... يُؤَبِّنُ شَخْصًا فَوْقَ عَلْيَاءَ وَاقِفُ

إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّمْسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ ... كما صَدَّ عن نَارِ الْمُهَوِّلِ حَالِفُ

تَذَكَّرَ عَيْنًا من غُمَازَةَ مَاؤُها ... له حَبَبٌ تَسْتَنُّ فِيهِ الزَّخَارِفُ

فَأَوْرَدَهَا التَّقْرِيبُ وَالشَّدُّ مَنْهَلًا ... قَطَاهُ مُعِيدٌ كَرَّةَ الْوِرْدِ عَاطِفُ

وصف حمار الوحش

ثم بدأ يذكر القانص ويصف ناموسه وتوحشه ومحاولته لاختلاس الصيد وإخفاقه فى ذلك ويذكر تلهفه قال :

فلاقَى عليه من صُبَاحَ مُدَمِّرًا ... لنامُوسِهِ من الصَّفِيحِ سَقَائِفُ

---

(١) الجأب : الغليظ من الحمر . المكدم : المعضض من الكدم وهو العضّ . الشيطان بياء مشددة مكسورة : اسم موضع . المساوف : مواضع أبوال الحمر ، وهى من السوف ، ومعناه الشمّ ، والواحدة مسافٌ ، ومنه قيل لغاية الطريق مسافة لأن الدليل كان يشمّ ترابها .

(٢) الحقباء : من الحقب بالفتح ، وهو البياض . السمحج : الطويلة . الندب بفتحتين : أثر الجرح . الزرّ : الضرب . المناسف : من النسف . يقول : ينسفها بفمه يريد يعضّها أيضاً ، وفى بعض الشروح : يروى مكان (جأباً مكدماً) (أحقب قارحاً وأحقب قاربا) .

وصف القانص

صَدٍ غَائرُ العينَين شقّقَ لَحْمَهُ ... سَمائمُ قَيظٍ فهو أسْوَد شاسِفُ
أزَبُّ ظُهُورِ السّاعِدَين عظَامُه ... على قَدَرٍ شَثْنُ البنَانِ جُنَادِفُ
أخُو قُتُرَاتٍ قد تَيقَّن أنَّه ... إذالم يُصِبْ لَحْماًمن الوَحْشِ خاسِفُ
مُعاوِدُ تأكالِ القَنِيص شِوَاؤُه ... من اللّحم قُصْرَى رَخْصَة وطَفاطِفُ
قَصِيٌّ مَبِيتِ اللّيل لِلصَّيْدِ مُطْعَمٌ ... لأَسْهُمِه غَارٍ وبَارٍ وَرَاصِفُ
فيَسَّر سَهْماً رَاشَه بمنَاكِبٍ ... ظُهارٍ لُؤَامٍ فَهْو أعْجَفُ شارِفُ
فأمْهَلَه حتّى إذا مَا كَأنّه ... مُعاطِي يَدٍ في لُجّةِ المَاءِ غَارِفُ
وأرْسَله مُسْتَيْقِنَ الظّنّ أنّهُ ... مُخَالِطُ ما تحْتَ الشّراسيفَ جَائِفُ
فمَرّ النّضِيُّ لِلذِّراعِ ونَحْرِه ... ولِلْمَوْتِ أحْيَاناً عن النّفْسِ صَارِفُ
فَعَضّ بإبْهَامِ اليَمِين نَدَامَةً ... ولَهَّفَ سِرّاً أمّه وهْوَ لاهِفُ

التحلئ : المنع . ويراد منه هنا منعها من الماء . وأحنقت : هزلت . والحالبان : عرقان يصلان من الكليتين إلى المثانة . والشراسيف : جمع شُرْسُوف ، وهو طرف الضلع ، والقارَات : جمع قارَة ، وهى جبيلات صغيرة ، والستار : جبل . والربيئة : الطليعة ، وقوله يؤْبن : معناه ينظر ويتبين . والمهوِّل : المحلف .

أشهر نيران العرب

وكانوا إذا أرادوا استحلاف شخص أوقدوا ناراً (١) وألقوا فيها ملحا خفية

---

(١) وهى إحدى نيران العرب ، ومنها نار القرى ، وهى أهمها وأعظمها عندهم ، وقد كانوا يضعون فيها المندل ، وهو عطر تفوح منه رائحة شذية يهتدى بها من لم ير النار ، ومنها أيضاً نار الحرب يوقدونها ليلا على جبل لتجتمع العشائر المختلفة ، ونار الزحفتين وهى نار العرفج يزحف المصطلى إليها ، فإذا اشتدّت زحف عنها ، ومنها نار الاستمطار ، وهى نار يوقدونها عند احتباس المطر يجمعون البقر ، ويعقدون فى أذنابها وعراقيبها السلع والعشر وهما نبات أو شجر ، ثم يشعلون بها النار يزعمون أن ذلك من أسباب المطر ، وهى من خرافاتهم .

يهولون بذلك على الحالف. وغُمَارَةُ عين لبنى تميم. والحبب، والحباب: كسحاب معظم الماء أو طرائقه أو فقاقيعه التى تطفو كأنها القوارير. والزخارف: واحدها زُخْرُف، وهى مناظر الماء أو طرائقه أيضاً. والتقريب، والشد: ضربان من السير، ويريد بكَرّةِ القَطَا إلى الوِرْد أن يصف المَنْهَلَ بغزارة الماء فلا تنقطع عن ورده الطير. صُبَاحَ غير مصروف: اسم قبيلة، والمدَمِّر: القانص لأنه يهلك الصيد والناموس بيت الصائد. والصفيح: حجارة عراض رقاق. أَزَبُّ: كثير شعر الساعدين، والشَّثْن الغليظ. والجُنَادِفُ: القصير المجتمع. والقُتُرات: واحدها قُتْرة، وهى النَّامُوس أو بيت الصائد كما سبق. وخاسف: هالك. والقُصْرَى: كُبْرَى القُصَيْرَى، وهى ما يلى الكَشْح. والطَّفَاطِف: أطراف الأضلاع. وقَصِيٌّ: مَبِيتُ اللَّيل، معناه أنه يبيت دائماً بعيداً عن أبيات الحى، والغارى: الطالى بالغِراء، والرّاصف: من الرصف، وهو شدّ صدر السهم بالرَّصَفَة، والمناكب: أرياشٌ أربعة، واللُّؤَام: الملتئمة المتداخلة القُذَذ، والظُّهار: الخارجة البادية، وقوله حتى إذا ما كأنه اختلف الشراح فى تأويله وخلاصة الكلام على ما فسّره ابن السِّكِّيت حتى إذا ورد كأنه البيت ويكون فعل إذا متروكاً، والجائف: البالغ إلى الجوف، والنَّضِيُّ: السهم قبل أنْ يُرَاش، ويريد أنه أفلت منه ولم يصبه فجعل يتبرم ويُلَهِّف أمّه، أى يقول: والهفَ أُمّاه سِرًّا! حتى لا تسمعه بقية الوحش فتنفر من صوته.

وترونه فى هذا الوصف البليغ دقيقاً متتبعاً يكاد يحيط بكلّ ما يليق وضعه لإبراز الصورة الكاملة للموصوف، وستجدونه يحذو قصيدته الآتية على هذا المثال، وَيُبْدِع فى هذا المذهب الآخر من وصف السلاح والقوس ما شاء، وقد تناول فى مُفْتَتَح القصيدة ذكر المرأة وأسرع منها إلى شىء من الأخلاق،

ودخل بعد ذلك فى الوصف للأسلحة ، وجعل ختامها كالسبب لاستعداده وتحصنه بهذه الآلات ، وعطف على بعض ما امتحن به من طبائع الناس قال :

صَحَا قَلْبُه عن سَكْرَةٍ وَتَأَمَّلَا ... وَكَانَ بِذِكْرَى أُمِّ عَمْرٍو مُوَكَّلَا

لاميته المشهورة

وَكَانَ له الْحَيْنُ المُتَاحُ حُمُولَهَا ... وَكُلُّ امْرِئٍ رَهْنٌ بمَا قَدْ تَحَمَّلَا

أَلاَ أَعْتِبُ ابْنَ الْعَمِّ إِنْ كانَ ظَالِمًا ... وَأَغْفِرُ عنه الْجَهْلَ إن كان أَجْهَلَا

وإنْ قالَ لِي ما ذَا تَرَى يَسْتَشِيرُنِى ... يَجِدْنِي ابنَ عَمٍّ مِخْلَطَ الأَمْرِ مِزْيَلَا

أُقِيمُ بِدَارِ الحَزْمِ ما دَامَ حَزْمُهَا ... وأَحْرِ إذا حَالَتْ بِأَنْ أَتَحَوَّلَا

وأَسْتَبْدِلُ الأَمْرَ القَوِىَّ بِغَيْرِه ... إذا عَقْدُ مَأْفُونِ الرِّجَال تَحَلَّلَا

ثم أخذ يصف السلاح إذا صرّحت الحرب عن ناب أعصَلَ مُتَقَوِّس من الشر ، وبدأ بالرمح حين يقول :

وصف الأسلحة العربية «الرمح»

وإِنِّى امرُؤٌ أعدَدْتُ للحرْبِ بَعْدَمَا ... رأَيْتُ لها نَابًا من الشَّرِّ أَعْصَلَا

أَصَمَّ رُدَيْنِيًّا كأَنَّ كُعُوبَه ... نَوَى القَسْبِ عَرَّاصاً مُزَجًّى مُنَصَّلَا

عليهِ كَمِصْبَاحِ العَزِيزِ يَشُبُّه ... لِفَصْحٍ ويَحْشُوه الذُّبَالَ المُفَتَّلَا

وثنّى بالدِّرْع فى قوله :

وأَمْلَسَ صُولِيًّا كَنِهْيِ قَرَارَةٍ ... أَحَسَّ بِقَاعٍ نَفْحَ رِيحٍ فَأَجْفَلَا

الدرع

كأَنَّ قُرُونَ الشَّمْسِ عند ارْتِفَاعِهَا ... وقد صَادَفَتْ طِلْعًا من النَّجْمِ أعْزَلَا

تُرَدَّدُ فيه ضَوْءَها وشُعَاعَهَا ... فَأَحْصِنْ وأَزْيِنْ لِامْرِئٍ إنْ تَسَرْبَلَا

وعدل إلى السيف :

السيف

وأَبْيَضَ هِنْدِيًّا كأَنَّ غِرَارَه ... تَلَأْلُؤُ بَرْقٍ فى حَبِيٍّ تَهَلَّلَا

إذا سُلَّ من غِمْدٍ تَأَكَّلَ أَثْرُهُ ... على مِثْلِ مِسْحَاةِ اللُّجَيْنِ تَأَكُّلَا

كأَنَّ مَدَبَّ النَّمْلِ يَتْبَعُ الرُّبَا ... ومَدْرَجَ ذَرٍّ خَافَ بَرْدًا فَأَسْهَلَا

على صَفْحَتَيْه بعد حِينِ جِلاَئِه ... كَفَى بِالَّذِى أَبْلِى وَأَنْعَتُ مُنْصُلاَ

فتراه يذكر صحوه من سكرته بحب أمّ عمرو بعد أن كان يرى الموت في فراقها وتحمل حمولها ، ثم أشار إلى رأيه فى أهله وابن عمه من قبوله لِمَاتِبِهِمْ وغُفْرانه لِزَلاَّتِهِمْ و إخلاصه النصح لهم ، وأنه مِخْلطٌ مِزْيَل آى عارف بمداخل الأمور ومخارجها ، وأنه لهذا وغيره لا يرضى بغير الحزم فى الإقامة والتحول ، وفى قدرته تذليل القوى الشديد من الأمور ، عند ماتنحل وثائق القلوب من المأفونين الضعفاء من الرجال .

تحليل الأبيات

الأعصل : الملتوى ، الأصم : الرمح . والكعوب عُقَدالأنابيب ، القَسْب : التمر اليابس جعل كعوبه كهذه النوى لضمورها وصلابتها ، العَرّاص : المهتزّ . يَشُبُّه : يُشْعِله . الفَصح : عيد من أعياد النصارى . والأملس : الناعم ، وهو اللدن .

والنِّهى : بكسر النون الغدير إذا أجفل من الريح نشأت على صفحته حلقات صغيرة بيضاء لامعة فتشبه الدرع ، والطِّلع : المكان المرتفع ، والنجم : النبات ، والأعزل : المتجرد . والغِرَار : الحدّ . والحَبِيُّ : السحاب ، الأثر بالضم والفتح : الرونق : الفِرِنْد ، وَالمِسْحَاة : التى تُبْرَدُ بها الفضة كالمِبْرَد .

ثم وصف ما يتموّج ويلتمع على صفحتى السيف من رونقه حين تتأمله العين صاعداً منحدراً كأنه دبيب نمال صاعدة يقابله مدارج ذرّ هابطة ، وهى صورة واضحة لما يلقيه الضوء على جانبى المعدن المجلو ، وخاصة إذا كان من الحديد ، وهو فى الغالب طليعة الصدإ ، وقوله تأكل أثره : توهّج واشتدّ بريقه لما يخيل لك من تداخل أجزائه بعضها فى بعض ، وصار بعد ذلك إلى القوس فأطال وأدق وأبدع إذ يقول :

وَمَبْضُوعَةٍ من رَأْسِ فَرْعٍ شَظِيَّةٍ　بِطَوْدٍ تَرَاهُ بِالسَّحَابِ مُجَلَّلَا[(١)]

إبداعه في صفة القوس

عَلَى ظَهْرِ صَفْوَانٍ كَأَنَّ مُتُونَهُ　عُلِلْنَ بِدُهْنٍ يُزْلِقُ الْمُتَنَزِّلَا[(٢)]

يُطِيفُ بها رَاعٍ يُجَشِّمُ نَفْسَهُ　لِيَكْلَأَ فيها طَرْفَه مُتَأَمِّلَا

عَلَى خَيْرِ مَا أَبْصَرْتَهَا من بضاعة　لِمُلْتَمِسٍ بَيْعًا بها أَوْ تَبَكُّلَا[(٣)]

فُوَيْقَ جُبَيْلٍ شَامِخِ الرَّأْسِ لم تَكُنْ　لِتَبْلُغَهُ حَتَّى تَكِلَّ وَتَعْمَلَا

فَأَبْصَرَ أَلْهَابًا من الطود دُونَهُ　يَرَى بَيْنَ رَأْسَيْ كُلِّ نِيقَيْنِ مَهْبِلَا[(٤)]

فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهْوَ مُعْصِمٌ　وَأَلْقَى بِأَسْبَابٍ له وَتَوَكَّلَا[(٥)]

وقد أَكَلَتْ أَظْفَارَهُ الصَّخْرُ كُلَّمَا　تَعَيَّا عليه طُولُ مَرْقًى تَوَصَّلَا

فَمَا زَالَ حَتَّى نَالَهَا وَهْوَ مُشْفِقٌ　عَلَى مَوْطِنٍ لَوْ زَلَّ عنه تَفَصَّلَا

فَلَمَّا قَضَى مِمَّا يُرِيدُ قَضَاءَه　وَحَلَّ بها حِرْصًا عليها فَأَطْوَلَا

أَمَرَّ عَلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ غُرَابُهَا　رَقِيقٌ بِأَخْذٍ بِالْمَدَاوِسِ صَيْقَلَا[(٦)]

عَلَى فَخِذَيْه من بُرَايَةِ عُودِهَا　شَبِيهُ سَفَا الْبُهْمَى إذا ما تَفَتَّلَا[(٧)]

فَجَرَّدَهَا صَفْرَاءَ لَا الطُّولُ عَابَهَا　وَلَا قِصَرٌ أَزْرَى بها فَتَعَطَّلَا

كَتُومٌ طِلَاعُ الْكَفِّ لَا دُونَ مَلْئِهَا　وَلَا عَجْسُهَا من مَوْضِعِ الْكَفِّ أَفْضَلَا[(٨)]

---

(١) المبضوعة : المقطوعة . الشظية : الفلقة من الشيء . الطود . الجبل .

(٢) الصفوان : الصخر . عللن : أي سقين مرّة بعد مرّة . العلل : الشرب الثاني . النهل : الشرب الأول . (٣) التبكل : الغنيمة .

(٤) الألهاب : جمع لهب بكسر اللام ، وهو الصدع في جانب الجبل . النيق بكسر النون : المكان المرتفع . المهبل كمنزل : المنزل والمهوى من رأس الجبل .

(٥) أشرط نفسه : معناه ألزمها وأعدها . (٦) ذات حدّ : يريد سكيناً . غرابها : حدّها : المداوس جمع مدوس كمنبر : آلة الصيقل الذي يتقن بها القسي وغيرها .

(٧) البهمى : نبات معروف . (٨) الكتوم : التي لا يوجد في عودها شقوق ولا صدوع . طلاع الكفّ : أي يملؤها ، وملء القوس : معناه استيفاء مدها أي النازع فيها يشدها حتى تلتوي على جوانب كفه فلا يفضل منها شيء . العجس والمعجس : المقبض .

إِذَا مَا تَعَاطَوْهَا سَمِعْتَ لِصَوْتِهَا ... إِذَا أَنبضُوا عنها نَئِيمًا وَأَزْمَلاَ(١)
وَإِنْ شَدَّ فيها النَّزْعُ أدبَرَ سَهْمُهَا ... إِلَى مُنْتَهًى مِنْ عَجْسِهَا ثم أَقْبَلاَ(٢)

ولم يشأ أن يدع الكنانة والسهام ، وهى عَتَاد القَوْس وَعُدَّة النابل ، فقال بعد هذا :

الكنانة والنبل

وَحَشْوِ جَفِيرٍ من فُرُوعٍ غَرَائِبٍ ... تَنَطَّعَ فيها صانِعٌ وَتَنَبَّلاَ(٣)
تُخَيِّرْنَ أَنْضَاءً وَرُكِّبْنَ أَنْصُلاً ... كَجَمرِ الْغَضَافِى يَوْمِ رِيحٍ تَزَيَّلاَ(٤)
فَلَمَّا قَضَى فى الصُّنعِ مِنْهُنَّ هَمَّهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أن تُسَنَّ وَتُصْقَلاَ
كَسَاهُنَّ من رِيشٍ يَمَانٍ ظَوَاهِراً ... سُخَامًا لُؤَامًا لَيِّنَ المَسِّ أَطْحَلاَ(٥)

و بعد ذلك أشار إلى تجربته وما عرفه من طباع الناس ، وختم كلامه بوصف الصاحب الصادق المودة حين يقول :

فذاكَ عَتَادِى فى الحُرُوبِ إذا انْتَضَتْ ... وأَرْدَفَ بَأْسٌ من خُطُوبٍ وَأَعْجَلاَ
فَإِنِّى رَأَيْتُ النَّاس إلاَّ أقَلَّهُمْ ... خِفَافَ الْعُهُودِ يُكْثِرُونَ التَّنَقُّلاَ
بَنِى أُمِّ ذِى المَالِ الْكَثِيرِ يَرَوْنَه ... وَإِنْ كانَ عَبْدًا سَيِّدَ الأَمْرِ جَحْفَلاَ
وَهُمْ لِقَلِيلِ المَالِ أَوْلاَدُ عَلَّةٍ ... وَإِنْ كانَ مَحْضاً فى الْعُمُومَةِ مُخْوِلاَ(٦)

---

(١) الانباض : تحريك الوتر فى القوس . النئيم : صوت القوس والأسد والظبى . والنأمة : النغمة والصوت . الإزمل : الرنين. (٢) ومعنى إقبال السهم إلى العجس وإدباره أن هذه القوس لينة فى صلابة عود ، فإذا شدّ النازع فيها السهم عاد إلى مقبض القوس ، ثم ابتعد عنها لقوّة دفعها وصلابتها . (٣) الجفير : الكنانة . التنطع : التأنق والمبالغة فى الصنع : (٤) الأنضاء جمع نضو ، وهو كالنضى : السهم قبل أن يراش . تزيلا : معناه تفرّق وتطاير . (٥) السخام كغراب : الريش الطائر من الطائر . اللؤام على وزنها : القذذ ، وهى الريش أيضاً التى يلائم بعضها بعضاً بأن تكون بطن ريشة إلى ظهر الأخرى . الأطحل : الذى تضرب غبرته إلى السواد مع بياض قليل .

(٦) أولاد علة : يكنى بها عن الاستكراه والعداوة . وأولاد العلة : هم الذين يكون أبوهم واحداً وأمهاتهم شتى ، وعكسه بنو الأخياف وهم الذين لأم واحدة وآباؤهم مختلفين ، وأما الإخوة لأب وأم فيسمون بنى الأعيان .

وَلَيْسَ أَخُوكَ الدَّائِمُ العَهْدِ بالّذِى ... يَسُوءُكَ إنْ وَلّى وَيُرْضِيكَ مُقْبِلاَ
وَلٰـكِنْ أَخُوكَ النَّاءِ مَا دُمْتَ آمِناً ... وَصَاحِبُكَ الأَدْنَى إذا الأمرُ أعْضَلاَ

مدائحـــه ومراثيه

ولم نعثر له على شعر فى المدح خاصة لا يكون مشوبا بالرثاء إلا أبياته الآتية فى حَلِيمَة بنت فَضَالة ، وهى التى قامت بأمره وخدمته فى علته حتى استقل وأمن ويظهر أنها بقية من كلام وإن كان لا وجود له فى ديوانه ، وهى قوله :

لعَمْرُكَ ما مَلَّتْ ثَوَاءَ ثَوِيِّها ... حَلِيمَةُ إذْ أُلْقِى مَرَاسِىَّ مَقْعَدِى
ولٰـكِن تَلَقَّتْ باليَدَيْنِ ضَمَانَتِى ... ومَلَّ بِشَرْجٍ فالنَّوَاظِرِ عُوَّدِى[١]

مديحه لحليمة بنت فضالة

وقد عَبَرتْ شَهْرَىْ رَبِيعٍ كِلَيْهِمَا ... بِحَمْلِ البلاَيَا وَالْحِبَاءِ المُمَدَّد
ولم تُلْهِهَا تلك التَّكالِيفُ إنَّها ... كما شِئْتَ من أُكْرُومَةٍ وتَخَوُّدِ[٢]
سأَجْزِيكِ أو يَجْزِيكِ عَنِّى مُثَوِّبٌ ... وقَصْرُكِ أَن يُثْنَى عَلَيْكِ وَتُحْمَدِى

أما مراثيه فهذه إحداها وقد سبق لنا وصف مطلعها ورأى النقاد فى جودته ، وهى فى فَضَالة أبى حَلِيمَة ، ويكنى أيضاً بأبى دُلَيْجَة ، قال أوس :

أَيَّتُهَا النَّفسُ أَجْمِلِى جَزَعًا ... إنَّ الَّذِى تَحْذَرِين قد وَقَعَا

أجود مطالع المراثى العربية

إنَّ الَّذِى جَمَّعَ السَّمَاحَةَ والنَّجْـــدَةَ ... والحَزْمَ والقُوَى جُمَعَا
أَوْدَى وهل تَنفَعُ الإشَا ... حَةُ من أمْرٍ لِمَنْ قد يُحَاوِلُ البِدَعَا[٣]

وفى أكثر الـكتب تأخير هذا البيت إلى موضع التاسع من القصيدة وإذا كان هو الخبر يطول الفصل بين الجزأين ، فلذا آثرنا هذه الرواية ثم قال :

---

(١) الضمانة : الزمانة أو المرض الدائم . النواظر : هى ناظرة، جمعها باعتبار تعدد الأمكنة فيها ، وهى التى سقط عندها من ديار بنى أسد ، وفى أكثر الـكتب « والقبائل » مكان النواظر «وحل» بالحاء مكان مل ، والذى أثبتناه أقرب إلى الصواب .

(٢) التخود : النعمة والحسن . (٣) أودى : هلك . الإشاحة : الجد فى طلب الحاجة . البدع : جمع بدعة ، وهى الأمور الجديدة أو المحدثة على غير مثال سابق ، ويروى مكانها النزعا ، وقد يكون معناها نزع الحاجة أو طلب تحصيلها بعد ذهابها .

الأَلْمَعِىُّ الَّذِى يَظُنُّ بِكَ الظَّـــنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وقَد سَمِعَا[(١)]
المُخْلِفُ المُتْلِفُ المُرَزَّأُ لم ‌ ‌ يُمْتَعْ بِضَعْفٍ ولم يَمُتْ طَبِعَا[(٢)]
والحَافِظُ النَّاسَ فى تَحُوطَ إذا ‌ ‌ لم يُرْسِـــلوا خَلْفَ عَائِذٍ رُبَعَا[(٣)]
وازْدَحَمَتْ حَلْقَتَا البِطَان بِأَقْـــوَامٍ وطَارَتْ نفُوسُهمْ جَزَعَا
وشُبِّهَ الهَيْدَبُ العَبَامُ من الأَقْـــوَامِ سَـــقْباً مُجَلَّلاً فَرَعَا[(٤)]
وكَانَتْ الكَاعِبُ المُنَعَّمَةُ الحَسْنَاَ ءُ فى زَادِ أَهْلِهَا سَـــبُعَا
لِيَبْكِكَ الشَّرْبُ والمُدَامَةُ والفِتْـــيَانُ طُرًّا وطَامِعٌ طَمِعَا
وذَاتُ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُها ‌ ‌ تُصْمِتُ بالمَاءِ تَوْلَباً جَدِعًا[(٥)]
والحَىُّ إذْ حَاذَرُوا الصَّبَاحَ وإذْ ‌ ‌ خَافُوا مُغِـــيراً وسَائِراً تَلِعَا[(٦)]

وهذه أخرى من خير ما له يَعُدُّ فيها ما يكون للأمير العربى من المناقب وما يجب أن يَتَحَلَّى به من أوصاف الرِّيَاسة ، ويطلب السُّقْيا لِجَدَثِ المرثى بالسَّلْسَال من المسك والرَّيْحان ، يقول بعد مطلعها :

يا عَيْنُ لا بُدَّ من سَـكْبٍ وتَهْمَالِ ‌ ‌ على فَضَالَةَ جَلِّ الرُّزْءِ والْعَالِى[(٧)]
أَبَا دُلَيْجَةَ مَنْ يَكْفِى العَشِيرَةَ إذْ ‌ ‌ أَمْسَوْا من الخَطْبِ فى هَمٍّ وبَلْبَالِ[(٨)]

---

(١) الألمى والألمع : الداهى الذى يتظنن الأمور فلا يخطئ ، وهو أيضاً الذكىّ المتوقد الحديد القلب واللسان ، وهو الظريف الخفيف . (٢) الطبع ككتف : اللئيم الدنئ . (٣) تحوط وتحيط : السنة الشديدة . العائذ : الحديثة النتاج تعوذ بها أولادها . الرّبع : بضم ففتح ما نتج فى الربيع . (٤) السـقب والفرع : ولد الناقة ساعة يولد أو هو أول نتاجها . (٥) الهدم بالكسر : الثوب البالى . تصمت : معناه تسكت ، والصمتة : بضم الصاد ما يعطى للولد من طعام وغـيره كأنه يسكن به . التولب : ولد الحمار . الجدع ككتف : السيء الغذاء . (٦) التلع على وزنها : المخرج رأسه من كلّ شيء .

(٧) الجل بالفتح كالجليل : معناه العظيم . التهمال مصـدر : بمعنى شـدة سقوط الدمع من العينين . العالى : صفة للمرثى لا للرزء على ما يظهر . (٨) البلبال : الاضطراب .

أَمْ مَنْ يكونُ خَطِيبَ الْقَوْمِ إِذْ حَفَلُوا ... لدَى المُلُوكِ ذَوِى أَيْدٍ وإِفْضَالِ (١)

إلى قوله :

أَبَا دُلَيْجَةَ مَن تُوصِي بِأَرْمَلَةٍ ... أم مَنْ لِأَشْعَثَ ذِى طِمْرَين مُِحَالِ (٢)

وما خَلِيجٌ من المَرُّوتِ ذُو حَدَبٍ ... يَرْمِي الضَّرِيرَ بِخُشْبِ الطَّلْحِ والضَّالِ (٣)

يَوْمًا بأَجْوَدَ مِنهُ حينَ تَسْأَلُه ... ولا مُغِبٌّ بِتَرْجٍ بينَ أَشْبَالِ (٤)

لَيْثٌ عليه مِنَ البَرْدِيِّ هِبْرِيَةٌ ... كالمَرْزُبَانِيِّ عَيَّالٌ بأَوْصَالِ (٥)

يَوْمًا بأَجْرَأَ مِنْـهُ حَدَّ بَادِرَةٍ ... على كَمِيٍّ بِمَهْدِ الحَدِّ فَصَّالِ

وَرَّثْتَنِي وُدَّ أَقْوَامٍ وخُلَّتَهم ... وذِكْرَةٌ مِنك تَغْشَانِي بِإِجْلَالِ

لا زَالَ مِسْكٌ وَرَيْحَانٌ له أَرَجٌ ... يَسْقِي صَدَاكَ بِصَافِي اللَّوْنِ سَلْسَالِ

هجاؤه — قدمنا فى تاريخه أنه كان يحرض عَمْرَو بن المنذر على الانتقام لأبيه من بنى حَنِيفَة و بنى سُحَيْم لأن شَمِرَ بن عمرو السُّحَيْمى هو الذى قتله ، وكان مع الحارث الغسانى ، وقد ضمَّن هذا التحريض استسقاطه لهم وذمه إياهم إذ يقول :

تحريضه لعمرو بن هند على الأخذ بثأر أبيه

نُبِّئْتُ أنَّ بنى سُحَيْمٍ أَدْخَلُوا ... أَبْيَاتَهم تَامُورَ قَلْبِ المُنْذِرِ (٦)

فَلَبِئْسَ مَا كَسَبَ ابنَ عَمْرٍو رَهْطَه ... شَمِرٌ وكان بِمَسْمَعٍ وَ بِمَنْظَرِ

زَعَم ابْنُ سُلْمِيٍّ مُرَارَةُ أَنَّه ... مَوْلَى السَّوَاقِطِ دُونَ آلِ المُنْذِرِ

---

(١) الأيد : القوّة . (٢) الأشعث : المتغير اللون المائل إلى الشعثة من الجوع والهزال . الطمر : الثوب الخلق ، المحال : المجدب المحتاج ، وهو من المحل ضد الخصب .

(٣) المرّوت : واد فى ديار تميم . الضرير : جانب الوادى ، وهما ضريران . الطلح والضال : شجران . (٤) المغب : الذى يفترس يوماً ويترك يوماً ، وهو الأسد . الأشبال : جمع شبل ، وهو ولد الأسد . ترج بالمثناة المفتوحة : مأسدة عندهم .

(٥) البردى : نبات . الهبرية : زغب القطن . المرزبان : الأسوار من الفرس ، وبه يسمى الأسد أيضاً . عيال : معناه متبختر . وفى اللسان : يروى عيال بآصال ، أى يخرج متبختراً بالعشيات ، ويروى أيضاً : عيار مكان عيال .

(٦) التامور : حبة القلب أو غشاؤه .

منَعَ الْيَمَامَةَ حَزْنَهَا وسُهُولهـا ... من كُلِّ ذِى تَاجٍ كَرِيمِ المَفْخَرِ (١)

إنْ كَانَ ظَنِّى بِابْنِ هِنْدٍ صادِقًا ... لم يَحْقِنُوها فى السِّقَاء الأوْفَرِ (٢)

حَتَّى يَلُفَّ نَخِيلَهُم وَزُرُوعَهُمْ ... لَهَبٌ كنَاصِيَةِ الحِصَانِ الأشْقَرِ

وكان من أثر ذلك أن غزاهم الملك ، فحرّق زروعهم ، وقتل وسبى منهم خلقاً كثيراً .

ذكر أبو العبَّاس محمد بن يَزِيد المُبَرّد فى كتابه الكامل فى شرح هذه القصيدة قال : السواقط هم الذين كانوا ينزلون اليمامَةَ من غير أهلها ، وكان النعمان أراد أن يجليهم عنها ، فأجارهم مُرَارَةُ بن سُلْمِىٍّ الْحَنَفِى فسوّغه الملك ذلك ، وفى غير الكامل : أنها قيلت لعمرو بن هند لا للنعمان ، والسياق يؤيد ذلك ، قالوا و إن أوساً جاور بعد ذلك بدهر فى هذين الحَيَّين ، فثاروا به ، فانتهبوا مِعْزَاهُ واقتسموها بينهم ، فقال أيضاً يهجوهم ويصف نفسه فيما ينصح لهم به من ترك الغدر بأنه أطب الناس بذلك ، ويشير إلى وفاء عشيرته ورعيها لحقوق الجيران ، وأنه الآن لا يجد من قومه أحداً يمنعهم من العدوان عليه :

هجاؤه لقوم من بنى حنيفة انتهبوا معزاه

فإنْ يَأْتِكُم مِنِّى هِجَاءٌ فَإنَّمَا ... حَبَاكُمْ بِهِ مِنِّى جَمِيلُ بْنُ أرْقَمَا

تَجَلَّلَ غَدْراً حَرْمَلاءَ وَأقْلَعَتْ ... سَحَائِبُهُ لَمَّا رأى أهْلَ مَلْهَمَا

فهلْ لَكُمْ فيها إلَىَّ فَإنَّنى ... طَبِيبٌ بما أعْيَا النِّطَاسِىَّ حِذْيَما

فَأُخْرِجُكُمْ من ثَوْبِ شَمْطَاءَ عارِكٍ ... مُشَهَّرَةٍ بُلَّتْ أسَافِلُهُ دَمَا

فلو كانَ جَارٌ مِنْكُمُ فى عَشِيرَتِى ... إذَا لَرَأى لِلْجَارِ حَقًّا وَمَحْرَمَا

ولو كَانَ حَوْلِى من تَمِيمٍ عِصَابَةٌ ... لَمَا كان مَالِى فِيكُمُ مُتَقَسَّمَا

ألا تَتَّقُون اللهَ إذْ تَعْلِفُونَهَا ... رَضِيخَ النَّوى والعُضَّ حَوْلاً مُجَرَّمَا

---

(١) الحزن : ضدّ السهل . (٢) ومعنى قوله : لم يحقنوها فى السقاء الأوفر ، أى لم يذهبوا بما فعلوا مسلمين ، ولم يخبئوا صنيعهم ، فلا يعلمه أحد ، وأصل يحقن : معناه يحفظ ويعصم ، ويكون المعنى إجمالا لم يعصموا أنفسهم ودماءهم من الملك .

وأَعْجَبَكُم فيها أَغَرُّ مُشَهَّرٌ تِلَادٌ إِذَا نَامَ الرَّبِيضُ تَغَمْغَمَا

وقوله : فهل لكم البيت معناه هل تستمعون إلى رأيي فى هذه المِعْزى ، وهو أن تردوها علىّ لأنى عالم بما يزيل عنكم مَعَرَّة هذا الغدر ، وأنه أَطَبُّ فى ذلك من ابن حِذْيَم ، وهو رجل من تَيْم الرباب يضرب به المثل فى الطب ، وقد تقدم خبره ، وجعل ما تجللوه من الغدر كثوب الشَّمْطَاء الحائض الذى ابتلّ بدمها فهى تستحى أن يراه الناس ، ورضيخ النوى : فتاته وكساره ، والعض بضم العين : الحشيش اليابس ، أو ما يعلف به من القت والنوى ، والحول الجرم : التامّ ، والربيض : الغنم ، والغمغمة : صوت الكبش ، وهو المقصود بالأغر المشهر .

وله أيضاً يهجو الحَكَم بن مروان بن زِنْبَاع العَبْسِى أحد الفرسان المعدودين ، وكان رحل إليه فى حاجة فلم يُبْلِغْه غرضه قال :

هجاؤه للحكم بن مروان العبسى أحد فرسان العرب

إذا نَاقَةٌ شُدَّت بِرَحْلٍ وَنُمْرُقٍ إلى حَكَمٍ بَعْدِى فَضَلَّ ضَلَالُهَا
كأنّى حَلَوْتُ الشِّعر حينَ مَدَحْتُهُ صَفَا صَخْرَةٍ صَمَّاء يَبْسٍ بِلَالُهَا
هَمَمْتَ بِخَيْرٍ ثُمَّ قَصَّرْتَ دُونَه كما نَاءَتِ الرَّجْزَاءُ شُدَّ عِقَالُهَا
تَلَقَّيْتَنى يَوْمَ النُّجَيْرِ بِمَنْطِقٍ تَرَوَّح أَرْطَى سُعْدَ مِنْه وضَالُهَا
كأنَّ به أُرْخِيَّةً خَيْبَرِيَّةً يَعُودُ عليه وِرْدُها وقِلَالُهَا

البلال : ما يكون على الصخرة من الماء والرطوبة وهو بالباء المكسورة ، والرجزاء : الناقة فى عجزها داء وهوالرجز بفتحتين ، والأرطى والضال : شجران ، وسعد بضم السين غير مصروف كما فى اللسان : موضع أراد الشاعر به البقعة ، والأرخية بضم الهمزة : البقرة الوحشية أو ولد الثيتل ، وقد أعرضنا عن ذكر شيء من أهاجيه المصرحة اكتفاء بهذا منها .

ويظهر أن أوساً كما تقدم لم يكن من أكفاء الأبطال فى الحروب وأنه فرّ

ذات يوم من جموع بنى عَبْسٍ وغيرهم ، وأراد أن يحتج لصحة رأيه فى الفرار إذ يقول :

اعتذاره عند الفرار فى بعض الوقائع

أَجَاعِلَةٌ أُمُّ الحُصَيْنِ خَزَايَةً ... عَلَيَّ فِرَارِى أَنْ لَقِيتُ بَنِى عَبْسِ (١)

ورَهْطَ أَبِى شَهْمٍ وعَمْرَو بنَ عَامِرٍ ... وبَكْراً فجَاشَتْ من لِقَائِهِمُ نَفْسِى

مَطَاعِينُ فى الهَيْجَا مَطَاعِيمُ لِلْقِرَى ... إِذَا اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ مِنَ القَرْسِ

كَأَنَّ جُلُودَ النَّمْرِ جِيبَتْ عَلَيْهِمُ ... إِذَا جَعْجَعُوا بَيْنَ الإِنَاخَةِ وَالحَبْسِ

فَضَمُّوا علينا حَجْرَتَيْنا بِصَادِقٍ ... من الرَّأْىِ حَشَّ النَّارِ فى الحَطَبِ اليَبْسِ

وَلَيْسَ الفِرَارُ اليَوْمَ عَاراً عَلَى الفَتَى ... إِذَا جُرِّبَتْ منه الشَّجَاعَةُ بالأَمْسِ

والقرس : شدة الصقيع ، والجعجعة : الصياح عند النزول ، والحجرتان : الجانبان ، والحش : الإيقاد .

ومن هنا أخذ الحارث بن هشام قوله :

أرق ماتنصل به العرب من الفرار فى الحرب

اللهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ ... حَتَّى رَمَوْا فَرَسِى بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

وَشَمِمْتُ رِيحَ المَوْتِ من تِلْقَائِهِمْ ... فى مَأْزِقٍ وَالخَيْلُ لم تَتَبَدَّدِ

وَعَلِمْتُ أَنِّى إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا ... أُقْتَلْ وَلاَ يَضْرُرْ عَدُوِّى مَشْهَدِى

فَصَدَفْتُ عَنْهُمْ وَالأَحِبَّةُ فِيهِمُ ... طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُرْصِدِ

وهو معتبر من أحسن ما تنصل به الناس من عيب الفرار .

وله من قصيدة طويلة يتغزل فى مطلعها بصاحبته لِمَيس وَيَذْكُرُ مُسَاعفتها له ثم يُلِمُّ بمدح نفسه والفخر بأبيه ، ويمضى إلى ذكر ما يصفونه به من حبه لفضائل الأخلاق ويشير إلى حُلَفَائِهِمْ ، وما كان بينهم من العداوة ، ويضيف إلى السنة التى تواقعوا فيها أظفاراً لم تقلم وهو أول من جعل السنة الشديدة بهذه

---

(١) وصاحب العقد يروى هذه الأبيات منسوبة لعمرو بن معديكرب مع بعض تغيير قليل .

الصفة ، ثم يفتخر بقومه ويصف بلاءهم وصبرهم ، ويجعل الأرض الفضاء تميد تحت جموعهم كأنها مريضة من ثقل وطأتهم وكثافة زحوفهم قال :

تَنَكَّرْتِ منَّا بعدَ مَعْرِفَةٍ لِمَى ... وبعد التَّصَابِى وَالشَّبَابِ المُنعَّمِ

ثم يقول :

فخره بنفسه وبقومه

فَلاَ وَإِلٰهِى مَا غَدَرْتُ بِذِمَّةٍ ... وَإِنَّ أَبِى قَبْلِى لَغَيْرُ مُذَمَّمِ

يَجُودُ ويُعْطِى المَالَ من غير ضِنَّةٍ ... وَيَحْطِمُ أَنْفَ الْأَبْلَخِ الْمُتَغَشِّمِ

نُبِيحُ حِمَى ذِى العِزِّ حِينَ نُرِيدُه ... وَنَحْمِى حِمَانَا بالْوَشِيجِ الْمُقَوَّمِ

لعَمْرُكِ إنَّا و الأَحَالِيفَ هؤُلاَ ... لَفِى حِقْبَةٍ أَظْفَارُها لم تُقَلَّمِ

إذا مُقْرَمٌ مِنَّا ذَرَا حَدُّ نَابِهِ ... تَخَمَّطَ منَّا نَابُ آخَرَ مُقْرَمِ

وَمُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يَرَى من أَنَاتِنَا ... وَلَوْ زَبَنَتْهُ الحَرْبُ لم يَتَرَمْرَمِ

فَإِنَّا وَجَدْنَا العِرْضَ أَحوجَ سَاعَةً ... إِلَى الصَّوْنِ من رَيْطٍ يَمَانٍ مُسَهَّمِ

أَرَى حَرْبَ أَقْوَامٍ تَدِقُّ وَحَرْبُنَا ... تَجِلُّ فَنَعْرَوْرِى بها كلَّ مُعْظَمِ

تَرَى الأَرْضَ مِنَّا بالْفَضَاءِ مَرِيضَةً ... مُعَضَّلَةً مِنَّا بِجَمْعٍ عَرَمْرَمِ

المقرم : السيد ، وأصله البعير يكرم فلا يحمل عليه ، وإنما يتخذ لِلْفِحْلَةِ . وذرا : سقط . تخمّط : اشتدّ وقوى . نعرورى : نركب .

سوائر أبياته معانيه المتنازعة

من ذلك قوله :

وَرِثْنا المجدَ عن آباءِ صِدْقٍ ... أَسَأْنَا فى دِيَارِهِمُ الصَّنِيعَا

إذا الحَسَبُ الرَّفِيعُ تَوَاكَلَتْه ... بُنَاةُ السُّوءِ أَوْشَكَ أَنْ يَضِيعَا

وقوله فى اللئيم يذل عند الحاجة ويظهر الحدَبَ والولاء ، ويجفو عند الاستغناء ويستعلى ويبادر بالقطيعة :

إذا مَا عُلُوا قَالُوا أَبُونَا وَأُمُّنَا ... وليْسَ لَهُم عَالِينَ أُمٌّ ولاَ أَبُ

وقوله فى ذهاب الناس دائما إلى محبة الأغنياء ، ولو لم ينالوا منهم شيئاً و بغضهم لِلْمُقِلِّ ، ولو كان من عِلْيَة القوم وأصولهم :

بَنِى أُمِّ ذِى المَالِ الكَثِيرِ يَرَوْنَه   وإن كَانَ عَبْدًا سَيِّدَ الأَمرِ جَحْفَلَا
وهُمْ لِقَلِيل المَالِ أوْلَادُ عَلَّةٍ   وإنْ كَانَ مَحْضاً فى العُمُومَةِ مُخْوِلاَ

ومن دقيق تشبيهاته و بديع اختراعه قوله فيما يلتمع على صفحتى السيف من مو يجات فرنده المتتابعة كأنه مدبُّ النمل صاعداً إلى الربا أو مدارج الذر النازل إلى السهل :

كَأَنَّ مَدَبَّ النَّمْلِ يَتْبَعُ الرُّبَا   ومَدْرَجَ ذَرٍّ خافَ بُرداً فأَسْهَلَا
على صَفْحَتَيْه بعدَ حِينِ جِلَائِهِ   كَفَى بالَّذى أُبْلِى وَأَنْعَتُ مُنْصُلَا

ومن قوله : (لعمرك أنا والأحاليف هؤلاء البيت)

اتباع زهير لأوس فى أحد معانيه

أخذ زهير قوله :

لدَى أَسَدٍ شاَكِى السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ   له لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لم تُقَلَّمِ

وقد أحسن الاتباع وارتفع فى الأداء عن بيت أوس .

وكذلك أخذ من قوله :

وَلَنِعْمَ رِفْدُ القَوْمِ يَنْتَظِرُونَهُ   وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ وَالسِّرْبَالِ

قوله :

ولَنِعْمَ حشو الدِّرع أنتَ إذَا   دُعِيَتْ نَزَالِ ولَجَّ فى الذُّعْرِ

ومن قوله : (ترى الأرض منا بالفضاء مريضة البيت) .

ما أخذ النابغة من أوس

أخذ النابغة قوله :

جَيشٌ يَظَلُّ به الفَضَاء مُعَضِّلاً   يَدَعُ الإِكَامَ كأَنَّهُنَّ صَحَارِى

و يعيب عليه صاحب الموشح قوله :

وهم لمقلّ المـال ... البيت، قال إن ذكرالمـال مع مقلّ فضل لاغناء فيه ، وقد سبقت رواية البيت (وهم لقليل المـال وليس عليها مأخذ) .

بعض ماعيب عليه

و يعيب قوله أيضا : (تُصْمِتُ بالمـاء تَوْلَبًا جَدِعًا) .

قال انه أفحش الاستعارة حيث جعل الصبي تولَباً ، وهو ولد الحمار . قال ومثله قول آخر :

وما رَقَدَ الوِلْدَانُ حتَّى رَأَيْتَه على البَكْرِ يَمْرِيهِ بِساقٍ وَحَافِرِ

فسمى رجل الإنسان حافراً وكل ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لاعذر فيه .

ومعناه فى بيته :

الأَلْمَعِيُّ الّذى يَظُنُّ بك الظَّـــنَّ كَأَنْ قَد رَأَى وقَدْ سَمِعاَ

المتنبي وأوس

بديع متنازع أخذه أكثر الشعراء ، فلم يزيدوا عليه شيئاً ، ومن ذلك قول المتنبي :

ذَكِىٌّ تَظَنِّيهِ طَلِيعَةُ عَيْنِه يَرَى قَلْبُه فى يَومِه ما يَرى غَدَا

وقوله : إذا مُقْرَم منا ذَرَا حَدُّنَا به البيت :

فى معنى قول السموءل :

إذا سَيِّدٌ منا خَلاَ قَامَ سَيِّدٌ قَئُولٌ لِمَا قال الـكِرَامُ فَعُولُ

وقول الحماسى :

ولَيْسَ يَهْـلِكُ مِنَّا سَيِّدٌ أبَدًا إلا افْتَلَيْنَا غُلاَمًا سَيِّدًا فِيناَ

وقد ذكر له ابن قتيبة غير هذا من أمثاله ، ومما استجيد له اكتفينا بما ذكرنا منه ، وعلى الله قصد السبيل .

٩ — أمية بن أبى الصلت الثقفى

نسبه ونشأته

هو أُمَيَّةُ بن عَبْدِ اللهِ أَبِي الصَّلْتِ بن رَبِيعَةَ بن عَوْفٍ من أشراف ثَقِيفٍ ورؤسائها ، وأمه رُقَيَّةُ بنت عبد شَمْسِ بنِ عبدِ منافٍ ، وقد نشأ بالطائف مَصِيفِ أهل مكة وَمُتَنَزَّهِ أعيانها ، وهى من أعجب البلاد العربية ، وأطيبها هواء ، وأكثرها زروعا وعيونا وفاكهة ، فتأثرت صفاته منذ ابتدائه بهـذه الطبيعة الخصبة ، وأدرك الحالة الاجتماعية التى نشأت بالجزيرة بعد فتوح الفرس لبلاد اليمن ، وما أدى إليه ذلك الاتصال من امتزاج العقليات الآرِّيَّة بالرُّوح السَّامِى القديم ، وكانت هذه الصلة قد بدأت تتمثل فى الأدب بين أكثر شعراء القرن الميلادى السادس ، واتجه الخيال العربى إلى حكاية هذه الثّقافات الطارئة مع الجالية الفارسية من القِصَص وَالأساطير ، والمحاورات الموضوعة على ألسنة البهائم والطير بذلك النمط الطريف المقتبس فى الجملة من الأدب الهندى القديم ، وإن كانت مدنيات العصور لم تخل فى الغالب من انتزاع مثل هذا النوع من القصص عن الحيوان والمحاولة لشرح إلهاماته ، والاستطراف بوضع الحكاية عنه لقدم مداخلته للحياة البشرية ، واتفاق جميع الأجيال على استخدامه وتَطَرُّقِهِمْ إلى الانتفاع به كلَّ طريق ، ولأن كثيراً من أوضاع الحياة وصور التفكير العقلى متشابه كالمتاع المشترك بين أجناس البشر ، ولذا كان من فساد النظر ما يتكلم به بعض العابدين للآداب الأجنبية إذ يسرفون فى تجريد العرب من كل فضيلة ، ويزعمون أن كلَّ ما يخالف الأطلال والإبل والأمطار والرياح فى الشعر العربى ، فهو يونانى الأصل دخيل على العقلية العربية . كلام لا يقوم على دليل ، وسترى فى شعر أمية قصصاً وحديثاً عن الحيوان ليس بقليل منسوبا إلى أراض وشعوب سامية كقصة : « طوق الحمامة » ، « ورسالة الهدهد » ، ونحو

ذلك مما سنشرحه فى كلامه ، و إن كان ذلك لايمنع ما هو متبع بين الأمم من تناقل الآداب والمدنيات .

وكان أمية مع هذه المعاصرة قد قرأ الكتب ، واتصل بحياة القديسين من الأحبار ، ولبس المُسُوحَ ، ولزم النُّسُك ، وَخَلَعَ الأوْثانَ ، وَحرّم الزنا والقِمَار والخمر ، ودعا الناس إلى الحنيفية دين إبراهيم ، وأظهر التّألّه وَطَمِع فى الوحى ، فلما ظهرت النبوّة فى قريش ، وقام بالدعوة مُحَمّدُ بنُ عبد الله صلى الله عليه وسلم أدركه الحسد ، وزيّنَ له الشيطان سُوءَ عمله فصدّه عن السبيل فلم يُسلم ، وبالغ فى العداء للمسلمين ، وألحّ فى النكاية لهم ، ورثى قتلى بدر من المشركين ، وحارب معهم النبيّ فى خيبر ، وذلك بالضرورة مسلك مخالف لنشأته الدينية قبل ظهور النبوّة ، وقد حدث عنه أبو الفرج فى كتابه بأقاصيص أشبه بالخرافات ، ونسب إليه وإلى أبيه فى موضعين من الكتاب تهنئة لسيف بن ذى يزن بعد انتصاره على الحبشة قبل سنة ٥٧٩ ، وهى السنة التى مات فيها سيف بالأبيات المشهورة التى يظن أن أولها :

لِيَطْلُبِ الثّأْرَ أَمْثَالُ بنِ ذِى يَزَنٍ   فى البحر خَيّمَ للأعداء أَحْوَالاَ(١)

وهى ليست فى ديوانه ونسبها ابن قتيبة إلى أبيه أبى الصلت وهو الأقرب إلى الصواب ، وقد سمع أميّةُ القرآن وحكى شيئاً مما فيه من القصص ، واقتبس

---

(١) بقيتها :

أَتَى هِرَقْل وقد شَالَتْ نَعامَتُهُ   فلم يَجِدْ عندَه النَّصْرَ الّذى سَالا

ثُمَّ انْثَنَى نحوَ كِسْرى بعد تَاسِعَةٍ   من السِّنِينَ لقد أَبْعَدْتَ إِيغَالاَ

إلى قوله :

فَاشْرَبْ هنيئاً عليكَ التّاجُ مُرْتفِعاً   فى رَأْسِ غُمْدَانَ داراً مِنْكَ مِحْلالاَ

تِلْكَ المَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ من لَبَنٍ   شِيباً بِمَاء فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاَ

من كلماته أو من أساليبه ، ومات سنة ٩ من الهجرة ، وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أنشد بعض أشعاره قال :

آمن لسانه وكفر قلبه « نعوذ بالله من خاتمة السوء » .

ديوان شعره – رأى المترجم فى أدبه – منزلته من شعراء عصره

يعود الفضل فى إحياء تاريخه ، وجمع أكثر المنسوب إليه فى ديوانه إلى أحد مُتَعَرِّبَةِ علماء الألمان وهو : «فريدرك شولتهيس» ، وقد عنى بطبعه سنة ١٩١١ ، واستعان فى تصحيحه وضبطه بمراجع كثيرة بين عربية وأجنبية منها شرح محمد بن حبيب[1] ، وكتاب الأغانى ، وكتب السير والمجموعات القديمة وغيرها من كتب اللغة ، وبذل فى ذلك عناية وجهدا لا يمنعنا تقديرها له من ذكر ما يعنّ لنا من الرأى فيما وقع فيه من خطأ البحث وفساد النظر .

وصف شعره

وأما شعره فهو نسق سهل قليل الغرابة له صلة قوية بالأصول المنثورة التى نقل عنها ما تضمنه نظمه من القصص والأساطير حتى لكأنه ما يسميه أهل الأدب بالشعر المنثور ، وتراه وهو يذكر نفسه وقومه ويصف رياسته ومجد عشيرته ، وحين يمدح ابن جدعان صاحبه وأميره صادق الطبع قوى الديباجة تعينه هذه المناقب المخصوصة بقومه وبممدوحه على تهذيب الأفكار وتجويد مقاطع الكلام .

شعره فى الكونيات

أما حين يتكلم على الوجود الأول وينظر فى خلق السموات والأرض وهو باب الكونيات من شعره ، فهو أيضاً سهل لين الأسلوب ولكنه قليل الحلاوة يكاد يشبه من بعض الوجوه منظومات العلوم ، وأكثر المعروف من شعره فى هذه الأساطير التى تجعله شاعراً قصصيا استطاع أن تحمل قوافيه أخبار القرون

---

(١) محمد بن حبيب عالم لغوى من موالى العباسيين ، وله شروح لقطعة من أشعار العرب وتآليف كثيرة ، وحبيب اسم أمه لا أبيه كما فى الفهرست لابن النديم .

فى عصورها الذهبية القديمة ، و إن كان المأثور من شعره القصصى يدل على أنه بقايا قصائد طويلة لم يهتد العلماء بعد إلى ما ذهب من أصولها .

ونشير هنا كما أسلفنا إلى موقف المترجم فى الموازنة بين أمية و بين النبىّ صلى الله عليه وسلم ، و إلى قيمة بحثه لرأى المسلمين فى نشأة القرآن : لنعلم كيف ينخدع كثير من الناس بأولئك المستشرقين الذين تغريهم العصبية المذهبية بمحاولة الإفساد للحقائق ، ولا يبرءون مهما تبرءوا من الخَطَلِ فى بحثهم لكل ما له صلة بالدين . يقول ذلك العالم : « إن إخراج موازنة صادقة بين أمية ومحمد تتوقف على إيجاد ديوان عربى قديم يكون جامعاً لمقدار وافر من الأشعار العربية الصحيحة ، و بفرض العجز عن تحصيل هذه الوثيقة فهو مطمئن إلى القول بأن ستمائةِ بيت لأمية لا يعقل أن تكون كلها منحولة أو غير صحيحة ، و ينكر رأى « كليمان هوارت » فى أن محمداً استعان بشعر أمية بن أبى الصلت ، ولكنه يرى أنهما جميعاً اشتركا فى ثقافة واحدة ونقلا عن مصدر واحد ، و يرفض عقيدة المسلمين فى أُمِّيَّةِ محمد ، وعدم اتصال القرآن على هذا بأساطير أدبية قديمة ، و يزعم أن نشأة القرآن من طريق الوحى كما يعتقد المسلمون من الأساطير التى تعد من الغرابة بمكان » .

ومن العجب أن يكون ذلك البحث العقيم مذهباً لغير واحد من علماء الأجانب ، وأنت ترى لجمعياتهم العلمية وجهودهم الغزيرة من الأثر على العلم والأدب وسائر نتائج العقول البشرية ما لا يُجْهَل .

لأن من المعلوم أن القصص فى القرآن و إن وجد منه شىء فى الشعر أو كان متفقا مع ما وردت به شرائع المتقدمين ، إنما يجىء دائما على نمط يخالف مذاهب المؤرخين فى توخيهم لسرد الحوادث كما هى من غير محاولة لزيادة أو نقص ، فهو يرمى إلى اتخاذ الماضى وسيلة إلى العبرة وطريقاً إلى تقرير قواعد النظام والتنبيه إلى مواطن الانتفاع بأدق أساليب الاجتماع ..

وانظر إلى ذلك فى قصة إبراهيم مع أبيه وقومه حيث يقول الله تعالى : « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » ، إلى قوله : « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ، وحيث يقول فى سورة مريم : « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا » الآيات ، ومثل هذا النوع من المحاورة والجدل فى سورة الشعراء بين موسى وفرعون ، وستعلم من هذا وأشباهه أن الغاية من نظم هذه القصص فى القرآن لم تكن تأليف تاريخ ولا حكاية حال كما يفعل شعراء القصص وكتب الأساطير . وإنما الغرض هو إثارة العقول إلى النظر فى حقائق الأديان وتوجيه الفكر إلى نشأة العقيدة ، والتأمل فى كيفية تطورها فى الأجيال الماضية ، والإشارة إلى تأليه الإنسان القديم لكثير من الظواهر الكونية بسبب ما كانت تثيره فى نفسه من القلق والرعب حتى تبين له من تغيرها وطروء الفساد عليها عدم استحقاقها للعبادة وهو مسلك المنطق السليم فى بلاغة الاستدلال وإلزام الحجة .

ويتكرر القصص ليتكرر معه ما يتصل به من العظة وليحكى من جديد ناحية أخرى من الحكمة مع الترقى إلى الإحسان والخروج عن طوق البشر بوجوه الإعجاز : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » ، ثم انظر إلى مثل هذا الصنيع فى قصة سليمان وبلقيس وما تتضمنه من الدلالة الدقيقة على أصح ما يصل إليه الفكر من فلسفة التشريع والإشارة الصريحة إلى أخطار الاستعمار وإذلاله لعزة الشعوب حين يحكى القرآن استشارتها للملأ من قومها بعد ما جاءها كتاب سليمان بالدعوة إلى الإسلام إذ تقول : « يَا أَيُّهَا

ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونَ . قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » ، فترى كيف وصف القرآن قيمة الأثر الناشىء من تقدير الملك لشعبه وشعوره باحترام رأى الملأ من قومه وما يثيره هذا السلوك من عواطف الطاعة المنطوية على أكمل صور المحبة من الرعية لحاكمها بما يترتب عليه طَبِيعَةً مثلُ هذا الجواب الحكيم فيما وصفوا به أنفسهم من القوة وشدة البأس ، وأخذ الأهْبَة الكاملة لامتثال ما يؤمرون به فى خلوص نية ومضاء عزم ، وذلك هو دستور الحياة التى تتسابق شعوب العالم إلى صيانته واختيار الأصلح للبقاء من أوضاعه ، وجاء بعد هــذا البيان البليغ بشاعة الاستعمار ، ووصف جَرَائِرِهِ على حياة الأمم فى قوله : « إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » ، وحسبك أن تكون لك عين ترى ، وأذن تسمع لتدرك فظائع المستعمرين فى استهلاكهم لثمرات الأمم ، وإسرافهم فى الجناية عليهم بما تقشعرّ منه الجلود ، وترتعد الفرائص ، ثم يختم هــذا المقطع البليغ بقوله : « وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ » تقريراً لشمول هــذا الحكم لطبقات البشر على الزمان كلِّه مما كان لا يعقل صدوره إلا عن العالم بما كان وما لم يكن مما تَتَقَلَّب فيه صور الحياة وطبائع الأمم ، فكيف يسوغ بعد هــذا أن يقرن أُمَيَّةُ إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ أم كيف يوضع شعره مع كتاب الله؟ ولقد كنا فى غنى عن الاستدلال على فساد هــذا الوهم لولا أن بعض الذين يزعمون الولاية على الأدب من أهل زماننا يقلدون أولئك المتعصبين فى هــذه السخافات من غير نظر كأنهم لا يعلمون عن نشأة الإسـلام شيئاً ، ولا يعرفون عن صاحب الدعوة قليلا ولا كثيراً ، وكأنهم لايشعرون بآثار الثقافة الإسلامية فى مدنيـة العالم الحديث ، وكأن الأوربيين لم يصيخوا إلى خطباء العرب على منابر قرطبة وأشبيلية ، وكأنهم لم يفسحوا الطريق لحضارة الإسـلام تجتاح ما كان يطبق آفاقهم فى عصورهم المظلمة من الجهالات ، وأين الذين استجابوا

لأُمَيَّة بن أبى الصَّلْت أو لسواه ، وهو لم يخل حتى من عقوق بنيه ، وقد شكا ذلك فى شعره ، والله قد جعل لمحمد رسوله من صفاء الروحانية وقوة النفس ما كان به يُحَوِّلُ طبائع الناس ، ويُبَدِّل ما فى جِبِلَّاتهم من الإِبَاء إلى الطاعة ، ومن البغض إلى المحبة ، ومن الكفر إلى الإيمان حتى بلغ بأتباعه أنهم كانوا يحبونه أكثر من محبتهم لأنفسهم وأبنائهم ، ولقد عُذِّبُوا فى سبيله وأُوذُوا وقَاتَلوا وقُتِلوا وأُخْرِجُوا من ديارهم ولم يزدهم ذلك إلا استمساكا به وإيمانًا بشريعته ، ومضيًّا على الجهاد معه حتى بلغ الكتاب أجله وضرب الدين بِجِرَانِه . وخَفَقَت أعلامُ المسلمين على آفاق البلاد ، وأصبحوا قَادَةَ العالَمَ وسَادَةَ الأرض ، وما ترى الأُمم الأجنبية تَشْجَى بشىء الآن أكثر مما تراه من تَطَلُّع الأمم الإسلامية إلى مجدهم الذاهب وشعورهم بالحاجة إلى استرداد عظمتهم الماضية .

منزلته ورأى العلماء فيه

شعراء القرى العربية

ذكره ابن سَلَّام فجعله فى شعراء القرى العربية قال وهنّ خمس : مَكَّة ، والطَّائف ، والمَدينة ، واليمامة ، والبَحْرَيْن ؛ والمدينة أشعرُهُنّ قرية ، وفحولها خمسة : حَسَّان ، وكَعْبُ ، وعبدُ الله بنُ رَوَاحَة ، وقَيْسُ بنُ الخَطِيم ، وأبو قَيْس بن الأَسْلَت ، ثم قال : وفى ثَقِيفٍ شعر ، وأشعرها أُمَيَّةُ بن أَبِى الصَّلْت ، وقال أبو الفرج : إن أشعر أهل المدن : أهل يَثْرِب ، ثم عبد القَيْس يعنى أهل البحرين ، ثم الطائف ؛ وأشعر أهل الطائف أُمَيَّة . وذكر أن الكُمَيْت ابن زَيْد قال أُمَيَّة أشعر الناس لأنه قال كما قالوا ولم يقولوا مثل ما قال ، ونقل عن أبى عبيدة أيضاً قوله : ذهب أمية فى شعره بعامة ذكر الآخرة وذهب عَنْتَرَةُ بعامة ذكر الحرب ، وذهب عُمَرُ بن أَبِى رَبِيعَة بعامة ذكر الشباب ، وفى شعراء النصرانية أنه معدود من شعراء الطبقة الثانية ، وفيما أسلفنا من وصف

رأى الكميت الشاعر فى أمية

شعره إشارة إلى أنه يصح اعتباره طبقة وحده ، وأن يسمى الشاعر القصصى أو شاعر الأساطير لأنه يكاد يختص بهذا الفن من الكلام دون سائر الشعراء ، وإن كنت ترى لغيره منهم فى بعض الأحيان قَصَصاً وحديثاً عن الحيوان . أما فى أشعاره القومية وهى الخاصة بمدح القبيلة والتَّنْويه ببعض المعاصرين ، وما يشبه ذلك ، فهو حيث جعله ابن سَلَّام فى شعراء القرى ، ويجىء بالضرورة بعد حَسَّان . قال ابن قُتَيْبَة : وعلماؤنا لا يحتجون بشعره لأنه كان يأتى بأشياء لا تعرفها العرب يأخذها من الكتب مثل كلمة « سَاهُور » ، ويسمى الله السَّلْطِيط ، والتُّغْرُور ، قال : والسَّاهُور غلاف القمر عند أهل الكتاب .

وعلى أى حال فقد أضاف إلى الأدب الجاهلى هذه الأساطير التى استنفدت جانباً كبيراً من شعره ، وما عداها فهو شعره الخاص بذكر القبيلة ، ومدح بعض المعاصرين والشكوى والرثاء أو شعره فى الكونيات ، وهو ما يتعرض فيه لتوحيد الله وذكر الخلق وتعليل الحكمة فى بعض المرثيات ، وما يتصل بذلك من ذكر الآخرة والجنة والنار .

تأثره بأسلوب القرآن

وسترى فى هذه الناحية وفى شعره القصصى مبلغ تأثره بالأسلوب القرآنى واقتباسه من ألفاظه وعباراته كما قدمنا ، وسنذكر من كلّ شىء من هذه الأغراض شيئاً نُعَقِّبُ على بعضه بالشرح إن شاء الله . قال من قصيدته المُجَمْهَرَة (والمجمهرات سبع منزلتها بعد المعلقات) :

عرفْتُ الدَّارَ قد أقْوَتْ سِنِينَا ۞ لزينَبَ إذْ تَحُلُّ بها قَطِينَا

وبعد ما ذكر تأثير العواصف فى بقاياها فى أبيات أربعة قال :

فإمَّا تَسْأَلِى عنِّى لُبَيْنَى ۞ وعن نَسَبِى أُخَبِّرْكِ الْيَقِينَا
ثِقِى أَنِّى النَّبِيهُ أَبًا ، وَأُمًّا ۞ وَأَجْدَادًا سَمَوْا فى الأقْدَمِينَا
وَرِثْنَا المَجْدَ عن كُبْرَى نِزَارٍ ۞ فَأَوْرَثْنَا مَآثِرَنَا الْبَنِينَا

التشابه بين هذه المجمهرة وبين معلقة ابن كلثوم

وهذا البيت هو أيضاً بعينه بيت ابن كلثوم فى طويلته المشهورة ، والقصيدة كلها فى نظمها وقافيتها ، وطريقة فخرها مشابهة للمعلقة المذكورة :

وَكُنَّا حيثُما عَلِمَتْ مَعَدٌّ   أَقَمْنا حيثُ سَارُوا هَارِبينَا
تَنُوحُ وقد تَوَلَّتْ مُدْبِرَاتٍ   تَخَالُ سَوادَ أَيْكَتِها عَرِينَا
فأَنْبَتْنَا خَضَارِمَ نَاضِرَاتٍ   يَكُونُ نِتَاجُها عِنَباً وتِينَا
وأَرْصَدْنا لِرَيْبِ الدَّهرِ جُرْداً   لَهَامِيًّا ومَاذِيًّا حَصِينَا
وخَطِّيًّا كَأَشْطَانِ الرَّكَايَا   وأَسْيَافًا يَقُمْنَ ويَنْحَنِيَنَا
وفِتْيانًا يَرَوْنَ القَتْلَ مَجْداً   وشِيباً فى الحُروبِ مُجَرَّبِينَا
تُخَبِّرْكِ القَبَائِلُ من مَعَدٍّ   إِذَا عَدُّوا سِعَايَةَ أَوَّلِينَا
بأَنَّا النَّازِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرٍ   وأَنَّا الضَّارِبونَ إذا لَقِينَا
وأَنَّا المَانِعُون إذا أَرَدْنَا   وأنا المُقْبِلُون إذا دُعِينَا
وأَنَّا الحَامِلُون إذا أَنَاخَتْ   خُطُوبٌ فى العَشِيرَةِ تَبْتَلِيَنَا
نُشَرِّدُ بالمَخَافَةِ من أَتَانَا   ويُعْطِينَا المَقَادَةَ من يَلِينَا
إذا مَا المَوْتُ غَلَّسَ بِالمَنَايَا   وذَبَّلت المُهَنَّدَةُ الجُفُونَا
وأَلْقَيْنَا الرِّماحَ وكان ضَرْبٌ   يَكُبُّ على الوُجُوهِ الدَّارِعِينَا
نَفَوْا عن أَرضهم عَدْنَانَ طُرًّا   وكانوا بالرِّعَاية قَاطِنِينَا
وهُمْ قَتَلُوا السَّنِيَّ أبا رُغَالٍ   بِنَخْلَةَ إذ يُسوق بها الظَّعِينَا

وأبو رغال هذا هو دليل أبرهة الحبشى صاحب الفيل .

وفوده على ابن جدعان ولطف استمناحه إياه

وذكر أبو الفرج فى كتابه : أنه وفد على عبد الله بن جدعان وكان سيداً جواداً مضيافاً فصادفه عليلا وعنده قينتاه تغنيانه ، فقال له : ما جاء بك ؟ فقال كِلَابُ غُرَمَاء نَبَحَتْنِى ، فقال ابن جدعان : قَدِمْتَ علىَّ وأنا عَلِيلٌ من حقوق

لَزِمَتْنِي فَأَنْظِرْنِي مَا فِي يدى ، وقد ضَمِنْتُكَ قَضَاءَ دَيْنِك وَلا أَسْأَلُكَ عَنْ مَبْلَغِهِ ، فأقام عنده أياما وكأنه استبطأ جائزته فأتاه فأنشده :

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي　　حَيَاؤُك إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ
وعِلْمُكَ بِالْحُقُوقِ وَأَنْتَ قَرْمٌ　　لك الْحَسَبُ الْمُهَذَّبُ والسَّنَاءُ
كَرِيمٌ لا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ　　عن الْخُلُقِ الْجَمِيلِ وَلاَ مَسَاءُ
تُبَارِي الرِّيحَ مَكْرُمَةً وَمَجْداً　　إذا مَا الْكَلْبُ أَجْحَرَهُ الشِّتَاءُ
إِذَا أَثْنَى عليكَ الْمَرْءُ يَوْمًا　　كَفَاهُ من تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ
فأرضُكَ كُلُّ مَكْرُمَةٍ بَنَاها　　بَنُو تَيْمٍ وَأَنتَ لَهَا سَمَاءُ
فهل تَخْفَى السَّمَاءُ عَلَى بَصِيرٍ　　وهل بِالشَّمْسِ طَالِعَةً خَفَاءُ

وهذه القطعة من شعره تحقق ما أشرنا إليه عند وصفنا له من ذهابه في السلاسة والرقة وإسْنَاء المديح على ما فيها من جمال التَّأَتِّي وحسن التلطف في الطلب ، ويعتبر قوله « إذا أَثْنَى عليك المرء » البيت ، وهو أعلا معانيه فيها من أنبل ما يوصف به العظماء من الناس .

روى أبو الفرج عمن حدث عنه في كتابه قال : سَأَلْتُ سُفْيَانَ بن عُيَيْنَةَ عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : (كَانَ مِنْ أَكْثَرِ دُعَاءِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، وهو ذكر وليس فيه من الدعاء شيء ، فقال لي : أعرفت حديث مالك بن الحارث يقول الله جل ثناؤه : إِذَا شَغَلَ عَبْدِي ثَنَاؤُهُ عَلَيَّ عن مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِين » وساق بيت أمية هذا ، ثم قال سفيان : فهذا مخلوق ينتسب إلى الجود ، فقيل له يكفينا من مسألتك أن نُثْنِي عليك وَنَسْكُتُ حتى تَأْتِيَ على حاجتنا فكيف بالخالق جلّ وعلا ، قالوا : وإن ابن جُدْعَان أعطاه إِحْدَى جَارِيَتَيْه فَمَرَّ بها على جماعة من قُرَيش فَنَدَّمُوه على

حديث مالك ابن الحارث وشعر أمية

أخذها ، وأنه لو رجع فردَّها إليه لأَعْظَمَ ذلك عنده لمكان هذه القَيْنَة من نفسه ، وما زالوا به حتى عاد إليه فذكر له عبد الله ما فعل به الملأ من قريش وأعطاه الثانية ، فقال أُمَيَّة أيضاً :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِامْرِئٍ إن حَبَوْتَه ... بِبَذْلٍ وما كُلُّ العَطَاء يَزِينُ
وَليس بِشَيْنٍ لِامْرِئٍ بَذْلُ وَجْهِهِ ... إليكَ كما بَعْضُ السُّؤال يَشِينُ

وهذان أيضاً مما لا يتكلم به إلا عند الملوك والأعْلياء من الناس ، وهو معنى طبيعى والعبارة عنه مخترعة ، وكان ابن جدعان أول من أطعم الناس الْفَالُوذَ ، وذلك أنه أكله عند كِسْرَى فسأل عنه، فقيل له هذا لُبَابُ البُرِّ يُلْبَكُ مع عَسَل النَّحْل ، فقال أَبْغُونِي غلاما يصنعه ، ثم قَدِمَ مكةَ فصنعه للناس واعترضهم به فى الأَبْطَح ، فقال أُمَيَّةُ من أبْيَاتٍ له :

أول من أطعم الناس الفالوذ

له دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْمَعِلٌّ ... وَآخَرُ فوق دَارَتِهِ يُنَادِى
إلى رُدُحٍ من الشِّيزَى مِلَاءٍ ... لُبَابُ البُرِّ يُلْبَكُ بِالشِّهَادِ

الشِّيزَى : خَشَبٌ تُتَّخَذُ منه القصاع ، وكان له بنون هم : رَبِيعَةُ وَالْقَاسِمُ وَوَهْبٌ ، وكان القاسمُ شاعراً ، وَيُنْسَبُ إليه و إلى أبيه هذه الأبيات :

قَوْمٌ إذَا نَزَلَ الْغَرِيبُ بِدَارِهِم ... رَدُّوهُ رَبَّ صَوَاهِلٍ وَقِيَانِ
وَإِذَا دَعَوْتَهُمُ لِكُلِّ مُلِمَّةٍ ... سَدُّوا شُعَاعَ الشَّمْس بالفُرْسَانِ
لايَنْكُتُونَ الأَرْضَ عندسُؤَالِهِم ... لِتَلَمُّسِ العِلَّاتِ بِالْعِيدَانِ
بل يَبْسُطون وجُوهَهَم فتَرَى لها ... عندَ السُّؤال كَأَحْسَنِ الأَلْوَانِ

و يظن أن من هؤلاء من كان يصاحبه على هُونٍ كما يصنع كثير من طبقات المتعلمين خاصة من أبناء زماننا مع آبائهم وأهليهم إذ يرونهم من أهل جيل سالف لايصلحون لهذه الحياة العصرية فيرمونهم بالجمود وضعف الرأى ، و يأنفون

من أزيائهم الريفية ، ولا يظاهرون بهم محاضر الناس ، فقال أمية يقرر هذه الحالة فى الشكوى من عقوق ولده :

غذوتك مولودًا وعلتك يافعا ... تعل بما أحنى عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت ... لشكواك إلا ساهرًا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى فعيناى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
وسميتنى باسم المفند رأيه ... وفى رأيك التفنيد لو كنت تعقل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

صدق تصويره لعقوق الأبناء لآبائهم

فترى أنه كان دقيق التصوير لهذه الحالة الاجتماعية التى تتمثل فيما يكون من حدب الآباء ، وتعطفهم وإشفاقهم ، ومايجزون به من طيش أبنائهم وقسوتهم فى اعتراضهم إلى مكاره الآباء بما يغضبهم ، ويشق عليهم ، وهى مطبوعة النظم سائغة الأسلوب .

شعره فى الكونيات

قال وذكر الفناء وما يلقاه الناس بعد ذلك :

إله العالمين وكل أرض ... ورب الراسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعًا شدادًا ... بلا عمد يرين ولا رجال
وسواها وزينها بنور ... من الشمس المضيئة والهلال
ومن شهب تلألأ فى دجاها ... مراميها أشد من النصال

وَشَقَّ الأرْضَ فانبَجَسَتْ عُيُونًا ... وَأَنْهَارًا من الْعَذْبِ الزُّلاَلِ
وَبَارَكَ فى نَوَاحِيها وَزَكَّى ... بها ما كانَ من حَرْثٍ وَمَالِ
فكُلُّ مُعَمَّرٍ لاَ بُدَّ يَوْمًا ... وَذِى دُنْيَا يَصِيرُ إلى زَوَالِ
وَيَفْنَى بعدَ جِدَّته وَيَبْلَى ... سِوَى الباقِى المُقَدَّسِ ذِى الْجَلاَلِ
وَسِيقَ المُجْرِمُونَ وهم عُرَاةٌ ... إلى ذَاتِ المَقَامِعِ وَالنَّكَالِ
فنَادَوْا وَيْلَنَا وَيْلاً طَوِيلا ... وَعَجُّوا فى سَلاَسِلِها الطِّوَالِ
فليْسُوا مَيِّتِين فيَسْتَرِيحُوا ... وَكُلُّهُمُو بحَرِّ النَّارِ صَالِ
وَحَلَّ المُتَّقُون بدارِ صِدْقٍ ... وَعَيْشٍ نَاعِمٍ تحتَ الظِّلاَلِ
لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ وَمَا تَمَنَّوْا ... من الأَفْرَاحِ فيها والكَمَالِ

ومثلها فى أكثر معانيها قوله :

ويومَ مَوْعِدِهِمْ أَنْ يُحْشَرُوا زُمَرًا ... يومَ التَّغابُنِ إذْ لاَ يَنْفَعُ الحَذَرُ(١)
مُسْتَوْسِقِينَ مع الدَّاعِى كأَنَّهُمُو ... رِجْلُ الجَرَادِ زَفَتْهُ الرِّيحُ تَنْتَشِرُ(٢)
وأُبْرِزُوا بصَعِيدٍ مُسْتَوٍ جُرُزٍ ... وَأُنْزِلَ العَرْشُ وَالمِيزَانُ وَالزُّبُرُ(٣)
وَحُوسِبُوا بِالَّذِى مَا يُحْصِهِ أَحَدٌ ... مِنْهُمْ وَفى مِثْلِ ذَاكَ اليَوْمِ مُعْتَبَرُ
فَمِنْهُمُ فَرِحٌ راضٍ مَعِيشَتَه ... وآخَرُونَ عَصَوْا مَأْوَاهُمُ سَقَرُ
يقولُ خُزَّانُها ما كانَ عِنْدَكُمُ ... أَلَمْ يَكُن جاءَكُمْ من رَبِّكم نُذُرُ
قالوا بَلَى فأَطَعْنَا سَادَةً بَطِرُوا ... وغَرَّنا طولُ هذا العَيْشِ والعُمُرُ
قالُوا امْكُثُوا فى عذَابِ اللهِ مالَكُمُ ... إلاَّ السَّلاَسِلُ والأَغلاَلُ والسُّعُرُ

---

(١) الزمر : جمع زمرة ، وهى الجماعة ، ويوم التغابن : هو يوم القيامة . قال فى القاموس : سمى بذلك لأن أهل الجنـة تغبن أهل النار ، والغبن : أصله النسيان والاغفال ، وهو أيضاً الضعف . (٢) والرجل : جماعة الجراد .

(٣) الجرز : الأرض لاتنبت شيئاً .

وله غير ذلك قصائد فى ذكر الآخرة والجنة والنار كما ترى يكاد أكثر معانيها يكون مقتبساً من القرآن كقوله ، وهو بقية من قصيدة :

أخذه من القرآن وتقصيره فى الأداء

عِندَ ذِى العَرْشِ يُعْرَضُون عليه ... يَعْلَمَ الجَهْرَ والكلامَ الخَفِيَّا
يومَ نأْتيه وهْوَ رَبٌّ رحيمٌ ... إنَّهُ كانَ وَعْدُه مَأْتِيًّا
يومَ تأْتِيهِ مثلَ ما قالَ فَرْداً ... لم يَذَرْ فيه رَاشِداً وغَوِيَّا
أَسَعِيدٌ سَعادَةً أنَا أَرْجُو ... أم مُهَانٌ بمَا كَسَبْتُ شَقِيَّا
رَبِّ إنْ تَعفُ فَالمُعَافَاةُ ظَنِّى ... أَو تُعاقِبْ فَلَمْ تُعَاقِبْ بَرِيَّا
رَبِّ كُلاًّ حَتَمْتَهُ وَارِدَ النَّـــارِ ... كِتابًا حَتَمْتَهُ مَقْضِيَّا

ونكتفى بهذا القدر لنذكر أساطيره ، وما تناوله من الخرافات والحديث عن الحيوان . قال يذكر سفينة نوح وما حملت من أزواج ، ويتحدث عن الخرافات القديمة فى الحمامة المُطَوَّقَة ، وَأَنَّها حين دلت أصحاب السفينة على الأرض اليابسة أعطَوْها هذا الطوق ، فَلَزِم جيدَها :

شعره فى الأساطير

وَأُرْسِلَتِ الحَمَامَةُ بَعْدَ سَبْعٍ ... تَدُلُّ عَلَى المَهَالِكِ لاَ تَهَابُ
فَجَاءتْ بعدَ مَا رَكَضَتْ بِقِطْفٍ ... عليه الثَّأْطُ وَالطِّينُ الكُثَابُ(١)
فلمَّا فَتَّشُوا الآيَاتِ صَاغُوا ... لها طَوْقاً كما عُقِدَ السِّخَابُ(٢)
إذا مَاتَتْ تُوَرِّثُهُ بَنِيها ... وَإِنْ تُقْتَلْ فَلَيْسَ له اسْتِلاَبُ
جَزَى اللهُ الأَجَلُّ المَرْءَ نُوحًا ... جَزَاءَ البِرِّ ليس لهُ كِذَابُ
بِمَا حَمَلَتْ سَفِينَتُهُ وَأَنْجَتْ ... غداةَ أَتَاهُمُ المَوْتُ القُلاَبُ(٣)
وَفِيهَا مِنْ أُرُومَتِهِ عِيَالٌ ... لديه لا الظِّمَاءُ وَلاَ السِّغَابُ

---

(١) القطف بالكسر : العنقود والثمار المقطوفة . الثأط : الحمأة ، وهى الطين الأسود . الكثاب كغراب : الكثير . (٢) السخاب ككتاب : عقد من قرنفل ونحوه ليس فيه جوهر . (٣) القلاب كغراب : داء للقلب .

عَشِيَّةَ أُرْسِلَ الطُّوفَانُ يَجْرِى وَفَاضَ المَاءُ لَيْسَ له جِرَابُ
على أمواجِ أَخْضَرَ ذِى حَبِيكٍ كأَنَّ سُعَارَ زَافِرِهِ الهِضَابُ

وقال يذكر قصة إبراهيم وَنَذْرَه وَلدَهُ لله ، وما كان من حديث الذبح كما ورد فى القرآن .

نذر إبراهيم ذبح ولده

وَلِإِبْرَاهِيمَ المُوَفِّى بِالنَّذْرِ احْتِسَابًا وَحَامِلِ الْأَجْزَالِ
بِكْرُهُ لم يَكُنْ لِيَصْبِرَ عَنْهُ أَوْ يَرَاهُ فى مَعْشَرٍ أَقْتَالِ
يَا بُنَيَّ إِنِّى نَذَرْتُكَ لِلّهِ شَحِيطًا فَاصْبِرْ فِدًى لَكَ خَالِى
فأَجَابَ الْغُلَامُ أَنْ قالَ فُوهُ كُلُّ شَىْءٍ لِلّهِ غَيْرَ انْتِحَالِ
أَبَتِى إِنَّنِى جَزَيْتُكَ بِاللّهِ تَقِيًّا بِهِ عَلَى كُلِّ حَالِ
فاقْضِ مَاقَدْ نَذَرْتَ لِلّهِ وَاكْفُفْ عن دَمِى أَنْ يَمَسَّهُ سِرْبَالِى
وَاشْدُدِ الصَّفْدَ أَنْ أَحِيدَ عن السِّكِّينِ حَيْدَ الْأَسِيرِ ذِى الْأَغْلَالِ
بَيْنَمَا يَخْلَعُ السَّرَابِيلَ عَنْهُ فَكَّهُ رَبُّهُ بِكَبْشٍ جُلَالِ
قالَ خُذْهُ وَأَرْسِلِ ابْنَكَ إِنِّى لِلَّذِى فَعَلْتُمَا غَيْرُ قالِ

وظاهر من هذه الركاكة فى نظم القصة فرق ما بينها وبين ما ورد من ذلك فى القرآن ، وقال أيضاً يذكر قصة مريم :

وَفِى دِينِكُمْ من رَبِّ مَرْيَمَ آيَةٌ مُنَبِّئَةٌ وَالْعَبْدُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمِ
تَدَلَّى عليْها بعد مَا نَامَ أَهْلُهَا رَسُولٌ فَلَمْ يَحْصَرْ ولم يَتَرَمْرَمِ
فَقَالَ أَلَا لَا تَجْزَعِى وَتُكَذِّبِى مَلَائِكَةً من رَبِّ عَادٍ وَجُرْهُمِ

قصة مريم

أَنِيبِي وَأَعْطِى مَا سُئِلْتِ فَإِنَّنِي رَسُولٌ من الرَّحْمٰنِ يَأْتِيكِ بِابْنِمِ
فَقَالَتْ لَهُ أَنَّى يَكُونُ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا وَلَا حُبْلَى ولا ذَاتَ قَيِّمِ

أَأَخْرَجُ بالرَّحْمٰنِ إنْ كُنتَ مُسْلِماً   كَلاَمِىَ فَاقْعُدْ ما بَدَا لَكَ أوقُمِ
فسَبَّحَ ثم اُغْتَرَّهَا فالْتقَتْ به   غُلاَمًا سَوِىَّ الخلْقِ ليس بِتَوْأَمِ
بِنَفْخَتِهِ فى الصَّدرِ من جَيْبِ دِرْعِها   وما يَصْرِمِ الرَّحْمٰنُ مِالْأَمْرِ يُصْرَمِ

إلى قوله على لسان عيسى :

فقال لهَا إِنِّى مِنَ اللّٰهِ آيَةٌ   وعَلَّمَنى واللّٰهُ خَيْرُ مُعَلِّمِ
وأُرْسِلْتُ لمْأُرْسَلْ غَوِيًّا ولم أَكُنْ   شَقِيًّا ولم أُبْعَثْ بِفُحْشٍ ومَأْثَمِ

وهنا أيضا من رداءة القوافى وقلق الكلمات مالا يخفى على بصير .

على أن الشاعر حاول تقليد بلاغة القرآن فى الأداء فأعجزه ذلك وقطعه بل أوقعه فى هذا الاضطراب وَالإسْفَاف ، ووضع هذه الفضول الفارغة من المعنى كقوله : « رب عاد وجرهم » ، وقوله : « يأتيك بابنم » ، « وليس بتوأم » ، ولا يخفى نبوّها وسماجتها فى موضعها .

وقال يذكر خراب سَدُوم ، وهى مدينة لُوطٍ وما وقع له مع قومه من بقية قصيدة :

سدوم قرية لوط

ثمَّ لُوطٌ أَخُو سَدُومَ أَتَاهَا   إِذْ أَتاهَا بِرُشْدِها وهُدَاها
رَاوَدُوهُ عن ضَيْفِهِ ثم قَالوا   قد نَهَيْنَاكَ أَنْ تُقِيمَ قِرَاهَا
عَرَضَ الشَّيخُ عند ذَاكَ بَنَاتٍ   كَظِباءٍ بِأَجْرُعٍ مَرْعَاهَا
غَضِبَ القَوْمُ عند ذَاكَ وقَالُوا .   أيُّها الشَّيخُ خِطْبَةٌ نَأْبَاهَا
أَرْسَلَ اللّٰهُ عند ذَاكَ عذَابًا   جَعَلَ الْأَرْضَ سُفْلَهَا أَعْلاَهَا
أَجْمَعَ القومُ أمرَهُمْ وعَجُوزٌ   خَيَّبَ اللّٰهُ سَعْيَهَا وَرَجَاهَا
ورَمَاهَا بِحَاصِبٍ ثم طِينٍ   ذِى حُرُوفٍ مُسَوَّمٍ إِذْ رَمَاهَا

وقال فى غارة الأحباش على الكعبة ، وأشار إلى قصة الفيل ، وفيها ذكر الحنيفة : وأن كلّ دين غيرها عند الله زور يوم القيامة :

إِنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بَاقِيَاتٌ لَا يُمَارِي فِيهِنَّ إِلَّا الْكَفُورُ
خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَكُلٌّ مُسْتَبِينٌ حِسَابُهُ مَشْهُورُ
ثُمَّ يَجْلُو الظَّلَامَ رَبٌّ كَرِيمٌ بِمَهَاةٍ شُعَاعُهَا مَنْشُورُ
حَبَسَ الفِيلَ بِالْمُغَمَّسِ حَتَّى ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورُ
لَازِمًا حَلْقَةَ الْجِرَانِ كَمَا قُطِّـرَ مِن صَخْرِ كَبْكَبٍ مَحْدُورُ
حولَه من مُلُوكِ كِنْدَةَ أَبْطَا لٌ مَلَاوِيثُ فِى الحُرُوبِ صُقُورُ

ثم انتهى بقوله :

كُلُّ دِينٍ يومَ القِيَامَةِ عندَ اللهِ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ زُورُ

ومن حديثه عن الحيوان كلامه عن قُنْزُعَةِ الْهُدْهُدِ ، وذلك أن من الخرافات المأثورة أن الْهُدْهُدَ لما ماتت أُمُّهُ أراد أن يَبَرَّها فحملها على رأسه ، وَبَقِيَتْ كذلك حتى تَوَلَّدت منها هذه القُنْزُعَة التى فوق رأس الهدهد ، وذلك هو معنى قوله من قصيدة :

قنزعة الهدهد

غَيْمٌ وَظَلْمَاءُ وَغَيْثٌ سَحَابَةٍ أَيَّامَ كَفَّنَ وَاسْتَرَادَ الْهُدْهُدُ
يَبْغِي القَرَارَ لِأُمِّهِ لِيُجِنَّهَا فَبَنَى عليها فى قَفَاهُ يَمْهَدُ
مَهْدًا وَطِيًّا فَاسْتَقَلَّ بِحَمْلِهِ فى الطَّيْرِ يَحْمِلُهَا وَلَا يَتَأَوَّدُ
فَتَرَاهُ يَدْلَحُ مَاشِيًا بِجِنَازَةٍ منها وما اخْتَلَفَ الجَدِيدُ المُسْنَدُ

ومن الخرافات أيضا أن الديك والغراب كانا نَدِيمَيْنِ فى سالف الدهر لا يفترقان وأنهما ذهبا يوما إلى خَمَّار ، فمكثا عنده ثم إن الغراب رهن الديك عند الخمار وغاب عنه على أن يعود إليه بالفِكاكِ فلم يفعل ، فأخذ الخمار الديك فجعله حارسا ، وقد أشار إلى هذه الخرافة فى جملة مواضع من شعره ، فمن ذلك قوله من قصيدة تقدم معظمها :

أسطورة الديك والغراب

بِآيَةِ قَامَ يُنْطِقُ كُلَّ شَيْءٍ وَخَانَ أَمَانَةَ ٱلدِّيكِ الْغُرَابُ

وقوله :

هُنَالِكَ ظَنَّ ٱلدِّيكُ أَنْ دَالَ دَوْلَةً وَطَالَ عليه ٱللَّيْلُ أن لاَ مُفَادِيَا
فَلَمَّا أَضَاءَ الصُّبحُ طَرَّبَ صَرْخَةً أَلاَ يَا غُرَابُ هل سَمِعْتَ نِدَائِيَا
عَلَى وُدِّهِ لَوْ كَانَ ثَمَّ مُجِيبَهُ وَكَانَ له نَدْمَانَ صِدْقٍ مُوَاتِيَا
وَأَمْسَى الغرابُ يَضْرِبُ الْأَرْضَ كُلَّهَا عَتِيقًا وَأَضْحَى ٱلدِّيكُ فى الْقِدِّ عَانِيَا
فذلِكَ مما أَسْهَبَ الخمر لُبَّه وَنَادَمَ نَدْمَانًا مِنَ الطَّيْرِ غَاوِيَا

وله غير ذلك عدة قصائد أشار فيها إلى قصة ثمود وما كان من عقْرهم للناقة ، وكذلك رسالة موسى وهرون إلى فرعون وملئه وألمّ أيضا بالمناقشة التى وقعت بينهما فى رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ ، وقد رأينا أن نكتفى بما ذكرناه له من الأمثلة إذ كانت متشابهة لاتدل على شيء أكثر من نقل الشاعر لها من الكتب كما أسلفنا ، ومع ذلك فهى تكاد تخلو من جمال الشعر وحسن الكلام ، ويظن أن آخر شعر قاله عند موته هو قوله :

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولاَ
لَيْتَنِي كُنْتُ قبلَ مَا قَدْ بَدَا لِي فى رُءُوسِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولاَ
فاجْعَلِ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَاحْذَرْ غَوْلَةَ الدَّهرِ إِنَّ لِلدَّهْرِ غُولاَ

أما رثاؤه لقتلى بدر وهو ما يدل بلا ريب على خَسَارِهِ وَعَمَايَتِهِ بعد أن كاد ينجو من الكفر فهو يؤيد أيضاً ما روى عنه من أنه كان يطمع فى النبوة وَانَّ الذى غَيَّرَه إِنَّمَا هو الحسد وسوء المنقلب : وذلك أنه لما ظهر الإسلام رحل إلى الشأم ثم رجع إلى الحجاز عقب بدر ، ومرّ بالْقَلِيبِ فقيل له : إن فيه قتلى بدر ، ومنهم عتْبَةُ وَشَيْبَةُ أبنا رَبِيعَةَ ، وهما ابْنَا خَالِهِ ، فقال يرثيهم ويحرض كفار مكة على الْأَخْذِ بثأرهم من النبى وأصحابه .

أَلاَّ بَكَيْتَ عَلَى الْكِرَامِ بَنِي الْكِرَامِ أُولِي المَمَادِحْ
كَبُكَا الْحَمَامِ عَلَى فُرُوعِ الْأَيْكِ فِى الْغُصُنِ الجَوَانِحْ
يَبْكِينَ حَرَّى مُسْتَكِينَا تٍ يَرُحْنَ مَعَ الرَّوَائِحْ

ثم يقول :

مَنْ ذَا بِبَدْرٍ فَالْعَقَنْقَلِ من مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحْ
شُمْطٍ وشُبَّانٍ بَهَالِيلٍ مَغَاوِيرٍ دَحَادِحْ
من كُلِّ بِطْرِيقٍ لِبِطْرِيقٍ نَقِيِّ اللَّونِ وَاضِحْ
القَائِلِينَ الْفَاعِلِينَ الْآمِرِينَ بِكُلِّ صَالِحْ

إلى قوله :

ولقَدْ عَنَانِى صَوْتُهم من بَيْنِ مُسْتَسْقٍ وصَائِحْ
لِلَّهِ دَرُّ بَنِي عَلِيٍّ أَيِّمٍ مِنْهُم ونَاكِحْ
إنْ لم يُغِيرُوا غَارَةً شَعْوَاءَ تُجْحِرُ كُلَّ نَابِحْ
بالمُقْرَبَاتِ المُبْعِدَاتِ الطَّامِحَاتِ مع الطَّوامِحْ
مَرُّوا على جُرْدٍ إلى أُسْدٍ مَكَالِبَةٍ كَوَالِحْ

وقد نهى النبيّ عن رواية هذه القصيدة ، وله قصيدة ذكر فيها النبيّ وَقَرَّظَه ، وفضل دينه على الأديان ، والراجح أنها مفتعلة لمخالفتها لما عرف من مذهبه ونفاره بعد ظهور الدعوة كما قدمنا ، والله أعلم .

ترجمة حاتم الطائى

تقديم

كان لهجرة الطوائف القحطانية من بلاد اليمن إلى شمال الجزيرة أثر قوى فى ترقية الحياة الاجتماعية ، وتأليف الإمارات المختلفة ، و إنشاء العلاقات السياسية مع الأمم المجاورة ، وتنبيه رؤساء القبائل المضرية إلى ضرورة إيجاد وحدة قومية خاضعة لسلطان قائم على تنظيم النِّزاع المسْتَحِرِّ بين العشائر العربية على وسائل العيش وأساليب الاكتساب ، فقد أسس اللَّخْمِيُّون منهم إمارة الحِيرَةِ ببلاد العراق ، و بقيت مُوَالية لنفوذ الفرس إلى ما بعد ظهور الإسلام .

وكان الغَسَّانِيُّون من أبناء جَفْنَةَ ، وينتمون إلى الأَزْدِ من اليمن وُلَاةً لقياصرة القسطنطينية فى بلاد الشام ، وامتدَّ ملكُهم فى دِمَشْقَ إلى وقت ظهور الغُزَاةِ المسلمين على أبواب البلاد ، ونشأت فى نجد إمارة أخرى أسَّسها الكِنْدِيُّون بعد نزوحهم من اليمن كان بينها و بين القسطنطينية عهود وسفارات أدت إلى انحياز ملوك كندة مع الغسانيين من حلفاء الروم على أعدائهم من الفرس وولاتهم من عرب العراق :

أشراف طيئ

وحول أوائل التاريخ المسيحى هاجرت طَيِّئٌ إلى شرقى مكة فى نجد ، ونزلت بِأَجَاٍ وسَلْمَى المعروفين فيما بعد بجَبَلَىْ طَيِّئٍ ، وقد نبغ منها جماعة منهم : إِيَاسُ بن قَبِيصة ولاَّه كِسْرى بَلَاطَ الحِيرَة بعد مَقْتَل النعمان الخامس إلى سنة ٦١٣ م ، ومنهم صِهْر ملوك المَنَاذِرَة سَعْدُ بنُ حَارِثة بنِ لَأمٍ الطَّائى ، وكان له ولقومه رُبْعُ الطريق طُعْمَةً منهم لمكان هذا الصهر ، ومنهم أَوْسُ بنُ حارِثَةَ وأمه سُعْدَى ، وهى التى أشارت عليه حين هجاه بِشْرُ بن أبى خَازِمٍ بأن يصله و يقضى حوائجه فأدى ذلك إلى أن أفرغ عليه بشر مديحه حتى مات، ومن فرسانها وأجوادها زَيْد الخَيْل النَّبْهانى الذى سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم

زيد الخير ، وهو قائدهم وصاحب لوائهم ، وكان شاعراً شجاعا شريفاً .

ومنهم حَاتِمٌ الطائى الجواد المشهور الذى يضرب به المثل فى الكرم ، وأبوه عبدُ الله وجده سعدُ بن الحَشْرَج من سادات طيئ ، وأمه غَنِيَّة وقيل عنبة بنت عَفِيفٍ ، وكانت ذات يسار وتعد من أجود نساء العرب .

والمرجح أنه قضى حياته فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى إلى أوائل السابع ، وقد ورث ما اشتهر به من مناقبه فى الجود والعفاف والوفاء عن آباء نبلاء لهم عرق فى الرياسة وعلوّ الأمر فى طيئ ، ويصفه أكثر الرواة بأنه كان ميمون النقيبة مظفراً ، إذا غزا غلب ، وإذا سلب أنهب ، ولا يمنع ذلك من وقوعه فى الأسر مرة أو مرتين كما سيجىء .

وقد استفاضت أعاجيبه فى الكرم حتى أدى ذلك إلى اختلاط تاريخه بكثير من الحكايات المدخولة والقصص الخرافية لما جرت به عادة الناس من حبهم للتزيد ، وميلهم إلى الاستطراف بالغرائب عند انتشار الشهرة وشيوع الذكر .

رأى الزبير ابن بكار فيما ينسب إلى حاتم من الأخبار

ويقول أَبُو عَبْدِ الله الزُّبَيْرُ بن بَكَّارٍ المُتَوَفَّى سنة ٢٥٦ ﻫ وهو من رواة أَبِى الفَرَج فى الأغانى « والعرب تتحدث بأشياء هى عندها صحيحة ، وقد نطقت بذلك أشعارها وتمثلت به ، ولا تكاد النفس تصدّق بها ، وأحسب أمر حَاتِم حِيلَةً من ورثته ونَسَبُوهُ إليه والله أعلم ، أو من الجن وهو عندى أشبه » وتدرك مكان هذا النقد من الصواب حين تقرأ الحكاية الآتية :

زعموا أن رجلا يقال له أَبُو الْخَيْبَرِىّ مَرَّ مُسَافِراً فى نَفَرٍ من قومه بقبر حاتم فى مكان يقال له تُنْغَةُ بضم التاء ، وفى ياقوت : أن قبره بمكان آخر يسمى عُوَارِض بضم العين حوله أَنْصَابٌ من حجارة متقابلات كأنهُنَّ نِسَاءٌ نوائِحُ فنزلوا به وبات أبو الخيبرى لَيْلَتَهُ يناديه : « إِقْرِ أضيافَكَ يا حَاتِمُ ، أَقْرِ

أضيافك » ، يريد أن يُبَخِّلَهُ ويشهر أمره فى العرب ، فلما كان السحر هَبَّ فَزِعًا يَصِيحُ : وَارَاحِلَتَاه ! واراحلتاه ! فقال له أصحابه : ويلك ما دهاك ؟ قال خرج والله حاتم من قبره بالسيف ، وأنا أنظر إليه حتى عَقَرَ ناقتى ، قالوا كذبت لا يخرج ميت من قبر مَرْسُوس عليه ، قال بلى والله قد فعل ، ثم نظروا إلى راحلته فوجدوها عَقْرَى لا تَنْبَعِثْ ، فقالوا والله لقد قَرَاكَ حاتم ، ثم عَمَدُوا إليها فنحروها ، وظلوا يومهم مُعَرِّسِينَ عليها يأكلون من لحمها ، ثم ارتحلوا وأَرْدَفُوه ، وإذا هم براكب يصيح خلفهم : ألا أَرْبَعَوا أيها الركب فنظروا ، فإذا عَدِىُّ بنُ حَاتِم ومعه راحلة مَجْنُوبَة زعم لهم أن حاتمـا أتاه فى منامه وأخبره خبرَهُمْ ، وأمره أن يلحق بهم ليخلف على صاحبهم راحلته ، وأنشده فى ذلك أبياتا حفظها ، وهى قوله :

قصة أبى الخيبرى وأصحابه

أَبَا الخَيْبَرِىِّ وأنت امْرُؤٌ حَسُودُ العَشِيرة شَتَّامُهَا
أَتَيْتَ بصحبك تَبْغِى القِرَى لَدَى رِمَّةٍ صَدَحَتْ هَامُهَا
أَتَبْغِى لِى الذَّمَّ عندَ المَبِيت وحولَك غَوْثٌ وأَنْعَامُهَا
فإنَّا سَنُشْبِعُ أضيَافَنَا ونَأْتِى المَطِىَّ فَنَعْتَامُهَا

ولسنا فى حاجة إلى التعليق على هذه القصة بأكثر مما قدمناه .

ومن ذلك أيضاً ماروا يعقوب بن السِّكِّيت خاصة قال :

حكاية ابن السكيت عن حاتم فى إنهابه لماله

بينما حاتم يوما وقد أنهب ماله وهو نائم إذ انتبه وإذا حوله مائتا بعير تجول ويحطم بعضها بعضاً فساقها إلى قومه ، فقالوا له ياحاتم : أبق على نفسك فقد رزقت مالا ولا تعودن إلى ما كنت عليه من الإسراف ، قال فإنها نُهْبَى بينكم فانتهبت ، فقال حاتم فى ذلك :

تَدَارَكَنِى جَدِّى بِسَفْحِ مُتَالِعٍ فلاَ يَيْأَسَنَّ ذُو نَوْمَةٍ أن يُغَنَّمَا

اجتماع عبيد والنابغة وبشر وحاتم واتهام هذا الخبر

ومن الأخبار المدخولةِ ما يحكيه الرواة أن عَبِيدَ بن الأبْرَص ، والنَّابِغة وبِشْر بن أبي خَازِمٍ ، مَرُّوا بحاتم في طريقهم إلى النُّعْمان بن المُنْذِر فقَرَاهُم وأنزلهم وصحِبَهم إلى الحيرة في خبر مذكور ، والمعروف أن عبيداً لم يدرك النعمان ، والمشهور أنه قتل بيد المُنْذِر الثالث جَدِّ النعمان المذكور ، وبذلك يعرف ما في هذه الرواية من خطأ البحث .

رؤيا أمه في النوم

ويقولون أيضاً إن أمه رأت في منامها وهي حبلى كأن قائلا يقول لها : أغلام سَمْحٌ يقال له حاتم أحبُّ إليك ؟ أم غِلْمَة عشرة كالنَّاسِ ، لُيُوثٌ ساعةَ البَاسِ ، لَيْسُوا بأوْغَالٍ ولا أنْكَاسٍ ؟ فقالت بل حاتم أحبُّ إليّ ، على خلاف المشهور عند العرب من اعتزازهم بالعدد ومباهاتهم بالكثرة على أنه لا مانع من وقوع مثل هذه القصة ، مع ما قدمناه من شهرة أمه ومكانها في السخاء والسماحة .

وأكثر الرواة يذكرون قصة زواجه بمارِيَة ابنة عَفْزَر إحدى أميرات الحيرة .

حدث جماعة من علماء طيئ قالوا : وكانت من أجمل أهل زمانها وشهر في الناس أنها تَرْتَادُ الرجال ، وبأنها نذَرَت ألا يخطبها كريم إلا تزوجته فتناذرها الناس ، وقدم عليها من الجبلين : أَوْسُ بن حَارِثَة بن لَأْم الجُدَيْلِي ، وَزَيْدُ الْخَيْلِ النَّبْهاني ، وحَاتِم بن عبد الله ، فقالت لهم ما جاء بكم ؟ قالوا : أتيناك خُطَّابا ، قالت : وما الذي بلغ من أفعالكم أن اجترأتم على خِطْبَتِي ؟

فقال أوْسُ بن حارِثَةَ : إني أخذت ذاتَ يوم من شارِبي ، فقالت لي سُعْدَى أُمّي إن لأخذك من شاربك عليك حقا ، فأعتقت بكلِّ شعرة سَبِيَّةً من العرب ، ولي أربعة آباء وقد رَبَعُوا الغَوْثَ وَجَدِيلَةَ ، ولي أربعة بنين كلهم مني خلف . قالت أمسك .

ثم سألت زيداً فقال لها : أنا زيد الخيل وباسمى تُغِيرُ طَيِّئٌ على العرب ، ولى كلّ مِرْبَاع غَارَةٍ ولم أُلاَحِ جاهلا ، ولم أمنع سائلا ، قالت أمسك .

ثم أقبلت على حاتم فقال لها : أنا حاتم بن عبد الله الثُّعلى وفدت عن الْحَيَّيْنِ الْغَوْثِ وَجَدِيلَةَ وَأَنْهَبْتُ مالى ثلاثَ عشرة مرة وحكَّمتنى طيءُ فى أموالها .

فقالت قولوا شعراً واذكروا فيه كريم فعالكم ، فأنشدها زيد الخيل :

هلاَّ سَأَلْتِ بنى نَبْهَانَ مَا حَسَبِى ... عند الطِّعَانِ إِذَا مَا احْمَرَّتِ الحَدَقُ(١)

وقال أوسٌ : إنك لتعلمين أنّا أكرم أحسابا ، وأشهر فعالا من أن نصف أنفسنا لك ، ولكن أنا الذى يقول فيه الشاعر : (هو بِشْرُ بنُ أَبِى خَازِمٍ) :

إلى أَوْسِ بنِ حَارِثَةَ بنِ لأْمٍ ... لِيَقْضِىَ حَاجَتِى ولقد قَضَاها

فما وَطِىءَ الحَصَى مثلُ ابنِ سُعْدَى ... ولاَ لَبِسَ النِّعَالَ وَلاَ احْتَذَاهَا

وقال حاتم من قصيدته التى أولها :

حَنَنْتَ إلى الأَجْبَالِ أَجْبَالِ طَيِّءٍ ... وَحُنَّتْ جُنُونًا أَنْ رَأَتْ سَوْطَ أَحْمَرَا

---

(١) وبعده :

وَآبَتِ الْخَيْلُ مُبْتَلاًّ سَوَالِفُهَا ... بالماء يَسْفَحُ من لَبَّاتِهَا الْعَلَقُ

وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ أَنِّى كُنْتُ فارِسَهَا ... وَالْهَامُ مِنَّا ومن أَعْدَائِنَا فِلَقُ

إِذْ قالَ أَوْسٌ أَمَا مِنْ طَيِّءٍ رَجُلٌ ... يَحْمِى الذِّمَارَ وَبِيضُ القوم تَأْتَلِقُ

وَالجَارُ يَعْلَمُ أَنِّى غيرُ خَاذِلِهِ ... إِذْ نَابَ دَهْرٌ لِعَظْمِ الجَارِ مُعْتَرِقُ

إذ لا أَرَى المَالَ رَبًّا بل أرى غَبَنًا ... بُخْلاً به وَمَنَايَا الْقَوْمِ تَعْتَلِقُ

أحمر سائق حاتم

وهى قصيدة طويلة ، وأحمر هذا سائق كان لحاتم ، وقيل هو رجل كان يصنع السياط فى العرب ، فلما سمعت كلامهم أمرتهم بالانصراف حتى تنظر فى أمرهم ، ثم عاد إليها حاتم فتزوجها وهى أم ولده عدى بن حاتم ، ومكثت معه مدة ثم طلقته وخَلَفَه عليها ابن عم له يسمى مالك . وكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال فى الجاهلية ، وذلك بتحويل أبواب الخيام إلى المشرق إن كانت إلى المغرب أو نحو ذلك ، وكان السبب فى ذلك إغراء مالك لمارية بأن حاتما إن مات تركها ولا شىء فى يدها لكثرة بذله وإتلافه ، قال : وإن أضيافاً لحاتم نزلوا بخبائها كما كانوا ينزلون به وتوافوا عندها إلى خمسين رجلا فبعثت جاريتها إلى مالك أن يقرى أضياف حاتم ، وإنما هى الليلة حتى يعرف مكانه فلم تجد عنده شيئاً فأرسلتها إلى حاتم فبعث إليها نابين من الإبل فنحرهما وأطعم الناس فراجعته مارية .

تطليق النساء للرجال فى الجاهلية

قصـــة مجاد حاتم

كان الحَـكَمُ بنُ أَبِى العَاصِ بن أُمَيَّةَ بن عبد شَمْسٍ قد خرج فى عِيرٍ له يريد العراق فى تجارة ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليها العرب كلّ سنة ، وكان النعمان بن المنذر قد جعل لبنى لَأْمٍ من طيئ ربع الطريق طُعْمَةً لهم لِصِهْرٍ كان لهم عنده ، فمرّ الحَـكَمُ بن أبى العاص بحاتم بن عبد الله ، فسأله الجوار فى أرض طيئ حتى يصل إلى الحيرة فأجاره ونحر له ، وكان معه مِلْحَانُ بن حَارِثَةَ بن سَعْدِ بن الحَشْرَج وهو ابن عمه ، وَطَيَّبَهُم الحكم من طيبه ، ثم مرُّوا بِسَعْد بن حَارِثَةَ وحاتم على ظهر راحلته ومعه فرسه يُقَادُ ، فقال له سعد : من هؤلاء معك ؟ فقال هؤلاء جيرانى ، فقال له سعد : فأنت تجير علينا فى بلادنا ؟ فقال أنا ابن عمكم وأحق من لم تَخْفِرُوا ذِمَّتَه ، فقال لستَ هناك ، وأرادوا أن

يفضحوه وتنازعوا ، و بلغ أمرهم إلى المِجَاد بسوق الحيرة مجتمع العرب ، وسمع بذلك إِيَاسُ بنُ قَبِيصَةَ الطائى ، فخشى أن يعينَهم النُّعمان بن المنذر على حاتم للصهر الذى كان بينهم ، فجمع رهطه من بنى حَيَّةَ وقال لهم : أعينوا ابن عمكم على مجاده قبل أن يفضحه بنوحارثة ، فتساهموا أمره وقاموا معه ، ودخل إياس مغضباً على النعمان فقال : أَبَيْتَ اللعْنَ ، أتُعِينُ أَخْتَانَك بالمـال والخيل ؟ فإن شئتَ والله نَاجَزْنَاكَ حتى تَسْفَحَ الأودية دمًا ليحضروا مِجَادَهُمْ غَدًا مجمع العرب ، فعرف النعمان الغضب فى وجهه ، فأرسل إلى سَعْد بن حَارِثَةَ وأصحابه أن انظروا ابن عمكم حاتمـا فأرضوه فمـا أنا بالذى أعطيكم مالى تُبَدِّدُونه ، وما أطيق بنى حَيَّةَ ، فخرج بنو لأم إلى حاتم فأرضوه ونزلوا عن مُمَاجَدَتِهِ ، وكانوا قد وضعوا عشرة أفراس رهناً فنحرها حاتم وأطعمها مَن بسوق الحيرة من العرب ، وكان حاتم مُصَارِمًا لابن عم له يُسَمَّى وَهْماً فأتاه يستعين به فوجد عنده أكثر ممـا كان يؤمل فقال فيه ، وابن قتيبة يستحسن هذه الأبيات :

أَلا أَبْلِغَا وَهْمَ بْنَ عَمْرٍو رِسَالَةً   فَإِنَّك أنتَ المرْء بِالْخَيْرِ أَجْدَرُ
رأيتك أدنى من أناس قرابة   وغيرك منهم كنت أحبو وأنصر
إذا ما أتى يوم يفرق بيننا   بموت فكن يا وهم ذو يتأخر

وفادة أَبِى جُبَيْل وهو عبدُ قيس بن خُفَاف البرجمىّ فى حَمالاتِ قومه

قالوا إنه أتى حاتمـا فى دماء حملها عن قومه أسلموه فيها وعجز عن أدائها ، وكان شاعراً شريفاً ، فقال له : (إِنَّهُ كانَ بين قَوْمِى دِمَاء فتوَا كَلُوهَا وقد حَمَلْتُها وعَوَّلْتُ فى ذلك على مَالِى وآمالى ، فَأَمَّا مَالِى فقدَّمْتُه وكنتَ أكبرَ آمالى ، فإنْ تَحَمَّلْتَهَا فكم حَقٍّ قَضَيْتَ ، وَهَمٍّ كَفَيْتَ ، و إنْ حَالَ دونَ ذلك حَائِلٌ لم أذْمُمْ يوْمَكَ ولم أَيْأَسْ من غَدِكَ) .

ثم أنشده شعراً يمدحه فيه ويذكر آباءه وأجداده ، فقال له حاتم : إن كنتُ لَأُحِبُّ أن يأتِيَنِي مثلُك من قومك هذا مِرْبَاعِي من الغارة على بني تميم ، فان وفت الحمالة وإلا أكْمَلْتُهَا لك وهي مائتا بعير سوى نِيبِهَا وفِصَالِهَا ، فأخذها منه وانصرف راجعاً إلى قومه ، وفي ذلك يقول حاتم كلمته :

أَتَانِي الْبُرْجُمِيُّ أبو جُبَيْلٍ ... لِهَمٍّ في حَمَالَتِهِ طَوِيـــلِ

فقلتُ له خُذِ الْمِرْبَاعَ دَهْرًا ... فَإِنِّي لستُ أَرْضَى بالْقَلِيلِ

فَخُذْهَا إِنَّهَا مائتَا بَعِـــيرٍ ... سِوَى النَّابِ الرَّذِيَّةِ والْفَصِيلِ (١)

بِلاَ مَنٍّ عليك به فَإِنِّي ... رأيتُ المنَّ يُزْرِي بالجَزِيلِ

حديث امرأته النَّوار عن كرمه

قالت أصابَتْنَا سَنَةٌ اقْشعَرَّت لها الأرض ، واغبرَّت الآفاقُ ، وضَنَّت المراضع عن أولادها ، فما تَبِضُّ بقطرة ، وراحت الإبل حُدْبًا (٢) حَدَابِيرَ ، وَجَلَّفَتِ السنةُ المالَ ، وأيقنَّا أنَّه الهلاكُ ، فوالله إِنَّا لَفِي لَيْلَةٍ صِنَّبْرٍ ، بَعِيدَةِ ما بين الطرفين ، إذ تَضَاغَى أُصَيْبِيَتُنَا من الجوع ، عبدُ الله ، وعَدِيٌّ ، وَسَفَّانَةُ ، فقام حاتم إلى الصبيين ، وقمت إلى الصبية فوالله ما سكتوا إلا بعد هَدْأَةٍ من الليل ، وأقبل يُعَلِّلُنِي بالحديث ، فعلمتُ الذي يريد فتناوَمْتُ ، فلما تَغَوَّرَتِ النُّجُوم إذا شيء قد رفع كِسْرَ البيت ، فقال من هذا ؟ فقالت جارتك فلانة أَتَتْكَ من عند صِبْيَة يَتَعَاوَوْنَ عُوَاءَ الذِّئاب من الجوع ، فما وجدت

---

(١) الناب : المسنة من الإبل . الرذية : المريضة أو الضعيفة .

(٢) الحدب : جمع حدباء ، وهي التي تبدو حراقيفها من الهزال . الحدابير : جمع حدبار ، وهي الناقة التي ذهب سنامها . صنبر : بفتح النون وكسرها باردة وحارة ضدّ . تضاغوا : تصايحوا .

مُعَوَّلاً إلا عليك أبا عدىّ ، فقال أعجليهم ، فقد أشبعك الله و إياهم ، وأقبلت المرأة تحمل اثنين و يمشى جَنْبَتَيْهَا أربعةٌ كأنها نعامَةٌ حولها رِئَالُها ، فقام إلى فرسه فَوَجَأَ لَبَّتَهُ بِمُدْيَة ، ثم كَشَطَه ودفع المدية إلى المرأة ، فقال شأنَكِ الآن ، فاجتمعنا على اللحم ، ثم قال : سَوْأَةٌ لكم تأكلون دُونَ الصِّرْمِ (١) ، ثم أقبل يأتيهم بيتاً بيتاً ، وهو يقول : هُبُّوا أيها القوم عليكم بالنار ، ثم الْتَفَعَ ناحية بكسائه ينظر إلينا ، ولا والله مَا ذَاقَ منه مُضْغَةً ، و إنه لأَحْوَجُ إليه مِنَّا .

أسره فى عَنَزَة

قالوا إنه مرّ بديار العنزيين وفيهم أسير يعرفه ، فناداه باسمه ولم يحضره فِكَاكه ، فوضع نفسه فى القيد مكانه وأطلقه ، وبقى عندهم أسيراً حتى افتدى نفسه .

تعاقب الصاد والسين والزاى فى لغة طيء

قيل وجاءته نسوة من عنزة كُنَّ يُدَارِئْنَ بعيراً يَفْصِدْنَه ، فعجزن عنه فقلن أفاصده أنتَ إن أطْلَقْنَا إِحْدى يديك ؟ قال نعم ، فأطلقت إحدى يديه فوجأ لبته فاسْتَدْمَيْنَهُ ، (وذلك الدم الذى حرمه الإسلام ، وكانوا يفصدون الدابة ثم يشوون دمها بعد أن يجف) ، ثم إن البعير عضد أى لوى عنقه فخر ، فقلن ما صنعت ؟ قال هكذا فصادتى أو هكذا فزدى ، (وهى لغة طيء فى جعل الصاد زاياً ، إذ يقولون فى صقر زقر) ، فلطمته إحداهنّ فقال : ما أنتنّ نساء عنزة بكرام ولا ذوات أحلام ، وقيل إنه أسر مرة أخرى فى عنزة أيضاً .

من هجا حاتما من معاصريه

ولم يجترئ أحد من معاصريه على هجائه إلا يزيدُ بن كُنافَة : زعم أنه هرب من الحرب كالذى ركب ساقى نعامة ، وذكر صاحب الحماسة له أبياتاً أولها :

---

(١) الصرم : أهل الحىّ ، أو الجماعة من الناس .

لَعَمْرِى وَمَا عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ   لَبِئْسَ الفَتَى المَدْعُوُّ بِاللَّيْلِ حَاتِمُ

وفادته على النعمان مع أوس بن حارثة

ذكروا أن حَاتِمًا وَأَوْساً وَفَدَا على النُّعمان بن المُنْذِر بالحيرة ، فقال لإِيَاسِ ابن قَبِيصَةَ الغَوْثِىِّ ثم الطَّائِىِّ أَيُّهُمَا أفضلُ؟ قال : أَبَيْتَ اللَّعْنَ إنى من أحدهما ، ولكن سلهُمَا عن أنفسهما يُجِيبَانِك ، فدخل عليه أوسٌ فقال : أنت أفضل أم حاتم ؟ قال أبيتَ اللَّعْنَ لو كنتُ أَنَا وَوَلَدِى لحاتم لأَنْهَبَنَا فى غَدَاةٍ واحدة ، ثم دخل عليه حاتم ، فقال ياحاتم : أنت أفضل أم أوس ؟ فقال أبيت اللعن : لَشَرُّ أَوْسٍ خَيْرٌ مِنِّى ! قال فَنَفَّلَ كُلاًّ منهما مِائَةً من الإِبل .

هذه جملة ما عثرنا عليه من أخبار حاتم فى الكتب التى استعنا بها على وضع هذه الترجمة له ككتاب الأغانى ، وديوانه المطبوع فى أوربا جمع العالم المستشرق النمسى (فِريدريك شولْتِهَيْس) ، وكتابى ابن قتيبة وابن سَلاَّم ، وَخِزَانة الأدب لِلبَغْدَادى ، وشعراء النصرانية ، وَالمُوَشَّح للمَرْزُبانى ، ولسان العرب ، و بعض كتب أخرى فيها البيت والبيتان لحاتم .

و يرى المترجم أن موته كان فى السنة الثامنة من الهجرة ، وقد أعقب من الولد عَدِيًّا وَسَفَّانَة وقد أسْلَما .

سفَّانة وعدىّ

ذكر أبو الفرج عن رواته عن علىّ عليه السلام قال : يا سبحان الله . ما أزهَدَ كثيراً من الناس فى الخير عَجِبْتُ لرجل يَجِيئُهُ أخوه فى حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلا ، فلو كنا لا نرجو جَنَّة ، ولا نخاف ناراً ، ولا ننتظر ثواباً ،

ولا نخشى عقابا ، لكان ينبغى لنا أن نطلب مكارم الأخْلَاق ، فانها تدلّ على سبيل النجاة .

فقام إليه رجل فقال : بأبى أنت يا أمير المؤمنين أسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ، وما هو خير منه ؟ قال : لمَّا أُتِينَا بِسَبَايَا طَيٍّ كانت فى النساء جارية جَمَّاء[1] ، حوراء العينين ، لَعْسَاء ، لَمياء ، عَيْطَاء ، شَمَّاء الأنْفِ ، مُعْتَدِلة القامة ، رَدْماء الكعبين ، خَدَلَّجَة الساقين ، لفَّاء الفخذين ، خَمِيصَة الخَصر ، ضامرة الكَشْحَين ، مصقولة المَتْنَيْن ، فلما رأيتها أُعْجِبْتُ بها ، فقلت لأطلبنّ إلى رسول الله أن يجعلها فى فَيْئِى ، فلما تكَلَّمَتْ أُنْسِيتُ جمالها لما سمعت من فصاحة لسانها ، فقالت يا مُحَمَّد : هلك الوَالِدُ ، وَغَابَ الْوَافِدُ ، فَإِنْ رَأَيتَ أَن تُخَلِّيَ عَنِّى فلا تُشْمِتْ بى أحْياء العرب ، فَإِنِّى بنتُ سَيِّدِ قَوْمِى كان أبى يَفُكُّ الْعَانِى ، وَيَحْمِى الذِّمَار ، وَيَقْرِى الضَّيْفَ ، وَيَفرِجُ عنِ المَكْرُوب ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَيُفْشِى السَّلَامَ ، ولم يَرُدَّ طالبَ حاجة قطُّ ، أنا بنت حاتم طيٍّ ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جارية : هذه صفة المؤمن لو كان أبوك إسلاميًّا لترَحَّمْنا عليه ، خلوا عنها فان أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق ، والله يحبّ مكارم الأخلاق ، فأسلمت وحسن إسلامها .

وصف علىّ رضى الله عنه لسفانة

أما أخوها عدىّ فقد عاد بعد هربه فأسلم ، وقال : مادخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وسع لى فى المجلس أو تحرّك ، ولقد دخلت عليه مرة فى بيته ، وقد امتلأ بالناس فوسع لى حتى أجلسنى إلى جنبيه ، ودخل مرّة على عمر رضى الله عنه فقال له : أتعرفنى ؟ قال نعم ، وكيف لا ؟ وأوّلُ صدقةٍ ابيضّ لها

(١) الجماء : العظام الكثيرة اللحم . جارية لعساء : فى لونها أدنى سواد مشربة حمرة . لمياء : سمراء الشفتين . الخدلجة : الممتلئة الساقين مع استدارتهما . الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع .

وجه رسول الله صدقات طيئ أعرفك : آمَنْتَ إذ كَفَرُوا ، وَوَفَيْتَ إذ غَدَرُوا ، وقد نزل الكوفة ، وكان مع علىّ يوم الجمل ، وَفُقِئَتْ عينه يومئذ ، وشهد معه صِفِّين والنَّهْرَوان ، وهى ثلاث قرى بين واسط و بغداد ، ومات رحمه الله سنة ٦٧ من الهجرة .

منزلة حاتم الشعرية

أما ابن سلاَّم فلم يذكره مطلقاً ، وترجم له ابن قُتَيْبَةَ ولم يرتبه فى طبقة ، ونقل صاحب المُوَشَّح عن أبى سَعِيدٍ الأصْمَعِى أنه ذكر حاتما ، فقال إنه ممن يُكَرَّم ولم يقل إنه فحل ، ولم يزد جامع ديوانه ومترجمه العالم النمسى : (فريدريك شولتهيس) على ما كتبه أبو الفرج فى الأغانى إلا نتفاً صغيرة من بعض الكتب التى نقلت أخبار حاتم ، ولم يتعرّض لوصف شعره بأكثر مما ورد فى الأغانى من أنه كان جواداً يشبه جُودُه شِعْرَه ، وأنه كان معاصراً لِعُرْوَة بن الْوَرْد الْعَبْسِيّ ، وكان كحاتم فى أكثر ما أثر من صفاته حتى قال عَبْدُ المَلِكِ : من زَعَم أَنَّ حَاتِمًا أَسْمَحُ العرب فقد ظَلَمَ عُرْوَةَ بْنَ الْوَرْدِ ، وأن بعض أشعاره تروى لعروة ، ويضاف بعضها إلى غيره من شعراء الحماسة كما سيأتى .

وقد أسلفنا أن أبا عُبَيْدَة جعل الشعراء ثلاث طبقات : ووضع فى الثالثة منها عُرْوَة ، وَعَنْتَرَة مع الشَّمَّاخ والحُطَيْئة ، وَالمُرَقَّش الأكبر ، والنَّمِر بن تَوْلَب ، وَبِشْر بن أبى خَازِم ، وأكثر هؤلاء عند ابن سلام فى الطبقة السادسة والسابعة .

ونحن نميل إلى أن نجعل حاتما وعروة طبقة وحدها أو نلحقهما بشعراء

الطبقة السادسة على رأى ابن سلام فى أمثالهما . أما قول أكثر الرواة إنه كان جواداً يشبه جوده شعره فلا يطابق ما نقلناه عن الأصمعى وابن سلام وغيرهما .

وقد وردت هذه العبارة فى ديوانه كما يأتى : (وكان جواداً أنسى جوده شعره) ، ونحن نميل إلى القول بأن العبارة الأولى محرفة عن الثانية ، وذلك يطابق آراء أكثر الأئمة فى شعره ، وأن ما أحرزه من الشهرة إنما جاء من قبل غرائبه فى الجود والإيثار .

المعانى الشعرية فى أدب حاتم

أما شعره فأظهر أغراضه الدعاء إلى المعروف ، والتعرض للأخطار فى اكتساب المال ، وقلة الاصغاء لتأنيب العاذلات ، وذم الباخلين ، وتذكيرهم بتصرم الحياة وقلة انتفاعهم بالجمع بعد الممات .

وله مديح قليل وغزل أقل منه وسوف نعرض لشرح ذلك فيما نختاره من كلامه ، وهذه المعانى تتكرّر فى أكثر قصائده وقلما يزيد عليها أو ينقص منها ، ولبعض معاصريه مديح فيه ، وقد ضربه الشعراء فى العصور المتأخرة مثلا ، ومن ألطف ذلك قول حَبيبِ بن أَوْسٍ الطائى :

إقْدَامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حاتِمٍ   فى حِلْمِ أَحْنَفَ فى ذَكاءِ إيَاسِ

تحليل قصيدته الميمية

ونبدأ بقصيدته الميمية وقد استهلها بذكر الأطلال وأجمل فى تشبيه بقاياها بالخط فى الكتاب ، ثم تناول صاحبته فوصف جمال كفها ومعصمها ، وشبه صدرها بِفَاثُور اللُّجَيْن ، وهوالجام من الذّهب أوالفِضَّة ، وفصّل مَا تَتَزَيَّن به من الياقوت والشَّذْر المُنَظَّم ، وأنها مشرقة متوقدة كجمر الغضاحين تهفو به الريح ، وأنها تضىء البيت الظليل فى الليل إذا تبسمت ، ووصف تنعمها وتنقلها فوق الحشايا ، وترنُّم حَلْيها فى لفظ منسجم وأداء عربى ، وانتقل بعد ذلك إلى العاذلتين فنهاها عن التعرض له ، ومحاولة كفه عن مذهبه فى البذل ، وإيثار المعروف ، وأضاف إلى ذلك هذه الحكم العالية الباعثة على تمسك الحرّ بالعزة ،

ومغالاته فى الحرص على الكرامة مع تهوين شأن المال ، وإغراء النفوس على السخاء ، ببذله بما يذكره من الموت ، ومن قلة وفاء الوارثين وسوء خلافتهم للميت فيما يتركه لهم من الميراث . ثم نبه إلى مَا يَتَحَلَّى به الطامحون إلى السؤدد والمستحقون للرياسة فى التَّحَلُّم عن الأقارب ، والستر لعورات الكرام لاصطناعهم واحتساب المكرمة عليهم ، وفى الانتصار لأبن العم والولاء له ، وخرج إلى الترغيب فى ركوب الأهوال ، واعتساف ظلام الليل ، والتعيير لأهل الضعة من أصحاب الهمم الخاملة القانعين بدون العيش ، وختم مطافه بما جرت به عادة المتعرضين للغارات والحروب من ذكر السلاح والخيل قال :

أَتَعْرِفُ أَطلاَلاً ونُؤْيًا مُهَدَّمَا   كَخَطِّكَ فى رَقٍّ كِتَابًا مُنَمْنَمَا

ثم قال :

دِيَارُ الَّتِى قَامَتْ تُرِيك وقَدْ خَلَتْ   وأَقْوَتْ من الزُّوَّار كَفًّا ومِعْصَمَا

وصفه لحلى صاحبته

تَهَادَى عَلَيْهَا حَلْيُهَا ذَاتَ بَهْجَةٍ   وَكَشْحًا كَطَىِّ السَّابِرِيَّةِ أَهْضَمَا

ونحْرًا كَفَاثُورِ اللُّجَيْنِ يَزِينُه   تَوَقُّدُ يَاقُوتٍ وشَذْرًا مُنَظَّمَا

كَجَمْرِ الغَضَا هَبَّتْ له بعدَ هَجْعَةٍ   من اللَّيل أَرْوَاحُ الصَّبَا فَتَنَسَّمَا

يُضِيء لنا البيتُ الظَّلِيلُ خِصَاصُه   إذا هِىَ لَيْلاً حاوَلَتْ أَنْ تَبَسَّمَا

إذا انْقَلَبَتْ فوقَ الحَشِيَّة مرَّةً   تَرَنَّم وَسْوَاسُ الْحُلِىِّ تَرَنُّمَا

ثم ذكر العذل :

نهيه العاذلتين وتحدثه عن خصائصه فى الكرم

وعَاذِلَتَيْن هبَّتَا بعد هَجْعَةٍ   تَلُومَانِ مِتْلاَفًا مُفِيدًا مُلَوَّمَا

فقلتُ أَلاَ لاَ تَلُومَانِى على ما تَقَدَّمَا   كَفَى بِصُرُوفِ الدَّهرِ لِلْمَرْءِ مُحْكِمَا

فإِنَّكُمَا لاَ مَا مَضَى تُدْرِكَانه   ولَسْتُ على مَا فَاتَنِى مُتَنَدِّمَا

فَنَفْسَكَ أَكْرِمْهَا فإِنَّك إن تَهُنْ   عليْكَ فلن تَلْقَى لها الدَّهرَ مُكْرِمَا

أهِنْ لِلَّذِى تَهْوَى التِّلاَدُ فَإِنَّهُ ... إذا مِتَّ كان المَالُ نَهْبًا مُقَسَّمَا
قَليلاً به مَا يَحْمَدَنَّك وَارِثٌ ... إذا نَالَ مِمَّا كُنْتَ تَجْمعُ مَغْنَمَا
تَحَلَّمْ عن الأَدْنَيْنَ واسْتَبْقِ وُدَّهُم ... ولن تَسْتَطِيعَ الحِلْمَ حتَّى تَحَلَّمَا
وَعَوْرَاءَ قد أعْرَضْتُ عنها فلم تَضِرْ ... وَذِى أَوَدٍ قَوَّمتُه فتقَوَّمَا
وأغْفِرُ عوراءَ الكريمِ ادِّخَارَهُ ... وأُعْرِضُ عن شَتْمِ اللَّئيمِ تَكَرُّمَا
ولا أَخْذُلُ المولَى وإنْ كان خَاذِلاً ... ولا أَشْتُمُ ابنَ العَم إنْ كان مُفْحَمَا

ثم يقول :

ولَيْلٍ بَهِيمٍ قد تَسَرْبَلْتُ هَوْلَهُ ... إذا اللَّيلُ بالنِّكْسِ الضَّعيفِ تَجَهَّمَا
ولن يَكْسِبَ الصُّعْلوكُ حمداً ولا غِنًى ... إذا هُوَ لم يَرْكَبْ منَ الهَوْلِ مُعْظَمَا
ولم يَشْهَدِ الخَيْلَ المُغِيرَةَ بالضُّحى ... يُثِرْنَ عَجَاجًا بالسَّنَابِكَ أَقْتَمَا[1]
لَحَى اللهُ صُعْلُوكاً مُنَاهُ وَهَمُّه ... منَ العَيْشِ أن يَلْقَى لَبُوساً ومَطْعَمَا
ولله صُعْلُوكٌ يُسَاوِرُ هَمَّه ... ويَمْضِى عَلَى الأَحْدَاثِ والدَّهْرِ مُقْدِمَا
فَتًى طَلِبَاتٍ لا يَرَى الخَمْصَ تَرْحَةً ... ولا شَبْعَةً إنْ نَالَهَا نال مَغْنَما[2]
ترى رُمْحَه أو نَبْلَهُ وَمِجَنَّه ... وَذَا شُطَبٍ عَضْبَ الضَّرِيبَةِ مِخْذَمَا
وَأَحْنَاءَ سَرْجٍ فَاتِرٍ وَلِجَامَهُ ... عَتَادَ فَتَى هَيْجًا وَطِرْفًا مُسَوَّمَا[3]

وهذه أخرى يصف فيها نَجْدَته ونزاله لِقِرْنه يتعسفه برمحه ، وينتقل من ذلك إلى ذكر عفافه ، وحفاظه لسرّ جاراته ، وأنفته من الغدر فى تحصيل ماله وتقريره لاستعباد المال إذ كان غيره من الناس يتخذون الأموال أربابا ، ثم جعله مُوَزَّعاً بين مواطن الحقوق الواجبة من فكاك العانى وإبلاغ النفس إلى الطيبات مع التعريض بحرص الأشحاء والذم لِلْمُصَرِّدِين من أهل البخل الذين

---

(١) العجاج : الغبار الساطع . السنابك : جمع سنبك ، وهو مقدم طرف الحافر من الفرس . أقتم : أسود . (٢) الخمصة : الجوعة . (٣) الطرف : الفرس الكريم .

يحمدون نارهم على حين يشبها للمُصْطَلِين بها من عُفَاته قال :

هل الدَّهرُ إلاَّ اليومُ والأَمْسِ والغَدُ　　كذاكَ الزَّمانُ بينَنَا يَتَرَدَّدُ

و بعد أن ذكر نهاية الحياة وَنوّه بكرمه وقومه وفخر بانتسابه اليهم قال :

ومُعْتَسِفٍ بالرُّمح من دون صَحْبِه　　تَمَسَّفْتُه بالرُّمح والقومُ هُجَّدُ(١)

فخَرَّ على حُرِّ الجَبِينِ وذَادَه　　إلى الموتِ مَطْرُورُ الوَقيعةِ مِذْوَدُ(٢)

وأقسَمْتُ لا أمشِى إلَى سِرِّجارَةٍ　　يدَ الدَّهرِ ما دَامَ الحمامُ يغَرِّدُ

ولا أَشْتَرِى مَالاً بِغَدْرٍ عَلِمْتُهُ　　أَلاَ كُلُّ مَالٍ خَالَطَ الْغَدْرَ أَنْكَدُ

إذا كانَ بَعْضُ المَالِ رَبًّا لِأَهْلِهِ　　فَإِنِّى بِحَمْدِ اللهِ مَالِى مُعَبَّدُ

يُفَكُّ به العانى وَيُؤْكَلُ طَيِّبًا　　وَيُعْطَى إذا ضَنَّ الْبَخِيلُ الْمُصَرِّدُ(٣)

إذا مَا الْبَخِيلُ الخَبُّ أَخْمَدَ نَارَهُ　　أقولُ لمن يَصْلَى بنارِىَ أَوْقِدُوا

وقد كرّر معناه فى قوله إذا كان بعض المال ربًّا لأهله ، وهو من المعانى المعدودة له فى قصيدة دالية يتمثل الناس بكثير من أبياتها ، وهى قوله :

وعَاذِلَةٍ هبَّتْ بليْلٍ تلُومُنى　　وقد غابَ عَيُّوقُ الثُّرَيَّا فعَرَّدَا(٤)

تلُومُ على إعْطَائِىَ المَالَ ضِلَّةً　　إذا ضَنَّ بالمَال البخِيلُ وصَرَّدَا

تقولُ ألاَ أَمْسِكْ عليكَ فإنَّنى　　أرَى المَالَ عند المُمْسِكين مُعَبَّدا

ذَرِينِى ومَالِى إنَّ مَالَكِ وَافِرٌ　　وكلُّ امْرِئٍ جَارٍ على ما تعَوَّدا

ذرِينِى يَكُنْ مالى لعرْضِىَ جُنَّةً　　يَقِى المَالُ عِرْضِى قبلَ أنْ يَتبَدَّدَا

---

(١) التعسف : الأخذ بالشدة ومن غيرجهة . (٢) المطرور : المحدّد . المذود : اللسان ، والمعنى ذاده : أى دفعه إلى الموت لسانه . (٣) المصرّد من التصريد : وهو المنع أو التقليل . (٤) عرّد النجم : ارتفع ثم مال للغروب بعد ما تكبد السماء .

أَرِينِي جَوَاداً مات هُزْلاً لعلَّنِي ... أَرَى مَا تَرَيْنَ أو بَخِيلاً مُخَلَّدَا
وَإلاَّ فَكُفِّي بعضَ لومِك وَاجْعَلِي ... إلى رَأْيِ مَنْ تَلْحَيْنَ رأْيَكِ مُسْنَدَا
أَلم تَعْلَمِي أَنِّي إذا الضيْفُ لاَمَنِي ... وَعَزَّ القِرَى أَقْرِي السَّدِيفَ المُسَرْهَدَا(١)

حرصه على سلاحه وفرسه

وكان حاتم يحرص على سلاحه وفرسه ، ولا يذخر من ماله سواهما ، وهو قوله :

سَأَذْخَرُ من مالى دِلاَصاً وسَابِحاً ... وَأَسْمَرَ خَطِيًّا وَعَضْباً مُهَنَّدَا(٢)
فَذَلِكَ يَكْفِينِي من المَالِ كُلِّهِ ... مَصُوناً إذا ما كانَ عِنْدِيَ مُتْلَدَا

ومن جيد ما يروى له فى أدب الصحبة و إيثار الإخوان والترفع عن الدنية قوله ، و بعضها مما اختاره صاحب الحماسة فى باب الأدب (يقول شارح ديوانه إنه كان فى غزاة له فأصاب راحلة لبعض الملوك) :

ومَرْقَبَةٍ دونَ السَّماءِ علَوْتُها ... أُقَلِّبُ طَرْفِى فى فَضَاءِ سَبَاسِبِ(٣)
وما أنَا بِالمَاشِى إلى بَيْتِ جَارَتِى ... طُرُوقاً أُحَيِّيها كَآخَرَ جَانِبِ
ولو شَهِدَتْنا بالمُرَاحِ لَأَيْقَنَتْ ... على ضُرِّنَا أَنَّا كِرَامُ الضَّرَائِبِ(٤)
عَشِيَّةَ قال ابنُ الذَّميمَةِ عَارِقٌ ... إِخَالُ رَئِيسَ القَوْمِ ليسَ بِآيِبِ

جميل مؤاساته لصاحبه

فَمَا أنا بالطَّاوِى حَقِيبَةَ رَحْلِها ... لِأَبْعَثَها خِفًّا وأَتْرُكَ صَاحِبِي
إذا كُنْتَ رَبًّا للقَلُوصِ فلا تَدَعْ ... رَفِيقَكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غيرَ رَاكِبِ(٥)
أَنِخْهَا فَأَرْدِفه فإِن حَمَلَتْكُما ... فذَاكَ وإنْ كَانَ العِقَابُ فعَاقِبِ
وما أَنَا بالسَّاعى بِفَضْلِ زِمَامِها ... لِتَشْرَبَ مَاءَ الحَوْضِ قَبْلَ الرَّكَائِبِ

---

(١) السديف : السنام . المسرهد : السمين المملوء بالشحم ، أوالسديف : شحم السنام .
(٢) الدلاص : الدرع . (٣) المرقبة : المرتفع .
(٤) المراح بضم أوله : اسم مكان كانت فيه وقعة لهم . (٥) القلوص : الناقة الشابة .

ولستُ إذا مَاأَحْدَثَ الدّهرُ نَكْبَةً بأَخْضَعَ وَلاَجٍ بيُوتَ الأَقَارِبِ
وشَرُّ الصّعاليكِ الّذِي هَمُّ نَفْسِهِ حَدِيثُ الغَوَانِي واتّبَاعُ المَآرِبِ

ولما عذلته مَاوِيّة على إتلافه وطلقته باغراء مالك بن عمه جزع حاتم من ذلك وذهب مع ولده عَدِيّ إلى جوف واد ، وقد غمّه عملها غمًّا شديداً ، فلما راجعته قال هذه القصيده يحتج بها على مسلكه فى الجود ، وهى من أجمل ا يُؤثر عنه ومطلعها :

أَمَاوِيَّ إن يُصْبِحْ صَدَاىَ بِقَفْرَةٍ منَ الأَرْضِ لا مَاءٌ لَدَىَّ ولا خَمْرُ
تَرَى أنَّ ما أنْفَقْتُ لم يَكُ ضَرَّنِى وأنَّ يدِى مِمَّا بَخِلْتُ به صِفْرُ
أَمَاوِيَّ إنِّى رُبَّ وَاحِدِ أُمِّه أَجَرْتُ فلا قَتْلٌ عليه ولا أَسْرُ
وقد عَلِمَ الأَقْوامُ لو أنَّ حاتمًا أرادَ ثَراءَ المَالِ كان لهُ وَفْرُ
وأَنِّىَ لا آلُو بمالٍ صَنِيعَةً فأوَّلُه ذِكرٌ وآخِرُه ذُخْرُ
وما ضَرَّ جاراً يا ابنة القوم فاعْلَمِى يُجَاوِرُنِى أَلاَّ يَكُونَ له سِتْرُ
بِعَيْنَىَ عن جَارَاتِ قَوْمِيَ غَفْلَةٌ وفى السَّمْعِ مِنِّى عن حَدِيثِهِمُ وَقْرُ
بَلَوْنَا صُرُوفَ الدَّهرِ لِيناً وغِلْظَةً وكُلاًّ سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِما الدَّهْرُ
فَما زَادَنَا بَأْواً على ذِى قَرَابَةٍ غِنَانَا ولا أَزْرَى بأَحْسَابِنَا الفَقْرُ(1)

وهذه قصيدة يصف فيها نجدته وما يبلغ به كرمه من الإحسان إلى أسراه ، وأنه يخلطهن بكرائم نسوته ، فيلدن الأبطال الذين يخوضون غمرات الحروب ، وقد تروى لغيره قال :

وَمَا أَنْكَحُونَا طَائِعِينَ بَنَاتِهِمْ ولكِنْ خَطَبْنَاهَا بأسْيَافِنَا قَسْرَا
فَمَا زَادَهَا فِينَا السِّبَاءُ مَذَلَّةً وَلاَ كُلِّفَتْ خُبْزاً وَلاَطَبَخَتْ قِدْرَا

(1) البأو : التكبر والتعاظم .

أمهات الأولاد في شعره

وَلٰكِنْ خَلَطْناها بِخَيْرِ نِسائنا ... فَجاءَتْ بِهِمْ بِيضاً وُجُوهُهُمُ زُهْرَا
وَكَائِنْ ترى فينا مِنَ ٱبْنِ سَبِيَّةٍ ... إذَا لَقِيَ الأبْطالَ يَطْعَنُهُمْ شَزْرَا[1]
وَيَأْخذُ رَايَاتِ الطِّعَانِ بِكَفِّهِ ... فَيُورِدُها بِيضاً وَيُصْدِرُها حُمْرَا
كَرِيمٌ إذا ٱعْتَزَّ اللَّئِيمُ تَخَالُه ... إذا ماسَرَى ليلَ الدُّجى قَمَرًا بَدْرَا

وفى ديوانه القصيدة الآتية ، وهى تمثل حالة من عادات البادية فى سير الليل وطروق الأحياء ، والاستشراف إلى النيران والاهتداء بنوابح الكلاب ، وصاحب الحماسة يرويها لرجل لم يسمه قال :

وَدَاعٍ دعا بعدَ الهُدُوِّ كأنَّما ... يُقَاتِلُ أَهْوَالَ السُّرَى وَتُقَاتِلُهْ
دَعَا يَائِسًا شِبْهَ الجُنُونِ وَما بِهِ ... جُنُونٌ وَلٰكِنْ كَيْدُ أَمْرٍ يُحَاوِلُهْ
فلما سَمِعْتُ الصَّوْتَ أَقْبَلْتُ نحوَه ... بِصَوْتِ كَرِيمِ الجَدِّ حُلْوٍ شَمائِلُهْ
فأَوْقَدْتُ نارى كَىْ لِيُبْصِرَ ضَوْءَها ... وَأَخرَجْتُ كَلْبِي وَهُوفى البَيْتِ دَاخِلُهْ
فلما رآنى كَبَّرَ اللهَ وَحْــــدَهُ ... وَبَشَّرَ قَلْبًا كانَ جَمًّا بَلاَبِلُهْ
فَقُلْتُ له أَهْلاً وسَهْلاً ومرْحَبًا ... رَشِدْتَ ولم أَقْعُدْ إليه أُسَائِلُهْ
وقُمْتُ إلى بَرْكٍ هِجَانٍ أُعِدُّه ... لِوَجْبَةِ حَقٍّ نَازِلٍ أنا فَاعِلُهْ
بِأَبْيَضَ خَطت نَعْلُه حَيْثُ أَدْرَكَتْ ... من الأَرْضِ لم تَخْطَلْ عَلَىَّ حَمَائِلُهْ
فجَالَ قَلِيلاً واتَّقَانِي بِخَيْرِه ... سَنَامًا وأَمْلاَهُ من النِّىِّ كَاهِلُهْ
فَخَرَّ وَظِيفُ القَرْمِ فى نِصْفِ سَاقِه ... وذَاكَ عِقَالٌ لا يُنَشَّــطُ عَاقِلُهْ
بذٰلِكَ أَوْصَانِى أَبِى وَ بِمِثْــله ... كَذٰلِكَ أَوْصَاهُ قَدِيمًا أَوَائِلُهْ

وقد أشرنا من قبل إلى أنه كان قليل المديح ، ولم نعثر له على كلام فيه مديح إلا قصيدة قالها لبعض ملوك غسان فى أسرى من قومه ، فلما سمعها وهبهم له وقد جاء فيها قوله :

---

(١) الشزر : الطعن والإصابة بالعين .

مديحه لبعض ملوك غسان

أُرَجِّى فَوَاضِلَ ذِى بَهْجَة من النَّاسِ يَجْمَعُ حَزْمًا وجُودَا
نَمَتْهُ أُمَامَــــةُ والحَارِثَا نِ حتَّى تَمَهَّل سَبْقًا جَدِيدَا
كَسَبْقِ الجَوادِ غَدَاةَ الرِّهَا نِ أَرْبَى على السِّنِّ شَأْواً مَدِيدَا
فأَجْمِعْ فِدَاءٌ لك الوَالِدَا نِ لِمَا كُنْتَ فِينَا بِخَيْرٍ مُرِيدَا
وَأَحْسِنْ فلا عَارَ فِيماَ صَنَعْــتَ تُحْيِي جُدُوداً وتُبْرِى جُدُودَا

أما مدح معاصريه له ، فمن أحسنه قول أبى العُرْيَان الطائى :

مــدح معاصريه له

إِنّى إلَى حَاتِمٍ رَحَلْتُ ولم يُدْعَ إلى العُرْفِ مِثْلَه أَحَدُ
الوَاعِدُ الوَعْــدَ والمُوَفِّى به إِذْ لا يَفِي مَعْشَرٌ بمـا وَعَدُوا
والوَاهِبُ الخَيْلَ والوَلائِدَ والرَّبْــرَبَ فيها الأَوَانِسُ الخُرُدُ
يَرْفُلْنَ فى الرِّيْطِ والمُرُوطِ كَمَا تَمْشِى نِعَاجُ الخَمِيلَةِ المُيُدُ
لا يَسْتَطِيعُ الأُلَى تُصَادِ لَهُمْ جَرْيَك فى مَأْقِطٍ ولو جَهِدُوا
كَفَّاكَ أَمَّا يَدٌ فَمُتْرَعَــةٌ للنَّاس غَيْثًا تُفِيضُهُ وَيَدُ
سَــقَّاءَةٌ لِلسِّمامِ يَمْنَعُهَا من كُلِّ ضَيْمٍ يُسَامُه العُبُدُ
لا يَخْلِطُ الخَدْعَ ما تَقُولُ وَلاَ يُدْرِكُ شَيْئاً فَعَلْتَهُ الحَسَدُ

ولحاتم قصائد أخرى لا تختلف فى معانيها وأغراضها عما ذكرناه ، وله غير ذلك كلام من البيتين والثلاثة .

وقد اكتفينا بما ذكرنا منه وفى ديوانه الأبيات الآتية :

أَيَا ابْنَةَ عَبْدِ اللهِ وَابْنَةَ مالكٍ وَيَا ابْنَةَ ذِى البُرْدَيْنِ وَالفَرَسِ الوَرْدِ
إِذَا ما صَنَعْتِ الزَّادَ فالْتَمِسِى لَهُ أَكِيلاً فإنِّى لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدِى
أَخًا طَارِقًا أَوْ جار بَيْتٍ فَإِنَّنِى أَخَافُ مَذَمَّاتِ الأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِى
وَإِنِّى لَعَبْدُ الضَّيْفِ ما دَامَ ثَاوِيًا وَما فِىَّ إلاَّ تِلْكَ من شِيمَةِ العَبْدِ

ونسبها صاحب الأغانى لقَيْس بن عَاصِم المِنْقَرِىّ ، وقد تزوج نَفُوسَةَ بنت زَيْدِ الفوَارس الضَّبِّيَّة ، فلما كان فى الليلة الثانية أتته بطعامه ، فقال لها : وأين أكيلى ؟ فلم تفهم ما أراد ، فأنشد الأبيات السابقة ، وعندنا أنها أشبه بحاتم وبماوية ، ونسب صاحب الحماسة البيتين :

سَلِى الطَّارِق المُعْتَرَّ يا أُمَّ مَالِكٍ   إذا مَا أَتَانِى بَيْنَ قِدْرِى وَمَجْزَرِى

أَيُسْفِرُ وَجْهِى إِنَّهُ أَوَّلُ القِرَى   وَأَبْذُلُ مَعْرُوفِى له دُونَ مُنْكَرِى

لعروة بن الورد ، ونحب أن نختم هذه الترجمة ببعض ماعرف له من المعانى الحسنة . وبالأبيات التى استشهد بها العلماء من شعره ، فمن ذلك قوله :

بين حاتم وأبى الطيب

فَقُلْتُ دَعِينِى إِنَّمَا تِلْكَ عَادَةٌ   لِكُلِّ كَرِيمٍ عَادَةٌ يَسْتَعِيدُها

وهو أصل قول الطيب :

لِكُلِّ امْرِئٍ من دَهْرِهِ ما تَعَوَّدَا   وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فى العِدَا

وقوله :

وَمن يَبتدِع ما لَيْسَ من خِيمِ نَفْسِهِ   يَدَعْهُ وَيَغْلِبْه على النَّفْسِ خِيمُها

وقد قال : ذُو الإِصْبَعِ العَدْوَانى :

حاتم وذو الاصبع

كُلُّ امْرِئٍ صائِرٌ يَوْماً لِشِيمَتِه   وإِنْ تَخَلَّق أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ

وعنهما أخذ سَالِمُ بنُ وَابِصَةَ الشاعر الأموى قوله :

دَعِ التَّخَلُّق يَبْعُدْ عنك أَوَّلُه   إِنَّ التَّخَلُّق يَأْتِى دُونَه الخُلُقُ

ويؤخذ من قوله :

سِلَاحُكَ مَرْقِىٌّ فلا أَنْتَ ضَائِرٌ   عَدُوًّا ولكِنْ وَجْهَ مَوْلَاكَ تَقْطِفُ

أنّ من عاداتهم فى الجاهلية هذه الرُّقْيَةَ لِلْأَسلحة ، فلاتقطع ولا تؤثر ، وهى من خرافات الأمم القديمة ، ومن أجمل معانيه فى العفة والحفظ للجارة قوله :

رُبَّ بَيْضَاءَ فَرْعُها يَتَثَنَّى قد دَعَتْنِي لوصْلِها فَأَبَيْتُ
لم يَكُنْ بِي تَحَرُّجٌ غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ خِدْناً لِبَعْلِها فاسْتَحَيْتُ

ومن ذلك جوده ببعض أطرافه وهو ما لم يقله غيره فى بيتيه الآتيين :

جوده ببعض أطرافه

قُدُورِى بِصَحْرَاء مَنْصُوبَةٌ وَلاَ يَنْبَحُ الـكَلْبُ أَضْيَافِيَهْ
وَإِنْ لَمْ أَجِدْ لِنَزِيلِي قِرًى قَطَعْتُ له بَعْضَ أَطْرَافِيَهْ

وكانت قدوره من نحاس عظاما لا تزول عن الأَثَافِيِّ ، واسم إحداها ثُفَال والأخرى مُشْبِعَة ، والثالثة رَبِلَة ، والرابعة هَوَاء .

وقوله :

فَلَوْ كَانَ مايُعْطِي رِيَاءً لأَمْسَكَتْ به جَنَبَاتُ اللُّؤمِ يَجْذِبْنَهُ جَذْبَا
وَلٰـكِنَّمَا يَبْغِي به اللهَ وَحْدَهُ فأعْطِ فَقَدْ أَرْبَحْتَ فى الْبَيْعةِ الْـكَسْبَا

وهو من أجود معانيه ومشبه للتصورات الإسلامية ، ويمكن أن يجعل دليلا لترجيح القول بإدراكه السنة الثانية من الهجرة .

ويستشهد العروضيون بقوله :

وَالخَالِطِينَ نَحِيتَهُم بِنُضَارِهم وَذَوِى الْغِنَى مِنْهُمْ بِذِى الفَقْرِ

على ورود العروضة الحَذَّاء ، وهى المحذوفة الوَتِد من متفاعلن كاملة .

وهذا البيت من قصيدة يمدح بها بنى بَدْرٍ الْفَزَارِيِّين ، وكان نزل بهم أيام اُحْتَرَبَتِ الْغَوْثُ وَجَدِيلَة فى حرب الْفَسَادِ ، وفى أولها شاهد على النعت باسم الإشارة فى قوله :

إِنْ كُنْتِ كَارِهَةً مَعِيشَتَنَا هَاتَا فَحُلِّى فى بَنِي بَدْرِ

والشاهد فيه الوصف بهاتا .

واستشهد ابن هشام فى المغنى بقوله :

أُقَصِّرُ كَفِّي أنْ تنَالَ أكُفَّهُمْ إذا نَحْنُ أهْوَيْنَا وَحَاجَاتُنَا مَعَا

على وقوع الحال موقع الخبر فى غير بابه .

و بقوله :

وَإِنَّكَ مَهْمَا تُعْطِ بَطْنَكَ سُؤْلَه وَفَرْجَكَ نَالَا مُنْتَهَى الذَّمِّ أجْمَعَا

على استعمال مهما للزمان .

وفيه وفى الخزانة قوله :

قَلِيلاً بِهِ مَا يَحْمَدَنَّك وَارِثٌ إذا نَالَ مِمَّا كُنْتَ تَجْمَعُ مَغْنَمَا

شاهد على جواز توكيد الفعل بعد ما الزائدة .

ومن ذلك أيضاً قوله :

فَأَبْرَزْتُ نَارِى كَيْ لِيُبْصِرَ ضَوْءَهَا وَأَخْرَجْتُ كَلْبِي وَهْوَ فى الْبَيْتِ دَاخِلُهْ

وفيه الجمع بين كى ولام التعليل ، و يروى هذا البيت : فأبرزت نارى ثم أثقبت ضوءها : و إذا فلا شاهد فيه والله أعلم .



عنــــترة

نشأته

فى أواخر القرن السادس الميلادى نشأ عنترة كما ينشأ أمثاله من الْهُجَنَاء طريداً بين الرُّعاة والعبيد ، وكانت أمه زَبِيبَةُ أَمَةً حبشية سباَهَا أبوه واُسْتَوْلَدَها إياه، وكان لها ولد من غيره ، وبقى عنترة حتى اشتدّ واستوى وهوغير معترف به ، فأغار بعض أحياء العرب على بنى عَبْسٍ فأصابوا منهم واستاقوا إبلا ، فتبعهم العبسيون وفيهم عنتره يومئذ ، فقال له أبوه : « كُرَّ يا عَنْتَرَةُ » ، فقال عنترة : « العبد لا يُحْسِنُ الكَرَّ إنما يُحْسِنُ الحِلاَبَ وَالصَّر(١) » فقال له أبوه : « كُرَّ وأنت حرّ » ، فقاتل يومئذ قتالا حسناً واستنقذ الإبل من الأعداء ، فاعترف به أبوه يومئذ وألحق به نسبه . قال الإمام ابن قتيبة : « وهو أحد أغْرِبَةِ العرب وهم ثلاثة : عَنْتَرَة وَأُمُّهُ زَبِيبَة سوداء ، وَخُفَافُ بن عُمَيْر الشَّرِيدىُّ من بنى سُلَيْم وَأُمُّه نَدْبَةُ وإليها ينْسَب وكانت سوداء ، والسُّلَيْكُ بن عُمَيْر السَّعْدِىُّ وَأُمُّه سُلَكَةُ وإليها يُنْسَبُ وكانت سوداء » ، وكان عنترة من أشدّ أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يده ، وكان لا يقول من الشعر إلاّ البيتين والثلاثة حتى سابّه رجل من بنى عبس فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وَعيَّرَه بذلك وبأنه لايقول الشعر ، فقال له عنترة : «والله إن الناس ليترافدون(٢) بالطُّعْمة فما حضرتُ مَرْفِدًا للناس أنت ولا أبوك ولا جدُّك قطُّ وإن الناس لِيُدْعَوْن فى الغارات فَيُعْرَفون بِتَسْوِيمِهِم ، فما رأيناك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قطُّ وإن اللَّبْسَ ليكون بيننا فما حضرتَ أنت ولا أبوك ولا جدُّك خُطَّة فَيْصَل ، وَإنى لأحتضر البأس ، وأُوَفِّى المَغْنَمَ ، وَأَعِفُّ عن المَسْأَلَةِ ، وَأَجُودُ بما ملكت

أغربة العرب

ردّ عنترة على رجل سابه وعيره سواده

---

(١) الصر : ربط الضرع بخيط يشدّ عليه . (٢) الترافد : تكارم الناس وتعاونهم .

يدى ، وَأَفْصِلُ الخُطَّةَ الصَّمْعَاءَ[1] ، وأما الشعر فستعلم » ، فكان أوَّل ما قال قصيدة ـ هل غادَرَ الشُّعَرَاء من مُتَرَدَّم . قال ابن قتيبة أيضاً ، وهى أجود شعره وكانوا يسمونها المذهبة .

فروسيته وبلاؤه فى حروب قومه

ولا شك أن حياة عنترة تمثل شطراً من تاريخ الحماسة العربية فقد شهد مع قومه حروب داحسٍ والغَبْراء ، فَحَسُنَ فيها بلاؤه ، وَحُمِدَتْ مشاهِدُه ، وكان يجمع إلى نجدته و بأسه كثيراً من صفات الحزم والحكمة حتى قيل له ذات يوم : « أنت أشجع العرب وأشدها ؟ » قال « لا » ، قيل « فبماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ » قال : « كنت أُقْدِمُ إذا رأيت الإقْدَام عَزْمًا ، وَأُحْجِمُ إذا رأيتُ الإِحْجَامَ حَزْمًا ، وما دخلتُ موضعاً إلا قَدَّرْتُ لنفسى الخروجَ منه ، وكنت أَعْتَمِدُ الجبانَ الضعيفَ بالضربة الهائلة يَطِيرُ لها قلبُ الشجاع فَأَنْثَنِي عليه فأقتله » .

سؤال عمر للحطيئة

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للحطيئة : « كيف كنتم فى حربكم ؟ » قال : « كنا ألفَ فارس حازِم » قال : « وكيف يكون ذلك ؟ » قال : « كان فينا قَيْسُ بن زُهَيْر وكان حازماً فكنا لا نعصيه وكان فارسَنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ، وَنُحْجِم إذا أحْجَم ، وكان فينا الرَّبيعُ بن زِيَاد ، وكان ذا رأى فكنا نستشيره ولا نخالفه ، وكان فينا عُرْوة بن الْوَرْد ، فكنا نَأْتَمُّ بشعره فكنا كما وصفت لك » ، فقال عمر : « صدقت » .

وقد استطارت شهرة عنترة فى الآفاق بوضع قصته المعروفة .

قصة عنترة

وقد اُخْتُلِفَ فى واضعها ، و بعضهم يستظهر أنها وضِعَت فى أزمان مختلفة قيل : « وكان من عادة المسلمين فى صدر الإسلام أن يستنهضوا همم الجند بتلاوة أخبار الشجعان من فُرسانهم فى الجاهلية ، وقد حدث من ذلك شىء أيام الحجاج سنة سبع وسبعين للهجرة » ذكر ابن الأثير : « أن عَتَّاب بن ورقاء

(١) الصمعاء : الماضية القوية .

وكان يحارب شبيباً الخارجى سار فى أصحابه يحرضهم على القتال قبل المعركة بما يقصه عليهم من أشعار عنترة وغيره ، وما زالوا يروونها ويتزايدون فيها وفيما يضيفونه إليها من أخبار عنترة وأعاجيبه حتى انتهى ذلك بوضع هذه الرواية أو القصة الطويلة على يد أحد العلماء المصريين فى زمن العزيز بالله الفاطمى » ، ففى القرن الرابع الهجرى حدثت ريبة فى دار العزيز لَهِجَ بها الناس فى المنازل والأسواق حتى ساءه ذلك وَعظُم عنده ، فأشار إلى رجل من المتصلين ببابه يُدْعَى الشيخ يوسف بن إسماعيل أن يُلْهِيَ الناس بما يَشْغَلُهم عن الكلام فى شأن هذه الريبة ، وكان واسع الرواية ، كثير النوادر ، عارفاً بأخبار العرب ، فأخذ يكتب قصة عنترة ويذيعها فى الناس ، فأعجبوا بها ، وشُغِلوا عن كلّ شىء سواها ، وقد تلطف فى الحيلة ، فوضع فى آخر كلّ جزء وصفاً شاملا لمعركة حامية ، ثم يقطع الكلام قبل النهاية الفاصلة ، فيشتدّ شغف القارئ بمتابعة القراءة فى الجزء الثانى ليعلم مصير المعركة ، وهكذا فى بقية الأجزاء .

فائدة هذه القصة

وهذه القصة مع اشتمالها على كثير من الأكاذيب والمبالغات المفرطة ، والأشعار الركيكة تُعَدّ من الأسباب القوية فى حفظ اللهجة العربية العامية ، بل اللغة الصحيحة إلى حدّ غير بعيد فى الوقت الذى طغت فيه اللهجات الأعجمية وخاصة التركية فى العصور المتأخرة على اللغة العربية ولمدينة القاهرة وحواضرها وقراها الكبيرة نصيب من ذلك غير قليل ، فقد سهرت لياليها ، وحَفِلت مناظرها ومجالس مشاربها بأولئك القصاصين الذين كان عتادهم فى إلهاء الجمهور هذه القصة وأمثالها كقصة « الظاهر بيبرس » و « أبى زيد » و «ألف ليلة» وغيرها فعلِق بألسنة الناس من عباراتها وأشعارها وما وضع فيها من الحكايات والوقائع ما أبقى فى لهجاتهم هذه الصلة القوية بين لغاتهم الملحونة و بين أصولها من العربية الفصحى ، ولولا ذلك لبلغت هذه اللهجات من العجمة والرداءة مبلغ الرطانات البربرية التى لا تُفهم إلا بمشقة عظيمة .

موت عنترة

وقد اختُلف أيضاً فى سبب موت عنترة ، فروى ابن قُتَيْبَة عن أبى عُبَيْدَة قال : « إن عنترة بعد ما تَأَوَّتْ عبس إلى غَطَفَان بعد يوم جَبَلة احتاج وكان صاحب غارات فكَبِرَ فعجز عنها وكان له بَكْرٌ على رجل من غطفان فخرج قِبَلَهُ يَتَجَازَاهُ ، فهاجت رائحة من صَيِّفٍ[1] وهبت نافحة ، وهو بين شَرْج وناظرة فأصابت الشيخ فهرأته فوجدوه ميّتا بينهما » ، وقيل : « قتله وَزَر بن جابر النَّبْهانى غيلة » . قال ابن الكلبى : « وكان الذى قتله يلقب بالأسد الرهيص » ، وذكر أبو عمرو الشَّيْبَانى : « أنه غزا مع قومه طيئاً فخرّ عن فرسه ولم يقدر من الكبر أن يعود فيركب فدخل دَغَلاً[2] وأبصره ربيئة طَيِّئ فهابه أن يأسره فرماه فقتله » ، وفى شعراء النصرانية وغيره من الكتب أنه مات سنة ستمائة وخمس عشرة ميلادية .

شعره

يُعَد عنترة من شعراء المعلقات ، وأجود شعره المعروف للرواة هو طويلته التى تسمى بالمذهبة كما قدمنا ، وشعره يدور بين ثلاثة أغراض : الحماسة ، والافتخار بالغناء فى الحرب ، ووصف نزال الفُرسان ، وشىء من الغزل والشكوى والشوق إلى صاحبته وابنة عمه عَبْلَة ، ويُلِم ببعض المناقب الفاضلة يصف بها نفسه ويُكْثِر على الأخص من ذكر التنزه والعفة عن المحارم والحِفَاظ لِسَتْر الجارات ، وله فى ذلك الكلمة الفاخرة والبيت السائر ، وله ديوان شعر نقل أكثر ما فيه عن القصة ، ونحن نعتقد أن هذه الكثرة المضافة إليه منحولة باطلة لا تمثل بسالته ولا مجده ونُبْله ، وفيها من الركاكة والتصورات الحديثة ما يحقق

---

(١) الصيف : كطيب المطرة تجىء فى الصيف .
(٢) الدغل : الشجر الكثير الملتفّ .

أنها من أساطير القصاصين الذين تناسخوا هذه القصة وتداولوا تدوينها والزيادة فيها على مرور الأيام ، وسنجتهد أن نشير فى هذه الترجمة بشواهد من أشعاره إلى ما أثبتناه له من الأغراض إن شاء الله ، وقد جمع له صاحب العقد الثمين أشعاراً نقل عن الرواة أنها هى التى صحت لعنترة ، وهى نحو عشر قصائد منها طويلته المعلقة ومقطوعات أخرى من ثلاثة أبيات إلى ثمانية فى بعض الأحيان ، ونَبَّه على ما دُسّ فى شعره وإن كان لم ينصّ عليه كله ، وترجم له صاحب شعراء النصرانية ، وساق كلّ ما نُسِب إليه من الشعر ، ولم ينبه على صحيح ولا منحول .

المختار من شــــعره

ذكر أبو الفرج فى ترجمته فى الجزء السابع من كتابه : أن عبساً غزت بنى تميم وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت عبس ووقف عنترة للتميميين فصدهم ، وتلاحقت به فلول قومه ، فقال قيس بن زهير وكأنه ساءه ما صنع عنترة : « والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء » ، وكان قيس أكولا ، فقال عنترة يعرّض به من قصيدته التى أولها كما فى العقد الثمين :

« طال الثواء على رسوم المنزل » :

أَفَمِنْ بكاءِ حمامة فى أَيْكَة ... ذَرَفَتْ دموعك فوق ظهر المِحْمَلِ (١)
كالدر أو فِضَضِ الجُمان تقطعت ... منه عقائد سِلْكِهِ لم يُوْصَلِ (٢)
لَمَّا سمعت دعاء مُرَّة إذ دعا ... ودعاء عبس فى الوغَى وَمُحَلِّلِ
ناديت عبساً فاستجابوا بِالْقَنَا ... وبكلّ أبيض صارم لم يَنْحَلِ

(١) الأيكة : الشجر الملتفّ . المحمل كمنبر : علاقة السيف . (٢) الفضض : القطع ، جمع فضة .

حتى استباحوا آل عوف عَنْوَة   بالمَشْرَفِيّ وبالوَشِيج الذُّبَّل
أَنِى امْرُؤٌ من خير عبس منصبا   شطرى وأحمى سايرى بالْمُنْصُل
إن يَلْحَقُوا أَكْرُرْ وإن يَسْتَلْحِمُوا   أَشْدُدْ وإنْ يُلْفَوْا بضَنْكٍ أَنْزِلِ
حين النزول يكون غاية مثلنا   ويفر كلّ مضلّلٍ مُسْتَوْهَلِ
ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّه   حتى أنالَ بِهِ كَرِيمَ المَأْكَلِ
وإذا الكَتِيبَةُ أَحْجَمَتْ وتَلَاحَظَتْ   أُلْفِيتُ خيراً من مُعَمٍّ مُخْوَلِ (١)
والخيل تعلم والفوارس أننى   فَرَّقْتُ جَمْعَهُمُ بطعنَةِ فَيْصَلِ
إذ لا أُبادِرُ فى المَضِيق فَوَارِسِى   ولا أُوَكِّلُ بِالرَّعِيلِ الأوّلِ (٢)
ولقَدْ غَدَوْتُ أمام رايَة غالب   يوم الهياج وما غَدَوْتُ بأعزل
بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِى الحُتُوفَ كأننى   أصبحت عن غرض الحُتُوف بمَعْزِلِ
فأَجَبْتُهَا إنَّ المَنِيَّةَ مَنْهَلٌ   لَا بُدَّ أن أُسْقَى بِكَأْسِ المَنْهَلِ
فَاقْنَىْ حَيَاءَكِ لَا أَبَا لَكِ وَاعْلَمِى   أنّى امْرُؤٌ سَأَمُوتُ إن لم أُقْتَلِ (٣)
إن المنيــة لو تُمَثَّلُ مُثِّلَتْ   مِثلى إذا نزلوا بضَنْكِ المَنْزِلِ
والخيل ساهمة الوجوه كأنّما   تُسْقَى فَوَارِسُهَا نَقِيعَ الحَنْظَلِ
وإذا حَمَلْتُ عَلَى الكَرِيهَةِ لم أَقُلْ   بَعْدَ الكريهة ليتنى لم أفعل

وله أيضاً يذكر يوم الجفار وهو موضع وماء لتميم كانت به وقعة ، ويصف نفسه وقومه ويعرض صورة صادقة لزحفهم على العدوّ إذ يقول :

طَرِبْتَ وَهَاجَتْكَ الظِّبَاءُ السَّوَانِحُ   غَدَاةَ غَدَتْ مِنْهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

---

(١) وقوله : ألفيت خيراً من معمّ مخول : أى ذى عم وخال ، وهما كناية عن الشرف والنسب تعريض منه بقيس بن زهير كما قلناه ، قيل وسمع رسول الله بيته :

« ولقد أبيت على الطوى وأظله » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما وصف لى أعرابى فأحببت أن أراه إلا عنترة .

(٢) الرعيل : الجماعة من الخيل والناس . (٣) قنى الحياء : رضى ورمى لزمه ، ويريد نهيها عن عذله ، وأن تلزم الحياء من ذلك ، وبقية الكلام ظاهرة .

فَمَالَتْ بِيَ الأَهْوَاءُ حَتَّى كَأَنَّمَا ... بِزَنْدَيْنِ فِى جَوْفِى مِنَ الوَجْدِ قادِحُ
تَعَزَّيْتَ عَنْ ذِكْرَى سُهَيَّةَ حِقْبَةً ... فَبُحْ عَنْكَ مِنْهَا بِالَّذِى أَنْتَ بَائِحُ
أَعَاذِلَ كَمْ مِنْ يَوْمِ حَرْبٍ شَهِدْتُهُ ... لَهُ مَنْظَرٌ بَادِى النَّوَاجِذِ كَالِحُ
إِذَا شِئْتُ لاَقَانِى كَمِيٌّ مُدَجَّجٌ ... عَلَى أَعْوَجِىٍّ بِالطِّعَانِ مُسَامِحُ
نُزَاحِفُ زَحْفاً أو نُلاَقِى كَتِيبَةً ... تُطَاعِنُنَا أو يَذْعَرُ السَّرْحَ صَائِحُ
فَلَمَّا الْتَقَيْنَا بِالْجِفَارِ تَضَعْضَعُوا ... وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهِنَّ الْمَسَالِحُ(١)
وَسَارَتْ رِجَالٌ نَحْوَ أُخْرَى عَلَيْهِمُ الْـ ... ـحَدِيدُ كَمَا تَمْشِى الْجِمَالُ الدَّوَالِحُ(٢)
إِذَا مَا مَشَوْا فِى السَّابِغَاتِ حَسِبْتَهُمْ ... سُيُولاً وَقَدْ جَاشَتْ بِهِنَّ الأَبَاطِحُ
وَدُرْنَا كَمَا دَارَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرَّحَى ... وَدَارَتْ عَلَى هَامِ الرِّجَالِ الصَّفَائِحُ
بِهَاجِرَةٍ حَتَّى تَغَيَّبَ نُورُهَا ... وَأَقْبَلَ لَيْلٌ يَقْبِضُ الطَّرْفَ سَائِحُ
تَدَاعَى بَنُو عَبْسٍ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ ... حُسَامٍ يُزِيلُ الهَامَ وَالصَّفُّ جَانِحُ
وَكُلِّ رُدَيْنِىٍّ كَأَنَّ سِنَانَهُ ... شِهَابٌ بَدَى فى ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَاضِحُ
فَخَلَّوْا لَنَا عُوذَ النِّسَاءِ وَجَنَّبُوا ... عَبَادِيدَ مِنْهَا مُسْتَقِيمٌ وَجَامِحُ(٣)
وَكُلَّ كِعَابٍ خَدْلَةِ السَّاقِ فَخْمَةٍ ... لَهَا مَنْبِتٌ فى آلِ ضَبَّةَ طَامِحُ

وكانت بنو عَبْسٍ لمّا أخرجتهم حَنيفةُ من اليمامة أرادوا أن يأتوا بني تَغْلب ، فمرّوا بحيّ من كلب على ماء يقال له عُرَاعِر ، فطلبوا أن يسقوهم من الماء وأن يُوردُوه إبلهم . وَسَيِّدُهم يومئذ رجل من كلب يقال له مَسْعُود بن مُصار فأبوا وأرادوا سلبهم فقاتلوهم فقُتِلَ مسعود ، وصالحوهم على أن يشربوا من الماء ويعطوهم شيئاً فانكشفوا عنهم ، فقال عنترة :

---

(١) الجفار ككتاب : ماء لتميم كانت به وقعة . تضعضع : تحرّك وتفرّق وذلّ وجبن ، وصفوفهم زالت عن مواضعها . المسالح : جمع مسلحة ، وهى الثغر ، والقوم ذوو سلاح .

(٢) الدالح : الذى ينقبض خطوه لثقل حمله .

(٣) العباديد كالعبابيد بلا واحد من لفظهما : الفرق من الناس والخيل الذاهبون فى كل وجه .

أَلاَ هَلْ أَتَاهَا أَنَّ يَوْمَ عُرَاعِرٍ ... شَفَى سَقَماً لوْ كانَتِ النَّفْسُ تَشْتَفِى
فجِئنَا عَلَى عَمْيَاء مَا جَمَعُوا لَنَا ... بِأَرْعَنَ لاَ خَلٍّ وَلاَ مُتَكَشِّفِ (١)
تَمَارَوْا بِنَا إِذْ يَمْدُرُونَ حِيَاضَهُمْ ... عَلَى ظَهْرِ مَقْضِيٍّ مِنَ الأَمْرِ مُحْصَفِ (٢)
وَمَا نَذِرُوا حَتَّى غَشِينَا بُيُوتَهُمْ ... بِغَبْيَةِ مَوْتٍ مُسْبِلِ الوَدْقِ مُزْعِفِ (٣)
فَظِلْنَا نَكُرُّ المَشْرَفِيَّةَ فِيهِمُ ... وَخِرْصَانَ لَدْنِ السَّمْهَرِىِّ المُثَقَّفِ (٤)
عُلاَلَتُنَا فى يَوْمِ كلِّ كَرِيهَةٍ ... بِأَسْيَافِنَا وَالقَرْحُ لَمْ يَتَقَرَّفِ (٥)
أَبَيْنَا فَلاَ نُعْطِى السَّوَاء عَدُوَّنَا ... قِيَامًا بِأَعْضَادِ السَّرَاء المُعَطَّفِ (٦)
بِكُلِّ هَتُوفٍ عَجْسُهَا رَضَوِيَّةٍ ... وَسَهْمٍ كَسَيْرِ الحِمْيَرِىِّ المُؤَنَّفِ (٧)
فَإِنْ يَكُ عِزٌّ فى قُضَاعَةَ ثَابِتٌ ... فَإِنَّ لنَا بِرَحْرَحَانَ وَأَسْقُفِ
كَتَائِبَ شُهْبًا فوق كلِّ كَتِيبَةٍ ... لِوَاءٌ كَظِلِّ الطَّائِرِ المُتَصَرِّفُ

وكانت امرأة أبيه قد حرشت أباه عليه وزعمت أنه يراودها عن نفسها ، وكان ذلك قبل أن يدّعيه أبوه ، وبعد ما قاتل وجرب ، فأخذه أبوه فضربه فأكبّتْ عليه تستنقذه فكفّ عنه ، فلما رأت ما به من الجراحة بكت ، فقال عنترة فى ذلك :

---

(١) العمياء : الجهالة والغواية واللجاج فى الباطل ، ويقال قتله على عمياء : أى من غير ضغينة ولا عداوة . الأرعن : الجيش والجبل . الخلّ : الضعيف والمهزول والسمين أيضاً ضدّ . (٢) تماوروا : تجادلوا على مذهب الشك والريبة . مدر الحوض : خاس أو عاث فيه . المحصف : الصادق المحكم . (٣) ونذر بالشيء كفرح : علمه وحذر منه . والغبية : الدفعة من المطر . (٤) الخرصان : جمع خرص بالضم والكسر وهو الرمح .
(٥) ويقال تقرفت القرحة : إذا تقشرت . (٦) السراء : شجر تتخذ منه القسى .
(٧) العجس : مقبض القوس . الرضوية . المنسوبة إلى رضوى : الجبل المعروف بالمدينة ، ويقال نصل مؤنف كمعظم : أى محدد .

أمِنْ سُهَيَّةَ دَمْعُ العَيْنِ مَذْروف ... لَوْ أنَّ ذَا مِنْكِ قَبْلَ اليَوْمِ مَعْروفُ(١)
كَأنَّها يَوْمَ صَدَّتْ مَا تُكَلِّمُنِي ... ظَبْيٌ بِعُسْفَانَ سَاجِي الطَّرْفِ مَطْرُوفُ(٢)
تَجَلَّلَتْنِيَ أَنْ أَهْوَى الْعَصَى قَبْلِي ... كَأَنَّهَا صَنَمٌ يُعْتَادُ مَعْكُوفُ(٣)
المَالُ مَالُكُمُ والعَبْدُ عَبْدُكُمُ ... فَهَلْ عَذَابُكِ عَنِّي الْيَوْمَ مَصْرُوفُ
تَنْسَى بَلاَئِي إذا مَا غَارَةٌ لَقِحَتْ ... تَخْرُجُ مِنْهَا الطُّوَالاَتُ السَّرَاعِيفُ(٤)
يَخْرُجْنَ مِنْهَا وَقَدْ بُلَّتْ رَحَائِلُهَا ... بِالْمَاءِ يَرْكُضُهَا الْمُرْدُ الْغَطَارِيفُ(٥)
قَدْ أَطْعُنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلاَءَ عَنْ عُرُضٍ ... تَصْفَرُّ كَفُّ أَخِيهَا وَهُوَ مَنْزُوفُ

وله من قصيدة أخرى وهى من الكامل كأكثر شعره :

وكَتِيبةٍ لَبَّسْتُها بكتيبةٍ ... شهباء باسلةٍ يُخَانُ رَدَاها
خَرْسَاءَ ظَاهِرَةِ الأَدَاةِ كَأَنَّها ... نارٌ يُشَبُّ وَقودُها بِلَظَاها
وصَحَابةٍ شُمِّ الأُنوف بَعَثْتُهمْ ... ليلاً وقد مالَ الكَرى بِطُلاَها(٦)
وسَرَيْتُ فى وَعْثِ الظلام أَقُودُهَا ... حتى رأيْتُ الشمسَ زالَ ضُحَاها
وَلَقِيت فى قُبُلِ الْهَجِيرِ كَتيبةً ... فطعنتُ أولَ فارسٍ أُولاها
حتى رأيتُ الخيلَ بعد سوادِها ... حُمْرَ الجلودِ خُضِبْنَ من جرْحَاها
يَعْثُرْنَ فى نَقْعِ النجيعِ جَوَافِلاً ... وَيَطَأْنَ من حَمْيِ الوَغَى صَرْعَاها(٧)
فرجَعْتُ محموداً برأسِ عظيمِها ... وتركتُها جَزَراً لِمَنْ نَاوَاها

---

(١) مذروف : من ذرفت عينه ، أى دمعت دمعاً يكاد يكون متصلا .
(٢) الساجى : الساكن . (٣) تجللتنى معناه : ألقت نفسها علىّ . معكوف : أى يعكف عليه . (٤) الطوالات : الخيل . السراعيف : جمع سرعوف ، وهو من الخيل الطويل . (٥) الرحائل : السروج . الغطاريف : الكرام جمع غطريف ، وهو السيد الشريف السخىّ . (٦) الطلى بالضم : الأعناق جمع طلية أو طلاة بالضم أيضا .
(٧) النجيع : الدم الأسود .

ما أُسْتُمْتُ أُنْثَى نفسها فى موطِنٍ   حتى أُوَفِّىَ مهرَها مولاها

أغشَى فتاةَ الحى عندَ حليلِها   وإذا غزَا فى الجَيْشِ لا أغشاها

وأغضُّ طَرْفِى إن بَدَتْ لِى جارَتِى   حتى يُوارِى جَارتِى مَأْوَاها

إِنِّى أمروٌ سَمْحُ الخليقةِ ماجِدٌ   لاَ أُتبعُ النفسَ اللجوجَ هواها

وقال أيضاً من الوافر يصف إدراكه لامرأة خائفة كادت تُسْلِم نفسها ، فلما رأته أمِنَت ، وقيل قالها حين انهزمت عبس وردها عنترة ، فانتصرت على الفزاريين يوم الهباءة :

نَأَتْكَ رَقَاشِ إلاَّ عن لِمَامِ   وأَمْسَى حَبْلُها خَلَقَ الرِّمامِ

وما ذِكرى رقاشِ إذَا أستَقَرَّتْ   لَدَى الطَّرْفاءِ عندَ ابْنَىْ شَمامِ (١)

ومَسْكَنُ أهلِها من بطنِ جزعٍ   تَبِيضُ به مَصَايِيفُ الحَمامِ (٢)

ثم قال وفيها يذكر نسبه فى حام :

ومُرْقِصَةٍ رَدَدتُ الخيلَ عنها   وقد هَمَّتْ بِإلْقَاءِ الزِّمَامِ

فقلتُ لهـا اقصُرِى منه وسِيرِى   وقد قَرِعَ الخَرَائزُ بالخِدَامِ (٣)

أَكُرُّ عليهِمُ مهرِى كَلِيمًا   قَلاَئِدُهُ سَبَائِبُ كالقِرَامِ (٤)

كَأَنَّ دُفُوفَ مَرْجِعِ مَرْفِقَيْهِ   تَوَارَثَهَا مَنَازِيعُ السِّهَامِ (٥)

تَقَحَّسَ وهوَ مُضْطَمِرٌ مُضِرٌّ   بِقَارِحِهِ على فَأْسِ اللِّجامِ

يُقَدِّمُه فَتًى من خيرِ عبس   أبُوهُ وَأُمُّــهُ منْ آلِ حَامِ

---

(١) الطرفاء : شـــجر الأثل . شمام كسحاب : جبل ، والغرض وصفها بالبعد .

(٢) مصايف الحمام : جمع مصياف وهى التى معها أولادها . (٣) الخرائز : عقود من نبات مدور تنظم وتلبس . الخدام ككتاب : موضع الخلخال أو رباط السراويل من أسفل رجل المرأة . (٤) القرام : جليدة تقطع من أنف البعير توضع على خطامه ، وهى سمة له . (٥) الدفّ : الجانب والصف من كل شىء . منازيع السهام : هى القسى .

وقد أسلفنا من طوياته أبياتاً فى فنون الشعر وفى المعلقات ، ونذكر هنا بعض ما أغفلناه هناك من هذه القصيدة التى مطلعها المشهور :

هلْ غادرَ الشُّعَرَاء منْ مُتَرَدَّمِ ... أمْ هَلْ عَرَفتَ الدَّارَ بعد تَوَهُّمِ

يقول منها بعد إطالته فى وصف ناقته الشَّدَنية :

وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً ... تَمْكُو فَرِيصَتُهُ كَشِدْقِ الأَعْلَمِ (١)

سَبَقَتْ يَدَاىَ له بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ ... وَرَشَاشِ نَافِذَةٍ كَلَوْنِ الْعَنْدَمِ (٢)

هَلاَّ سَأَلْتِ الخَيْلَ يا ابْنَةَ مَالِكٍ ... إن كنتِ جَاهِلَةً بِمَا لم تَعْلَمِى

إذْ لا أَزالُ عَلَى رِحالَةِ سَابِحٍ ... نَهْدٍ تَعَاوَرُهُ الكُمَاةُ مُكَلَّمِ

طَوْراً يُجَرَّدُ لِلطِّعَانِ وَتَارَةً ... يَأْوِى إلى حَصَدِ القِسِىِّ عَرَمْرَمِ (٣)

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقِيعَةَ أننى ... أَغْشَى الوَغَى وَأَعِفُّ عند الْمَغْنَمِ

فَأَرَى مَغَانِمَ لَوْ أَشَاءُ حَوَيْتُهَا ... فَيَصُدُّنِى عنها الحَيَا وَتَكَرُّمِى

وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُمَاةُ نِزَالَه ... لا مُمْعِنٍ هرَبًا وَلا مُسْتَسْلِمِ

جَادَتْ لَهُ كَفِّى بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ ... بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكعُوبِ مُقَوَّمِ

بِرَحِيبَةِ الفَرْغَيْنِ يَهْدِى جَرْسُهَا ... بالليلِ مُعْتَسَّ الذئابِ الضُّرَّمِ (٤)

فَشَكَكْتُ بالرمحِ الأَصَمِّ ثيابَه ... ليس الكريمُ على القَنَا بِمُحَرَّمِ

فتركتهُ جَزَرَ السباعِ يَنُشْنَهُ ... يَقْضِمْنَ حُسْنَ بَنَانِهِ وَالْمِعْصَمِ

وَمِشَكِّ سابِغَةٍ هَتَكْتُ فُرُوجَها ... بالسيفِ عَنْ حَامِى الحقيقةِ مُعْلِمِ (٥)

---

(١) مجدّل : أى ملقى على الجندل . تمكو : تصوت . الفريصة : ودج العنق أو هى لحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترتعد . الأعلم : المشقوق الشفة .

(٢) العندم : دم الأخوين . (٣) الحصد بكسر الصاد : المحكم . العرمرم : الجيش الكثير . (٤) الفرغ : مخرج الماء الى الأودية ، والمراد برحيبة الفرغين : الطعنة الواسعة الجرح التى يسمع لها صوت . (٥) مشك سابغة : وصف للدرع .

رَبِذٍ يداهُ بِالقِدَاحِ إذا شَتَا ... هَتَّاكِ غَايَاتِ التِّجَارِ مُلَوَّمِ (١)
لَمَّا رآنِي قد نَزَلْتُ أُرِيدُهُ ... أبْدَى نَوَاجِذَهُ لغيرِ تَبَسُّمِ
فطَعَنْتُهُ بالرمح ثم عَلَوْتُهُ ... بمُهَنَّدٍ صَافِي الحَدِيدَةِ مِخْذَمِ (٢)
عَهْدِي به مَدَّ النهارِ كأنما ... خُضِبَ البَنَانُ وَرأْسُهُ بالْعِظْلِمِ (٣)
بَطَلٍ كأن ثيابَهُ في سَرْحَةٍ ... يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ ليس بتَوْأَمِ (٤)
يا شَاةَ ما قَنَصٍ لمن حَلَّتْ له ... حَرُمَتْ عليَّ وليتَها لم تَحْرُمِ (٥)
فبعثتُ جاريتي وقلتُ لها اذهبي ... فتَجَسَّسِي أخبارَها لِيَ وَاعْلَمِي
قالتْ رأيتُ من الأعادِي غِرَّةً ... والشَّاةُ مُمْكِنَةٌ لِمَنْ هوَ مُرْتَمِ
وكأنَّما التفَتَتْ بجِيدِ جَدَايَةٍ ... رَشَاءٍ منَ الغِزْلَانِ حُرٍّ أَرْثَمِ (٦)
نُبِّئْتُ عمراً غيرَ شاكِرِ نعمتي ... والكفرُ مَخْبَثَةٌ لنفسِ المُنْعِمِ
ولقد حَفِظْتُ وصاةَ عَمِّي بالضُّحَى ... إذْ تَقْلِصُ الشَّفَتَانِ عن وَضَحِ الفمِ
في حَوْمَةِ الحربِ التي لا تشتكي ... غَمَرَاتِها الأبطالُ غيرَ تَغَمْغُمِ (٧)

ثم يقول :

ولقد شَفَى نَفْسِي وأَذْهَبَ سُقْمَهَا ... قِيلُ الفَوَارِسِ وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ
والخيلُ تَقْتَحِمُ الخَبَارَ عوابساً ... من بين شَيْظَمَةٍ وأَجْرَدَ شَيْظَمِ (٨)
ذُلُلٌ رِكَابِي حيث شِئْتُ مُشَايِعِي ... لُبِّي وأَحْفِزُهُ بأمرٍ مُبْرَمِ (٩)

---

(١) الربذ : الخفيف السريع . الغايات : رايات الخمارين . يريد وصفه بأنه من كرام الناس وأشرافهم لخفة يده بقداح الميسر ونزوله على بيوت الخمارين وتعرضه للوم لكثرة كرمه وإنفاقه . (٢) المخذم : السريع القطع . (٣) العظلم : نبات يختضب به كالحناء . (٤) السرحة : الشجرة العظيمة . السبت : الجلد المدبوغ . التوأم : خلاف الفذ ، والمراد وصفه بالجهارة وعظم الخلقة . (٥) الشاة : كناية عن المرأة .

(٦) الجداية : ولد الظبية . الأرثم : الذى فى شفته العليا وأنفه بياض . كنى بتقلص الشفتين عن اشتداد الهول والحرب . (٧) التغمغم : صياح ولجب لا يفهم منه شيء .

(٨) الخبار : الأرض اللينة . الشيظم : الطويل من الخيل . (٩) الذلل : جمع ذلول ، وهو ضد الصعب . الركاب : الإبل لا واحد لها من لفظها أو هي جمع ركوب بفتح أولها .

ثم ختم هـذه الطويلة بتوعده لابنى ضمضم كما أسلفنا فى شرحنا المعلقات وقد أعجلنا الوقت عن الإطالة فى شرح هذه القصائد وتحليلها كما فعلنا فيما سبق من التراجم ، ولو حاولنا أن ننبه على جميع الأشعار المدسوسة على عنترة لطال علينا الكلام غير أننا نشير إلى بعض المطالع على سبيل المثال . فمن ذلك مطلع قصيدة مشهورة يتهدد بها النعمان بن المنذر :

لَا يَحْمِلُ الحِقدَ مَنْ تَعْـلُو بِهِ الرُّتَبُ   وَلَا يَنَالُ العُلَا مَنْ طَبْعُهُ الغَضَبُ

وقوله :

لِغَيْرِ العُلَا مِنى القِلَى والتَّجَنُّبُ   ولولا العُلَا ما كُنْتُ فِي العَيْشِ أرْغَبُ

وهذا المطلع بعينه للشريف الرضى وقوله :

أَحِنُّ إلى ضَربِ السيوف القَوَاضب   وأصْبُو إلى طعن الرماح اللواعب

وقوله :

إذا قَنِـعَ الفتى بذميم عيش   وكان وراء سَجْفٍ كالبنات

وقوله :

سَكَتُّ فَغَرَّ أعدائى السكوت   وظنونى لأهـــلى قد نسيت

وقوله :

أَشَاقَكَ من عَبْلَ الخيالُ المُبَرِّحُ   فقلبك فيـــه لاعج يتوهج

وقوله :

أُعاتب دهراً لا يلين لناصح   وأُخفى الجوى فى القلب والدمع فاضحِ

وله قوافٍ كثيرة غير هذه على بقية حروف المعجم كلها منحولة منها قوله :

رِيحَ الحِجَازِ بِحَقِّ مَنْ أَنْشَاكِ   رُدِّ السَّلَامَ وَحَيِّ مَنْ حَيَّاكِ

وقوله :

مَن لى بِرَدِّ الصِّبَا واللهو والغَزَلِ ... هيهات ما فات من أَيَّامِيَ الأُوَلِ

وقوله :

سَلِي يا بنةَ العمِّ رُمْحِي وصارمى ... وما فَعَلاَ فى يوم حرب الأعاجم

وقوله :

يا طائرَ البانِ قد هَيَّجْتَ أشْجَانِى ... وزِدْتَنِى طَرَبًا يَا طَائرَ البانِ

وظاهر أن هذه المطالع وما يتلوها من الشعر لا تشاكل أدب عنترة وفصاحته كما قدمنا ، وهو عنترة بن شداد ، وقيل ابن عمرو بن شداد ، وقيل ابن شداد بن عمرو بن معاوية ينتهى نسبه إلى عبس بن بغيض بن ريث بن غَطَفَان ، وهو معدود عند أكثر العلماء من شعراء الفُرسان ، ولم يرتبه كثير منهم فى طبقة ، والله أعلم .

بحمد الله تعالى تمّ طبع كتاب : «الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى» مصححاً بمعرفتى مع مراجعة المؤلف م

أحمد سعد على

أحد علماء الأزهر ورئيس لجنة التصحيح

[القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ رجب الفرد سنة ١٣٥٥ هـ .
الموافق ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٦ م] .

ملاحظ المطبعة ... مدير المطبعة

محمد أمين عمران ... رستم مصطفى الحلبى

فهـــرس